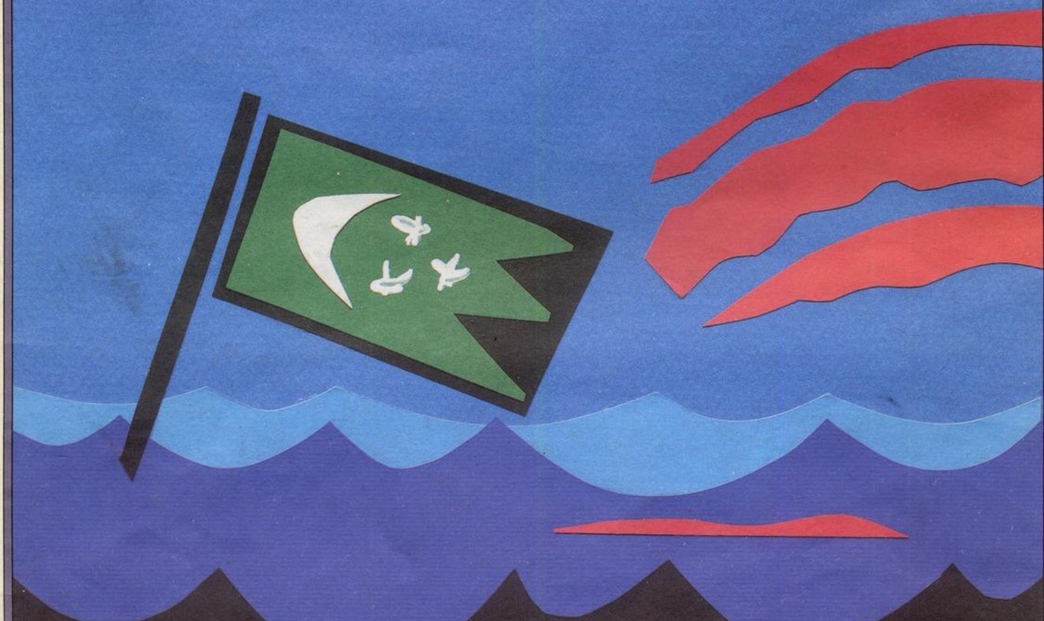
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد السابع والأربعون . السنة الرابعة . ديسمبر ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 47 - December 2002

٥ ليالٍ طوال !

محمد حسنين هيكل / ثورة يوليو : خمسون عاما



جورج فيدال
مسئولية الإدارة الأمريكية عن أحداث ٩/١١

أندرو ناثان - بروس جيلى
الجيل الرابع يحكم الصين

مديحة السفطى - أحمد عكاشه - محمد أبو الغار
لماذا لا يتزوج المصريون ؟!

« نون » سلامة أحمد سلامة
من أزمة الصواريخ الكوبية : إلى أسلحة الدمار العراقية !

حلمى التونى 2002

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد السابع والأربعون
ديسمبر ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتّاب العدد:

- **أحمد عكاشه**.. رئيس الجمعية العالمية للطب النفسى.
- **أناتول لايڤن**.. باحث بمؤسسة كارينجى للسلام، واشنطن.
- **أندرو ناثان**.. أستاذ العلوم السياسية بجامعة كولومبيا.
- **أيمن الصياد**.. صحفى.
- **بروس جيلى**.. طالب دكتوراه فى العلوم السياسية بجامعة برنستون.
- **جمال إسماعيل**.. صحفى.
- **جودت بهجت**.. أستاذ العلوم السياسية ومدير مركز الدراسات الشرق أوسطية بجامعة إنديانا.
- **جور فيدال**.. كاتب أمريكى.
- **حسين عبدالله**... أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية.
- **رشدى سعيد**.. أستاذ جيولوجيا مصرى مقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية.
- **رءوف عباس**.. أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة.
- **سلامة أحمد سلامة**.. صحفى.
- **صبرى حافظ**.. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن.
- **محمد أبو الغار**.. أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- **محمد حسنين هيكل**.. صحفى.
- **محمود عبد الفضيل**.. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- **مديحة محمد السفطى**.. أستاذ علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- **نادر فرجانى**.. مدير مركز المشكاة للبحث.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص.ب: ٣٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

الأرقـــــــــام..

«٩,٥ مليون مصرى (من الجنسين) تجاوزوا سن الـ٣٥ عامًا، دون أن يتمكنوا (أو يتمكن) من الزواج».

الرقم - الصادم والمثير - ظلت الصحف المصرية، ومن بعدها برامج التليفزيون، تلوكه على مدى شهرين كاملين. وكان طبيعيًا - لتكامل عناصر الإثارة فيه - أن يحتل طوال الصيف، العديد من برامج التليفزيون الحوارية. كتب الصحافيون.. وشارك الخبراء والأكاديميون بالرأى و«الصورة»، دون أن يحاول أحدهم التوقف للتأكد أو السؤال. وللتوثق من نقطة البداية: «الرقم».

فى «وجهات نظر» كان طبيعيًا أن نهتم بمناقشة القضية، وأن نقدم قراءة للرقم «المخيف» إلا أنه كان طبيعيًا أيضًا فى «وجهات نظر» أن نسأل ونستوثق.

شهر كامل عكفت فيه هيئة تحرير هذه المجلة على البحث والسؤال. قبل أن تطلب من أساتذة أفاضل الكتابة فى الموضوع. شهر كامل استغرقته رحلة طرق أبواب كل من له صلة بالمعلومات والبيانات فى هذا البلد. لنصل فى نهاية المطاف إلى مفاجأة أن الرقم الصحيح لتعداد من فاتهم قطار الزواج حتى وصلوا إلى سن الخامسة والثلاثين هو بالتحديد (٣٦٩,٥٧٨) نسمة منهم (٢١٦,٩٢٢) من الذكور و(١٥٢,٦٥٦) من الإناث.. وليس ٩,٥ مليون.

ولنعرف أن الرقم الذى شاع كانت بدايته قصة صحفية أرادوها أن تكون مثيرة فاختاروا «المبالغة» واختاروا عنوانًا مثيرًا.. وتلك هى المصيبة الأولى، ولندرك ثانيًا أن الرقم قد تم «تدويره»، هكذا ببساطة، فى مانشيتات الصحف وأغلفة المجلات وشاشات التليفزيون. وعلى ألسنة الضيوف و«الخبراء» وأساتذة الجامعات دون تمحيص أو تدقيق.. وتلك هى المصيبة الثانية.

ولنتأكد - ثالثًا - كم هو صعب الحصول على البيانات والأرقام فى مصر.. فى عصر «تسود فيه بقدر ما تعرف» وتحدد فيه كيفية التعامل مع المعلومات قوة الدول، ورقى المجتمعات.. وتلك «ثالثة الأثافى».

والحقيقة المرة اكتشفناها أيضًا قبل شهرين. حينما تصدينا لطرح موضوع الائتمان والقروض البنكية، لنكتشف ما دابنا على نسيانه من أنه لا توجد أرقام دقيقة. أو بالأحرى لا يوجد تداول دقيق للأرقام. فالكلام عادة «على عواهنه».. ولكم هى معبرة تلك اللفظة العربية القديمة.

يومها تبين أن الأرقام «الرسمية» فى البيانات البرلمانية تختلف عن تلك الموجودة فى محاضر التحقيق. كما تختلف هذه وتلك عن الأرقام التى تذكرها الصحف أو تصريحات المسئولين.

كل هذا فضلاً عن خلط غير مقبول فى التعريفات - خفة أو جهلاً - من بعض من لا يستنكفون أن يجرى الحبر على ألسنة أقلامهم فى ما لا يعرفون حق المعرفة، أو فى ما لم يدرسوه الدراسة الواجبة.

لم يكن أمامنا يومها - بعد البحث والدراسة - غير التوثيق بالإحالة إلى المصادر الموثوق فيها افتراضًا - بحكم الموقع والمسئولية - لتظل «العُهدة على الراوى».

ليس بعيدًا عن هذا كله، ويعكس مدى تردى الاهتمام بالعودة إلى المصادر وضرورة «التثبت قبل القول» الضجة التى أثيرت فى أكتوبر الماضى وشارك فيها صحافيون وأكاديميون ذوو علاقة للتحذير من آثار تطبيق «قانون الشيك» بعد أيام، فى حال السوق فيها راكدة والتجّار على حافة الإفلاس، الأمر الذى دفع بمسئول كبير إلى طمأنة الجميع إلى «سندرس تشريعيًا تأجيل العمل بالقانون».

ولم تمض أيام حتى تبين - بعد الضجة لا قبلها، وبعد التصريح الرسمى لا قبله - أن العمل بالقانون «مؤجل فعلاً» حتى عام ٢٠٠٣ بموجب تشريع صدر - فعلاً - قبل عام.

وإذا كان النسيان آفة «مغفورة»، فالكتابة للجمهور والكلام أمام الميكروفونات دون العودة للبيانات ذات الصلة، يظل حكمها مختلفا.

الأرقام، وإجادة قراءتها ومن ثم تفسير دلالاتها. يبقى لها دائمًا أهمية خاصة. فى هذا العدد من «وجهات نظر» نفرد ملفًا خاصًا عن حرب النفط نردفه برسوم بيانية للأرقام ذات الصلة. والتى تؤدى قراءتها المتمهلة إلى فهم كثير مما يجرى حولنا هذه الأيام.

يقارن د. حسين عبد الله فى قراءته للأرقام بين موقف أوروبا السلمى من قضية تأمين الإمدادات البترولية وموقف الولايات المتحدة الأمريكية من الأمر نفسه.

فأوروبا تقف من القضية موقفا سلميا، وتعالجه فى إطار العلاقات التجارية المعتادة، وإن كانت تقوم بتنسيق مواقفها واستخدام قوتها التفاوضية فى إطار جماعى. وهذا فى ذاته يعتبر عملا مشروعا. أما الولايات المتحدة فإنها تنتهج نهجا مخالفا فى هذا المجال، إذ تبادر بالضغط السياسى على الدول المصدرة للبترول كلما ارتفع سعره، وتبعث ممثليها لإقناع تلك الدول بزيادة الإنتاج وخفض الأسعار. وفى الأونة الأخيرة اتخذ الضغط الأمريكى منحى أشد عنفا إذ أدخلت فى إطار «محور الشر» المستهدف بضرباتها العسكرية كلا من إيران والعراق وهما من دول أوبك التى كانت توصف بالصقور فى مداولات المنظمة حول الإنتاج والأسعار.

وتشير «الأرقام»، وهنا أهميتها، إلى أن السوق البترولية مقبلة على فترة تشح فيها الإمدادات. وإن كان هذا لا يعنى أن الإنتاج العالمى سوف يأخذ فى الانخفاض، وإنما المقصود أن الإنتاج العالمى من البترول سوف لا يتجاوب ارتفاعا بالمعدلات التى يتزايد بها الطلب العالمى عليه.

يشار هنا - والأرقام لها دلالتها أيضا - أن البترول يمثل نحو ٤٠٪ من استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة، كما يمثل الغاز الطبيعى نحو ٢٥٪، بينما يشترك فيما تبقى كل من الفحم والطاقة النووية والطاقة المائية وغيرها من مصادر الطاقة الجديدة والمتجددة.

يشار هنا أيضا إلى أن الارتفاع الطارئ فى سعر البنزين عام ٢٠٠٠ احتل المرتبة الأولى فى الحملة التى شنها بوش ضد حكومة كلينتون أثناء انتخابات الرئاسة فى العام المذكور. فى بلد يحرص ساسته على تدليل المواطن الأمريكى فيما يتعلق باستخدامه للسيارة والتى تمثل جانبا مهما فى حياته اليومية.

وربما كان من الطريف هنا، أو مما يعكس «كيف تنظر المؤسسات الأمريكية إلى العالم الآن»، أن قاضيا فدراليا فى ولاية الاباما الأمريكية لم يتردد فى أن يصدر قرارا فى أبريل ٢٠٠١ يتهم فيه أوبك أنها تتواطأ بهدف تقييد حرية التجارة فى البترول مخالفة بذلك قوانين مكافحة الاحتكار الأمريكية. والمثير أن أوبك اضطرت إلى الاستعانة بمحامين للدفاع عنها، وأن القضية ما زالت تتداول فى المحاكم الأمريكية حتى الآن.

فهل تتسع دائرة التعريف الأمريكى لصفة الإرهاب بحيث لا نستغرب أن تطلق يوما على من يحاول تنسيق إمداداته من البترول أو مساندة أسعاره وحمايتها من التآكل، وذلك بدعوى أن هذه السياسة تهدد أمن المواطن الغربى وتعرض اقتصاده للدمار؟ يتساءل دكتور عبد الله. ويبقى السؤال، على غرابته، غير مستبعد فى هذا الزمان «العولمى».

ليس بعيدا عن هذا على أية حال أن أصواتا فى الكونجرس - لايخفى طبعا ما وراءها من دوافع انتخابية - تصاعدت تحرض ضد أوبك. على أساس أن الشعب الأمريكى يعانى كل يوم من مصاعب حقيقية نتيجة لتصرفات المنظمة البترولية. «وهذا لم يعد مقبولا..» كما يقول السناتور مايك دوين الذى لم يتردد هو الآخر فى توضيح «أنه مادامت أوبك تركت لكى تتحكم فى العرض العالمى للطاقة فإن علينا أن نتوقع المزيد من الصدمات والمزيد من المشاكل التى يعانى منها المستهلك الأمريكى». خاصة إذا تركت أسعار البترول لكى تحددها قوى السوق دون ضغط من جانب الدول الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة، فإن تلك الأسعار، يمكن أن ترتفع إلى مستويات شاهقة وترتفع معها فاتورة الواردات البترولية إلى ما يقرب من نصف تريليون دولار سنويا بالدولارات الجارية.

وتقول الأرقام إن المنطقة العربية، ومعها إيران، يمكن أن تزود العالم بنحو ٤٥٪ من احتياجاته عام ٢٠٢٠، كما يمكنها أن تساهم بنحو ٦٣٪ من صادرات البترول العالمية المتوقعة خلال العام المذكور.

هل قالت الأرقام شيئا..؟

فقط، علينا أن نجيد القراءة.

وجهات نظر

محمد حسنين هيكل



ليال طَوال!

"١" تمهيد قبل رواية قصة حافلة!

■■ بين يومى ١٨ـ و٢٣ يولية ١٩٥٢ كان حال مصر أشبه ما يكون بسفينة تمزق شراعها بقوة الريح، وانكسرت دفتها بضرب الموج، وأصبحت بمن فيها: قبطانا وبحارة وركابا. لعبة عاجزة فى قبضة إعصار هائج.

وكانت تلك الأيام الخمسة فى الواقع خمس ليال، لأن الهموم تستولى على الجميع بالأرق، يفكرون فيما عساهم فاعلين فى الصباح. فإذا طلع الفجر اكتشفوا أن ما رتبوا له فات أوانه، وأنهم الآن عند أفق مختلف لم يستعدوا له. وهكذا كل ليلة!

والواقع أن أحدا لم يكن فى مقدوره. تلك الليالى الخمسة. أن يعتمد على خرائط ملاحية. أو أرصاد جوية. أو خط سير مرسوم بين ميناء إبحار وميناء مرسى، لأنه حين تتحكم الرياح تتعطل الخرائط، وحين تنقض العواصف هوجاء فإن همّ الجميع يكون بالتعامل مع المفاجآت فى مكانها. وفى زمانها.

وحين تكون مثل هذه الحال ظرفا تاريخيا فى حياة أمة، فإنه لا يصبح فى مقدور أى طرف أن يزعم رؤية الصورة كاملة، ومعايشة المفاجآت كل ساعة وموقع، وربما من هنا أن الروايات عما جرى تلك الأيام. الليالى. الخمسة الطوال اختلفت باختلاف مواقع الرؤية، وبمسافة القُرب والبُعد عن مسرح الحوادث (وذلك على فرض صدق الرواة. ودقة كل منهم فى الإحاطة بما كان فى مجال نظره).

والشاهد أن هذا المدخل تمهيد للطريقة التى يجرى بها هذا الحديث، والأسلوب الذى يتبعه فى تناول موضوعه. وبمعنى:

١. أننى أروى ما عندى فى مساحة ما رأيت بعينى أو عرفت عن ثقة أو تابعت إلى آخر الرحلة (وفى ذلك لا أركن إلى ما تستطيع الذاكرة أن تستدعيه، وإنما إلى أوراقى المكتوبة فى أوانها، تستعيد الوقائع كما جرت. إيقاعا ونبضا وحسا).

٢. وبالتوازى فإننى أغطى. فى نفس السياق ما غاب أو خفى عنى بالعودة للمراجع السرية المسجلة فى حينها، سواء من الوثائق البريطانية والأمريكية والفرنسية والإسرائيلية، وذلك إلى جانب أوراق وشهادات وأوراق مصرية أستطيع أن أطمئن إليها، متأكدا من أصلها وأصالتها.

٣. ثم إننى وبمقدار ما هو ممكن أحاول تحديد الأيام (الليالى)، بحيث تبين لأحداثها المهمة. خطوطا وفواصل تعرض لها سياقا جاريا. أقرب ما يكون اتصالا بالحقيقة). ■

اليوم الأول. الليلة الأولى

الجمعة ١٨ يولية ١٩٥٢

سحب عاصفة تتجمع!

■■ [فى الساعة التاسعة والربع. صباح ذلك اليوم. فى مبنى أخبار اليوم (شارع الصحافة المتفرع من شارع الجلاء على مدخل بولاق). كان هناك اجتماع لهيئة تحرير أخبار اليوم. مهمته ترتيب عدد الغد (السبت ١٩ يولية). وفرغ الاجتماع بسرعة لأن بعض المشاركين فيه كانوا على موعد آخر مع الأستاذ «أحمد عنان» وهو أيامها رئيس مجلس إدارة شركة مصر للتأمين، وفى نفس الوقت قائم على مهام عضو مجلس الإدارة المنتدب لأخبار اليوم، ومعه مباشرة يعمل مديرها العام. أيامها. الأستاذ «عبد العزيز عبد العليم».

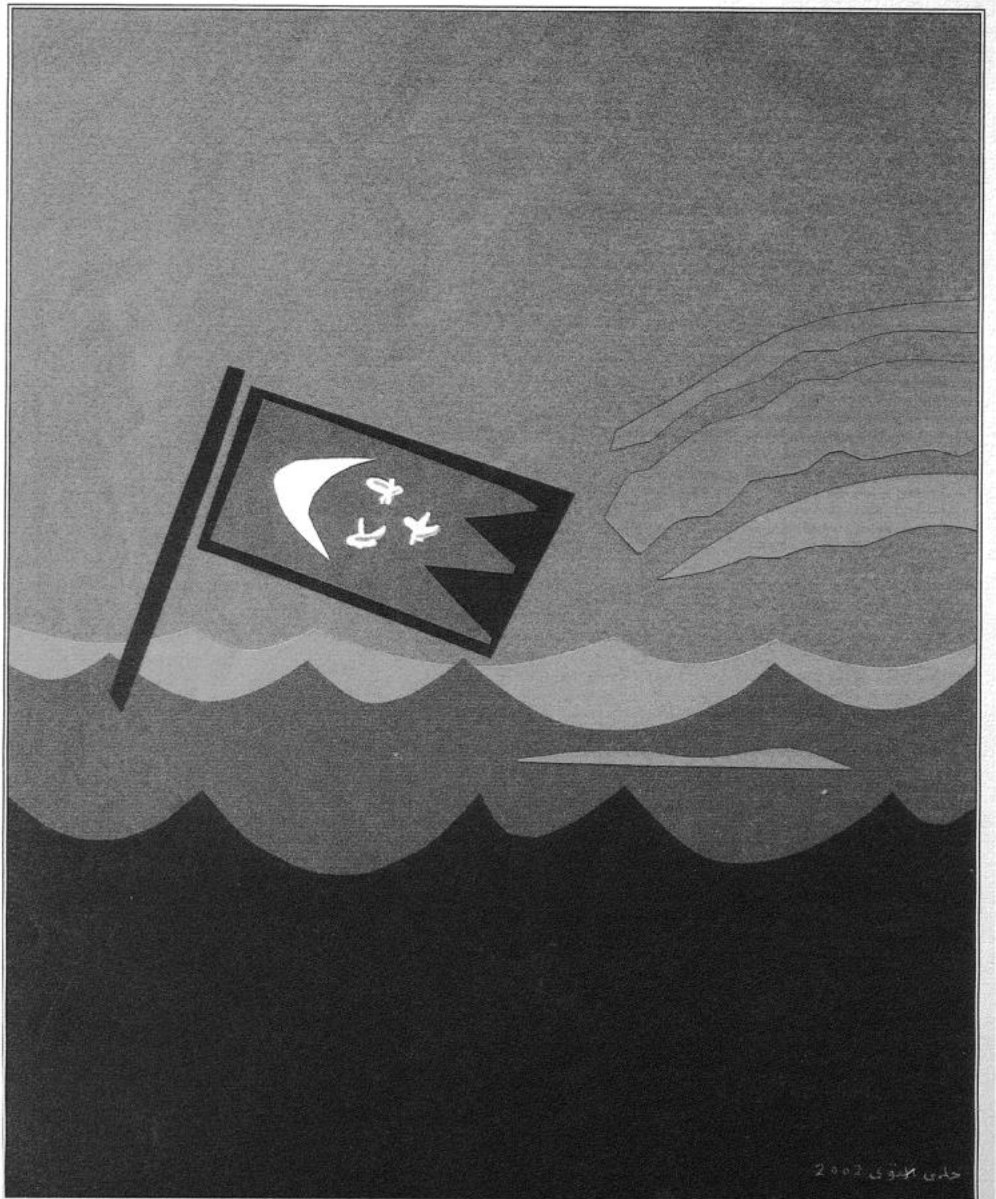
وخرجنا من اجتماع هيئة التحرير (وكان فى مكتب الأستاذ «مصطفى أمين») إلى مكتب توأمه الأستاذ «على أمين» حيث كان فى انتظارنا الأستاذ «أحمد عنان» عضو مجلس الإدارة المنتدب. (وكنتُ ذلك الوقت عضو مجلس الإدارة الوحيد بين محررى أخبار اليوم)، وهكذا جلسنا ثلاثة من الصحفيين نسمع الأستاذ «أحمد عنان» يوجه إلينا تحذيرا بأن «جريدة الأخبار» التى صدرت يومية قبل أسابيع تواجه خسائر مالية يستحيل استمرارها، ومع أن أخبار اليوم الأسبوعية تكسب. إلا أن خسارة جريدة الأخبار اليومية تبلع أى ربح، وخصوصا أن هذه الجريدة لم تصمد كما كان محسوبا أمام المنافسة فى السوق (من جانب الأهرام والمصرى)، (ولم يكن لها الحظ كأختها الكبرى (أخبار اليوم) أن تصدر يوم عطلة الأهرام (السبت). وحين كان لكل جريدة يومية. عطلة أسبوعية، ووقتها اختار «مصطفى وعلى أمين» بموافقة من صاحب الأهرام «جبرائيل تكلا» (باشا). طبع أخبار اليوم على ماكينات الأهرام (مساء الجمعة). لكى تصدر جريدتهم الجديدة صباح السبت وليس أمامها غير جريدة المصرى. (وجريدتين حزبيتين لا يُحسب لهما فى ذلك الزمن حساب وهما «الأساس» عن حزب السعديين، و«الكتلة» عن حزب الكتلة، وهنا فإن صعود أخبار اليوم تحقق سريعا، لأن السوق كان جاهزا ومهيأ.

لكن جريدة «الأخبار» الجديدة لم تكن لها مثل تلك الفرصة. فالجرائد اليومية تخلت عن تقليد يوم العُطلة، ومعنى ذلك أن «الأهرام» فى السوق كل يوم، ثم إن جريدة «المصرى» (وبسبب سخونة الظروف السياسية والنبرة العالية للخطاب الوطنى. حققت سبقا)، وهنا فإن جريدة «الأخبار» تراجعت من توزيع مائة وعشرين ألف نسخة يوم صدورها إلى توزيع يقل عن سبعين ألف نسخة (أى قرابة ٤٠٪ فى ظرف عدة أسابيع، ثم إن الهبوط مستمر. وذلك هو الخطر).

وبهذا أضاء «أحمد عنان» أمامنا (نحن الثلاثة) مصباحا أحمر للتحذير، ثم تركنا وانصرف يلحق بأسرته التى سبقته إلى مزرعة «عبد المقصود أحمد» (باشا) رئيس مجلس إدارة بنك مصر، وهى على أول طريق القاهرة. بلبيس.

ورحنا نبحث ما نقدر عليه. وبسرعة. وكان «على أمين» هو الذى طرح فكرة «أن الأزمة السياسية الراهنة وتغطيتها إخباريا بتوسع شديد فرصة متاحة يمكن أن ترتب فيها «الأخبار» مكانها فى السوق. ووجهة نظره أن التطورات المتلاحقة من يوم حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ حتى الآن (١٨ يولية ١٩٥٢). هى فترة شهدت سقوط أربع وزارات فى خمسة شهور: وزارة «النحاس». وزارة «على ماهر». وزارة «الهلالى» الأولى. ووزارة «حسين سرى» (وهى الآن على وشك السقوط). وذلك خلق اهتماما كبيرا بالسياسة، تستطيع الأخبار أن تكسبه لصالحها إذا ركزت عليه. وكان الأستاذ «على أمين» يعرف أن ذلك رأيى، طرحته دائما ودافعت عنه على أساس «أن الأخبار هى المادة الأولية لأى جريدة يومية، وعلى الباقى أن يدور حولها». وفى ذلك اليوم بالذات لم يكن الأستاذ «مصطفى أمين» على خلاف معنا.

وبعد مناقشات، اتفقنا على تقسيم العمل فى تغطية الأزمة السياسية الراهنة، التى تدافعت بسرعة على منحدر خطر (بعد قرار الملك «فاروق» بحل





مجلس إدارة نادى ضباط الجيش الذى يرأسه اللواء «محمد نجيب» - فى مناخ كل ما فيه يدعو إلى التوجس).

كان واضحا لنا ظهر يوم الجمعة ١٨ يولية - أن هناك صداما سياسيا (وربما أشد) يكمن على الطريق - وأنه خلال أيام (وبصرف النظر عن أية اعتبارات عامة) - فإن هذا الصدام يمكن أن يكون قضية حياة أو موت بالنسبة لدار أخبار اليوم - لأن خسائر جريدة الأخبار المتصاعدة سوف تلتهم أرباح جريدة أخبار اليوم الأسبوعية.

وبهذه التقديرات اتفقنا على توزيع التغطية الإخبارية بيننا:

- الأستاذ «مصطفى أمين»: يسافر إلى الإسكندرية لأن البلاط الملكى هناك وكذلك الوزارة منذ بدأ موسم الصيف - و«مصطفى» مسئول - بصلاته مع القصر («كريم ثابت» (باشا)، ومع الأستاذ «محمد هاشم» (صهر «سرى» (باشا) ووزير الداخلية) - أن يغطى ما يدور بين الطرفين الرسميين فى إدارة الأزمة: القصر والوزارة.

- ومسئوليتى أن أبقى فى القاهرة لمتابعة تداعيات قرار حل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش، وذلك بحكم معرفة بكثيرين فيه (نشأت بظروف عملى أثناء تغطية حرب فلسطين) - وضمنهم اللواء «محمد نجيب» (وهو رئيس مجلس إدارة نادى الضباط) - وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الترتيب أن أظل على اتصال برئيس الوزراء المستقيل «نجيب الهلالى» (باشا)، وكنت قريبا منه (صديقا للعائلة).

- وأما ثالثنا (الأستاذ «على أمين») فقد كان عليه أن يظل فى القاهرة للتنسيق بين عمل «مصطفى» فى الإسكندرية، و«على» فى القاهرة، وبحيث يشرف على توجيه جهدنا المُرَكَّزْ فى جريدة الأخبار يوميا، ويكون فى موضع يسمح له بأن يطلب من القاهرة والإسكندرية تكميلات إخبارية يراها لازمة عبر المدينتين]. ■

كان سؤالى
لنفسى وأنا فى
طريقى إلى
بيت اللواء
«محمد نجيب»
فى الزيتون
«كيف يشعر
الرجل وكيف يتصرف
وقد وضعته
المقادير وسط
ما لم يكن يتوقعه،
وربما لم
يكن يريده
لو أن الخيار
فى يده!»

٢

لقاء أقدار فى بيت «محمد نجيب»!

■■ فى الساعة الخامسة والنصف (بعد ظهر يوم الجمعة ١٨ يولية ١٩٥٢) - كانت الطبعة الأولى من عدد «أخبار اليوم» (التى تصدر غدا) قد أصبحت بكامل صفحاتها عُهدة لدى سكرتير التحرير الأستاذ «حسين فريد» - وغادرت مبنى «أخبار اليوم» متوجها إلى حى الزيتون حيث بيت اللواء «محمد نجيب»، وتقديرى أن «البؤرة الفعلية» لتداعيات قرار حل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش - موجودة هناك حول رئيس مجلس إدارة النادى (اللواء «محمد نجيب»). وبينما كنت أقود سيارتى (من طراز أوبل كابتين - سوداء اللون) - متوجها من وسط العاصمة إلى طرفها عند حى الزيتون، كنت أفكر فى اللواء «محمد نجيب».

....

....

[لم يتح لى أن أقابل الرجل أثناء معارك حرب فلسطين. (خصوصا أننى تركت ميدان القتال فى أغسطس ١٩٤٨، لكى ألحق بالدورة غير العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة (فى قصر دى شايو) بباريس - لأن قضية فلسطين والحرب التى اندلعت فى الأرض المقدسة فرضت نفسها على قمة جدول أعمال الجمعية العامة، وأصبحت شاغل مجلس الأمن - وبالتالى فإن الجانب الدولى لقضية فلسطين طغى ذلك الخريف على الجانب العسكرى].

....

....

[كنت قد تعرفت على اللواء «محمد نجيب» عندما كان قائدا لسلاح الحدود، ثم زادت معرفتى به من خلال معركة مجلس إدارة نادى ضباط الجيش وتوابعها، وزار مكتبى مرات، وزُرت بيته مرات، واحدة منها (كما هو مسجل فى أوراقى) عندما أراد اطلاعى على محاضر التحقيق فى سقوط طائرة ركاب أمريكية شمال غرب القاهرة (وبين ركابها نجمة مشهورة تلك الأيام هى «كاميليا» (كوهين)، وكانت هناك حكايات كثيرة شائعة عن علاقة بينها وبين الملك «فاروق»). وكان الحادث فى منطقة اختصاص اللواء «نجيب» كقائد لسلاح الحدود.

وكان الرجل - فى كل مرة لقيته فيها - يبدو لى شخصية متميزة فى زمن ما بعد حرب فلسطين وحين كان أظهر لواءات الجيش - بصفة عامة - ثلاثة أنواع:

● نوع وراءه فى المعارك تجربة وأصحابه لا يملون الحديث عن تجربتهم - واعتقادهم أنها وحدها الصواب وغيرها الخطأ (مثل اللواء «فؤاد صادق» واللواء «محمد أحمد المواوى» وكلاهما كان على المعاش بعد ترك القيادة العامة للقوات فى العريش).

● ونوع سبقت له الدراسة فى الخارج من أركانات الحرب وهم على استعداد دائما لإلقاء الدروس فيما كان ينبغى عمله فى فلسطين لكن الآخرين لم يعملوه فضاعت الفرص (مثل اللواء «سعد الدين صبور» - قائد سلاح الفرسان واللواء «حمدى هيبة» مدير مكتب وزير الحربية).

● ونوع ثالث من رجال القصر تشغلهم المناسبات والمراسم تأخذهم بعيدا عن ميدان القتال فعلا أو مباشرة (مثل اللواء «عمر فتحى» قائد الحرس واللواء «عثمان المهدى» رئيس الأركان).

ولم يكن «محمد نجيب» من هؤلاء على اختلاف أنواعهم - وفى نفس الوقت فإنه لم يكن من جيل الشباب الذى بدأ يظهر مرموقا بعد حرب فلسطين (مثل «حافظ إسماعيل» فى رياسة الأركان، و«رشاد مهنا» فى رياسة المدفعية - وكذلك كان محمد نجيب حائرا فى موقعه بين الأنواع والأجيال.

وكان الرجل يبدو لى دائما مرتاحا مع نفسه، وكانت قناعته أظهر ما تكون حين يخرج من جيبه علبة من سيجار التوسكانى الجاف، ويهرس واحدا منها بمطواة فى جيبه ثم يحشو بهذا التبغ المهروس غليونه ويشعله بِهِمة، ويشد الدخان منه بسعادة تضوى فى عينيه. وكان الرجل قد عرف من أحد أصدقائه فى القصر أنه رُشح وزيرا للحربية فى وزارة «نجيب الهلالى» (باشا) - ثم عرف من اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن» (رئيس قسم الملحقين العسكريين الأجانب فى الجيش وقائد المنطقة الشرقية بعد ذلك) - أننى صاحب اقتراح ترشيحه، وكان تعليقه أول مرة لقيته بعدها («وزير حربية مرة واحدة» - ثم كان قوله «يتركونى فقط أكمل مدة خدمتى وأخرج بمعاشى كاملا ولا أريد فوق ذلك شيئا)].

....

....

والآن وفى طريقى إلى بيت اللواء «محمد نجيب» فى الزيتون كان سؤالى لنفسى: «كيف يشعر الرجل وكيف يتصرف وقد وضعته المقادير وسط ما لم يكن يتوقعه، وربما لم يكن يريده لو أن الخيار فى يده!».

كانت هناك ثمانى درجات بالعدد فى الفناء الداخلى الضيق لبيت اللواء «نجيب» يصعد عليها الزائر فيجد أمامه بابين، باب يؤدى إلى صالة من حولها غرف المسكن، وباب آخر يؤدى إلى غرفة مستقلة هى غرفة الاستقبال - يدخل منها الزائر ليجد فى صدر هذه الغرفة مكتبا خشبيا متواضعا، وحوله على جوانب الغرفة طاقم صالون مذهب (دمياطى فى الغالب) مكون من أربعة «فوتيلات» و«كنبة» واحدة. وحين انفتح الباب ودخلت قاعة الاستقبال ذلك المساء - كان أول شخص وقع بصرى عليه هو اللواء «محمود صبحى» الذى كان قائدا للكلية الحربية، ثم أُحيل إلى التقاعد قبل شهور. وكان هناك ضابط آخر لم يقدمه أحد ولا هو قدم نفسه، بل ظل جالسا فى مكانه لا يتجه إلى ناحيته خطاب وهو من جانبه لا ينطق بكلمة، ولم يكن اللواء «نجيب» فى قاعة الاستقبال لأنه خرج فيما يظهر يطلب «قهوة» لضيوفه، ولم يلبث الباب الموصل إلى القاعة من الداخل أن فُتح ودخل «نجيب» وغليونه بين أسنانه، وأقبل يرحب ودودا وحفيا، ويسأل عن آخر الأخبار وقلت: «إن آخر الأخبار لابد أن تكون هنا». وقال الرجل بنبرة يشيع فيها الصدق والقلق معا: «أخبار إيه؟» - ربنا يجيب العواقب سليمة». وكان اللواء «محمود صبحى» هو الذى سألنى: «ما الذى سوف تنشره أخبار اليوم غدا عن تطورات أزمة حل مجلس إدارة النادى (يقصد نادى الضباط) - وقبْلَ أن أُجيب، سألنى اللواء «نجيب»: «همه عاوزين يعملوا إيه؟ مطلوب منى أعمل إيه؟». ونظرت إليه أستشف ما وراء سؤاله، لأنى علمت قبل المجىء إلى بيته أنه على موعد آخر

(غدا السبت ١٩ يولية) مع الأستاذ «محمد هاشم» وزير الداخلية وصهر رئيس الوزراء، وسألته: «ألم يقل لك أحد شيئا عما يريدونه منك؟» - وقال ببراءة لا تترك ثغرة لشك «إنه حائر والآراء حوله موزعة». (وقلت لنفسى لحظتها: إن الرجل ليس بسيطا إلى الحد الذى أظنه، فهو نائم على سر يحسن إخفاؤه)، وتدخل اللواء «محمود صبحى» فقال «إن رأيه مازال رفع قضية ضد قرار حل مجلس الإدارة أمام مجلس الدولة، لأنه لا يمكن السكوت على هذا القرار، وحتى إذا أراد «سعادة اللواء» (يقصد «محمد نجيب») أن يتنازل عن حقه - فإن جموع الضباط لن تتنازل». ورد «محمد نجيب»: «إنه هو أيضا لا يملك أن يتنازل لأنه حق مئات الضباط الذين انتخبوا المجلس - لكن المسألة هى ما الذى يمكن عمله؟». وكان اللواء «محمود صبحى» (كما كنت أعرف قد التحق أثناء الخدمة منتسبا لكلية الحقوق، وتخرج بالفعل فيها، وانضم بعد إحالته للمعاش فورا إلى مكتب محاماة) - والآن كانت أول قضية يريد أن يشارك فيها هى الطعن أمام مجلس الدولة فى قرار حل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش، وتشعب الحديث قُرابة نصف الساعة ثم قطعت الحديث طرقة أو طرقتين على باب غرفة الاستقبال من ناحية السلم، وقام الضابط الساكت بفتح الباب، ودخل شابان كلاهما يرتدى بنطلونا رماديا وفوقه قميصا أبيض، وتذكرت أحدهما، وأما الثانى فقد كان غريبا، تقع عليه عيناى لأول مرة.

كان الأول هو البكباشى «جمال عبدالناصر» - وكان الثانى هو الصاغ «عبد الحكيم عامر».

....

....

كنت قد تقابلت مع «جمال عبد الناصر» ثلاث مرات من قبل، لكنها جميعا مقابلات عابرة:

● كانت المرة الأولى فى فلسطين، وكنت مرتحلا فى سيارة جيب على الطريق الشمالى للنقب، قادما من مقر قيادة «أحمد عبد العزيز» فى بيت لحم، قاصدا إلى «المجدل» لملاقاة اللواء «محمد أحمد المواوى» القائد العام للقوات المصرية فى فلسطين، وكان «أحمد عبد العزيز» قد أمر أحد ضباطه وهو الصاغ (الرائد) «حسن فهمى عبد المجيد» (الذى أصبح فيما بعد سفيرا لمصر فى المغرب) - أن يصحبنى (ومعنا جندى حراسة بمدفع رشاش) - فى سيارة جيب تابعة لقيادته، ويذهب بى فى الصباح إلى المجدل ويعود معى مساء الغد إلى بيت لحم. لكن سيارتنا توقفت فى عراق المنشية لأن معركة كانت تدور بين المواقع المصرية هناك وبين قوات إسرائيلية خرجت من مستعمرة «نجبا»، وكانت «نجبا» مقرا لقيادة البريجادير «ييجال يادين» (الذى أصبح فيما بعد نائبا لرئيس وزراء إسرائيل ووزيرا للخارجية) - وتوقفنا عن السير حتى انفتح الطريق، وعرفت من أحد الضباط أن نتيجة المعركة كانت طيبة، وأن المدرعات التى خرجت من «نجبا» لتقطع طريق النقب الشمالى تراجعت إلى المستعمرة فى حماية طلقات من قذائف «المورتار» غطت الانسحاب وما زالت تواصل تمشيط المنطقة حتى الآن.

وعرفت أن قائد المعركة على الناحية المصرية ضابط شاب برتبة «صاغ» اسمه «جمال عبد الناصر حسين» وطلبت مقابلته، وكان على وشك أن ينام فى مقر قيادة الكتيبة السادسة المشاة (وكانت من قبل قسم بوليس بَنَتْهُ سلطة الانتداب البريطانية فى فلسطين مع عشرات غيره - ضمن خطتها لإقامة سلسلة مواقع حصينة أثناء الحرب العالمية الثانية - تحسبا لتقدم الألمان عبر مصر إلى الشام). وحين ذهبت ومعى «حسن فهمى عبد المجيد» إلى حيث كان الصاغ «جمال عبد الناصر حسين» وجدته يرتب لنفسه فراشا ينام عليه فى بدروم مركز البوليس القديم، وقد فرش بطانية على الأرض ثم كَوَّر ثانية جعلها شبه وسادة، واضطجع ينام، وعندما قيل له «أننا نريد مقابلته» - اعتدل يستقبلنا، وبدا لى الضابط الشاب «نافد الصبر» وعزوت ذلك إلى الجهد الذى بذله فى معركة لم ينم فيها ليلة الأمس (كما قيل لى) دقيقة واحدة، وحين خرجنا من قسم البوليس - قال الصاغ «حسن فهمى عبد المجيد» فى شبه اعتذار «هو معروف بين زملائه الضباط بأنه قليل الكلام»، وعلقت بقولى «من الواضح أنه لم يكن يريد أن يتكلم، وربما أنه لا يعرف كيف يقول ما عنده»! - وكذلك كان اللقاء الأول.

● وكانت المرة الثانية فى مكتبى فى أخبار اليوم (سنة ١٩٥١) عندما أعطيت موعدا لضابط فى الجيش أراد مقابلتى لموضوع رآه مهما، وقد جاء هذا الضابط وهو الصاغ «زكريا محيى الدين» ومعه زميل له فى الجيش - هو مرة ثانية: الصاغ «جمال عبد الناصر حسين» - الذى بدأ وذكرنى بلقائنا الأول وكنت تذكرته فور أن رأيته.

كان «زكريا محيى الدين» وقتها ضابطا مشغولا بأمن سيناء، وقد اكتشف مسألة وجدها خطيرة، مؤداها أن إسرائيل تمنح «بطاقات مرور» خاصة لبعض «عرب قبائل العزازمة» الذين يقطنون سيناء وهم يتنقلون بهذه البطاقات وراء المرعى عبر خطوط الحدود وبين خطوط الهدنة من سيناء إلى النقب وبالعكس، وهو يشك أن هذه البطاقات تهيئ لضباط الأمن الإسرائيليين فى المنطقة الجنوبية سلطة على رعايا مصريين، والصاغ «زكريا محيى الدين» يجد ذلك وضعا غير مقبول، وغير مأمون. وقد حاول لفت نظر رؤسائه، لكنهم لم يفعلوا شيئا، وخطر له أنه إذا نشرت إحدى الجرائد أو المجلات شيئا عن ذلك، فإن السلطات المختصة قد تتنبه. وكان «زكريا محيى الدين» مرتبا فى عرضه للموضوع، وقد شرحه أكثر بصور عدد من بطاقات المرور الإسرائيلية التى استوجبت قلقه.

وطوال ثلث الساعة كان «جمال عبدالناصر» يتابع الحديث فى صمت، ولاحظته أكثر من مرة يطيل النظر إلى رفوف كتب تغطى حائطا من غرفة مكتبى فى ذلك الوقت. وانتهز لحظة صمت فقال إنه تابع تحقيقاتى عن الحرب فى فلسطين من داخل الحصار فى الفالوجة، واهتم بما كتبته عن اجتماعات دورة الجمعية العامة غير العادية للأمم المتحدة فى باريس - سبتمبر ١٩٤٨ - ثم إنه بعد الحصار فكر أن يجىء ليقابلنى، لكنه وجدنى أغطى الانقلابات السورية (من حسنى الزعيم - إلى سامى الحناوى - إلى أديب الشيشكلى)، وفى تلك الأوقات كانت لديه أسئلة عما يجرى فى سوريا «تمنى» لو استطاع توجيهها إلىّ، ورجوته إذا كان يذكر منها شيئا أن يفعل ذلك ولو بأثر رجعى، وسأل عدة أسئلة (لا أذكر تفاصيلها لأننى لم أحرص على تسجيلها).

وواصل «جمال عبد الناصر» كلامه فذكر أنه تابع ما نشرته عن ثورة إيران (الدكتور مصدق) وقال «إنه توقف طويلا أمام مشهد «آية الله الكاشانى» الذى خرج بمظاهرة ضد الشاه بعد أن اغتسل وارتدى كفنه مستعدا للقاء ربه». ثم أبدى ملاحظات انتهى منها إلى أنه «شاهد مع باعة الصحف كتابا يضم ما كتبته عن إيران - عنوانه «إيران فوق بركان»، وسألنى إذا كان يستطيع استعارة نسخة منه وهو يتعهد بإعادتها، وأضاف «أن الكتاب غالى الثمن - يُباع بعشرة قروش، وذلك مبلغ لا يستطيع مواطن عادى أن يخصصه لشراء كتاب، وطلبت نسخة من الكتاب قدمتها هدية له.

● ولم تكن المرة الثالثة التى رأيت فيها «جمال عبد الناصر» لقاءً بالمعنى الحقيقى، لأنه وقع مصادفة عابرة لم تستغرق أكثر من دقائق، وكان ذلك فى المساء المبكر من يوم حريق القاهرة (٢٦ يناير ١٩٥٢)، على رصيف (شارع فؤاد الأول - ٢٦ يولية الآن) - أمام محلات شيكوريل، وهى لاتزال مشتعلة ببقايا لهب، وكان «جمال عبد الناصر» قادما من ناحية حديقة الأزبكية، وكنت قادما من الاتجاه العكسى، وعلى وهج الحريق لمحت قامته، وبدت لى تقاطيعه شبه نحاسية، وسألنى بصوت مشحون بما يعنى القلق من هذا الذى نراه أمامنا، ومن المسئول عنه، ولا أتذكر بم رددت عليه، ولم يكن الظرف يسمح باستفاضة، وكذلك مضى كل منا إلى سبيله!.

....

....



ذكـــــر «جمال عبدالناصر» أنه تابع ما نشرته عن ثورة إيران و، أنه توقف طويلا أمام مشهد «آية الله الكاشانى» الذى خرج بمظاهرة ضد الشاه بعد أن اغتسل وارتدى كفنه مستعدا للقاء ربه»

والآن الساعة السادسة والنصف من مساء ١٨ يولية ١٩٥٢ وفى غرفة الاستقبال فى بيت اللواء «محمد نجيب»، دخل «جمال عبدالناصر» (ومعه عبد الحكيم عامر) - وعندما دخلا كان اللواء «محمود صبحى» لا يزال يشرح ويعيد شرح فكرته عن ضرورة رفع قضية أمام مجلس الدولة فى معارضة قرار حل مجلس إدارة نادى الضباط، مؤكدا أن فى رأسه الآن نقطا تبلورت لصياغة المذكرة التى تقدم إلى مجلس الدولة فى عرض القضية، وهو واثق من إمكانية كسبها.

ومضت دقائق وقام «عبد الحكيم عامر» من مقعده ماشيا نحو اللواء «محمد نجيب» ومال عليه يهمس فى أذنه بشىء، وقام «نجيب» وتبعهما «جمال عبد الناصر»، واتجه الثلاثة نحو باب الغرفة المؤدى إلى الصالة الرئيسية للبيت وأغلق الباب. ومع أن هذه «الحركة» لفتت نظرى فإننى لم أعلق كثيرا عليها وإنما واصلت «استجواب» اللواء «صبحى» عن النتيجة التى يمكن أن تصل إليها فكرته فى رفع قضية أمام مجلس الدولة - حتى على فرض أنه كسبها.

ومضت فترة ما بين ربع وثلث الساعة - ثم انفتح باب الغرفة المؤدى إلى الصالة، وعاد الرجال الثلاثة إلى صالون الاستقبال وجلسوا حيث كانوا من قبل، وقال «جمال عبد الناصر» وهو ينقل بصره بين اللواء «محمود صبحى» وبينى: «هل وصلتم لرأى فى موضوع القضية؟»، واستعاد اللواء «صبحى» تدفقه - وبان تحفظى، وقال «جمال عبد الناصر» موجها كلامه لى «حضرتك(!) لا تجد فائدة من رفع قضية؟» - وسكَتَ قليلا ثم استطرد «هل تتصور أن الجرائد سوف تكتب عن قضية ضد قرار صادر عن السلطات العليا؟ - أقصد هل يمكن أن تصل القضية بالتفاصيل والظروف إلى الرأى العام؟» - وأبديت تشككى فى أن الرقابة يمكن أن تسمح بالنشر، أو على الأقل بالنشر على نطاق يكفى للتعريف بالتفاصيل والظروف! وعاد «جمال عبد الناصر» يسأل بما مفاده «وإذا لم تكن هناك قضية فما العمل لوقف هذه «الإهانة»؟».

....

....

استعمل «جمال عبد الناصر» هذا التعبير وقد نسبته إليه عندما



سجلت وقائع ذلك اللقاء بعدها بأكثر قليلا من أسبوع، ومن المفارقات أننى لم أسجله يومها مكتقيا بعبارة «الساعة السادسة: عند «محمد نجيب» (اللواء «صبحى» واقتراحه) - وعندما تطورت الأمور فى ظرف أيام بما لم يخطر على البال فى حينه، عُدت فسجلت يوم ٢٧ يولية ما شاهدته - مساء يوم ١٨ - متأخرا تسعة أيام].

....

....

استوقفنى لفظ «إهانة» وسألت «جمال عبد الناصر» بما معناه «هل يرى أن حل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش فعل «إهانة» أو أنه أكبر؟»، ولم يكن يتوقع السؤال كما بدا لى، على أنه بعد لحظة رد بما معناه «بالطبع إهانة - لأن «كرامة» الجيش من كرامة الشعب»، وقلت (كما سجلت بعدها بتسعة أيام) أن الموضوع يتجاوز «الإهانة» ويتجاوز «الكرامة» - لأنه يمس شيئا أكبر من العواطف. واستطردت «ومع ذلك ولو قبلت بلفظ الإهانة فى وصف ما جرى، فإننى أتساءل»: «ماذا تستطيع القوات المسلحة أن تفعل للرد على الإهانة؟». ولم أسكت وإنما واصلت : «فى ميدان القتال سنة ١٩٤٨ لم يستطع الجيش أن يدافع عن «كرامة البلد»، والآن وبعد أربع سنوات (من سنة ١٩٤٨) - فإن الجيش ليس مطالبا بالدفاع عن كرامة البلد، وإنما عن كرامته هو نفسه». وربما أن «جمال عبد الناصر» أحس بالاستفزاز، فقد سألنى «ما هو اقتراحك لرد الإهانة؟». ثم أضاف: «شيئا نستطيع أن نفعله فى هذه الأحوال والظروف». وقلت بسرعة (دون تفكير كاف وتدقيق) «إننى أتصور مظاهرة من ألف ضابط مثلا - يتجمعون - كما جرى يوم احتفل الملك بتقديم ولى عهده إلى الجيش (فى ٢٦ يناير) - ثم يسجلون فى دفتر التشريفات طلبهم إلى الملك بإلغاء قرار حل مجلس إدارة النادى، ويوقعون عليه بإمضاءاتهم واحدا بعد واحد، وتكون هذه مظاهرة احتجاج - بقوة - تُعيد بعض العقل إلى بعض الرؤوس»!

وسكت «جمال عبد الناصر» وكأنه يفكر فيما قلته، ثم رد بما مؤداه «أن ذلك لو حدث سوف يُعتبر نوعا من أنواع التمرد، وسوف تتصرف «السراى» إزاءه على هذا الأساس، وترد عليه بإجراءات إحالات للتقاعد وتشتيت ومطاردة - إن لم يكن اعتقال». وبدا منطقه معقولا. وكذلك عاد اللواء «محمود صبحى» يطرح فكرة القضية أمام مجلس الدولة، وذكر اللواء «صبحى» أن كل ما يحتاجه هو رسوم للقضية يقدرها بسبعين جنيه، وراح كل منا يقدم ما يقدر عليه. وساهم «جمال عبد الناصر» فى التبرعات بثلاثة جنيهات أخرجها من جيب بنطلونه، ثم تهيأ للخروج ومعه «عبد الحكيم عامر»، وبالفعل خرجا ومعهما اللواء «محمد نجيب» حتى وصلا إلى درجات السلم ونزل الاثنان عليه وعاد هو إلينا، ولعشر دقائق ظل اللواء «صبحى» يتحدث عن القضية، واللواء «محمد نجيب» صامتا يسمع (ولا يشير بهمسة إلى موعد له غدا مع وزير الداخلية وصهر رئيس الوزراء «محمد هاشم» (باشا)).

وخرجت وما زال فى خواطرى أن الرجل ليس بسيطا كما ظننت، وإنما هو «رجل ناضج» عَوَّد نفسه أن لا يتكلم كثيرا، وأن يسمع أكثر مما يقول، وأن يمسك بطرف أكثر من خيط ليوازن موقفه. وكان شعورى أن الرجل له العذر، فهو يجد نفسه فى موقف تزداد خطورته عما كان يتصور حين دخل انتخابات نادى الضباط.

ومن الغريب أن خلوته بـ «جمال عبدالناصر» و«عبد الحكيم عامر» لم تترك تلك اللحظة تساؤلا (لَدَىَّ) عن دلالتها، ولعله غلب على ظنى وقتها «أنها تتعلق بتفاصيل حل مجلس إدارة النادى!». ■

بدا أن ما قلته لجمال عبدالناصر فى تحليل الأسباب التى تنفى احتمال تدخل عسكرى بريطانى (على نمط ما حدث وقت ثورة عرابى). قد أجاب دون أن أدرى على هاجس ثقيل يلح عليه وقتها (ولم يكن فى علمى). وليس أفعل فى التأثير بالعمق على النفوس من جواب يجىء لرجل فى موضوع يهمه دون أن يخاطر بتوجيه سؤال!

"٣"

حـــوار فى الطريق العـــام

■ ■ خرجت من بيت اللواء «محمد نجيب» وكانت الساعة السابعة والثلث، وركبت سيارتى وعبرت الطريق الجانبى إلى الشارع الرئيسى المؤدى من الزيتون إلى القبة، وعلى رصيف قريب لمحت «جمال عبد الناصر» و«عبدالحكيم عامر» واقفين مازالا - كما يظهر - فى انتظار أتوبيس، واقتربت أسألهما إذا كان فى استطاعتى أن آخذهما معى، وقال «جمال عبد الناصر» ما معناه «إنه لا يريد أن يخرجنى عن طريقى، وقلت إننى ذاهب إلى وسط البلد (دار أخبار اليوم) - فإذا كان ذلك اتجاههما فأنا وحدى فى السيارة وأهلا بهما معى». وقال «جمال عبد الناصر» على الفور «إذا لم يكن فى ذلك «تعب» نجىء معك إلى «باب الحديد» (يقصد ميدان المحطة «رمسيس الآن») - وصعد إلى المقعد المجاور لى، وصعد «عبد الحكيم عامر» إلى المقعد الخلفى».

وبدأ «جمال عبد الناصر» بإيضاح لعله وجده مناسبا لفتح حديث - عن سبب وقوفه على محطة الأتوبيس قائلا ما معناه «وقفنا هناك ربع ساعة ويظهر أن الناس الذين يركبون السيارات لا يشعرون بحجم أزمة المواصلات العامة» - ثم أضاف «سيارتى - واستدرك - سيارة «أوستن» صغيرة - أخذتها صباح اليوم للميكانيكى، وكان مفروضا أن أستلمها منه «على العصر»، وعندما ذهبت فى الموعد اكتشفت أنها لن تكون جاهزة قبل صباح الغد». وسادت فترة سكوت، ثم سمعت صوت «عبد الحكيم عامر» لأول مرة من المقعد الخلفى يسألنى بما معناه «هل تعتقد أن فكرة القضية التى يقترحها اللواء «صبحى» يمكن أن تحل...؟» - وأكمل «جمال عبد الناصر» بما مؤداه «لا تحل شيئا...» - ثم بدا التردد فى صوته ولكنه واصل «وإذا سمحت فإن الاقتراح الذى سمعناه من «حضرتك»(!) عن قيام ألف ضابط بتسجيل أسمائهم فى دفتر التشريفات - اقتراح يصعب تنفيذه!».

ورددت (دون أن أراجع نفسى) «بأننى لا أرى وجه الصعوبة التى يشير إليها، لأن الظروف تقتضى إجراءً يسمع له دوى!».

ولم يظهر أنه اقتنع، وقال: «إنهم (يقصد السلطة) سوف يبذلون كل جهدهم فى محاصرة أى فعل، ويتعاملون مع الحدث باعتباره تمردا، ونكون كمن رقص على السلم، لا هو سكت وقَبِلَ الإهانة، ولا هو احتج وَرَدَّهَا». وقلت (وبشىء من نفاد الصبر) «لنفرض أنهم اعتبروها تمردا - فلست أظنهم قادرين على المخاطرة بإجراءات عنيفة - سجلوا موقفا وليكن ما يكون!». ومرة أخرى ساد صمت، وكانت السيارة تخرج بنا إلى طريق منشية البكرى، وبعد قليل عاد «جمال عبد الناصر» إلى الكلام بما معناه «أنتم المدنيون سهل أن تقولوا تمردوا لأنكم مدنيون - أمّا فى «العسكرية» فإن الموضوع مختلف، وأى مظاهرة سوف تعتبر تمردا!» - سكت قليلا ثم استطرد «تعتبر عصيانا - أليس ذلك ما حدث من «عرابى» ورفاقه (يقصد الزعيم الوطنى أحمد عرابى (باشا)) ثم يتدخل الإنجليز - كما تدخلوا سنة ١٨٨٢، والنتيجة أن الجيش يتحمل على «شرفه» مصيبة احتلال عسكرى سافر للبلد مرة أخرى».

وقلت (ولا أعرف ما دعانى لقولها) «إن الإنجليز لن يتدخلوا مهما حدث فى القاهرة». وسألنى وفى نبرات صوته استغراب ظاهر - قائلا: «كيف أستطيع الجزم بهذه الطريقة القاطعة؟». ورحت أرد عليه كما لو أنى كنت أكتب خبرا - أو تحليلا.

قلت:

أولا: لأن الإنجليز اتخذوا قرارا بعدم التدخل فى القاهرة والدلتا - قرارهم الآن أن لا تتجاوز قواتهم حدود منطقة القناة، وهم توصلوا لهذا القرار ذات اليوم الذى احترقت فيه القاهرة، بإدراك أنهم إذا تقدموا سوف يواجههم موقف فوضوى معقد لا يريدون لقواتهم أن تتورط فيه.

وثانيا: لأن التطورات فى منطقة الخليج الفارسى متأزمة بسبب الثورة فى إيران، وبعد احتلال الجيش الإيرانى لمحطة تكرير النفط

الكبرى فى منطقة عبدان، فإن القوات البريطانية تم تعزيزها فى الكويت، وكانت قوات التعزيز من قاعدة قناة السويس، التى سحبت منها ست كتائب وربما سبع، ولذلك فإن القوات اللازمة لأى تدخل بريطانى ليست هذه اللحظة كافية، وإذا أريد إعادة حجمها إلى ما كان عليه، فذلك يحتاج إلى شهر أو شهرين على الأقل.

وثالثا: لأن موسم الصيف «فى عِزِّه» سواء فى لندن أو فى القاهرة، وخطوط الاتصال فى الصيف شبه معطلة خصوصا من مصر، وأعرف يقينا أن «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا يستعد لرحلة بحرية فى الجزر اليونانية، وأن وزير الخارجية البريطانى «أنتونى إيدن» يستعد للذهاب إلى جزيرة «بربادوس».

ورابعا: وهو دليل آخر على توقعاتهم لهذا الصيف فى مصر - أن السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» بدأ إجازة فى إسكتلندا، وأن الجنرال «أرسكين» قائد القوات البريطانية فى منطقة القناة بدأ إجازة فى قبرص، بل إن الملحق العسكرى البريطانى فى مصر البريجادير «توماس جولبرن» هو الآخر على وشك أن يقوم بالإجازة، وأظنه سافر اليوم.

وخامسا: أنه فى هذه الأحوال فإن الحكومة البريطانية لن ترد عسكريا - لأنها فى هذه الحالة تكون مطالبة بحساب موقف الفرقة المصرية الموجودة فى العريش وهى خلف قاعدة قناة السويس، وهذه الفرقة يمكن أن تمثل تهديدا إلا إذا ضمنت الحكومة البريطانية تثبيت هذه الفرقة باتفاق مع إسرائيل وهذه مسألة غير مطروحة لدواع تتخطى مصر!

وسادسا: ومن ناحية أخرى فظنى أن السياسة البريطانية لا تستطيع «أخلاقيا» أن تدافع عن الأوضاع الراهنة بعد كل ما جرى خصوصا فى السنين الأخيرة، بل لعلها لا تمانع فى إعطاء بعض الناس درسا، خصوصا إذا لم تكن هى التى تتحمل مسئولية الدرس.

وبدا «جمال عبد الناصر» شديد الدهشة (إلى درجة الانبهار!) بما قلته - وسألنى: «هل هذه كلها معلومات متاحة للصحفيين؟».

وقلت: «لا أعرف - ولكن ما قلته صحيح».

(والحقيقة أن المصادفات كانت تلعب دورها فى نسيج الحوادث بكفاءة، ذلك أننى قبل أربعة أيام فقط كنت ضيفا على العشاء عند اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن» (قائد المنطقة الشرقية)، وكان العشاء فى بيته بشارع الملك فى حدائق القبة، وضيف الشرف فيه البريجادير «جولبرن» (الملحق العسكرى البريطانى فى مصر).

وكان «جولبرن» يتطلع بشوق إلى إجازته التى يبدؤها بعد أقل من أسبوع، ويقضيها فى بيت استأجره لعائلته فى مقاطعة «بروفانس» الملاصقة شمالا للريفييرا الفرنسية. وكان سفر السير «رالف ستيفنسون» معروفا لا يحتاج إلى معلومات خاصة، لكن خبر سفر الجنرال «جورج أرسكين» قائد القوات البريطانية جاء مباشرة من خلال الحديث مع البريجادير «جولبرن».

وفى الواقع فإن ذلك العشاء فى بيت اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن» كان سهرا طويلا مع أحاديث السياسة وعن الموقف الراهن - وكنت فى اليوم التالى للسهرة قد استعدت التفاصيل لأسجلها فى أوراقى وأضيف إليها ملاحظاتى، وفى ذهنى أننى قد أنشر شيئا حولها - وكذلك فإن النقاط كانت حاضرة فى فكرى - وجارية على لسانى!

كنا قد وصلنا إلى قُرب ميدان المحطة، وتوقفت بالسيارة قبل دخول الميدان لتأمين فرصة للنزول قبل احتمال الزحام، وبدا لى أن «جمال عبد الناصر» يتلكأ - لكنه مُحرج لا يعرف كيف يتصرف.

وبعد تردد سألنى بما معناه «إنه لم يستوعب بالكامل ما قلته، فـ «حضرتك» تكلمت بسرعة، والكلام مهم لأى ضابط أركان حرب، بصرف النظر عن الأزمة الحالية».

ثم سألنى مترددا - وعلى نحو ما راغبا - بما مؤداه «إذا كنا نستطيع أن نذهب إلى أى مكان نكمل فيه الحديث، على الأقل ونحن جلوس على مقاعد ولسنا «ماشيين» بسيارة فى الشوارع». ودعوته إلى مكتبى وقَبِلَ. وتحركت بالسيارة لكنه لم يلبث حتى بان أن لديه استدراكا، وسألنى «مكتبك فى أخبار اليوم؟». قلت «نعم». قال: «هل نستطيع أن نذهب إلى أى مكان آخر؟». وأحس (ربما) أنه مدين بإيضاح فقال بصوت يحمل نبرة اعتذار بما معناه «يقول الناس إن أخبار اليوم هى جريدة السراى»، وسألته «إذا كان يحب أن نذهب إلى بيتى»، وأبدى ترحيبا ظاهرا.

وعند هذه اللحظة فقط! - أحسست بشعور غريب لم أتوقف لتحليله ليلتها، ولكنى فعلت ذلك عندما سجلت وقائع المقابلة بعدها بتسعة أيام، فقد كتبت «لماذا أراد أن يستعيد مرة أخرى ما قلته له؟»، ثم «ما هو معنى إشارته إلى أن أخبار اليوم هى جريدة السراى؟».

(لحظتها وبتأثير ذلك الشعور الغريب الذى أحسست به ولم أتوقف لتحليله - نظرت ناحية «جمال عبد الناصر» والتقت عيناى بعينيه ومضة، وخيل لى أننى لمحت شعلة تيقظ وتحفز، ولم أجد ذلك مثيرا للشك من ضابط أركان حرب يقول إنه يهتم بالتفكير الاستراتيجى).

....

....

وكان اعتقادى ولا يزال حتى هذه اللحظة أن ذلك اللقاء كان حاسما فى علاقة الصداقة التى تأسست - عميقة وراسخة - بين «جمال عبد الناصر» وبينى، ذلك أنها وضعت للعلاقة حجر أساس فيه الكثير من الثقة والاحترام - وفيه نوعا من ألفة محفوفة بتحفظ الغرباء حين يتعارفون ويتقاربون على فكر وراءه سر (يعلمه هو وقتها ويكتمه)، لكن ثقل السر عليه يدفعه إلى الاستزادة والاقتراب أكثر من رجل يعرف (كما بدا له) عن دخائل الأمور ومعانيها - أشياء تغيب عنه.

والحقيقة أن الظروف تلك الليلة كانت مواتية لعلاقة من نوع خاص:

- ففى ذلك اللقاء بيننا (ليلة ١٨ يولية) كان الصحفى وليس الضابط هو الطرف الأقوى، وكنت تلك الأيام صحفيا (يظهر اسمه فى العناوين الحمراء للصفحة الأولى من أكبر جريدة فى الشرق الأوسط يومها وهى أخبار اليوم)، وصحفيا تظهر صورته مع النجوم من مشاهير الزمان (من أول آية الله الكاشانى - حتى عصمت أينونو رئيس جمهورية تركيا - إلى الملك «عبد الله» الأول مؤسس الأردن - حتى الإمبراطور هيلاسلاسى فى أديس أبابا) - وأما هو فقد كان تلك اللحظة «ضابطا عاديا» فى القوات المسلحة، يحتفظ فى قلبه بسر كبير، ولكن سره الكبير مخاطرة قد تذهب بحريته - وبحياته.

وبالتالى فإنه فجر يوم ٢٣ يولية حين التقينا أول مرة بعد الثورة لم أكن ذلك الصحفى القادم إلى موقع حدث كبير يستطلع أخبارا ويسأل فى الظلمات، وإنما كنت رجلا سبق التعرف عليه وسماع رأيه.

- ومن ناحية ثانية فقد بدا أن ما قلته لجمال عبد الناصر فى تحليل الأسباب التى تنفى احتمال تدخل عسكرى بريطانى (على نمط ما حدث وقت ثورة عرابى) - أجاب دون أن أدرى على هاجس ثقيل يلح عليه وقتها (ولم يكن فى علمى) - وليس أفعل فى التأثير بالعمق على النفوس من جواب يجىء لرجل فى موضوع يهمه دون أن يخاطر بتوجيه سؤال.

وفى تلك الليلة فإن «جمال عبد الناصر» وجدنى دون تعمد أو قصد - أرد على سؤال عمره قبل أن ينطق به، ولم يكن فى مقدوره أن ينطق به، وهنا فإن الشعور بالعرفان يخلق إحساسا حميما نافذا إلى العمق.

- ثم إن ما قلته فى عرض وجهة نظرى بأن الإنجليز لن يتدخلوا - بدا منطقيا ومعقولا ومؤكدا بما فيه من معلومات وعلى نحو لفت نظره فيما ظهر لى - وقد تجلى فى نوع من شبه الانبهار بسؤاله: عما إذا كان الصحفيون فى العادة يعرفون هذا كله؟!

● وكان الأثر واضحا بشدة فجر ٢٣ يولية ١٩٥٢ - ففى تلك الساعة المبكرة من فجر ثورة يوليو ١٩٥٢ - كان سؤال كل صحفى وصل إلى مقر قيادة الثورة فى كوبرى القبة هو «كيف جرى ما جرى؟». وبالنسبة لى (أعترف على استحياء) فإن سؤال «جمال عبد الناصر» على خلفية ما كان بيننا قبل أربعة أيام كان: «ما رأيك فيما فعلنا؟».

والفارق كبير بين السؤالين!

"٤"

ملك فى فخ من تدبيره!

يوم الجمعة ١٨ يولية سنة ١٩٥٢ - كان القصر الملكى فى حالة دوار شديد - ومفاجئ.

والشاهد أنه من ثقة زائدة بالنفس تَصَنَّعَهَا الملك بعد صفقة بيع وزارة «نجيب الهلالى» (باشا) إلى المليونير «أحمد عبود» (باشا) فى مقابل مليون فرنك سويسرى (أودعت حساب الملك فى جنيف، و٢٥٠ ألف جنيه تقاسمها أربعة رجال هم «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس» و«أنطون بوللى» و«محمود أبوالفتح» فى رواية «نجيب الهلالى» للقائم



بالأعمال البريطانى «مايكل كرسويل») - راح قناع الثقة الملكى يتشقق يوما بعد يوم.

■ فى البداية - وعندما تألفت وزارة «حسين سرى» (باشا) وهو المقرب من «عبود» إلى درجة اعتباره «صديقه المخلص ورجله المعتمد» - كان الملك يواجه جميع الذين شكوا ثم تيقنوا من وجود صفقة مالية وراء التغيير الوزارى - بإشارات حازمة وملامح صارمة، فهو دون تفصيل يوحى للجميع بأن هناك إشاعات ضده، يروج لها الإنجليز بسبب شكوكهم القديمة والجديدة فيه، وأول إيحاءاته لكل من يهمه الأمر أنه رجل غنى، يملك من الأموال ما يكفيه دون أن يحتاج لرجل مثل «عبود» (باشا) يأخذ منه مليون فرنك سويسرى، حتى ينقذه من وزارة (برئاسة «الهلالى») تطالبه بمتأخرات ضرائب تزيد على ٥ ملايين جنيه.

(ولم يكن «فاروق» هنا يدعى الغنى، فقد كان بالفعل من أغنياء زمانه، وهنا وجه العجب فيما أقدم عليه لأنه لم يكن فى حاجة إليه ماليا، ولا كان - من الناحية السياسية - تحت ضغط يدفعه إلى تغيير وزارة لم يطل عمرها عن أسابيع - بعد سلسلة من أربع وزارات تعاقبت فى ظرف خمسة شهور).

ومع ذلك فإن الملك كما هو ثابت، عقد الصفقة ونقد نصيبه منها، وجاء بـ «حسين سرى» (باشا) رئيسا للوزارة بعد أن أخذ عليه تعهدا أن وزارته لن تصبح مثل كل مرة جسرا يعود به حزب الوفد إلى الحكم (سواء تحقيقا لمساعى «عبود»

٥ ليـــال طـــوال!



الملـــك «فـاروق» يبلغ سـفير البرازيـل في مقـابلة معـه: «إنه يئـس من إيجـاد حـكومة سـياسـية في مصـر تحكم بكفاءة وأمـانة كما هو ضرورى لمصلحة البلاد، وعلى أى حال فقد قرر خطة ينتظـر الفرصـة قريبـا لتنفيـذها. ومقتضـاها أن يحـكم مباشـرة، عن طـريق نظـام ديكتاتـورى مقنـع

(باشا) ـ أو تحقيقا لاقتناع ذاتى عند «سرى» (باشا) بأن الوفد هو حزب الأغلبية) ـ وعلى أى حال فإن الملك كان مطمئنا هذه المرة إلى أن «حسين سرى» (باشا) غير رأيه فى الوفد، لأن الوفد نفسه تغير فى السنوات العشر الأخيرة ـ بل إن «سرى» (باشا) قال للملك «فاروق»، وكما روى الملك للسفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» (مجموعة وثائق الملف رقم ٠٠ ٧٧٤) أن تصرفات حزب الوفد فى وزارته الأخيرة من منتصف سنة ١٩٥٠ حتى أوائل ١٩٥٢ كانت «مقرفة» - Disgustingومع ذلك فإن الملك «فاروق» فى صميم قلبه كان يخشى من ضعف «حسين سرى» أمام ضغط «أحمد عبود.

■ فى الأسبوع الأول من شهر يولية (والغالب أنه فى اليوم الثامن من ذلك الشهر) ـ ظهر أول شرخ على سطح القناع الملكى الصارم، لأن «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان الذى سافر إلى الولايات المتحدة على عجل فى مهمة تتعلق بقضايا مالية تخص الملكة «نازلى» ـ فوجئ وهو فى نيويورك بأن وكيل وزارة الخارجية لشئون الشرق الأوسط «هنرى بايرود» يدعوه إلى مقابلته فى واشنطن، ويلقاه فعلا يوم ٢ يولية ويقول له (طبقا لمذكرة عن اللقاء فى الملف ٠٢ ٧٧٤ ـ محفوظات الخارجية الأمريكية) ما نصه «أن أطرافا عديدة من أصدقائنا وأصدقائكم طلبوا إلينا أن نتحدث معكم بالحقيقة دون مجاملة فى شأن النفوذ الطاغى لعناصر فاسدة فى القصر الملكى، وعناصر أخرى فاسدة فى حزب الوفد. وحكومة الولايات المتحدة لا ترغب فى اقتحام الشأن المصرى، لكن حرصها على سمعة الملك «فاروق» ورغبتها فى علاقة ودية معه تدعوها إلى لفت النظر بشدة إلى أخبار كثيرة مؤكدة تتردد حول ملابسات سقوط وزارة «نجيب الهلالى» ».

وطبقا لرواية «حسن يوسف» (فى شهادته المسجلة بصوته) ـ فإنه حين عاد إلى مصر بعد أيام، تشاور مع رئيس الديوان «حافظ عفيفى»، واستقر رأى الاثنين على أن «حسن يوسف» لا يستطيع أن يجلس أمام الملك ويحدثه «بالحقائق الأربع» (les Quatre Verites) (حسب التعبير الفرنسى الشائع). والأكثر ملاءمة أن يكتب له مذكرة مختصرة بما جرى، ويضعها فى مظروف مختوم ـ عليه رجاء أن لا يفتحه أحد غير «حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم»! ويظهر أن الملك اطلع على المذكرة لأنه اتصل بـ «حسن يوسف» تليفونيا وبدأه سائلا بالفرنسية «حسن.. ما هذه البلاهات التى كتبتها لى؟»، ورد عليه «حسن يوسف» بأن ذلك ما أبلغه به وكيل الخارجية الأمريكية، وكان لزاما عليه أن يضعه تحت نظر «مولانا». ورد الملك بأن «تلك إشاعات يروج لها الإنجليز، وأنه سوف يشكو السفارة هنا إلى رئيس الوزراء البريطانى نفسه». ووجد «حسن يوسف» من واجبه أن يقول للملك إنه فى طريق عودته من واشنطن توقف ساعات فى لندن وقابل (السفير المصرى) «عمرو» (باشا) الذى عرف من وزارة الخارجية أن ما نشر فى الصحف البريطانية خاصا «بهذه المزاعم» استوجب لفت نظر من رئيس الوزراء «تشرشل» إلى وزير الخارجية «إيدن»، وأنهم لسوء الحظ هناك «يتداولون معلومات فيها ما يسيء إلى «مولانا» ». وثار الملك «فاروق» وبين ما قاله «أن هناك أطرافا معينين يريدون أن يفضحونى فى العالم حتى أمام «ترومان» (الرئيس الأمريكى)، وأمام «تشرشل» (رئيس الوزراء البريطانى)، وأنه بدأ يشك فى الموضوع حين سمع بما نشر فى الصحف البريطانية الصفراء عن حكاية بيع وزارة «الهلالى» لـ «عبود» ـ وقال «حسن يوسف» مضغوطا (وكان بالفعل محرجا) «إن المشكلة تعقدت حين نشرت جريدة التيمس أيضا» (وهى ليست جريدة صفراء، بل إنها فى تلك الأيام كانت تعتبر فى مصر أصدق تعبير عن السياسة البريطانية عند مستوى صنع القرار) ـ وزادت ثورة الملك. وقال «إن ذلك كله شغل عناصر فى السفارة (البريطانية) هنا تكرهه، وهو كثيرا ما نبه الديوان إلى هذه العناصر، لكن بعضهم فى الديوان لم يكن يريد أن يصدق، والآن فإن الدليل ظاهر أمام الكل يؤكد شكوكه من البداية إلى النهاية. وكان «حسن يوسف» يسمع ساكتا وفوجئ بالملك يقول له باللغة العربية وبلهجة حادة «إنت ساكت ليه؟ وإلا صدقت إنت كمان»؟ ورد «حسن يوسف» تلقائيا بقوله «أعوذ بالله».

(وروى «حسن يوسف» (باشا) بصوته فى التسجيل أنه لم يكن فيما قال به «منافقا» وإنما كان يعبر فى ضميره عن رغبة فى إنكار صحة وقائع يعلم لسوء الحظ أنها صحيحة!)

لكن الملك «فاروق» فيما بينه وبين نفسه أخذ يشعر بضيق شديد، فقد أحس أن لعبة صغيرة (من نوع ألعاب القمار التى يمارسها فى نادى السيارات وغيره) ـ تحولت إلى فضيحة دولية، وتاثر قناع الثقة الزائدة الذى وضعه «فاروق» على وجهه.

■ ويوم ١٢ يولية تلقى الجناح الملكى الخاص (الخدمة الشخصية) «محمد حسن» مذكرة عن نص مكالمة تليفونية جرت بين المستشار «يحيى» (بك) (الذى كان ملحقا بالوفد المصرى فى الأمم المتحدة ثم ترك الخدمة ونذر نفسه لتحسين العلاقات بين السفارة البريطانية والوفد فى محاولة لبعث دور «أمين عثمان» (باشا))، وفى هذه المحادثة التى تظهر فى أوراق «محمد حسن» (وقد نقلت كلها إلى وزارة الداخلية بعد الثورة) ـ ظهر أن «يحيى» (بك) يبلغ المستر «باروز» المستشار فى السفارة دعوة من «فؤاد سراج الدين» (باشا) سكرتير حزب الوفد (الذى صدر قرار بالإفراج عنه) إلى الوزير البريطانى المفوض «مايكل كرسويل» كى يلقاه ويقضى نهارا كاملا فى عزبته ببلبيس لحديث شخصى وغير رسمى.

(وهناك إشارة فى الوثائق البريطانية إلى هذا الاتصال (٢١٢ / ١٠١٩) ـ وهو على شكل مذكرة تفاهم سلمها «يحيى» (بك) إلى المستر «باروز» المستشار فى السفارة البريطانية ـ تحتوى على أربع نقاط:



حافظ عفيفى



حسين سرى

١ ـ أن الوفد على استعداد لفتح صفحة جديدة من الصداقة والتعاون.

٢ ـ أن الصحافة الوفدية يمكن أن توقف حملاتها الدعائية ضد بريطانيا ـ بادئة من فترة الانتخابات القادمة.

٣ ـ أنه إذا عاد الوفد إلى السلطة فإن اثنين من وزرائه السابقين لن يشتركوا فى وزارته الجديدة وهما «محمد صلاح الدين» و«إبراهيم فرج».

٤ ـ أن حكومة الوفد سوف تكون على استعداد لمفاوضات بناءة مع بريطانيا، وسوف يتضمن خطاب العرش الذى يلقى فى افتتاح البرلمان الجديد إشارة واضحة إلى هذا العزم.

ولم يقرأ الملك «فاروق» بطبيعة الحال هذه الرسالة، لكنه عرف من تسجيل المكالمة التليفونية بين «يحيى» و«باروز» أن السكرتير العام لحزب الوفد يدعو الوزير المفوض فى السفارة البريطانية ليوم كامل معه فى ريف الشرقية!

(ولم يعرف الملك أيضا أن وزارة الخارجية طلبت إلى «كرسويل» أن يعتذر عن تلبية الدعوة).

وأصيب قناع الثقة الزائدة الذى وضعه الملك فاروق على وجهه بشرخ آخر إضافى.

■ يوم ١٣ يولية رفع الديوان الملكى إلى «المقام السامى» (حسب التعبير الرسمى) نصوصا لأحاديث صحفية أجراها المستر «والتر كولينز» (مدير وكالة اليونايتد برس فى مصر مع «مصطفى النحاس» (باشا) و«فؤاد سراج الدين» (باشا) قبل سفر الاثنين إلى أوربا، إلى جانب حديث ثالث مع «حسين سرى» (باشا) رئيس الوزراء.

وطبقا لبرقية اليونايتد برس أذيعت من «ماركونى» فى القاهرة عند الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة ١٤ يولية ـ ورد على لسان «النحاس» (باشا) قوله «إنه واثق أن حكومة «حسين سرى» (باشا) سوف تحترم الموعد المقرر لإجراء الانتخابات النيابية فى شهر أكتوبر القادم، وأنه شخصيا وكذلك حزب الوفد يثقون فى نظافة أى انتخابات يجريها «حسين سرى» ويقبلون عن طيب خاطر نتائجها.

وأما «فؤاد سراج الدين» (باشا) فقد قال (طبقا للأحاديث الصحفية) مع «والتر كولينز»: «إن زعيم الوفد يعتزم قضاء ثلاثة أسابيع فى أوربا ويعود استعدادا لإعلان برنامج الوفد وأسماء مرشحيه فى الانتخابات البرلمانية القادمة».

وبالنسبة لـ «حسين سرى» (باشا) (رئيس الوزراء)، فقد ورد فى رسالة «والتر كولينز» أنه ساله: «هل تنوون سعادتكم إجراء الانتخابات النيابية فى المستقبل القريب؟ وهل هناك اتجاه إلى تعديل قانون الانتخابات؟»، ورد «سرى» (باشا) قائلا:

«أريد تذكيرك بأننى نصير قوى (A Staunch Supporter) للنظام البرلمانى. وإذا بدا لك أن وزارتى الجديدة تركز أكثر على الجوانب الاقتصادية، فإن هذا لا يعنى أننى أتجاهل الجانب السياسى فى حياتنا الوطنية، وعلى أى حال فنحن نقوم بدراسة الموقف من كافة نواحيه وبكل جدية».

وطبقا لشهادة «حسن يوسف» (باشا) فإن الملك لم يتحدث إليه مباشرة فى شأن مجموعة أحاديث «والتر كولينز» وما جاء فيها على لسان «النحاس» و«سراج الدين» و«حسين سرى» ـ لكن ما بعث به إلى «المقام السامى»

عاد إليه وعلى الهامش علامة استفهام كبيرة وضعها الملك بقلمه! ويستنتج «حسن يوسف» (باشا) أنه ربما - من لحظتها - بدأ الملك «فاروق» يشك أن هناك طبخة (يقوم بإعدادها أناس يتصورون أنه (أى الملك) فى وضع لا يسمح بحرية التصرف كما يريد).

وطرأ شرخ آخر على قناع الثقة الزائدة الذى يضعه الملك على وجهه.

■ كان سفير البرازيل فى القاهرة آخر سفير أجنبى قابله الملك قبل هبوب عاصفة يولية، وكان «فاروق» يريد إبلاغه رسالة إلى الرئيس البرازيلى «دا جارسيا آرانها» (بشأن مشكلة طلبت منه النبيلة «فاطمة طوسون» أن يساعدها على حلها، وتخص الرجل الذى تزوجته، ويظهر أن «فاروق» أراد أن يساعد «فاطمة طوسون» ليثبت لها كرمه وحتى تعرف مدى الخسارة التى لحقت بها حين رفضت عرض زواج منه وآثرت غيره - وهو كونت برازيلى من أصل برتغالى).

وانتهز سفير البرازيل فرصة لقائه مع ملك مصر فى أجواء أزمة جادة، وسأله «كيف يرى صاحب الجلالة تطورات الأزمة الراهنة فى مصر؟». وروى السفير فى برقيته (التى اطلع عليها السفير الأمريكى فى القاهرة «جيفرسون كافرى» وأرسل ملخصا لها إلى واشنطن (ملف ٧٧٤٠٢) - أن الملك رد عليه بقوله:

«إنه يئس من إيجاد حكومة سياسية فى مصر تحكم بكفاءة وأمانة كما هو ضرورى لمصلحة البلاد، وعلى أى حال فقد قرر خطة ينتظر الفرصة قريبا لتنفيذها - ومقتضاها أن يحكم مباشرة، عن طريق نظام ديكتاتورى مقنع (Veiled Dictatorship by Himself)، وداعيه إلى ذلك شعوره بأن واجبه الأول تجاه بلاده يفرض عليه أن يقودها إلى استقرار يبدأ باتفاق مع الإنجليز ويكون بعده التركيز على الإصلاح الداخلى».

واستطرد السفير البرازيلى فى تقريره: «إننى استمعت إلى صاحب الجلالة باهتمام عميق» ثم قلت «إن خطة كتلك التى أشار إليها تقتضى تأييدا كاملا من الجيش، فهل جلالته مطمئن من هذه الناحية، خصوصا بعد كل ما شاع فى الأسابيع الأخيرة؟». ورد الملك بقوله «إننى مستعد لذلك وقد طردت من الخدمة العسكرية عددا من الضباط لم تكن «عندنا» ثقة كافية فى ولائهم، والآن فإنى ضامن لولاء الجيش بنسبة ١٠٠٪!».

والراجح أن الملك «فاروق» ساورته وساوس وشكوك فى أن «حسين سرى» (عميل مزدوج Double Agent) ويمكن أن يورطه فى آخر لحظة ويمهد الطريق أمام عودة الوفد (لحساب «عبود») - ثم يجد الملك نفسه أمام أمر واقع لا يستطيع منعه ولا يقدر على التعامل معه!

وهنا ذهب تفكيره إلى ما أسماه ديكتاتورية عسكرية، وهى فى ظن «حسن يوسف» (باشا) وزارة جديدة برئاسة «مرتضى المراغى» (وزير الداخلية السابق) (رجله القوى الذى أعده مبكرا للموقف الصعب وتكون مهمته تأجيل الانتخابات البرلمانية إلى أجل غير مسمى، والحكم بمراسيم لها قوة القانون لفترة تطول سنتين على أقل تقدير!).

ويوم ١٧ يولية - وبعد تلك الاجتماعات الصاخبة التى شهدها نادى ضباط الجيش (بسبب رغبة الملك فى تعيين «حسين سرى عامر» عضوا فى مجلس الإدارة ممثلا لسلاح الحدود - ورفض المجلس لهذه الرغبة الملكية - وصدور القرار بحل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش) - تطورت الأمور بحيث عاد الملك «فاروق» مرة أخرى إلى الإلحاح على تعيين «حسين سرى عامر» وزيرا للحربية لإنهاء هذه الفوضى فى نادى الضباط، وفوجئ الملك «فاروق» بأن رئيس وزرائه يعرض عليه فى المقابل ترشيح «محمد نجيب» وزيرا للحربية والبحرية، ثم إن رئيس الوزراء يلح على قبول هذا الترشيح «لأن ذلك أدعى إلى الأمان والاطمئنان»، مضيفا للتأكيد أن زوج ابنته (وزير الداخلية) سوف يقابل بعد غد (يوم ١٩ يولية) اللواء «محمد نجيب» مرة أخرى ليختبر استعداده، وهنا نهض الملك «فاروق» واقفا، إشارة إلى أن مقابلته مع رئيس الوزراء قد انتهت.

ويوم ١٨ يولية (وهو يوم جمعة) فوجئ «حافظ عفيفى» (باشا) - فى مزرعته (لؤلؤة الصحراء) على طريق المنصورية بوكيل الديوان «حسن يوسف» (باشا) يتصل به تليفونيا ليقول له «إنه أبلغ على لسان جلالة الملك أن «سرى» لم يعد «ينفع»، وأن «مولانا» يفكر فى تغيير وزارى سريع».

وتحمس رئيس الديوان وأحس «حسن يوسف» بحماسته، وتعليقه - طبق شهادته - «إنه استشعر منذ تشكيل وزارة «سرى» بعد سقوط وزارة «الهلالى» أن «حافظ عفيفى» يرتب للخروج من القصر، لكنه حائر فى الأسلوب الذى ينفذ به رغبته، وأن إحدى قدميه داخل السراى والقدم الثانية خارجها». لكنه فى ذلك اليوم وبعد معرفته بأن الملك قرر التخلص من «حسين سرى» - راح يتصرف بثقة وكأنه بقدميه الاثنتين داخل السراى و«عنده تدبير». ■

اليوم الثانى - الليلة الثانية

السبت ١٩ يولية ١٩٥٢

الأوهام تسبق الحقائق!

■ ■ عندما وصل «حافظ عفيفى» (باشا) (رئيس الديوان الملكى) إلى مكتبه صباح السبت ١٩ يولية ١٩٥٢ فى الساعة العاشرة إلا ربعًا، وجد رسالة من «كريم ثابت» (المستشار الصحفى للملك) (الذى دخل وزيرا للدولة فى وزارة «حسين سرى» التى أصبح الملك «فاروق» مقتنعا بأنها لم تعد «نافعة») - وكانت الرسالة رجاءً من كاتبها إلى رئيس الديوان أن يتصل تليفونيا به فور وصوله، وطلب «كريم ثابت» أن يجىء فورا إلى مكتب «دولة الرئيس» لأن لديه «رسالة ملكية مهمة». وفوجئ «حافظ عفيفى» (وفق روايته لحسن يوسف ذات اليوم) - أن «كريم ثابت» يبلغه «أن هناك إرادة ملكية تعهد إلى دولته (حافظ عفيفى) بتشكيل وزارة جديدة تحل محل وزارة «حسين سرى» (التى مضى عليها فى الحكم عشرون يوما)، ولم يكن «حافظ عفيفى» جاهزا برد، لكنه أبلغ «كريم ثابت» أنه سوف يحاول أن يتصل «بجلالة الملك» شخصيا ويأمل أن يتمكن من ذلك بسرعة لكى يفهم طلبه ويتأكد من أفكاره، ويعرض «على جلالته» تقديره للموقف.

وخرج «كريم ثابت» من مكتب «حافظ عفيفى»، ودخل «حسن يوسف» ليعرف أن الملك الذى اعتزم الاستغناء عن خدمات «حسين سرى» قد اختار الآن «حافظ عفيفى» رئيسا لوزارة جديدة، وحين توجه وكيل الديوان إلى رئيسه بسؤال عن رأيه، قال «حافظ عفيفى» «إنه لا يستطيع أن يقول شيئا قبل أن تُتاح له الفرصة للكلام مع جلالة الملك».

ويبدو أن ترشيح «حافظ عفيفى» لرئاسة الوزارة انتشر بسرعة (فى الغالب عن طريق «كريم ثابت»). والشاهد أن القائم بالأعمال البريطانى «مايكل كرسويل» كتب برقية (رقم ١٩٨/ ١٠١٨) يقول فى بند من بنودها (البند الرابع) ما نصه: «هناك تقارير تفيد بأن وزارة «حسين سرى» قدمت استقالتها للملك «فاروق»، وأنه قبِلها، وكلف «حافظ عفيفى» رئيس الديوان بمهمة تشكيل وزارة جديدة».

ولا يتوقف «كرسويل» عند هذا الحد فى برقيته، لكنه يضيف فى آخرها بندا (البند الخامس) يقول فيه ما نصه:

«إننى آمل أن تكون القيادة العامة للقوات البريطانية (فى منطقة القناة) على إحاطة باحتمالات الأزمة السياسية الراهنة، والتى تسببت فيها حماقة الملك (Folly of the King). فهناك إمكانية أن تتسبب التداعيات المتلاحقة خلال الأيام القليلة القادمة فى مشاكل كبيرة، وعلى أى حال فإنى أرجو أن أستطيع تقديم تحليل متوازن للموقف حالما تتضح الصورة».

لكن القائم بالأعمال البريطانى «مايكل كرسويل» يعود بعد ساعات لتخفيف تشاؤمه، ويظهر أن ذلك كان من أثر زملاء له فى لجنة التنسيق الدبلوماسى بين الحلفاء فى القاهرة، وكانت هذه اللجنة (ولاتزال حتى الآن) تضم سفراء دول حلف الأطلنطى يجتمعون مرة كل شهر، مع وجود لجنة فرعية مصغرة من سفراء الدول الثلاثة الكبرى: الولايات المتحدة - وبريطانيا - وفرنسا، تجتمع كل أسبوع للمتابعة، خصوصا فى ظروف الأزمات.

ويوم ١٩ يولية كانت هذه اللجنة المصغرة على موعد، وطبقا لبرقية (ملف ٧٧٠٤٢) من السفير الأمريكى فى القاهرة «جيفرسون كافرى» إلى «هنرى بايرود» مساعد الوزير المكلف بالشرق الأدنى وأفريقيا، فقد قال «كافرى»:

«أحسست أن زميلى البريطانى مبالغ فى تشاؤمه، وتقديره أن الموقف السياسى متأزم، وبالتأكيد فإن الموقف متأزم، لكن وجهة نظرى - وكذلك هيئة سفارتى - لا ترى ما يدل على أن الموقف وصل إلى طريق مسدود».

وأضاف «كافرى» أن زميله الفرنسى (السفير «كوف دى مورفيل» لم يحضر هذا الاجتماع لأنه سافر إلى باريس (هو الآخر) وحل محله وزيره المفوض) - الذى «يرى أن احتمالات الموقف قبيحة جدا (Very Nasty)، لكنه يرى أن الأمور سائرة نحو عودة الوفد إلى الحكم.

«وقد علمنا ونحن فى الاجتماع أن «حافظ عفيفى» يقوم الآن بتشكيل وزارة جديدة، ويُحتمل أن ينتهى ذلك اليوم، لأن الظروف لا تحتمل إضاعة الوقت من وجهة نظر القصر».

وفى لندن يكتب رئيس قسم الشرق الأوسط «روجر آلن» مذكرة (رقم ٩٦٨٧٧/ ٣٧١) تحت عنوان الموقف المصرى يقول فيها:

«دعوت «عمرو» (باشا) (السفير المصرى فى لندن) إلى الغداء حتى أقوم - معه بمحاولة لمراجعة واستكمال الأخبار الواصلة إلينا من مصر. بدا لى أن «عمرو» ليس لديه شىء محدد، ولكن ما لديه عموما يؤكد المعلومات الواصلة إلينا، وبالذات فيما يتعلق بضيق الملك «فاروق» عندما اقترح عليه رئيس الوزراء «حسين سرى» اسم اللواء «محمد نجيب» ليكون وزيرا للحربية والبحرية، ولم يكن «عمرو» (باشا) على وجه العموم متشائما جدا فيما يتعلق بحالة السخط السائدة فى الجيش بسبب تردى الأحوال السياسية».

وذكر لى «عمرو» أن «حافظ



«كرسويل» الوزير البريطانى المفوض فى تقريره إلى لندن: «قال لى «حافظ عفيفى» إن بؤرة التوتر فى الجيش سوف تتم تصفيتها فى ظرف عشرة أيام على الأكثر، وأن لديهم الآن معلومات كافية عن مُثيرى الشغب، والملك داخل بنفسه فى عملية واسعة لتأمين الوضع فى الجيش

عفيفى» كلف بتشكيل وزارة جديدة، وهو يرى أن «عفيفى» سوف يخطئ كثيرا إذا لم ينتهز فرصة حاجة الملك الماسة إليه حتى يضع شروطه وأهمها: ضرورة تطهير القصر الملكى من رجال مثل «كريم ثابت» و«إلياس أندراوس»، وإذا قَبِلَ «حافظ عفيفى» دون قيد أو شرط، فإنه سوف يسىء إلى نفسه، وسوف يلقى به إلى «مقلب الزبالة» فى أول فرصة، وطلب منى «عمرو» أن أعمل على تشجيع «حافظ عفيفى» للوقوف بصلابة، حتى يدرك الملك «فاروق» خطورة الطريق الذى يسير فيه».

وكانت هذه المذكرة فى حد ذاتها - وبما ورد فيها نقلا عن «سفير الملك» فى لندن - نذيرا بأن سوء الأحوال بلغ مداه.

والملاحظ أن هذه المذكرة تلتها فى الوثائق البريطانية رسالة إلى الوزير البريطانى المفوض «مايكل كرسويل» تطلب إليه الاتصال بحافظ عفيفى، وقد أُرفق بالبرقية ملخص «عما قال به «عمرو» (باشا) لروجر آلن على غداء بينهما أمس».

وحوالى الظهر اتصل الجناح الخاص (محمد حسن) من قصر المنتزه بالإسكندرية بـ «حافظ عفيفى» (باشا) يقول له بسرعة «إن مولانا مع سعادتك»، ثم سمع رئيس الديوان صوت الملك يسأله «جاهز؟»، ومع أن «حافظ عفيفى» كان مُهيأ لاتصال من الملك، فإنه لم يتوقع هذه البداية للتصرف فى أزمة سياسية خطيرة. وقال «حافظ عفيفى» أنه «يلتمس» بضع دقائق من وقت الملك، يعرض عليه تقدير الديوان للأوضاع والاحتمالات. ورد الملك بدعوة رئيس الديوان إلى لقائه فى قصر المنتزه، وهناك قضى قرابة نصف الساعة مع الملك، ثم عاد متوجها مباشرة إلى مقر الديوان خلف القصر وهو مبنى «السلاملك». وطبقا لشهادة «حسن يوسف» فإن «حافظ» (باشا) عاد إلى السلاملك وقد بدت عليه «علامات الرِّضا» - ولم يدخل فى تفاصيل عما جرى فى المقابلة مكتفيا بخطوط عامة أفضى بها إليه:

١- أنه بادئ الأمر فكر فى قبول التكليف بتشكيل الوزارة لعدة شهور يقوم فيها «نجيب الهلالى» (باشا) بتأليف حزب سياسى جديد (يأخذ أهم العناصر فى الوفد، وأهم العناصر بين المستقلين)، ويخوض بهم معركة الانتخابات القادمة، ويصنع من حزبه الجديد قوة سياسية مستقلة «تكون أكثر من مجرد مسكن لمرض مزمن ومؤلم».

٢- لكنه عند الصباح غَيَّر رأيه فى «تصوراته الليلية» بتقدير أن مثل هذه التصورات يصعب تحقيقها بخطوة واحدة، لأن هناك «احتقانا» فى البلد الآن لابد من التعامل معه، وتأجيل ذلك حتى أكتوبر مع تعليق الأمل على نجاح «الهلالى» فى تشكيل حزب جديد - يستطيع (أو لا يستطيع) إثبات وجوده فى الانتخابات - سابق لأوانه، والأولى الآن تخفيف الاحتقان السياسى وبسرعة.

٣- والحل المعقول وذلك ما اقترحه «على جلالة الملك الذى قَبِلَ بعد تردد» هو أن يعود «نجيب الهلالى» (باشا) إلى رئاسة وزارة أقوى من وزارته الأولى، وبحيث يواصل ما بدأه بكفاءة أكثر، ثم يكون من ذلك فى الداخل وفى الخارج (ذات الوقت) تكذيب عملى لشائعات مغرضة سمعناها جميعا، وتألم لها جلالة الملك «وهذا رده العملى بتكذيبها».

وفى الغالب فإن تلك الحجة الأخيرة هى التى أقنعت الملك لأنها تجاوبت مع وساوسه إزاء فضيحة لحقت به فى عين «تشرشل» و«إيدن» والرئيس الأمريكى «هارى ترومان» أيضا!.

وتظهر الوثائق البريطانية أن «حافظ عفيفى» (باشا) كان أكثر استفاضة فى الحديث مع الوزير البريطانى المفوض عما كان مع «حسن يوسف». وطبقا لتقرير مُرسل إلى لندن (٢٠٣ / ١٠١٨) فقد كتب «مايكل كرسويل» يقول:

«ذهبت لمقابلة رئيس الديوان فى بيته (على شاطئ البحر بين منطقتى ستانلى وجليم) مساءً، وبدأت بتهنئته على النتيجة السعيدة التى توصل إليها فى معالجة الأزمة السياسية فى مصر، وقلت له «إن هذه النتيجة



نجيب الهلالى



مرتضى المراغى

انتصار لصبره ودبلوماسيته الهادئة مع الملك».

وأنكر «حافظ عفيفى» أنه لعب دورا فى إقناع الملك بالاستغناء عن وزارة «حسين سرى»، لكنه قال إنه الآن أكثر ثقة بالمستقبل مما كان فى أى وقت مضى خلال الشهور الستة الماضية.

أضاف «حافظ عفيفى» أن «الهلالى» يجىء الآن على شروطه، واعتقاده أن حكومة يرأسها «الهلالى» الآن - سوف تتمكن من البقاء فى الحكم لفترة معقولة».

وقال لى «حافظ عفيفى» «إن الملك ظن بعد أن أحس بتردده (فى تشكيل الوزارة بنفسه) أنه خائف من المسئولية لا يريد أن يتحملها، وأنَّه (أى الملك) جرب التفكير فى بديل وسمع اقتراحا بترشيح «على ماهر» مرة أخرى (رجل مواجهة الأزمات واستيعاب الصدمات) - ولكنه لا يثق فى «على ماهر»، وأنه إذا كان أمامه خيار بين «نجيب الهلالى» و«على ماهر» فهو يختار «الهلالى» ».

قال «حافظ عفيفى» «إنه بدا له من الملك استعداد لإعطاء «نجيب الهلالى» فرصة حقيقية يحكم فيها دون تدخل من الحاشية، وأن الملك أصبح يرى أن «بعض هذه الحاشية» يسىء إليه شخصيا».

وكتب «كرسويل» فى برقيته بين قوسين «لدينا معلومات من مصادر مستقلة بأن الملك فى إحساسه بحرج موقفه (بعد فضيحة بيع وزارة «الهلالى» الأولى) - بدأ يشك أن بعض رجاله مسئولون عن الإساءة إلى سمعته».

ثم عاد «كرسويل» إلى سياق تقريره:

«قال لى «حافظ عفيفى» أن بؤرة التوتر فى الجيش سوف تتم تصفيتها فى ظرف عشرة أيام على الأكثر، وأن لديهم الآن معلومات كافية عن مُثيرى الشغب، والملك داخل بنفسه فى عملية واسعة لتأمين الوضع فى الجيش، وأنهم فى الديوان قضوا بعد الظهر بطوله يرتبون متصلين بالملك طول الوقت وقد رسموا خطة قابلة للتحقيق:

- سوف يكون «إسماعيل شيرين» صهر الملك (بزواجه من الأميرة - الإمبراطورة السابقة فوزية) - وزيرا للحربية والبحرية وهو يعرف كل شباب الضباط فى الجيش، كما أنه (حافظ عفيفى) واثق أن «إسماعيل شيرين» سوف يكون مقبولا فى الجيش، ثم إنه شخصيا يطمئن إلى «إسماعيل شيرين» لأنه يعرفه منذ كان طفلا، وكان هو الذى اقترحه بالفعل على «الهلالى» (باشا) عندما قابله ليعرض عليه تشكيل الوزارة فى ظروف جديدة.

- وقد اتفقوا على أن يُحال «حسين سرى عامر» للتقاعد فى مقابل إحالة «محمد نجيب» للتقاعد أيضا، و«حافظ» (باشا) بما لديه من معلومات لا يعتقد على الإطلاق أن «محمد نجيب» ضابط كفء، بل إنه رجل يمكن أن يتسبب فى مشكلات فى أى منصب يكون فيه، وأن الخلاص من الرجلين اللذين ارتبط اسميهما بالأزمة الأخيرة فى الجيش أنسب الآن وأفضل، وأن القائد العام للجيش «حيدر» (باشا) سوف يظل فى منصبه لأنه يعرف كل دخائل الجيش، على أنه ربما لا يبقى طويلا.

- أنه يمكن استمالة شباب الضباط بحركة ترقيات سريعة وإرسال بعثات على نطاق واسع إلى الخارج، كما أن هناك جهدا سوف يُبذل فى سلاح الطيران بالذات، لأن ضباط الطيران يضايقهم أن يخدموا تحت قيادات من الجيش، ويظنوا أن ضباط الجيش لا يعرفون ما فيه الكفاية عن الطيران.

- وأنه عندما تستقر الأمور فى الجيش فإن الأحوال يمكن أن تتحسن، وربما يكتشف «أحمد عبود» وقتها أن كل رهاناته خاسرة وأن رشاويه ضاعت سدى، وعلى أى حال فهو يتوقع عودة الهدوء لأن العادة فى مصر أنه عندما يبدأ موسم جنى محصول القطن، تتحرك الدورة الاقتصادية.

ويختم «كرسويل» تقريره بقوله:

«يبدو لى أن هناك فرصة لتحسن الأحوال إذا استطاع الملك أن يبتعد بأصابعه عن «الفطيرة السياسية» (If the King is able to keep his fingers out of the Political Pie».

ثم يضيف «كرسويل» كخاتمة لتقريره:

«أبلغنى «حافظ عفيفى» أنه يرتب لإجازة فى أوربا تبدأ منتصف أغسطس».

وتكتمل دورة التفاؤل برسالة تظهر فى وثائق هيئة أركان الحرب الإمبراطورية فى لندن وهى مُرسلة من قيادة القوات البريطانية فى الإسماعيلية (برقم ١٠٥٥) وهى تبدأ قائلة:

«بالإشارة إلى تقرير الملحق العسكرى فى القاهرة ٤٧/ ١٨٧/ ف/ م.ع) نفيدكم بأن التحركات العسكرية المصرية التى تم رصدها هى تحركات عادية تشمل تغييرا روتينيا لمواقع اللواء الخامس واللواء المصرى».

اليــــوم الثــــالث - الليلة الثـــالثـــة

الأحـــد ٢٠ يوليـــة ١٩٥٢

«هل أطلب توقيع الملك على كمبيالة؟!»

صباح يوم الأحد ٢٠ يولية ومبكرا (الساعة السادسة وعشر دقائق) - دق التليفون وكان المتكلم هو الدكتور «محمود محفوظ» (صهر «نجيب الهلالى» (باشا) ووزير الصحة فيما بعد) - يقول لى: «إن «نجيب» (باشا) كلف بتشكيل وزارة جديدة وهو يطلبك فى الإسكندرية إذا استطعت أن تجىء اليوم».

وسألت «محمود محفوظ» بدهشة «وهل قبِلَ «نجيب» (باشا)؟ ورد «طبعا.. لديه أسباب جعلته يقتنع - وسوف تسمع منه عندما تجىء!».

(كان مفروضا وفقا لترتيب العمل الذى اتفقنا عليه فى شأن الفرصة المُتاحة (بالأزمة الراهنة) لزيادة توزيع الأخبار - أن أظل فى القاهرة، لكنه - وبما أن دورى فى تغطية الحوادث كان من قسمين: نصف يركز على متابعة ما يجرى فى الجيش بحكم علاقات من أيام حرب فلسطين وهو ما يقتضى بقائى فى القاهرة، ونصف آخر يتعلق بتغطية نشاط «نجيب الهلالى» (باشا). وبما أنه الآن على وشك أن يؤلف الوزارة مرة ثانية - إذن فمن المعقول أن أترك القاهرة إلى الإسكندرية التى أصبحت بؤرة الحوادث الآن).

وهكذا اتصلت بالأستاذ «على أمين» واكتشفت أنه عند منتصف الليل أمس سافر إلى الإسكندرية ليلحق بـ «مصطفى» الذى سبق مبكرا، ثم إن «على أمين» ترك لى رسالة موجودة الآن بخطه على مكتبى.

وتوجهت بسرعة إلى مبنى أخبار اليوم أقرأ رسالة «على أمين» وكانت مختصرة:

«لم أستطع أن أمسك أعصابى، وذهبت إلى الإسكندرية»، اتصل بى أو بمصطفى فى فندق «سيسيل» - مصطفى فى الغرفة ٢١٢، أما أنا فلا أعرف رقم الغرفة التى حجزوها لى، ما رأيك فى تطورات الموقف السياسى، سوف يكون عليك الليلة إعداد الصفحة الأولى من الأخبار!

واتصلت بمصطفى فى فندق «سيسيل»، ولم يكن فى غرفته - بل كان فى ركن صالة الفندق مع «مرتضى المراغى» (باشا) (الذى شاع أن القصر طلبه وزيرا للداخلية، وكان ذلك متوافقا مع توجه رئيس الوزراء المكلف لأن «مرتضى المراغى» كان يشغل ذات المنصب فى وزارته الأولى - ثم إنه امتنع عن دخول وزارة «سرى»).

بادرنى «مصطفى» بالسؤال «إذا كنت عرفت بآخر الأخبار؟» وقلت «إن ذلك ما دعانى للاتصال به، لأن «على» تركنى فى القاهرة وذهب عند «نص الليل» إلى الإسكندرية، والآن تلقيت دعوة من «نجيب الهلالى» (باشا) لمقابلته فى الإسكندرية». وأدرك «مصطفى» أن ذهابى إلى الإسكندرية أنفع من بقائى فى القاهرة، ولو ليوم واحد، «أقابل فيه «نجيب» (باشا) وأتابع عملية تشكيل وزارته ثم أعود غدا إلى القاهرة» - ثم أضاف «وأما بالنسبة لليلة فلا بد أن نلتقى فى الساعة التاسعة مساءً هنا فى «سيسيل»، ويكتب كل منا ما عنده، ونُعد منه رسالة واحدة نُمليها بالتليفون.»

وبدأت أستعد لمغادرة أخبار اليوم منطلقا بسيارتى على الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية، ورأيت أن أجرى اتصالا مع الدكتور «محمود محفوظ» قبل أن أبدأ رحلة الطريق الصحراوى، وبالفعل تحدثت إليه وإلى «فريد زعلوك» وكانا فى بيت «نجيب الهلالى» (باشا) على شاطئ البحر فى حى العصافرة بالإسكندرية.

وقال لى «محمود محفوظ» أن «نجيب» (باشا) ذاهب إلى مقابلة جلالة الملك فى قصر المنتزه فى الساعة العاشرة والنصف، وأن على فور الوصول إلى الإسكندرية أن ألحق بهم على الغداء فى بيت «الباشا» بالعصافرة!

وحين وضعت سماعة التليفون فوجئت برنين صادر عنه وخطر ببالى - بداعى العجلة - أن لا أرد، لكننى مع ذلك تناولت السماعة - وكانت المكالمة الطارئة مفاجأة!

كان المتكلم هو الصاغ «سعد توفيق»، وهو وقتها من ضباط المخابرات العسكرية، وكان يعمل مع اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن»، عندما كان هذا الأخير مديرا لإدارة الملحقين العسكريين فى الجيش المصرى، وهناك رأيت «سعد توفيق» عدة مرات، كذلك جاء «سعد» إلى مكتبى أكثر من مرة يحمل ملفات شئون سياسية عسكرية رأى اللواء «عبد الرحمن» أن أطلع عليها. وفى هذه المرة على التليفون كان «سعد توفيق» يتحدث إلىّ بالرموز:

قال: «صديقك الذى قابلته أول أمس».

ومع أننى أحسست بالغريزة مقصد إشارته فقد سألته: «أى صديق؟».

قال: «صديقك الذى ركب سيارتك أول أمس.. هل تذكرت؟».

وقلت: «نعم»! فقال: «يريد أن يقابلك الليلة مرة أخرى لأمر هام فهل تستطيع أن تحدد موعدا يكون فى بيتك؟».

وقلت: «لسوء الحظ لن أكون فى بيتى هذا المساء لأنى ذاهب فورا إلى الإسكندرية فهناك وزارة جديدة، ومن الضرورى أن أتابع تشكيلها».

سألنى بصوت يوحى بأنه فوجئ: «متى تعود؟».

وقلت: «غدا على أكثر تقدير». وعاد يُلح: «ألا تستطيع الليلة؟».

وقلت: كيف أعود الليلة والظروف كما قلت لك؟ - وأضفت «غدا تتصل بى إذا شئت». وسأل: «متى؟». وقلت: «أى وقت بعد الظهر»!

وصلت إلى بيت «نجيب الهلالى» (باشا) فى حى العصافرة فى الإسكندرية وكانت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، وكان هناك الدكتور «محمود محفوظ» والأستاذ «فريد زعلوك» والأستاذ «نبيل الهلالى»، لكن «نجيب الهلالى» (باشا) نفسه لم يكن هناك. وقال «محفوظ» إن مقابلة «الرئيس» مع الملك تغير موعدها لتكون فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، وأنه الآن فى بيت «حافظ عفيفى» (باشا). وقلت للدكتور «محفوظ»: «وماذا نفعل نحن هنا؟ ثم اقترحت أن نلحق بنجيب (باشا) فى بيت رئيس الديوان الملكى نراه ولو لدقائق قبل أن يخرج من هناك إلى قصر المنتزه، وتحمس «محمود محفوظ» لأنه كان متلهفا على المتابعة (وأما الأستاذ «نبيل الهلالى» فقد كان أقل تلهُفا، وقرر البقاء فى انتظار والده».

ومضينا نجرى على طريق الكورنيش نحاول اللحاق بنجيب الهلالى (باشا) قبل أن يتوجه من بيت رئيس الديوان إلى قصر المنتزه، ووصلنا إلى بيت «حافظ عفيفى» (باشا) من بابه المواجه لقصر سموحة، ثم توقفنا أمام المبنى الجديد الذى أقامه «حافظ» (باشا) وأراد تصميمه على شكل سفينة تواجه «البحر»، وجاء ضابط الحرس على الباب يقول لنا «إن «الباشوات» خرجوا قبل خمس دقائق.

وعُدنا إلى حيث كنا فى بيت «الهلالى» (باشا) على شاطئ العصافرة!

....

....

[ولا أعرف كيف ولماذا - هناك - ونحن فى انتظار صاحب البيت - لمع فى فكرى خاطر يخص تلك المكالمة التى تلقيتها من الصاغ «سعد توفيق»، وكان ذلك غريبا، فطوال الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية أقود سيارتى وحدى لم يخطر على بالى أن أفكر طويلا فى تلك المكالمة التى جاءتنى على غير انتظار، بل كان على بالى هذه الوزارة الجديدة: رئيسها وتشكيلها؟ - وماذا تستطيع عمله؟ ولماذا يعرض الملك الآن رئاسة الوزارة على «نجيب الهلالى»؟ - وقد كان فى ذلك المنصب فعلا قبل ثلاثة أسابيع ثم جرى بيعه بيعا فى سابقة لم تحدث من قبل فى السياسة المصرية على كثرة ما رأت هذه السياسة من غرائب؟... ثم لماذا قبِلَ «نجيب الهلالى» الآن ذلك المنصب الذى اكتشف قبل ثلاثة أسابيع انه لا يستطيع البقاء فيه بعد أن رآه سلعة فى السوق ثم قرر أن عليه - بلا خيار آخر - أن يقدم استقالة وزارته للملك؟... وبعد ذلك - وربما قبله - ما الذى يستطيع «الهلالى» أن يفعله الآن، وقد صدر قرار من القائد العام للجيش المصرى بحل مجلس إدارة نادى ضباط الجيش؟ - وضياع ثقة الملك فى وزارة «حسين سرى» وقبوله استقالتها - رافضا بشدة اقتراحا متجددا من رئيسها باختيار اللواء «محمد نجيب» وزيرا للحربية، لأن الملك يريد اللواء «حسين سرى عامر» - ورئيس الوزراء يفضل اللواء «محمد نجيب» (الذى تقابل بالفعل قبل ساعات من سقوط وزارة «سرى» (باشا) مع صهره وزير الداخلية «محمد هاشم» (باشا)، ثم إن جزءًا من اللقاء حضره «كريم ثابت» (باشا).

وتداعت أفكارى من اللواء «محمد نجيب» إلى البكباشى «جمال عبد الناصر» الذى التقيته عنده أمس الأول، ثم إلى الصاغ «سعد توفيق» الذى أبلغنى رسالة من «جمال عبدالناصر» - يسأل عما إذا كان يستطيع أن يلقانى الليلة؟!].

....

....

فى تلك الساعة تقريبا كان الوزير البريطانى المفوض فى مصر «مايكل كرسويل» يتلقى وهو فى الإسكندرية برقية عاجلة من وزير الخارجية البريطانى (٩٦٨٧/ ٣٧١) يقول له فيها:

«الأخبار التى تصل إلينا متناقضة ما بين اتجاه ترشيح «حافظ عفيفى» أو «نجيب الهلالى» لرئاسة وزارة جديدة».

أنت مكلف بإبلاغ «حافظ عفيفى» باسمى أن رئاسته للوزارة عقيمة إذا لم يكن ينوى الوقوف بحزم أمام الملك، ويواجهه بحد أدنى من الشروط التى لا يصح التنازل عنها، وأولها ضرورة إقصاء كل من «كريم ثابت» و«أندراوس» ليس فقط عن القصر، ولكن عن البلد ولو لفترة الشهور القليلة القادمة.

إن نفس التوجيهات تنطبق أيضا فى حالة ما إذا كان «الهلالى» هو الذى سيُعْهَد إليه بتشكيل الوزارة.

إن حدا من الجدية والمصداقية لابد أن يتوافر الآن، وإلا فإن الزمام سوف يفلت.

تضيف رسالة «إيدن» سؤالا: «هل تستطيعون إمدادنا بمعلومات تفصيلية عاجلة عن التطورات المحتملة؟».

وقبل أن تمر ساعة يكون «كرسويل» من الإسكندرية يكتب ردا على «إيدن» يقول:

من الصعب جدا الحصول فى هذه الظروف على معلومات مفصلة يمكن اعتمادها، وما نستطيع الجزم به هو:

١ - هناك سخط منتشر فى الجيش، ومن المحتمل أن يتبلور هذا السخط فى عملية من «نوع ما»، ولذلك فنحن نقترح من هنا تقليل «مدة الإنذار» بالنسبة للخطة «روديو» (تقدم الجيش البريطانى من قاعدة قناة السويس لاحتلال الدلتا والقاهرة)، وذلك تحسبا للطوارئ وحتى لا نفاجأ بما لا نكون مستعدين له.

٢ - يبدو أن الحزب الاشتراكى نشيط جدا فى أوساط الضباط -!!- رغم أن رئيسه «أحمد حسين» يُحاكم الآن



لماذا يعرض الملك الآن رئاسة الوزارة على «نجيب الهلالى»؟. وقد كان «الهلالى» فى ذلك المنصب فعلا قبل ثلاثة أسابيع ثم جرى بيعه بيعا فى سابقة لم تحدث من قبل فى السياسة المصرية على كثرة ما رأت هذه السياسة من غرائب؟

بتهمة تدبير حرائق القاهرة (٢٦ يناير ١٩٥٢).

٣ـ ليس من المستبعد أن تقع حالة عصيان بين القوات المسلحة تستغلها عناصر متطرفة، مما يؤدى إلى فوضى شديدة.

وكان «أنتونى إيدن» وزير الخارجية يتغدى يومها مع رئيس الوزراء فى بيته الريفى «تشيكرز»، ورأى رئيس القسم المصرى وقتها المستر «بوكر» أن يبعث له برسالة خاصة على جهاز الإرسال الذى يربط مقر رئاسة الوزارة فى لندن بالبيت الريفى لرئيس الوزراء «تشيكرز»:

آخر التطورات فى مصر

أفاد «كرسويل» من الإسكندرية بأن الموقف بالغ الخطورة بسبب توتر الأحوال فى الجيش المصرى، وأنه بعث بآخر ما توافر له من المعلومات إلى رئاسة القوات البريطانية التى تبحث الموقف وفيه توصية من «كرسويل» بتقليل مدة الإنذار اللازمة لتنفيذ الخطة «روديو» من عشرة أيام (كما هى الآن) إلى ٤٨ ساعة.

وقد قام «كرسويل» بإخطار السفارة الأمريكية، ولكن السفير الأمريكى هناك «كافرى» يظن أن الأزمة السياسية فى مصر الآن تسير نحو الحل».

وتُظهر الإشارة فى الوثائق البريطانية وعليها توقيع «أنتونى إيدن» بالحرفين الأولين من اسمه إشارة إلى أنه اطلع عليها.

....

....

فى الساعة الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة وصل «نجيب الهلالى» (باشا) عائدا إلى بيته فى العصافرة من قصر المنتزه القريب، وكان بعد لقائه بالملك «فاروق» قد توجه إلى السلاملك، وقضى بعض الوقت فى مناقشة قائمة ترشيحات وزرائه، وتابعت «نجيب الهلالى» (باشا) وهو يصعد بنشاط درجات السلم من حديقة البيت الصغيرة إلى الشرفة، ولاحظت أن خطوته زادت نشاطا. كان يرتدى بذلة كاملة من التيل الأبيض، ولفت نظرى أن البذلة الصيفية من التيل الأبيض كان لها أيضا «صديرى» يكسو صدر «نجيب» (باشا) رغم الحر الشديد.

ونظر «الهلالى» (باشا) إلينا (فريد زعلوك ـ ومحمود محفوظ ـ ونبيل الهلالى ـ وأنا) وهو يضحك قائلا: «لابد أنكم مُتم من الجوع»، وعبر من صالون الاستقبال الكبير واصلا إلى قاعة الطعام التى انفتح بابها أمامه، والتفت «الهلالى» (باشا) نحوى يسألنى متى وصلت من القاهرة؟ ـ وما هى الأخبار هناك؟.

وقلت: «إن الأخبار هنا فى الإسكندرية» وأضفت «أن الناس جميعا سوف يدهشهم أنه قبِلَ تأليف الوزارة بعد تلك التجربة التى مر بها قبل ثلاثة أسابيع».

وقال «الهلالى» (باشا) «إن الملك استجاب لشروطى ولم تبق لى عليه حجة».

وسألت (والباقون يتابعون ذلك الحوار بيننا): «وما هى الشروط»؟، ومد «نجيب الهلالى» أصابعه إلى جيب الصديرى الذى يرتديه تحت الجاكتة البيضاء، ثم أخرج قطعة صغيرة من الورق فردها ثم قال:

«وقف تدخل غير المسئولين فى الشأن السياسى».

وهؤلاء غير المسئولين هم (عاد يقرأ من الورقة التى أخرجها من جيبه): «كريم ثابت» ـ «إلياس أندراوس» ـ «أنطونيو بوللى».

ثم توقف «نجيب الهلالى» عن قراءة الأسماء قائلا: «أليست هذه كفاية؟ ـ فى القائمة آخرون... هناك ستة»!

وسألت «الهلالى» (باشا) «وما الذى يضمن؟».

وقال بتؤدة: كلمته.

ولم أسكت وإنما واصلت: «وأى ضمان أن يلتزم بها؟».

ورد «الهلالى» (باشا) ـ قائلا: «يعنى أطلب من الملك توقيع كمبيالة؟!».

وسَكَتُ وقد أحسست أننى لا أريد أن أتزيد عليه (ولكن شعورا غريبا راودنى تلك اللحظة بأننى لم أكن أريده أن يؤلف الوزارة هذه الساعة لأمر ما لا أستطيع تحديده، لكن ما أحس به غير بعيد عن تلك المكالمة التليفونية التى جاءتنى قبل أن أترك مكتبى فى القاهرة من الصاغ «سعد توفيق»!)

وانهمكت بعد ذلك فى حديث الترشيحات للمناصب الوزارية، وكانت مع «نجيب» (باشا) قائمة بأسماء جديدة كلها مقبولة: وبينهم «مريت غالى» وزيرا للشئون البلدية والقروية، و«على كامل الشيشينى» وزيرا للزراعة، وآخرين.

وكنت ما أزال أخشى أننى أثقلت على «الهلالى»، لكن الرجل (شاء كريما أن يزيل مثل هذا الشعور عندى) فإذا هو يقول «فى المرة الماضية سألتك عن مرشح لوزارة الحربية، واقترحت «محمد نجيب» وقد رفضوه، وهذه المرة أجد أننا نسينا وزارة الصحة، فهل عندك مرشح لها؟ ـ وجاء من يدعو «الهلالى» (باشا) إلى التليفون لأن رئيس الديوان يطلبه، وقال «نجيب» (باشا) «فكر خمس دقائق وحاول أن تعثر على مرشح». وحاولت أن أعصر ذهنى لأجد رجلا أعرفه يصلح لوزارة الصحة، ولم تسعفنى الذاكرة وخرجت لحظة من غرفة الطعام إلى الشرفة، وقد تجمع عليها عدد من الصحفيين لمحت بينهم زميلى وصديقى الأستاذ «على حمدى الجمال»، وربما أنه خواء الذاكرة تلك اللحظة أو لعله غرور الشباب ما دعانى لسؤال «على حمدى الجمال» همسا: «ما إذا كان يتذكر شخصية رجل يصلح لوزارة الصحة»، والغريب أنه رد على بسرعة قائلا «سيد شكرى»، وعُدت إلى قاعة الطعام حيث كان «نجيب الهلالى» على وشك العودة بعد انتهاء حديثه مع «حافظ عفيفى»، وقلت: «ما رأيك فى الدكتور سيد شكرى؟». وتهلل وجه «نجيب الهلالى». وقال «نِعْمَ الاختيار». ثم تذكر أن الدكتور «أحمد حسين» هو وزير الشئون الاجتماعية على قائمة الترشيحات وأنه متزوج من الدكتورة «عزيزة حسين» ابنة الدكتور «سيد شكرى». وقال ضاحكا: «يعنى الرجل وحماه فى الوزارة». وكتب اسم الدكتور «سيد شكرى» وطلب من «فريد زعلوك» أن يبلغ الاقتراح بترشيحه على التليفون إلى مكتب وكيل الديوان.

وكانت المفاجأة فى نهاية المشاورات ترشيح «إسماعيل شيرين» صهر الملك (زوج الأميرة «الإمبراطورة السابقة» فوزية) وزيرا للحربية والبحرية.

....

....

[وكنت أعرف «إسماعيل شيرين» معرفة شخصية من رئاسته لوفد مفاوضات الهُدنة بين مصر وإسرائيل فى «رودس» (يناير ١٩٤٩) ـ وكان «إسماعيل شيرين» مفاوضا صلبا إذ أصر على استحالة لقاء الوفدين المصرى والإسرائيلى رغم وجودهما فى فندق واحد، وهو فندق «دى روز»، وكذلك جرت المفاوضات بواسطة ممثل الأمم المتحدة الدكتور «رالف بانش» الذى كان ينتقل بين الدور الخامس الذى ينزل فيه الوفد الإسرائيلى والدور السادس حيث ينزل الوفد المصرى حاملا المقترحات والصياغات والتعديلات حتى أمكن التوصل إلى اتفاق.

لكنه خطر ببالى أن مصاهرة «إسماعيل شيرين» للملك «فاروق» يمكن أن يكون لها تأثير سلبى على اختياره].

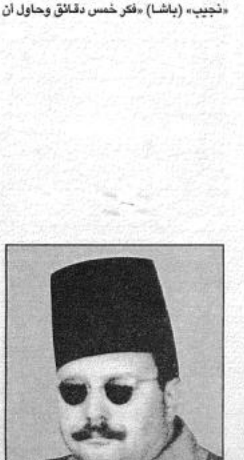
....

....

وكان لابد أن أغادر بيت «الهلالى» (باشا) فى العصافرة متوجها إلى فندق «سيسيل» فى ميدان سعد زغلول لموعدى مع «مصطفى» و«على أمين» فى الساعة التاسعة كى نعد رسالة مشتركة لعدد الأخبار (غدا) قبل أن تمثل الجريدة للطبع.

وكذلك حدث، وجلسنا بعده لتناول العشاء وانضم إلينا عدد من الساسة بينهم «مرتضى المراغى» (باشا) ـ و«حفنى محمود» (بك) ـ شقيق «محمد محمود» (باشا) رئيس الدستوريين ورئيس الوزراء الأسبق ـ والأستاذ «كامل الشناوى».

وطال السهر حتى الساعة الواحدة والنصف صباحا، وقُمت أبحث عن غرفة أقضى فيها سواد الليل فى «سيسيل» على اتفاق مع «مصطفى» و«على أمين» بأن أعود فى الصباح الباكر إلى القاهرة. ■



اليوم الرابع - الليلة الرابعة
الاثنين ٢١ يولية ١٩٥٢

سباق مع الزمن

في الصباح الباكر يوم ٢١ يولية كان الوزير المفوض البريطاني يكتب إلى لندن تقريرا عن وزارة «الهلالي» الثانية رقم (١٠٥٤) يقول فيه:

يقدم الهلالي (باشا) اليوم رسميا إلى الملك «فاروق» أسماء وزرائه الجدد، ويحلفون اليمين الدستورية أمامه. وأعضاء الوزارة الجديدة في معظمهم من وزارة «الهلالي» السابقة، خصوصا وزارات: الخارجية: «عبدالخالق حسونة» - والداخلية: «مرتضى المراغي» - والمالية: «زكي عبد المتعال»، وكان هناك حديث بأن يتولى «المراغي» وزارة الحربية كما كان في الوزارة السابقة، لكن القصر اقترح مرشحا زكاه «حافظ عفيفي» وهو الكولونيل «إسماعيل شيرين» صهر الملك.

وعلمت من مصدر موثوق أن «الهلالي» (باشا) وضع مجموعة شروط استجاب لها الملك:

- التطهير الذي بدأته وزارته السابقة يستمر.
- الانتخابات تؤجل إلى موعد غير محدد.
- الأحكام العُرفية تظل مُطبَّقة حتى تتم محاكمة المتهمين في قضية حريق القاهرة.
- يتوقف تدخل غير المسئولين من رجال الحاشية الملكية في السياسة.

وقد تبين لي الآن أن السبب الرئيسي الذي دعا الملك إلى إخراج وزارة «سرى» (باشا) رغبته في احتواء الفضيحة التي جاءت بها الوزارة، وذلك هو نفس السبب الذي أقنعه بقبول ترشيح «الهلالي».

والسؤال المُلِحُّ الآن هو ما إذا كانت هذه الوزارة قادرة على معالجة الموقف الخطر داخل الجيش!

وفي نفس الوقت كانت قيادة القوات البريطانية في منطقة القناة ترسل إلى هيئة أركان الحرب الإمبراطورية في لندن بتقدير للموقف (رقم ١١٤) يقول:

١- الموقف السياسي في مصر في حالة سيولة خطرة ونتائجه مما يصعب توقعها، ورأى القائم بالأعمال البريطاني في السفارة كما أرسله لنا «إن الوضع خطر وأن الملك «فاروق» قد يرتكب حماقة في أي لحظة تؤدي إلى تدهور مفاجئ».

٢- المعلومات لدينا أن هناك توترا على نطاق واسع في الوحدات العسكرية المصرية، واحتمالات العصيان واردة، وقد صدر أمر برفع درجة استعداد القوات لمواجهة أي احتمال.

٣- الفارق هذه المرة - ونحن نرفع درجة الاستعداد - أن المشاكل المحتملة ليست موجهة ضدنا لأول مرة، ولكنها موجهة بالتحديد ضد «فاروق»، وكذلك وبصفة عامة ليست موجهة ضد الأجانب.

٤- سوف نبقى على اتصال مستمر حتى تظهر أمامنا علامات انخفاض في درجة التوتر!

....

....

توجهت من الطريق الصحراوي إلى دار أخبار اليوم مباشرة ودخلت مكتبي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، ورُحت على الفور أتصل بالإسكندرية أسأل عن آخر ما جرى بعد أن قضيت أكثر من ثلاث ساعات مقطوعا عن الأخبار في الطريق الصحراوي إلى القاهرة.

واتصلت بـ «نجيب الهلالي» (باشا) أحاول الحصول على أول تصريح له بعد حلف اليمين، وكان رأيه أن أنتظر إلى الغد حتى يعقد أول اجتماع لمجلس وزرائه.

واتصلت بالأستاذ «مصطفى أمين» أسأله عما لديه، وكانت لديه حكايات طويلة استغرقت حديثا تليفونيا - دخل فيه «على أمين» وطال أكثر من ساعة، وسألت «على أمين» متى سيعود إلى القاهرة؟، ووعد بأنه سوف يلحق بي غدا أو بعد غد على أكثر تقدير، وفي كل الأحوال قبل عدد أخبار اليوم القادم.

....

....

عندما أصبح عدد الأخبار الذي يصدر صباح غد (الثلاثاء ٢٢ يولية) جاهزا، توجهت إلى بيتي شاعرا بإرهاق شديد، ودخلت لأجد رسالة تقول:

«الصاغ «سعد توفيق» اتصل خمس مرات ويطلب الاتصال به الليلة ضروري».

ونظرت في ساعتي وكانت الواحدة والربع صباحا.

ولم أجد الوقت مناسبا لرد اتصالاته.

اليوم الخامس - الليلة الخامسة.. الثلاثاء ٢٢ يولية ١٩٥٢

سوف تنقلب الدنيا هذه الليلة

أيقظني تليفون مبكر (الساعة السادسة والنصف) وكان المتحدث هو الأستاذ «فريد زعلوك» يسألني: «هل هناك حسب علمي شيء في الجيش، لأن «نجيب» (باشا) يتلقى أخبارا مزعجة». وقلت «إنه حتى خروجي من أخبار اليوم بعد منتصف الليل أمس لم أسمع بجديد يزيد عما كان «عندنا» ونحن في الإسكندرية».

ووضعت سماعة التليفون أفكر فيما عساه أن يكون قد وصل من معلومات إلى رئيس الوزراء الجديد خلال ساعات الليل؟ ولم تمض غير نصف ساعة حتى دق التليفون والمتحدث «على أمين» من فندق «سيسيل» في الإسكندرية، يقول هامسا «هناك عملية اعتقال لعدد من الضباط سوف تتم اليوم، ويُستحسن أن «تأخذ بالك»، مع أنني لا أتوقع أن يكون في مقدورنا نشر شيء عنها إلا إذا صدر بلاغ رسمي أو كان لدينا تصريح خاص، وإذا جرى ما هو متوقع فإن «مصطفى» سوف يحاول أن يحصل على تصريح بالنشر من الديوان، وأنت من ناحيتك حاول مع رئيس الوزراء، ولكن ليس قبل أن يتصل بك «مصطفى» حتى لا يكون من شأن تصرف أحد منا أن يُفشي سرا قبل وقته».

وفي الساعة الثامنة والربع صباحا وكنت لا أزال في بيتي، أفكر إذا كان الوقت مناسبا لأتصل بالصاغ «سعد توفيق»، أرد له مكالماته بالأمس، وأستشعر ما لديه - وإذا الصاغ «سعد توفيق» يطلبني، ويبدأ الحديث بسرعة سائلا «إذا كنت عرفت أنه لم يتوقف بالأمس عن طلبي». وقلت له «عرفت أنك سألت عني خمس مرات».

وقال «سعد توفيق» وقد أخذ صوته نبرة استوقفت سمعي:

«كان صاحبك يريد أن يمر عليك أمس، وسوف أتصل بك بعد قليل فأين ستكون؟ - وقلت في مكتبي، ووجدته يسكت - ثم يسألني: «هل تستطيع أن تنتظر حتى أتصل بك بعد قليل، نصف ساعة على أكثر تقدير لأني لا أريد أن أطلب تليفونات «أخبار اليوم».

وبدا الطلب مشحونا بالغموض، وقلت إنني سوف أبقى نصف الساعة المقترحة هنا في بيتي، وفي عشر دقائق لا أكثر كان «سعد توفيق» يعاود الاتصال سائلا بسرعة «أين ستكون الليلة؟ - إذا لم يكن لديك ما يمنع فأنا أريد أن أعرف أين ستكون الليلة حوالي العاشرة مساءً؟». وطلبت إليه أن ينتظر وراجعت مفكرتي وعدت إليه (وهناك شعور خفي يقود تصرفي) - أقول «إنني سوف أكون على العشاء في الخارج في بيت المستشار «ماهر دوس» (ابن «توفيق دوس» (باشا)» - (وهذا البيت الآن هو مقر السفير السعودي في القاهرة، بشارع محمد مظهر في الزمالك) - وسألني «سعد توفيق» عن رقم تليفون البيت، ووجدتني أمليه عليه.

وعندما وصلت إلى بيت «توفيق دوس» (باشا) لعشاء مع ابنه «ماهر دوس»، وجدته جالسا ينتظر ومعه صديق قديم لنا هو الوزير المفوض (وقتها) «محمود محرم حماد».

وأخذت «ماهر دوس» على جانب من الصالون وهمست له «إنني أعطيت رقم تليفونك لرجل قد يتصل بي هنا، فهل تستطيع ترتيب أن «يخطروني» إذا سأل عني أحد؟». وفي الساعة العاشرة والربع جاء من يقول «إن هناك من يسأل عني» - وتوجهت إلى بهو خارجي، وتناولت سماعة التليفون وإذا صوت يقول همسا «أرجوك تتوجه إلى بيتك وسوف اتصل بك هناك لأقول لك شيئا يهمك!».

وأحسست بأجواء قصة بوليسية، لكن شيئا داخلي كان يأخذ المكالمة جدا بأكثر من وقائع قصة بوليسية.

واستأذنت لأنصرف قبل العشاء، وأدرك «ماهر دوس» بحسه أن هناك شيئا، وكان آخر ما سمعته منه وهو يودعني على باب بيته أركب سيارتي:

«يظهر أن الدنيا سوف تنقلب هذه الليلة»!

وكان حدسه صحيحا بأكثر مما خطر له - أو خطر لي!

مسئولية الإدارة الأمريكية

جور فيدال

جور فيدال

■■ قد لا يأتى أبداً اليوم الذى يعرفُ فيه العالم ماذا حدث بالضبط فى الحادى عشر من سبتمبر فى العام الأول بعد الألفين.! الآلةُ الإعلاميةُ الجهنميةُ لم تدع مجالاً للكثيرين أن يفكروا بشكلٍ مستقل. محاولين أن يَصُفّوا قطعَ اللغز «البازل» المتناثرة بجوار بعضها. البعضُ حاولَ.. والكثيرُ أخافتهم رياحُ المكارثيةِ السموم. والأكثرُ. بحكم الطبيعةِ والعادة. قنعوا بما يتمُ ترويجه.. بعد أن تم تعليبه بمهارةٍ وحرفيةٍ وإتقان. جور فيدال.. كان واحدا من الذين حاولوا. وكان ذلك طبيعياً بحكم تاريخه ومكانته. فحينما بدا أن الولايات المتحدة، القوة الغربية المنتصرة، قد تبنت عقيدةً تُواصلُ بمقتضاها السعىَ لاجتثاثِ أى عامل يمكن فى يوم من الأيام أن يمثل تهديدا، أو أن يسمحَ بنهوض تهديدٍ قديم، وعندما وجد العالمُ كله نفسه فجأة فى وضع دولى غير مألوف من قبل.. ربما منذ عصر الإمبراطورية الرومانية. وعندما صار اسما صمويل هنتينجتون وفرانسيس فوكوياما وغيرهما من متفلسفى الانتصار العظيم أسماءً لامعة، وصار علماء وأكاديميون من «الصقور» من أمثال إدوارد تيلر صاحب فكرة الحرب النووية المحدودة، وميلتون فريدمان «أبو اقتصاد السوق» ومن لف لفهما، مصدرَ الإيحاء وحُداةَ المستقبل. كان جور فيدال أحد أوائل من نبّه إلى أن إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفيتى وتدميره لن يجلبا السلام إلى العالم لأن طبيعة القوة المنتصرة تحتاج إلى عدو يبرر استثمارها فى أسباب القوة... وإذا لم يكن هذا العدو موجوداً سيوجدونه. ويومذاك حدد فيدال الأعداء المحتملين بالإسلام. غير غافلٍ عن القوتين الأكبر فى الشرق الأقصى، والبؤر الحساسة.. كمصادر النفط فى الشرق الأوسط، والمياه الدافئة على تخوم روسيا، وكل مايمكن أن يمثل مناخات قد تكون مناوئة للنظام الجديد.. جور فيدال (٧٧ عاما وأكثر من ٥٠ كتابا) حفيد السيناتور الأسطورى توماس جور، ومن أبناء عمومته آل جور نائب الرئيس



جور فيدال

السابق رغم أنه لم يلتقه مرة واحدة، والذى يقول فيدال عنه «إنه هو ابن عمى، ولست أنا ابن عمه». إضافة لقرابته بكل من جيمى كارتر الرئيس الأسبق وجاكلين كيندى زوجة الرئيس الأسبق، عدا عن صداقاته ومعاركه السياسية والانتخابية التى خاضها فى الثمانينيات. بدأت كتب جور فيدال تأخذ طريقها لأرفف المكتبات، وهو بعد فى الحادية والعشرين من العمر. ويكاد يكون تخصص فى تاريخ الطبقة السياسية التى أنشأت الولايات المتحدة وحكمتها وأدارت شئونها. وبدقة يحسده عليها المؤرخون المحترفون، وإذا كان هناك من لايذكر عنوانه الأول «عاصفة»، إلا أن كتابه «هبوط وسقوط الإمبراطورية الأمريكية» أثار جدلا كبيرا. وكثيرا ما يصدم فيدال المؤسسة الأمريكية بتصريحاته المثيرة للجدل. فهو يتهم الحكومة الأمريكية ووسائل الإعلام بتضليل الرأى العام معتبرا: أن: «أمريكا تضم ربع مليار نسمة مضللين تماما ومغيبين من جانب حكومتهم» وكان قد انتقد الرئيس بوش، قائلا إنه يريد أن تستمر الحرب ضد الإرهاب إلى الأبد، وأشار إلى أن بعض الأمريكيين يشعر بالسعادة لأن هجمات ١١ سبتمبر، حددت المسلمين على أنهم الأعداء الجدد. هنا مقال جديد للمفكر الأمريكى، تنشره «وجهات نظر» بترتيب خاص. وكانت The Observer Review قد أفردت له أربع صفحات كاملة لأهميته. ■

المحــــرر

■■ بعد أن انقضى عام كامل على أحداث الحادى عشر من سبتمبر، مازلنا لا نعرف من الذى ضربنا فى ذلك الثلاثاء المحزن، ولا الغرض الحقيقى لما جرى، لكن من الواضح لكثير من المعنيين بأمورنا المدنية أن ٩/١١ لم يصب بالضرر فقط دستور حقوقنا الهش، بل أصاب أيضًا نظام حكمنا الذى كان الآخرون يحسدوننا عليه، ذلك النظام الذى تلقى ضربة قاضية فى السنة الماضية، عندما تدخلت المحكمة العليا وتلاعبت بشئوننا وأقامت مكان رئيس جمهوريتنا المنتخب بحرية عصبة «شينى - بوش» من رجال البترول والغاز.

وفى غضون ذلك تتبع حكومتنا التى تزداد كل يوم ابتعادًا عن الخضوع للمساءلة، سياسات مختلفة فى شتى أنحاء العالم دون أن نعرف عنها شيئًا نحن حملة الرماح (والذين كان يطلق علينا فى الماضى اسم الشعب)، ومع ذلك فقد تلقينا خلال هذه السنة بعض الإجابات عن السؤال المهم: لماذا لم يحذرنا أحد مقدمًا بما سيقع فى ٩/١١؟ غير أنه يبدو أن هناك من قام بتحذيرنا بالفعل، ففى وقت مبكر من السنة قال لنا البعض أنه سيكون ثمة زائرون غير مرغوب فيهم فى سماواتنا فى وقت ما من سبتمبر ٢٠٠١، ولكن الحكومة لم تبلغنا بذلك ولم تقم بحمايتنا، وعلى الرغم من التحذيرات التى تلقيناها فى أول مايو من الرئيس بوتين ومن الرئيس مبارك، ومن الموساد، وحتى من عناصر فى شرطة المباحث لدينا FBI، وقد جاء فى تقرير صادر عن الاجتماع المشترك للجنتى المخابرات فى الكونجرس (١٩ سبتمبر ٢٠٠٢، جريدة نيويورك تايمز) أنه منذ وقت مبكر يرجع إلى ١٩٩٦ اعترف الإرهابى الباكستانى عبدالحكيم مراد لعملاء فيدراليين بأنه كان «يتعلم الطيران حتى يصدم بطائرته مبنى وكالة المخابرات المركزية CIA».

ولكن يبدو أنه لم يأخذ تلك التحذيرات مأخذ الجد أحد غير جورج تنيت مدير الوكالة. وقد كتب فى ديسمبر ١٩٩٨ إلى مساعديه يقول: «إننا فى حالة حرب مع أسامة بن لادن. وقد بلغ من اهتمام إدارة المباحث بهذا التحذير حد أنه بحلول يوم ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١ لم يكن لدى إدارة المباحث غير باحث واحد مكلف طول الوقت بتتبع تنظيم القاعدة.

وفى تقرير مقدم إلى الرئيس بوش فى بداية شهر يوليو ٢٠٠١ قالت المباحث: «أعتقد أن أ.ب.ل (أسامة بن لادن) سيشن هجومًا إرهابيًا كبيرًا على مصالح الولايات المتحدة أو إسرائيل أو كلتيهما خلال الأسابيع المقبلة. وسيكون الهجوم لافتًا للأنظار، ويرمى إلى إحداث خسائر جسيمة بالمرافق أو المصالح الأمريكية. وقد تمت الاستعدادات للهجوم. وسيقع الهجوم دون إنذار». وهذا ما حدث، ومع ذلك فإن كوندوليزا رايس مستشار الأمن القومى، تقول أنها لم تتوقع فى أى وقت أن يعنى ذلك شيئًا آخر أكثر من اختطاف طائرات.

ومن حسن الحظ، أنه توجد عبر مياه المحيط قارة أوروبا ـ هذه القارة التى أعلنت وسائل الإعلام الأمريكية مؤخرًا أنها معادية للسامية، لأن معظم دولها لا تريد حربًا مع العراق، وهى حرب تريدها العصبة الحاكمة لأسباب يمكن الآن أن نبدأ فى تفهمها بفضل الباحثين الأوروبيين والآسيويين الذين تتوافر لهم وسائل إعلام حرة نسبيًا.

وفى موضوع «كيف ولماذا وقع الهجوم على الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، يعتبر أفضل التقارير وأكثرها توازنًا حتى الآن، التقرير الذى قدمه نفيس مصدق أحمد.. نعم إنى أعرف أنه «واحد منهم» لكنهم كثيرًا ما يعرفون أشياء لا نعرفها نحن ـ ولاسيما بشأن الأشياء التى نحن مقدمون عليها. ونفيس أحمد بوصفه من المشتغلين بشئون السياسة، هو المدير التنفيذى لمعهد بحوث السياسات والتنمية، وهى هيئة فى برايتون مكرسة للدفاع عن حقوق الإنسان والعدالة والسلام. وكتابه المعنون (الحرب على الحرية) The War on Freedom نشرته مؤخرًا فى الولايات المتحدة دار نشر صغيرة ولكنها ذات سمعة طيبة.

ويقدم نفيس أحمد معلومات أساسية عن حربنا الدائرة ضد أفغانستان، ووجهة نظره لا تتفق بأى حال مع ما قالته لنا حكومتنا. وقد اعتمد المؤلف على مصادر متعددة، من أهمها الأمريكيون الذين حذروا مبكرًا، والذين بدأوا يتكلمون علنًا ويقدمون شهادتهم مثل عملاء المباحث الذين نبهوا رؤساءهم إلى أن «القاعدة» تعد لضربة من طراز الكاميكاز اليابانى ضد نيويورك وواشنطن. غير أنه قيل لهم أنهم إذا أعلنوا شيئًا من ذلك سوف يتعرضون لتطبيق «قانون الأمن الوطنى» عليهم. وقد عهد كثير منهم إلى دافيد شيبرز كبير مستشارى التحقيقات لدى اللجنة القضائية بمجلس النواب ليمثلهم أمام المحاكم. وكان شيبرز الرائع قد أدار عملية المحاكمة الناجحة التى عقدت للرئيس كلينتون فى مجلس النواب. وقد يطلب منه، إذا فشلت الحرب ضد العراق، أن يقدم نفس الخدمة لبوش، الذى ترك الشعب الأمريكى دون تنبيه أو إنذار بشأن الهجوم الوشيك على اثنتين من مدننا الكبرى ليكون شفيعًا لضربة عسكرية مقررة من جانب الولايات المتحدة ضد طالبان.

وقد نشرت «الجارديان» (٢٦ سبتمبر ٢٠٠١) أنه حدث فى يوليو ٢٠٠١ أن التقت مجموعة من الأطراف المعنية فى أحد فنادق

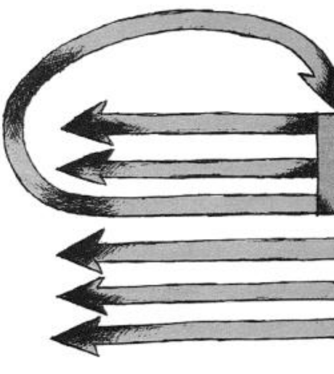
Dreaming War: blood for oil and The cheney-Bush

(الحلم بالحرب: الدم من أجل البترول وعصبة تشينى ـ بوش)

Gore Vidal

Thunder's Mouth Press, 108PP, $ 9.56, 2002.

عن ٩/١١ ... العدو من الداخل



برلين لتستمع إلى موظف سابق بوزارة الخارجية الأمريكية، هولى كولدرين، وهو ينقل رسالة من إدارة بوش مؤداها أن «الولايات المتحدة قد ضاقت بطالبان لدرجة أنها قد تنظر فى اتخاذ إجراء عسكرى.. وكان الأمر المخيف فى هذا الإنذار السرى أنه جاء ـ وفقًا لما قاله أحد الحاضرين وهو الدبلوماسى الباكستانى نياز نايق ـ مصحوباً بتفاصيل محددة بشأن الكيفية التى ستتصرف بها إدارة بوش.. وكانت «الجارديان» قد نشرت قبل ذلك بأربعة أيام أن أسامة بن لادن والطالبان تلقوا تهديدًا بوقوع عمل عسكرى أمريكى ضدهم قبل شهرين من وقوع الهجمات على نيويورك وواشنطن.. وذلك يثير الاحتمال بأن بن لادن قد قام بضربة استباقية ردًا على ما رأى فيه تهديدات أمريكية. هل كان ذلك تكرارًا لـ«يوم العار» فى المحيط الهادئ قبل ٦٢ عامًا؟

لماذا كانت الولايات المتحدة بحاجة إلى مغامرة فى أوراسيا؟

فى ٩ سبتمبر ٢٠٠١ قدم إلى بوش مشروع توجيه رئاسى بشأن الأمن القومى يتضمن الخطوط الرئيسية لحملة عالمية لتحرك عسكرى ودبلوماسى ومخابراتى يستهدف منظمة القاعدة، يدعمه إنذار بالحرب، وتقول وكالة أنباء NBC: «كان المنتظر أن يوقع الرئيس بوش خططًا تفصيلية لحرب على القاعدة فى كل أنحاء العالم..ولكنه لم يجد الفرصة لذلك قبل وقوع الهجمات الإرهابية..» وكان الأمر الرئاسى على نحو ما عرفته وكالة NBC فى جوهره هو نفس خطة الحرب التى وضعت موضع التنفيذ بعد ١١ سبتمبر.. والأرجح أن الحكومة تمكنت من الرد السريع لأنه لم يكن عليها غير أن تنزع الخطط من «على الرف».

وأخيرًا، ذكرت شبكة BBC فى ١٨ سبتمبر ٢٠٠١ أن «مسئولين أمريكيين كبارًا ذكروا لنياز نايق، وزير خارجية باكستان الأسبق، فى منتصف يوليو أن التحرك العسكرى ضد أفغانستان سيقع فى منتصف أكتوبر.. وكان من رأى نياز أن واشنطن لن تتخلى عن حربها ضد أفغانستان حتى لو قامت طالبان على الفور بتسليم بن لادن».

فهل يمكن أن يقال أن أفغانستان تحولت إلى تراب ودمار انتقامًا لثلاثة آلاف أمريكى قتلهم أسامة؟ يصعب تصديق ذلك.. لكن الإدارة مقتنعة بأن الأمريكيين من السذاجة بحيث لا يستطيعون أن يتعاملوا مع سيناريو أكثر تعقيدًا من سيناريو السفاح المنفرد المختل العقل (يساعده فى هذه المرة أعوان أسطوريون) يصنع الشر لمجرد الاستمتاع به، لأنه يكرهنا، ولأننا أغنياء وأحرار وهو ليس كذلك. وقد تم اختيار أسامة على أسس جمالية ليكون هو الرمز المرعب لعملية غزو ودحر أفغانستان التى فكرنا فيها طويلاً، والتى كان التخطيط لها قد أعد قبل ٩/١١ بسنوات، وأعد مرة أخرى فى ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٠ عندما وضعت مجموعة كلينتون التى كانت تتهيأ لمغادرة البيت الأبيض، خطة لضرب «القاعدة» ردًا على الهجوم الذى تعرضت له السفينة الحربية «كول»، وقد قام ساندى بيرجر مستشار الأمن القومى لكلينتون بشخصه بإبلاغ الخطة لخليفته، ولكن كوندوليزا رايس، التى كانت لاتزال متأثرة بدورها كأحد مديرى شركة شيفرون تكساس، والتى لها واجبات خاصة تجاه باكستان وأوزبكستان تنكر الآن أنه أبلغها شيئًا من ذلك. وبعد انقضاء سنة ونصف السنة (١٢ أغسطس ٢٠٠٢) كتبت مجلة «تايم» بشجاعة تقريراً عن هذا النسيان الغريب.

وكل ما فعله أسامة، إذا كان هو وليس دولة بكاملها، هو أن وفر الصدمة اللازمة لتبدأ حرب الغزو، ولكن غزو ماذا؟ ما الذى يوجد فى أفغانستان البائسة المتربة يستحق الغزو؟ يرد زبينيو برجنسكى بدقة على هذا السؤال، وذلك فى دراسة قدمت فى ١٩٩٧ لمجلس العلاقات الخارجية بعنوان «رقعة الشطرنج الكبرى: التفوق الأمريكى وما يفرضه من ضرورات جيواستراتيجية The Ground Chessboard: American Primacy and its Geostrategic Imperatives.

وكان برجنسكى البولندى المولد والمعتبر من الصقور، هو مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر، وفى الكتاب المذكور يعطى برجنسكى درسًا قصيرًا فى التاريخ. يقول: منذ أن بدأت القارات تتعامل فى المجال السياسى منذ ما يقرب من ٥٠٠ سنة، كانت أوراسيا مركز القوة فى العالم». وأوراسيا هى كل الأراضى الواقعة إلى الشرق من ألمانيا. وذلك يعنى روسيا، والشرق الأوسط، والصين، وأجزاء من الهند. ويسلم برجنسكى بأن روسيا والصين المجاورتين لآسيا الوسطى الغنية بالبترول، هما القوتان الرئيسيتان اللتان تهددان الهيمنة الأمريكية فى تلك المنطقة.

وهو يعتبر أن من الأمور المفروغ منها أن الولايات المتحدة يجب أن تسيطر على الجمهوريات السوفيتية السابقة فى آسيا الوسطى، والمعروفة لدى محبيها باسم «الستانات»: تركمانستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان، وقرغيزستان، وكلها لها أهمية من وجهة نظر الأمن، والمطامع التاريخية لثلاثة على الأقل من أقرب جيرانها وأقواهم ـ روسيا وتركيا وإيران ـ وكذلك الصين التى تنتظر دورها. ويذكر برجنسكى أن استهلاك الطاقة فى العالم آخذ فى الزيادة، وبالتالى فإن من يسيطر على البترول والغاز فى بحر قزوين سوف يسيطر على الاقتصاد العالمى. وعند ذلك ينتقل برجنسكى غريزيًا إلى التبرير الأمريكى المضاد للاتجاه الامبراطورى. فيقول إننا لا نحتاج شيئًا، فى أى وقت، لأنفسنا، وإنما نريد منع الأشرار من الحصول على الطيبات التى يستطيعون بها أن يضروا الناس الطيبين. ويستنتج من ذلك أن مصلحة أمريكا الأساسية هى المساعدة على ضمان ألا تصل دولة (أخرى) بمفردها إلى السيطرة على ذلك الفضاء الجيوسياسى، وأن تتاح للمجتمع الدولى فرصة الوصول إليه ماليًا واقتصاديًا بلا عائق.

وبرجنسكى على بيِّنة تمامًا من أن القادة الأمريكيين يجهلون التاريخ والجغرافيا جهلاً مطبقًا، ولذا فهو يتمادى فى آرائه ويصل إلى حد الحديث عما يسميه «القدر الحتمى» رغم خطئه السياسى. وهو يذكر المجلس بالمساحة الشاسعة لأوراسيا. ويذكر أن ٧٥٪ من سكان العالم يعيشون فيها. وإذا لم أخطئ فى الحساب فمعنى ذلك أننا لا نسيطر حتى الآن إلا على ٢٥٪ من سكان العالم. ثم يقول: إن أوراسيا تمثل ٦٠٪ من الناتج القومى الإجمالى للعالم، وثلاثة أرباع مواد الطاقة المعروفة.

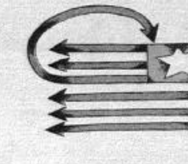
ومن الواضح أن الخطة الكبرى التى وضعها برجنسكى لعالمنا لقيت قبولاً لدى عصبة شينى ـ بوش. أما أمريكا الشركات التى تتلهف على الثروة المعدنية لأوراسيا فقد تبنت الخطة من البداية.

ويلخص نفيس أحمد الموقف بقوله: «لقد رأى برجنسكى أن إقرار وتعزيز وتوسيع الهيمنة العسكرية الأمريكية على أوراسيا من خلال آسيا الوسطى يتطلب إضفاء الطابع العسكرى الصريح والممتد زمنيًا على السياسة الخارجية، وأن يقترن ذلك بصناعة لم يسبق لها مثيل فى التأييد الداخلى وتوافق الرأى حول هذه الحملة لنشر الروح العسكرية. وأفغانستان هى البوابة المؤدية لكل هذه الثروات. فهل سنقاتل لنحصل عليها؟ وينبغى ألا ننسى أن الشعب الأمريكى لم يكن راغبًا فى القتال فى أى من الحربين العالميتين اللتين شهدهما القرن العشرون، ولكن الرئيس ويلسون قام بمناورة أدخلتنا فى الحرب الأولى، وقام الرئيس روزفلت بمناورة دفعت اليابانيين لتوجيه الضربة الأولى فى بيرل هاربور، مما دفعنا لدخول الحرب الثانية نتيجة لهجوم خارجى كاسح. وبرجنسكى يدرك هذا كله وهو فى سنة ١٩٩٧ ينظر إلى الأمام ـ كما ينظر إلى الوراء ـ «وبالإضافة إلى ذلك، فعندما تزداد أمريكا اتجاهًا لأن تصبح مجتمعًا متعدد الثقافات، فقد تجد من الأصعب تشكيل توافق فى الرأى حول قضايا السياسة الخارجية، إلا فى حالة تهديد خارجى مباشر كاسح وظاهر للعيان. وكانت تلك هى البندقية الرمزية التى أنتجت تلك السحابة السوداء من الدخان التى هومت فوق مانهاتن والبنتاجون.

ومنذ أيام الحرب الإيرانية العراقية انتشرت الأقاويل التى تصف الإسلام بأنه عقيدة إرهابية شيطانية تشجع الهجمات الانتحارية وينبغى أن نقول أن تلك أوصاف مخالفة للدين الإسلامى. وقد عرضت صورة أسامة بن لادن حتى يبدو متعصبًا للإسلام. وحتى يمكن تقديم هذا الشرير للعدالة (حيًا أو ميتًا) كان من اللازم أن تصبح أفغانستان، موضوع المباراة، مكانًا آمنًا ليس فقط للديمقراطية بل أيضًا لشركة «يونيون أويل أوف كاليفورنيا» التى كان مشروعها لإنشاء خط أنابيب يمتد من تركمنستان إلى أفغانستان إلى باكستان إلى ميناء كراتشى على المحيط الهندى، قد توقف فى ظل نظام الطالبان غير المستقر. أما الآن فإن مشروع خط الأنابيب قد عاد إلى الحياة بفضل تعيين العصبة الحاكمة أحد موظفى الشركة (وتسمى اختصارًا يونوكال) هو جون مارسكا مبعوثًا أمريكيًا لهذا البلد الديمقراطى الجديد الذى كان رئيسه الحالى حامد قرضاى أيضًا ـ وفقًا لما تقول به جريدة لوموند ـ موظفًا سابقًا فى شركة من الشركات التابعة ليونوكال. هل هى مؤامرة؟ بل هى مصادفة!

ويمجرد أن بدا أن أفغانستان

العــــدو مـــن الداخــــل



دخلت إلى الحظيرة. تحولت العصبة الحاكمة بصورة مفاجئة عن الاهتمام بأسامة، الذى كان تجسيدًا للشر، إلى الاهتمام بصدام. وذلك كان أمرًا يصعب تفسيره لأنه ليس هناك ما يربط بين العراق و٩/١١.. ولكن لحسن الحظ أن الدليل يجرى ابتداعه الآن. إلا أن تلك مهمة صعبة، ولا تساعد عليها الحكايات التى تنشرها الصحف عن ثروة العراق الهائلة من البترول التى يجب - لمصلحة العالم الحر - أن تعود السيطرة عليها إلى اتحادات الشركات (الكونسورتيوم) الأمريكية والأوروبية.

وعلى نحو ما تنبأ به برجنسكى، فإن «خطرًا خارجيًا مباشرًا وكاسحًا وظاهرًا للعيان، أتاح للرئيس أن يرقص رقصة الحرب أمام الكونجرس، ويصيح منتشيًا «إنها حرب طويلة الأمد!» وعند ذلك أعلن محورا للشر، غير متناسق الأعضاء، ينبغى مقاتلته، وبالرغم من أن الكونجرس لم يعطه تفويضًا رسميًا بإعلان الحرب فقد حصل على تصريح بتعقب أسامة الذى قد يكون الآن تسلل إلى العراق.

بوش والكلب الذى لم ينبح:

بعد ٩/١١ امتلأت وسائل الإعلام الأمريكية بالإدانة المتسرعة لـ«أصحاب نظرية المؤامرة» الذين لا وطنية لهم والذين يسهل على وسائل الإعلام عادة أن تضر بسمعتهم، لأنه من الأمور المفروغ منها أنه ليس ثمة مؤامرة فى الحياة الأمريكية. ومع ذلك، فقبل سنة أو نحوها من كان يتصور أن الجانب الأكبر من الشركات الأمريكية يتآمر مع مكاتب المحاسبة للتلاعب فى دفاترهم على الأقل منذ الفجر المشرق لعصر ريجان وإلغاء الضوابط والقيود.

ولاشك فى أن سلوك الرئيس جورج دبليو بوش فى ١١ سبتمبر يدعو إلى إثارة كثير من الشكوك غير الطبيعية. ولا أستطيع أن أتصور رئيسًا لدولة حديثة أخرى كان يمكن أن يستمر فى الوقوف أمام عدسات المصورين لالتقاط صور «دافئة» له وهو يستمع إلى تلميذة صغيرة تروى له حكايات عن عنزتها التى تربيها، بينما كانت الطائرات المخطوفة ترتطم بالمبانى الثلاثة الشهيرة، وبمقتضى الدستور، فإن بوش ليس مجرد رئيس للدولة، بل هو أيضًا القائد الأعلى للقوات المسلحة. والمعتاد فى مثل هذه الأوقات أن يتجه القائد الأعلى مباشرة إلى مقر القيادة، ويوجه العمليات ويتلقى آخر المعلومات. وهذا ما فعله بوش بالضبط أو لم يفعله وفقًا لما قال به ستان جوف، وهو ضابط متقاعد فى الجيش الأمريكى قام بتدريس العلوم السياسية فى قاعدة ويست بوينت. كتب جوف فى رسالة بعنوان «الدليل المزعوم حكاية كاذبة»: لست أدرى لماذا لا يسأل الناس أسئلة محددة للغاية عن تصرفات بوش وشركاه فى يوم وقوع الهجمات؟ فقد تم اختطاف أربع طائرات وأخرجت من خط طيرانها المقرر، وكل ذلك ظاهر على رادارات سلاح الجو الأمريكى.

وبالمصادفة فإن جوف، كغيره من الخبراء العسكريين المندهشين، لا يستطيع أن يفهم لماذا لم ينفذ الأمر الحكومى الآلى المعتاد بشأن الإجراءات التى تتخذ فى حالة خطف طائرة. فبمجرد ما تنحرف إحدى الطائرات عن خط طيرانها، تحلق طائرات مقاتلة فى الجو لتتحرى السبب. وهذا بحكم القانون ولا يتطلب موافقة من الرئيس، فهذه الموافقة لاتكون مطلوبة إلا لاتخاذ قرار بضرب الطائرة وإسقاطها. ويقول جوف صراحة: «لقد تم اختطاف الطائرات بين الساعة ٧:٤٥ و٨:١٠ صباحًا. فمن الذى أبلغ بذلك؟ هذه واقعة لم يسبق لها مثيل. ومع ذلك فإن الرئيس لم يبلغ بها، وذهب إلى مدرسة ابتدائية فى فلوريدا ليستمع إلى الأطفال وهم يقرأون دروسهم.

وحوالى الساعة ٨:١٥ صباحًا كان من الواضح تمامًا أن شيئًا خطيرًا قد حدث. وكان الرئيس يصافح المعلمين سعيدًا. وبحلول الساعة ٨:٤٥ عندما اصطدمت طائرة أمريكان إيرلينز فى رحلتها رقم ١١ بالبرج الشمالى، كان بوش يقف مع الأطفال لالتقاط صورته. وكان من الواضح أن أربع طائرات قد اختطفت فى نفس الوقت، وأن إحداها غيّرت ارتفاعها بسرعة لتصطدم بالبرجين التوأمين، ومع ذلك لم يقم أحد بإخطار الرئيس الأعلى الأسمى للقوات المسلحة.

ومن الواضح أن أحدًا لم يرسل بطائرات سلاح الجو الاعتراضية أيضًا. وفى الساعة ٩:٠٣ اصطدمت الطائرة ١٧٥ بالبرج الجنوبى. وفى الساعة ٩:٠٥ يهمس أندرو كارد رئيس الأركان فى أذن بوش الذى يتجهم لوهلة قصيرة، حسب ما ذكره مندوبو الصحف، فهل ألغى زيارة المدرسة وعقد اجتماعًا طارئًا؟ لا.. بل استأنف الاستماع إلى تلاميذ الصف الثانى.. واستمرت المهزلة حتى بعد أن غيّرت طائرة أمريكان ايرلينز فى رحلتها رقم ٧٧ اتجاهها كلية ودارت حول أوهايو وانطلقت فى اتجاه واشنطن العاصمة.

هل أصدر الرئيس تعليماته للجنرال كارد بأن تحلق طائرات سلاح الطيران فى الجو؟ لا.. وبعد ٢٥ دقيقة حاسمة أخرى، فإنه يتنازل بالإدلاء ببيان عام يبلغ فيه الولايات المتحدة بما سبق أن كانت قد رأته بعينيها.. إنه قد حدث هجوم على مركز التجارة العالمى. وكانت هناك طائرة مخطوفة تحلق متجهة إلى واشنطن، فهل كانت التعليمات قد صدرت لسلاح الطيران حتى ذلك الوقت للدفاع عن أى شىء؟ كلا.

وفى الساعة ٩:٣٥ تغير هذه الطائرة مسارها وتدور ٣٦٠ درجة فوق البنتاجون، وأجهزة الرادار تتبعها طوال الوقت ولا يتم إخلاء البنتاجون، ولا تظهر حتى هذا الوقت أية طائرات من سلاح الطيران فى الجو فوق مدينتى الإسكندرية وواشنطن. ثم تأتى أغرب الحكايات: فهم يريدوننا أن نصدق أن قائدًا للطائرة قد تدرب فى مدرسة فلوريدا للقفز بالباراشوت للقيام ببعض الألعاب المدنية، قام بهبوط حلزونى محسوب بدقة بحيث انخفض مسافة السبعة آلاف قدم الأخيرة فى دقيقتين ونصف، وأصبحت الطائرة على ارتفاع منخفض للغاية بحيث قطعت أسلاك الكهرباء عبر الشارع أمام البنتاجون، ويقودها بدقة تامة بحيث تصطدم بجانب المبنى بسرعة ٤٦٠ عقدة.

وعندما بدأت نظرية إجادة الطيران إلى هذه الدرجة فى مدرسة لتعليم القفز بالباراشوت تفقد مصداقيتها، أضيف القول بأن الذين قادوا الطائرات حصلوا على تدريب إضافى على محاكى للطيران.. وهذا يشبه القول بأنك دربت ابنتك الصغيرة للقيام بأول رحلة لها على الطريق فى ساعة الذروة بأن اشتريت لها لعبة قيادة بالفيديو.. إن هناك قصة ملفقة بشأن هذه الأحداث.

ثم هناك المزيد فكلما أوغلنا فى القصة زاد الغموض، فاللامبالاة التى أبداها الجنرال ريتشارد مايرز، نائب رئيس الأركان المشتركة تدعو إلى الحيرة بقدر ما يدعو موقف الرئيس من إدارة الأمور على الوجه المعتاد. كان مايرز فى مبنى الكابيتول يدردش مع السيناتور ماكس كليلاند، وكتب فيما بعد أحد ضباط الصف فى مجلة القوات المسلحة يصف ما رآه من مايرز عند وجوده فى الكابيتول يقول أنه عندما كان فى مكتب خارجى رأى تقريرًا فى التليفزيون يبين أن طائرة قد اصطدمت بمركز التجارة العالمى. وقال مايرز إنهم تصوروا أنها طائرة صغيرة أو شىء من هذا القبيل.. ومن ثم استأنف الرجلان المكالمة التى كانت دائرة بينهما.

وأيًا كان الموضوع الذى تكلم فيه مايرز وكليلاند (اعتمادات أكثر للعسكريين؟) فلابد أنه كان بالغ الأهمية، لأنه أثناء الدردشة بينهما - كما ذكرت المجلة - اصطدمت طائرة نفاثة أخرى بالبرج الثانى. وقال مايرز «لم يبلغنا أحد بذلك. ولكننا عندما خرجنا، كان الأمر واضحًا. ثم قال أحد الأشخاص فى ذلك الوقت بالذات إن البنتاجون تعرض للضرب. وفى النهاية، وضع أحدهم تليفونًا محمولاً فى يد مايرز، وكأنما بفعل السحر كان على الخط القائد العام لسلاحنا الجوى فى الوقت الذى كانت مهمة خاطفى الطائرات قد تمت بنجاح، باستثناء الطائرة التى سقطت فى بنسلفانيا. وفى شهادة أدلى بها أمام لجنة سلاح الطيران فى مجلس الشيوخ قال مايرز إنه يعتقد أنه إلى أن تمت المكالمة بالتليفون المحمول بينه وبين نوراد «كان القرار قد اتخذ بتحليق الطائرات فى الجو». وكانت الساعة عندئذ ٩:٤٠ صباحًا. أى بعد ساعة وعشرين دقيقة من معرفة المراقبين الجويين بأن الطائرة رقم ١١ قد اختطفت، وبعد ٥٠ دقيقة من تدمير البرج الشمالى.

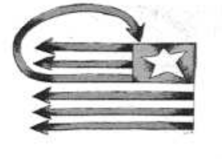
ولا أعتقد أن جوف كان متشككًا بغير موجب عندما تساءل عن الشخص والسبب الذى منع سلاح الطيران من اتباع التدابير المعتادة، بدلاً من الانتظار لمدة ساعة وعشرين دقيقة حتى وقع الضرر، بعد ذلك فقط حلقت المقاتلات فى الجو. من الواضح أن شخصًا ما أصدر الاوامر لى سلاح الطيران بالا يتحرك لاعتراض تلك الطائرات المختطفة إلى أن يتم.. ماذا؟

وفى يوم ٢٢ يناير ٢٠٠٢ لخص بارى زويكر المحلل السياسى الكندى فى محطة CBC-TV الموقف بقوله: «فى ذلك الصباح لم تستجب أى من الطائرات الاعتراضية فى الوقت المناسب لأقصى حالات الانتباه. وهذا يشمل أسراب أندروز التى لا تبعد عن البيت الأبيض بأكثر من ١٢ ميلاً.. وأيا كان تفسير هذا الفشل المدوى، لم تأت أخبار - فى حدود علمى - عن توقيع جزاءات. وهذا يزيد من ضعف نظرية عدم الكفاءة». فعدم الكفاءة يواجه عادة بالعقاب. وهذا يدفعنى إلى التساؤل عما إذا كانت هناك أوامر بـ«البقاء على الأرض»؟ وفى ٢٩ أغسطس ٢٠٠٢ ذكرت محطة BBC أنه فى يوم ٩/١١ لم تكن هناك غير أربع مقاتلات فى حالة استعداد فى شمال شرق الولايات المتحدة. مؤامرة؟ مصادفة؟ خطأ؟

من الطريف أن نلاحظ أنه كثيرًا ما حدثت فى تاريخنا، عندما تقع الكوارث، أن تكون حجة عدم الكفاءة أفضل من.... أجل، فهناك أشياء أسوأ، وبعد واقعة بيرل هاربور، بدأ الكونجرس يتحرى السبب فى أن القائدين العسكريين فى هاواى، الجنرال شورت والأميرال كيمبل، لم يتوقعا الهجوم اليابانى، ولكن الرئيس روزفلت أوقف ذلك التحقيق عن طريق القيام بتحقيق أجراه بنفسه، وقد أدين شورت وكيمبل بعدم الكفاءة، ومازالت «الحقيقة» خافية حتى اليوم.



فى وقت مبكر من السنة قال لنا البعض أنه سيكون ثمة زائرون غير مرغوب فيهم فى سماواتنا فى وقت ما من سبتمبر ٢٠٠١، ولكن الحكومة لم تبلغنا بذلك ولم تقم بحمايتنا، وعلى الرغم من التحذيرات التى تلقيناها فى أول مايو من الرئيس بوتين ومن الرئيس مبارك، ومن الموساد، وحتى من عناصر فى شرطة المباحث لدينا FBI



أسلحـــة الدمـــار الشــامل الإعــلاميــة

واقعة بيرل هاربور درست دراسة واسعة، أما أحداث ١١ سبتمبر فيبدو أنه لن يدور تحقيق بشأنها إذا ترك الأمر لجورج بوش. ففى يناير ٢٠٠٢ ذكرت محطة CNN أن «بوش شخصيًا طلب من توم داشيل زعيم الأغلبية فى مجلس الشيوخ تضييق نطاق تحقيقات الكونجرس فى أحداث ١١ سبتمبر.. وقد قدم هذا الطلب فى لقاء خاص مع زعماء الكونجرس.. وقالت المصادر أن الرئيس هو الذى بدأ الحديث فى الموضوع.. وطلب بوش ألا يطلع أحد غير لجنتى المخابرات فى مجلسى النواب والشيوخ على جوانب الضعف المحتملة لدى الهيئات الفيدرالية والتى سمحت بحدوث هجمات الإرهابيين، وألا يمتد التحقيق ليشمل جوانب أوسع من ذلك.. وقد جاءت مناقشة يوم الثلاثاء بعد واحدة من المكالمات القليلة التى أجراها ديك تشينى نائب الرئيس يوم الجمعة السابق وقدم فيها نفس الطلب...».

وكان العذر المقدم - وفق ما ذكره داشيل - هو أن «المصادر والأشخاص سينشغلون عن الحرب على الإرهاب فى حالة حدوث تحقيق أوسع نطاقًا. وهكذا، فالأسباب يجب ألا نعرفها، ينبغى إلقاء اللوم فى ذلك الإخفاق على عدم الكفاءة. وأما إذا لم تكن المسألة راجعة إلى عدم الكفاءة بل إلى أوامر بعدم التحليق، فذلك شىء لا يجوز لنا أن نتصدى له. ومن المؤكد أن مرور ساعة كاملة وعشرين دقيقة دون أن تنطلق الطائرات المقاتلة إلى الجو، لا يمكن أن يكون راجعًا إلى عدم الكفاءة فى كل وحدات سلاح الطيران على طول الساحل الشرقى. لقد طلب إيقاف الإجراءات المعتادة الإلزامية وعدم تطبيقها.

وفى غضون ذلك كلفت وسائل الإعلام بمهمتها المعتادة وهى إثارة الرأى العام ضد بن لادن، دون أن يكون هناك دليل قاطع على أنه مدبر العملية. وهذه الحملات الدعائية كثيرًا ما تتشابه مع الحيل التى يلجأ إليها الساحر عند تقديم ألعابه: فبينما تنصب أنظار المشاهدين على الألوان البراقة لمناديله الحريرية فى إحدى اليدين يكون قد وضع الأرنب باليد الأخرى فى جيب أحد المتفرجين. وقد أكدوا لنا باستعجال أن العائلة الكبيرة التى ينتمى إليها أسامة وصاحبة الثروة الهائلة قد قطعت علاقتها به، كما فعلت الأسرة المالكة فى بلده الأصلى: المملكة العربية السعودية، وأقسمت الـCIA وقد وضعت يدها على قلبها بأن أسامة لم يكن يعمل لحسابها فى الحرب ضد الاحتلال السوفيتى لأفغانستان. وأخيرًا، فإن الشائعات التى ترددت عن أن أسرة بوش قد استفادت بأى شكل من مشاركتها لأسرة بن لادن على امتداد سنوات طويلة كانت مجرد خطأ فى الاختيار.. وماذا يمكن أن تكون غير ذلك؟

لكن مشاركة بوش الصغير ترجع إلى سنة ١٩٧٩ على الأقل، عندما أدت محاولته الفاشلة الأولى لأن يصبح أحد اللاعبين فى رابطة البترول الكبيرة فى تكساس، إلى التقائه برجل يدعى جيمس باث من هيوستون، وهو من أصدقاء الأسرة، وأعطى بوش الصغير ٥٠ ألف دولار ليشترى بها حصة تبلغ ٥ بالمائة فى مؤسسة بوش المسماة أربوستو إنرجى Arbusto Energy. وفى هذا الوقت، كما يقول واين مادسن (كتاب «فى تلك الأيام» الذى يحمل رقم ٢٥ بين مطبوعات معهد الشئون العامة) كان باث هو رجل الأعمال الأمريكى الوحيد الذى يمثل سالم بن لادن، رئيس الأسرة وشقيق (واحد من ١٧) لأسامة بن لادن.. وفى بيان صدر بعد وقت قصير من هجمات ١١ سبتمبر، أنكر البيت الأبيض بشدة تلك العلاقة مؤكدًا أن باث كان يستثمر أمواله الخاصة وليست أموال سالم بن لادن فى شركة أربوستو. وفى أقوال متضاربة، أنكر بوش فى البداية أنه عرف باث فى أى وقت، ثم اعترف بحصته فى أربوستو وبأنه كان يعرف أن باث يمثل مصالح سعودية.. وبعد عدة تحولات تغير اسم أربوستو وظهرت فى ١٩٨٦ تحت اسم شركة هاركن للطاقة Harken Energy Corporation.

وكان وراء بوش الصغير بوش الكبير، الذى عمل مقابل مبلغ كبير لصالح مجموعة كارلايل Carlyle Group التى لها رؤوس أموال فى عدد لا يقل عن ١٦٤ شركة فى أنحاء العالم، مما أثار إعجاب تلك الجريدة الصديقة للأغنياء، جريدة «وول ستريت جورنال» التى ذكرت فى وقت مبكر يرجع إلى ٢٧ سبتمبر ٢٠٠١ أنه: «إذا عمدت الولايات المتحدة إلى زيادة إنفاقها العسكرى سعيًا لإيقاف أنشطة أسامة بن لادن الإرهابية المزعومة، فقد يكون هناك مستفيد واحد غير متوقع: هم المستثمرون فى مؤسسة أنشأتها مجموعة كارلايل، وهى بنك تجارى له اتصالات قوية فى واشنطن ومتخصص فى شراء Buyoutes الشركات المشتغلة بشئون الدفاع والطيران.. وأسامة هو واحد من أكثر من ٥٠ من أبناء محمد بن لادن الذى أنشأ أعمال الأسرة والتى بلغت ٥ مليارات دولار».

ولكن بوش، الأب والابن، فى السعى وراء الثروة والمناصب، لا يخجلان من شىء، أو لعلهما يتبعان المنطق السليم. وهناك من يوحى بأنهما يقفان دون البحث فى مدى اتصال بن لادن بالإرهاب. وقد نشرت وكالة الأنباء الفرنسية فى ٤ نوفمبر ٢٠٠١ أن «رجال المباحث FBI الذين كانوا يتتبعون أقارب الإرهابى المشتبه فيه أسامة والمنحدر من أصول سعودية.. قد طُلب منهم ألا يواصلوا عملهم بعد وقت قصير من جلوس جورج دبليو بوش على مقعد الرئاسة.. ووفقًا للنشرة المسائية التى أذاعتها محطة BBC T.V (٦ نوفمبر ٢٠٠١).. بعد أيام قليلة فقط من انطلاق خاطفى الطائرات متجهين إلى البرجين التوءمين، تسللت طائرة شارتر خاصة من نفس المطار حاملة ١١ من أفراد أسرة أسامة متجهة إلى المملكة السعودية. ولم يكن ذلك داعيًا لقلق البيت الأبيض، إذ أن خطه الرسمى هو أن «آل بن لادن هم فوق الشبهات». وتلخص مقالة «فوق القانون» (جرين برس، ١٤ فبراير ٢٠٠٢) الموقف بقولها: «لقد كنا نواجه ما يبدو أنه أكبر فشل للعاملين فى المخابرات منذ واقعة بيرل هاربور، ولكن يؤخذ مما نعرفه الآن أن الأمر لم يكن فشلاً، بل كان توجيهات». صدق؟ كذب؟ إن جورج بوش الابن سوف يقسم على أن يقول الحق عند استجوابه فى الموضوع، فهل سنسمع من يسأل: «ما هو التوجيه؟ ومن أين يصدر؟».

وبالرغم من أن الولايات المتحدة كانت تشير طوال السنوات إلى أسامة على أنه إرهابى خطير، لم تبذل أية محاولة جادة قبل ٩/١١ لتقديمه للمحاكمة «حيًا أو ميتًا، بريئًا أم مذنبًا» على نحو ما يطالب به قانون الغابة المطبق فى تكساس. وقد سلمت الخطة التى وصفها كلينتون للتحرك فى هذا الصدد إلى كوندوليزا رايس على يد ساندى بيرجر، كما تذكرون، ولكنها تقول إنها لم تتسلمها.

وفى وقت سابق يرجع إلى شهر مارس ١٩٩٦، عندما كان أسامة فى السودان، عرض اللواء الفاتح عروة وزير الدفاع السودانى فى ذلك الوقت إبعاد بن لادن. وقد نشرت الواشنطن بوست (٣ أكتوبر ٢٠٠١) أن عروة قال إنه يسعده أن يراقب بن لادن بدقة لحساب الولايات المتحدة. ولكن إذا لم يكن هذا كافيًا فإن الحكومة على استعداد للقبض عليه وتسليمه لها.. وقد قال المسئولون الأمريكيون.. يكفى أن تطلبوا منه مغادرة البلاد، إلا أنه لا يجوز أن يذهب إلى الصومال» حيث كانت قد نسبت إليه عملية الهجوم الناجحة التى قامت بها «القاعدة» على القوات الأمريكية فى ١٩٩٣ والتى قتل فيها ١٨ جنديًا من القناصة. وقد قال عروة فى مقابلة صحفية: «إننا قلنا إنه سيذهب إلى أفغانستان، وقال المسئولون الأمريكيون «فليذهب»».

وفى ١٩٩٦ طرد السودان أسامة و٣٠٠٠ من أعوانه. وبعد سنتين، واصلت إدارة كلينتون التراث الأمريكى. فبدلاً من تقديم الشكر للسودان على عرضه تسليم أسامة، شنت الولايات المتحدة هجومًا بالصواريخ على مصنع «الشفاء» للأدوية بدعوى أن السودان يؤوى أتباع أسامة بن لادن الإرهابيين، وأنهم كانوا يصنعون أسلحة كيماوية وبيولوجية، فى حين لم يكن المصنع ينتج شيئًا غير المواد اللازمة للتطعيم لحساب الأمم المتحدة.

عــالم آمن من أجل الســلام وأنابيب البــتــرول:

لقد شاهدت بوش وتشينى على شبكة CNN عند إلقاء الخطاب الخاص بمحور الشر وعند إعلان «الحرب التى ستستمر طويلاً». وقد وجه الاتهام إلى العراق وإيران وكوريا الشمالية باعتبارها الأعداء التى سينزل بها العقاب. لأنها تؤوى أو لا تؤوى الإرهابيين الذين قد يدمروننا أو لا يدمروننا أثناء الليل، ولذا ينبغى أن نبدأ نحن بالضرب عندما يروق لنا ذلك. وهكذا أعلنا «الحرب على الإرهاب» - وهو اسم مجرد، ومن ثم لا يمكن خوض حرب عليه مطلقًا، لأن الحرب تعلنها دولة على دولة أخرى. وبطبيعة الحال كانت هناك أفغانستان التى لم ترتكب إثمًا، والتى سويت بالأرض من ارتفاع كبير. ولكن ماذا يهم الضرر عندما يكون العدو هو تجسيد لكل ألوان الشر على نحو ما تذكر مجلة تايم وجريدة نيويورك تايمز وشبكات التليفزيون؟

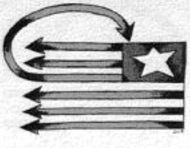
وقد ثبت فيما بعد أن غزو أفغانستان لم تكن له صلة بأسامة، وإنما كان أسامة مجرد ذريعة لاستبدال الطالبان بحكومة أكثر استقرارًا تستطيع أن تسمح لشركة Union Oil of California بمد خط الأنابيب الذى يحقق الأرباح لعصبة شينى بوش ضمن أطراف أخرى.

هل تريدون معرفة خلفية هذه الأحداث؟ إن مقر رئاسة شركة يونوكال، كما هو المتوقع، قائم فى تكساس. وفى ديسمبر ١٩٩٧ دعى ممثلو طالبان إلى اجتماع فى شوجرلاند بتكساس. وفى ذلك الوقت كانت شركة يونوكال قد بدأت بالفعل فى تدريب بعض المختصين الأفغان على إنشاء خط الأنابيب، بموافقة الحكومة الأمريكية. وقد ذكرت محطة BBC (٤ ديسمبر ١٩٩٧) أن «متحدثًا باسم شركة يونوكال ذكر أن من المتوقع أن يقضى رجال الطالبان بضعة أيام فى المقر الرئيسى للشركة (فى تكساس).. وأن مراسلاً محليًا للمحطة يقول إن اقتراح إنشاء خط للأنابيب عبر أفغانستان هو جزء من مشروع دولى للاستفادة من تنمية موارد الطاقة الغنية فى بحر قزوين». وذكرت



وبمجرد أن بدأ أن أفغانستان دخلت إلى الحظيرة، تحولت العصبة الحاكمة بصورة مفاجئة عن الاهتمام بأسامة، الذى كان تجسيدًا للشر، إلى الاهتمام بصدام. وذلك كان أمرًا يصعب تفسيره لأنه ليس هناك ما يربط بين العراق و٩/١١.. ولكن لحسن الحظ أن الدليل يجرى ابتداعه الآن

العـــدو مـــن الداخـــل



وكـالة أنبـاء Inter Press (IPS) أن «بعض رجال الأعمال الغربيين يعملون على تحسين علاقـاتهم مع الطالبـان، بالرغم من لجـوء تلك الجماعة بصورة منتظمة إلى أعمال الإرهاب والاغتيال والخطف ونشر الفقر». وذكرت CNN (٦ أكتـوبر١٩٩٦) أن «الولايات المتحـدة تريد إقامة علاقات طيبة مع الطالبان ولكنها لا تستطيع أن تعلن تأييدها لهم بينما يقومون بقمع المرأة وحرمانها من حقوقها».

وكانت جماعة الطالبان، وهى أقوى تنظيمًا مما يشاع عنها، قد استعانت بخدمات موظفة فى العلاقات العامة تدعى ليلى هيلمز، وهى ابنة أخت ريتشـارد هيلمز المدير السابق للـ CIA. وفى أكتوبر ١٩٩٦ نشرت جريدة «فرانكفورتر رونشاو» أن شركة يونوكال حصلت على الموافقة من المسيطرين الجدد على السلطة فى كابول لإنشاء خط لأنابيب البترول يمتد من تركمنستان عبر أفغانستان إلى باكستان...» وكان هذا انتصارًا حقيقيًا ليونوكال، وكذلك للمرشحين الآخرين لإنشاء خطوط الأنابيب، ومن بينهم شركة شيفرون التى كانت كوندوليزا رايس من موظفيها فى السابق. وبالرغم من أن الطالبان كانت معروفة بالفعل بجرائمها الخطيرة ضد البشرية فإن جريدة «وول ستريت جورنال» عندما شمت رائحة المشروع المربح الكبير كتبت بجسارة تقول: «سواء شئنا أم أبينا، فإن الطالبان هى القادرة على تحقيق السلام فى أفغانستان فى هذه اللحظة من التاريخ». ثم قفزت النيويورك تايمز (٢٦ مايو ١٩٩٧) إلى مركبة خط الأنابيب فكتبت تقول: «إن حكومة كلينتون أخذت بالرأى القائل بأن انتصار الطالبان سوف يجد قوة موازنة لإيران.. ويفتح الباب أمام سبل جديدة للتجارة يمكن أن تضعف نفوذ روسيا وإيران فى المنطقة».

ولكن بحلول عام ١٩٩٩ كان من الواضح أن الطالبان لا يمكن أن توفر لنا الأمن الذى نحتاجه لحماية خطوط أنابيبنا المعرضة للأخطار. وأدى ظهور أسامة على المسرح كمقاتل من أجل الله إلى تغيير الموقف. وبدأ إنشاء تحالفات جديدة. ولم تلبث إدارة بوش أن تبنت فكرة غزو أفغانستان. وقد كتب فردريك ستار رئيس «معهد آسيا الوسطى بجامعة جون هوبكنز» فى الواشنطن بوست (١٩ ديسمبر ٢٠٠٠) يقول: لقد بدأت الولايات المتحدة بهدوء فى الوقوف إلى جانب من يدعون فى الحكومة الروسية إلى القيام بعمل عسكرى ضد أفغانستان وأنها تناقش فكرة شن غارة جديدة للقضاء على بن لادن».

وبالرغم من أننا قمنا بدعاية كبيرة للأخذ بالثار من ذلك المتعصب الدينى السادى المجنون الذى قتل ٣٠٠٠ مواطن أمريكى، لم تكد تلك «الحرب» تبدأ حتى هبط الاهتمام بأسامة، وعدنا إلى الاهتمام بخط أنابيب يونوكال الذى أصبح الآن مشروعًا قابلاً للتنفيذ. وعلى ضوء ما نعرفه اليوم، يرجح أن العصبة الحاكمة لم تكن ستسعى للقبض على أسامة حيًا، إذ أن لديه حكايات يرويها. وقد أصبح من أفضل النمر التى يلعبها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد الآن أن يقول: «أين هو؟ فى مكان ما؟ هنا؟ هناك؟ فى مكان ما؟ من يدرى؟» ولا نأخذ منه غير التساؤلات. ولابد أنه سعيد الآن - ومندهش - لكون وسائل الإعلام قد قبلت القصة الشاذة القائلة بأنه إذا كان أسامة حيًا فإنه سيكون باقيًا فى أفغانستان، فى انتظار القبض عليه بدلاً من أن يكون مقيمًا فى قصر مريح فى جاكارتا المتعاطفة مع أسامة والتى تقع على مسافة ٢٠٠٠ ميل إلى الشرق ويسهل الوصول إليها بالسجاد الطائر رقم ١.

وقد لاحظ كثير من المعلقين الذين تقدم بهم العمر مدى التشابه بين ما كان يقوله هتلر وما تقوله عصبتنا الحاكمة وهى تهدد أولاً إحدى الدول ثم تهدد الأخرى لأنها تؤوى الإرهابيين. وصحيح أن هتلر كان يميل لأن يتظاهر بأنه الطرف المعتدى عليه - أو المعرض للاعتداء - قبل أن يضرب ضربته. ولكن هتلر كان له أسلاف عديدون ليس أقلهم شأنًا «روما الإمبراطورية».

وابتداءً من الأول من أغسطس ٢٠٠٢، كانت بالونات الاختبار تنطلق فى كل مكان فوق واشنطن حتى يعتاد الرأى العام العالمى على فكرة أن «بوش أفغانستان» كسب انتصارًا شبيهًا بانتصار أبيه «بوش الخليج العربى» وأن بوش الصغير يتلهف الآن لأن يضيف إلى أمجاده العراق وبابل. وقد سقطت هذه البالونات على أوروبا والعالم العربى كأثقال من رصاص. ولكن شيئًا جديدًا أضيف إلى الأساليب الرومانية الهتلرية، وهو القول «إنهم يهددوننا، فلا بد لنا من أن نضربهم أولاً». وعلى ذلك أصبح الجميع الآن فى العراء. وكتبت الإنترناشونال هيرالد تريبيون فى أغسطس٢٠٠٢ «لقد بدأ تسريب الأنباء فى ٥ يوليو، عندما وصفت النيويورك تايمز خطة مؤقتة للبنتاجون يقال إنها معدة للغزو تشارك فيها قوة أمريكية تصل إلى ٢٥٠ ألف جندى، تقوم بمهاجمة العراق من الشمال والجنوب والغرب. وفى ١٠ يوليو ذكرت التايمز أن الأردن قد يستخدم كقاعدة للغزو. وذكرت الواشنطن بوست فى ٢٨ يوليو أن «كثيرًا من العسكريين الأمريكيين يرون أن صدام حسين لا يمثل خطرًا مباشرًا.. » وأنه ينبغى الإبقاء على الوضع الحالى. وبالمصادفة، فإن هذا هو نوع الحوار الذى كان الآباء المؤسسون يرون أنه يجب أن يدور باسمنا نحن الشعب فى الكونجرس وليس بين البيروقراطيين العسكريين، ولكن هذا النوع من المناقشة قد حرمنا نحن منه منذ أمد طويل.

وهناك نغمة منعشة تعزف الآن بطريقة لم يكن أحد يتصورها فى روما الإمبراطورية: وهى الاعتراف ببساطة بأننا نلجأ إلى الاستفزاز من وقت لآخر. فالتريبيون تواصل القول: «لقد هدد دونالد رامسفيلد بأن يودع السجن أى شخص يتبين أنه كان وراء تسريب الأنباء». ولكن أحد جنرالات الجيش المتقاعدين، فريد فيرنار، يرى أن عمليات التسريب متعمدة. وقد ذكر مؤخرًا «لعلنا بدأنا فى تنفيذ خطة. فهل نحن بصدد عملية سيكلوجية هدفها دفع العراق إلى عمل شىء يكون مبررًا لهجوم تقوم به الولايات المتحدة أم لإلزامه بتقديم تنازلات؟ ولابد أن هناك من يعرف».

وفى موضع آخر من هذا العدد الطريف من أعداد الهيرالد تريبيون يكتب وليم ايفاف الحكيم: «هناك مناقشة ثانية دائرة فى واشنطن بصدد ما إذا كان ينبغى أن تقوم بهجوم مفاجئ على إيران لتدمير المفاعل النووى الذى يجرى إنشاؤه بمساعدة الروس، والخاضع لتفتيش الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى نطاق معاهدة عدم الانتشار النووى، وهى المعاهدة التى وقعتها إيران.. وليست هناك حكومة أخرى يمكن أن تؤيد خطوة كهذه، فيما عدا حكومة إسرائيل التى ستفعل ذلك، لا لأنها تتوقع أن تتعرض لهجوم من جانب إيران، بل لأنها - ولديها مبرراتها - تعارض وجود أية قدرة نووية لدى أية حكومة إسلامية.

الدول المتـــهـــمـــة وطبـــول الانتـــقـــام:

من بين كل أعداء الحريات العامة، ربما تكون الحرب هى أخطرها، لأنها تشمل وتولد جرثومة كل الأخطار الأخرى. وهى باعتبارها الغاية التى تنشأ من أجلها الجيوش، تشجع على الاستدانة وفرض الضرائب، وهى الأدوات المعروفة لإخضاع الكثيرين لسيطرة القلة. وفى ظل الحرب أيضًا تتسع السلطات الاستثنائية للأجهزة التنفيذية.. وتضاف كل وسائل التأثير على العقول إلى وسائل إخضاع قوة الشعب.. وهذا ما حذرنا منه جيمس ماديسون فى فجر وجود جمهوريتنا.

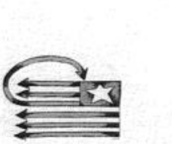
وبعد ٩/١١ وبفضل «سيطرة القلة» التزم الكونجرس والميديا الصمت بينما تعمل السلطة التنفيذية، عن طريق البروباجندا واستطلاعات الرأى الموجهة، للتأثير على الذهن العام من خلال مراكز لم يكن فى الوسع تصورها من قبل مثل وزارة الأمن الداخلى (وهى وزارة جديدة ستضاف إلى وزارة الدفاع القائمة) كما وجهت الدعوة إلى ٤ بالمائة من السكان مؤخرًا للانضمام إلى هيئة TIPS وهى شبكة من الجواسيس المدنيين هدفها الإبلاغ عن أى شخص يبدو مريبًا.. أو يعترض على ما تفعله السلطة التنفيذية فى الداخل أو الخارج.

وبالرغم من أن كل دولة تعرف - إذا توافرت لها الوسائل والإرادة - كيف تحمى نفسها من البلطجية من النوع الذى جلب لنا أحداث ٩/١١، فإن الحرب ليست خيارًا مطروحًا أمام الحكومات. فالحرب تشنها الدول ولا تشن على عصابات لا جذور لها. أنت تحدد ثمنًا لرؤوس أعضائها وتتعقبهم حيثما كانوا. وفى السنوات الأخيرة كانت إيطاليا تفعل ذلك مع أعضاء المافيا الصقليين، ولكن لم يقترح أحد حتى الآن استخدام الطائرات فى قصف باليرمو.

غير أن عصبة شينى - بوش تريد حربًا للسيطرة على أفغانستان، وإنشاء خط للأنابيب، والتحكم فى بترول ستانات أوراسيا لصالح شركائها فى الأعمال، وكذلك لإنزال أكبر قدر من الدمار بالعراق وإيران بدعوى أن هذين البلدين الشريرين ربما ينشران فوق حقول القمح الذهبى لدينا بودرة الجمرة الخبيثة أو شيئًا كهذا.

وقد كانت الميديا دائمًا ضعيفة فى التحليل، وهى الآن تزداد لهاثًا وتخبطًا. وعلى شبكة CNN، حتى رجل ذكى مثل جيم كلانسى فقد أعصابه عندما حاول أحد الأكاديميين الهنود أن يذكر أن العراق كان فى يوم من الأيام حليفنا و«صديقنا» عندما كان يحارب ضد عدونا الشيطانى إيران، عند ذلك قالت كلانسى «لا مكان هنا لهذا الحديث عن المؤامرة». ومن الواضح أن «حديث المؤامرة» هو الآن طريق مختصر إلى الحقيقة التى لا يريد أن يتحدث عنها أحد.

ومنذ شهر أغسطس، كان هناك توافق متزايد فى الرأى على الأقل بين رجال الاقتصاد لأنه بالنظر إلى الدين الوطنى الهائل (نحن نقترض اثنين من مليارات الدولارات كل يوم حتى تتمكن الحكومة من أداء أعمالها العادية) وبالنظر إلى النقص الشديد فى الوعاء الضريبى الذى أقدمت عليه العصبة الحاكمة حتى يستفيد الواحد فى المائة الذين يملكون الجانب الأكبر من الثروة الوطنية، ليس ثمة سبيل نستطيع أن نحصل منه على المليارات اللازمة لتدمير العراق فى «حرب طويلة الأمد» أو حتى حرب قصيرة المدى، بينما تتخذ معظم دول أوروبا موقفًا معارضًا لنا. وقد دفعت ألمانيا واليابان بعض تكاليف حرب الخليج على كره منها وتشاجرت اليابان معنا فى آخر



طلب بوش ألا يطلع أحد غير لجنتى المخابرات فى مجلسى النواب والشيوخ على جوانب الضعف المحتملة لدى الهيئات الفيدرالية والتى سمحت بحدوث هجمات الإرهابيين، وألا يمتد التحقيق ليشمل جوانب أوسع من ذلك



وتشاجرت اليابان معنا فى آخر لحظة حول سعر الصرف فى وقت التعاقد. والآن فإن ألمانيا شرودر قالت لا.. ولزمت اليابان الصمت.

ولكن الطبول مازالت تقرع للأخذ بالثأر.. وإذا كانت أغلبية العالم تعارض حربنا، فإن ذلك لا يدفع بحمرة الخجل إلى وجوه أعضاء إدارة بوش (فبوش الكبير ينتمى إلى مجموعة كارلايل، وبوش الصغير كان منتميًا إلى شركة هاركين، وتشينى كان منتميًا إلى شركة هاليبرتون، وكندوليزا رايس كانت منتمية إلى شركة شيفرون، ورامسفيلد كان منتميًا إلى شركة أوكسيدنتال.

وإذا كان ينبغى لأية إدارة أن تنأى بنفسها عن المسائل المتعلقة بالطاقة، فهى العصبة الحالية، لكنها ليست شبيهة بأية إدارة سابقة فى تاريخنا. فقلوب أعضائها متجهة بصراحة فى اتجاه آخر، وهو كسب المال، ولا يبقى لنا منهم غير رؤوسهم التى تحلم بالحرب، ويستحسن أن تكون حربًا ضد الدول الهامشية الضعيفة.

إن محمد حسنين هيكل الصحفى المصرى اللامع والمحلل الدقيق للأحداث. وقد قال فى ١٠ أكتوبر ٢٠٠١ لجريدة الجارديان: «إن بن لادن لا يملك القدرة اللازمة لعملية بهذا الحجم. وعندما أسمع بوش يتكلم عن القاعدة كأنما هى ألمانيا النازية أوالحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى، فإنى أضحك لأنى أعرف حقيقة الأمر، فقد كان بن لادن موضوعًا تحت المراقبة على امتداد سنوات، وكانت كل مكالماته التليفونية مرصودة، وكانت القاعدة مخترقة من جانب المخابرات الأمريكية، والمخابرات الباكستانية، والمخابرات السعودية، والمخابرات المصرية. وما كانت القاعدة لتستطيع أن تحافظ على سرية عملية تحتاج إلى هذا القدر من التنظيم والدقة».

وقد تحدث إيكهارت فرتباخ الرئيس السابق للمخابرات الألمانية الداخلية(American Free Press، ٤ ديسمبر ٢٠٠١) عن ذلك فقال إن هجمات ٩/١١ كانت تحتاج إلى سنوات من التخطيط، وحجمها يبين أنها نتيجة لأعمال تنظمها دول. وهذه هى الحقيقة. ولعل بوش الصغير كان على حق فى نهاية الأمر فى وصفها بأنها حرب. ولكن من هى الدولة التى هاجمتنا؟

هل يتفضل هؤلاء المشتبه فيهم بالوقوف فى الطابور. المملكة السعودية؟ لا، لا. فنحن ندفع لهم ٥٠ مليون دولار فى السنة لتدريب الحرس الملكى فوق ترابنا المقدس وإن يكن فاصلاً، وصحيح أن المملكة تحوى العديد من الأعداء الأثرياء الحاصلين على تعليم مرتفع ولكن.... وهنا يتبادل بوش الكبير وبوش الصغير نظرة ذات مغزى. مصر؟ لا يمكن. فهى مفلسة بالرغم من المساعدات الأمريكية. سوريا؟ لا تملك الأموال. إيران؟ تظن نفسها أنها أكبر من أن تلقى بالاً لدولة بلا تاريخ مثل الولايات المتحدة. إسرائيل؟ إن شارون يمكن أن يعمل أى شىء. ولكنه لا يملك شجاعة أو نبل الكاميكازى الحقيقيين، وعلى أى حال فإن شارون لم يكن مسئولاً عندما بدأت هذه العملية لغرس «عناصر نائمة» فى مدارس تعليم الطيران الأمريكية قبل خمس أو ست سنوات. الولايات المتحدة؟ هناك عناصر من أمريكا الشركات يمكن أن تستفيد من «هجوم خارجى كاسح» يتيح لنا أن ندخل فى حرب فى أى وقت يرى فيه الرئيس أن ذلك ملائم، فى نفس الوقت الذى نعلق فيه الحريات المدنية. (ومن المعروف أن قانون الوطنية الأمريكية الذى يتألف من ٣٤٢ صفحة قد أعد قبل ٩/١١). ولاشك فى أن بوش الكبير وبوش الصغير يقهقهان الآن.. لماذا؟ لأن كلينتون كان هو الرئيس فى ذلك الوقت، وعندما يخرج الرئيس السابق من طابور المشتبه فيهم فإنه يقول بغضب أكثر منه بأسف: عندما تركنا البيت الأبيض كانت لدينا خطة لحرب شاملة ضد القاعدة. وقد سلمناها لهذه الإدارة ولكنها لم تفعل شيئًا بشأنها. فلماذا؟ ويعض على شفتيه ثم يمضى. ويكف الرئيسان بوش عن الضحك. إذ تتدخل باكستان قائلة: «أنا التى فعلتها! إنى أعترف! لم أستطع أن أمنع نفسى من ذلك. أنقذونى. إننى ممن يرتكبون الشر!».

ومن الواضح أن باكستان قد فعلتها ـ أو فعلت جانبًا منها ـ وينبغى لنا الآن أن نعود إلى سنة ١٩٧٩ عندما أجريت أكبر عملية سرية فى تاريخ الـCIA، ردًا على الغزو السوفيتى لأفغانستان. وقد كتب أحمد راشد المتخصص فى شئون آسيا الوسطى (مجلة Foreign Affairs، نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٩٩) إنه بتشجيع قوى من المخابرات الأمريكية، والمخابرات الباكستانية اللتين كانتا تريدان تحويل الجهاد الأفغانى إلى حرب عالمية تشنها كل الدول الإسلامية على الاتحاد السوفيتى، انضم ما يقرب من ٣٥ ألفًا من المسلمين المتطرفين من ٤٠ بلدًا إسلاميًا، إلى المقاتلين فى أفغانستان فى الفترة من ١٩٨٢ و١٩٩٢.. وأنه كان هناك أكثر من ١٠٠ ألف من المسلمين الراديكاليين الأجانب تحت التأثير المباشر للجهاد الأفغانى». وكانت الـCIA تدرب هؤلاء المقاتلين سرًا وترعى شئونهم.

وفى مارس ١٩٨٥، أصدر الرئيس ريجان التوجيه رقم ١٦٦ بشأن الأمن القومى الذى تضمن زيادة المعونة العسكرية فى نفس الوقت الذى التقى فيه خبراء الـCIA مع نظرائهم فى المخابرات الباكستانية بالقرب من روالبندى بباكستان. وكتبت مجلة Jane's Defence Weekly (١٤ سبتمبر ٢٠٠١) أفضل عرض للموضوع: كان المدربون أساسًا من المخابرات الباكستانية الذين تعلموا حرفتهم من رجال الكوماندوز الأمريكيين ذوى القلنسوات الخضراء ورجال البحرية فى مؤسسات أمريكية مختلفة للتدريب، وهذا يفسر السبب فى إحجام الإدارة الأمريكية عن تفسير ما كان يدعو إلى إعطاء تأشيرات لهذا العدد الكبير من الأشخاص غير المؤهلين للحصول عليها، امتداد فترة زمنية طويلة، لزيارة شواطئنا المضيافة.

وأثناء الوجود فى باكستان «كان يجرى بعد ذلك تدريب المتعصبين الأفغان على نطاق واسع على يد الجيش الباكستانى تحت إشراف جهاز الخدمات الخاصة..وفى سنة ١٩٨٨، وبعلم الولايات المتحدة، أنشأ بن لادن منظمة القاعدة، وهى تجمع لخلايا إرهابية إسلامية شبه مستقلة. منتشرة عبر ما يقرب من ٢٦ دولة. وكانت واشنطن تغمض عينيها عنها. ■

كتاب الزاوية

فاروق جويدة

كما أشعلت انتفاضة الأقصى روح المقاومة فى الشارع العربى فإنها أيقظت شياطين الشعر وملائكته وألهمت قرائح المبدعين، ينعون زمن السبات والخديعة ويأملون فى غدٍ بلون الشهادة وبراءة النضال.

بين هؤلاء الشاعر المبدع فاروق جويدة الذى قدَّم للمكتبة العربية ١٧ مجموعة شعرية وعدداً من المسرحيات الشعرية التى لاقت نجاحًا كبيراً حين عرضها، وقد جمع قصائده عن القدس فى كتاب صدر أخيراً، هنا بعضها.

إلى آخر شهداء الانتفاضة

مُتْ صامداً..

واتركْ عيونَ القدسِ تبكى

فوق قبرِكَ ألفَ عامْ..

قد يسقطُ الزمنُ الردىءُ

ويطلعُ الفرسانُ من هذا الحطامْ

قد ينتهى صخبُ المزاد..

وتكشفُ الأيامُ أقنعةَ السَلامْ

إن نامت الدنيا..

وضاعَ الحقُ فى هذا الرُكامْ

فلديك شعبٌ لن يضلَّ.. ولن ينامْ..

مُتْ صامداً..

البتـــرول هـــو الهـــدف وإســـرائيل شـــريك رئيسى

أسـرار الاندفـاع الأمـريكى نحـو غـزو العـراق!

أنـاتـول لايـفـن



أشد ما يلفت النظر فى خطة إدارة بوش لغزو العراق ليس انها ستؤدى إلى تدمير النظام الدولى، أو كونها خطة شريرة عندما نأخذ فى الاعتبار الدور الذى لعبته الولايات المتحدة (وبريطانيا) ومازالت تلعبه فى الشرق الأوسط، أو أنها تلقى معارضة من جانب الغالبية العظمى من المجتمع الدولى، أو ما يبدو من أنها تتعارض مع بعض الاحتياجات الأساسية للحرب على الإرهاب. فهى كل هذا، ولكنه ليس موضع اهتمام كبير من جانب المتشددين فى «الإدارة». وقد لقى هذا الفريق إحباطًا مؤقتًا على الأقل نتيجة لإصرار بريطانيا على إشراك الأمم المتحدة فى الأمر، وموافقة صدام حسين على التفتيش على أسلحته. غير أن هذا الفريق مازال مصممًا على الحرب - وقوته داخل الإدارة وفى السياسة الأمنية للولايات المتحدة تعنى أن المرجح أنه سيمضى فى سبيله دون أن يعوقه شىء. وحتى جريدة الواشنطن بوست انضمت إلى وسائل الإعلام اليمينية المتطرفة وباتت تؤيد الحرب.

وأكثر ما يدهش فى الاندفاع إلى الحرب أنه اندفاع طائش ومتهور. وإذا كنت سأراهن على نتيجة هذه الحرب فإنى أقول إن احتمالات النجاح السريع فى تدمير النظام العراقى تبلغ ٥ إلى ١ أو أكثر بالنظر إلى التفوق العسكرى الأمريكى، والطبيعة السيئة لحكم صدام حسين، وعدم إمكان الاعتماد على صواريخ بغداد، والانقسامات العميقة فى العالم العربى. ولكن مكاسب الولايات المتحدة فى المدى الطويل تبدو محدودة فى حين أن نتائج الفشل ستكون كارثة. إذ إن الاشتعال العام فى منطقة الشرق الأوسط، وتعرض المزيد من الدول العربية المؤيدة للغرب لمشاكل خطيرة سيؤديان إلى خسارتنا للحرب على الإرهاب، وسيقضى بالموت على الآلاف من المدنيين الغربيين فى العقود المقبلة، وسيدفع بالاقتصاد العالمى إلى الكساد.

وهذه المخاطر لا تحيط فقط بحياة ومصالح الأمريكيين (والبريطانيين) بل تحيط أيضًا بمستقبل الإدارة الأمريكية. وإذا سارت الأمور فى الحرب على غير المتوقع فإنها ستلقى استنكارًا عامًا أشد مما لقيته أى حرب تعيها الذاكرة، وستكون تلك الحرب النهاية السياسية لأصحابها - النهاية التى لا قومة بعدها - وإذا كانت المخاوف الأخرى لا تؤثر على هؤلاء الناس، فلعل هذا الأخير يثير مخاوفهم.

وخطة الحرب هذه شبيهة بالتدخل فى فيتنام الذى لقى عند بدايته تأييدًا من كلا الحزبين السياسيين، ومن البنتاجون، ومن مؤسسة الأمن، ومن وسائل الإعلام. ومن الصحيح أن الديمقراطيين اليوم لا يتخذون موقفًا واضحًا - لأسباب سوف أعود إليها - ولكن جزءًا كبيرًا من مؤسسة الأمن الجمهورية القديمة قد أدان الفكرة، كما أن البنتاجون أوضح عدم ارتياحه لها بجلاء.

وعلى ذلك فقد تم تحذير الإدارة من المخاطر. وإذا كان وقوع هجوم جديد من جانب «القاعدة» أثناء الحرب سوف يساعد على تعزيز مشاعر الوطنية الأمريكية المعادية للإسلام، فسوف توجه اتهامات عديدة للإدارة بأنها أهملت مطاردة مرتكبى أحداث ١١ سبتمبر سعيًا وراء ثأر تافه. وفيما يتعلق باللوبى الإسرائيلى، فإن وقوع كارثة فى الشرق الأوسط قد يكون هو الشىء الوحيد الذى يدفع إلى النور فى الولايات المتحدة بالمناقشة الدائرة حول دوره الفاجع.

وباستثناء دونالد رامسفيلد الذى كان من

حظه أن يقوم بخدمته العسكرية فى الفجوة الواقعة بين حرب كوريا وحرب فيتنام، فلا الرئيس بوش ولا أى من المؤيدين الكبار الآخرين لهذه الحرب قد أدى الخدمة العسكرية. وقد أدى الجنرال كولين باول الخدمة طبعًا فى فيتنام، ولكن من المعروف أنه يبدى شكوكًا قوية بشأن مهاجمة العراق. وقد بذل الآخرون جميعًا كل جهد ممكن لتجنب الخدمة العسكرية. فإذا سارت الحرب فى غير مسارها الصحيح سوف يستخدم أعداؤهم وصف «صقور الدجاج» وسيكون لذلك أثر سياسى مدمر عليهم. وقد بدأ بالفعل من شهدوا حرب فيتنام من الديمقراطيين والجمهوريين على السواء فى إثارة هذه القضية، مدفوعين فى ذلك جزئيًا باللهجة المهينة التى استخدمها ريتشارد بيرل كبير مستشارى البنتاجون حاليًا ومن لف لفه بشأن الحرص الذى يبديه العسكريون المحترفون. وقد عبرت عن ذلك رسالة تلقتها الواشنطن بوست جاء فيها «إن الرجال الذين يوصفون بأنهم صقور الدجاج قد تجنبوا الخدمة العسكرية أثناء حرب فيتنام بينما كانوا يؤيدون تلك الحرب من الناحية السياسية. وهم ليسوا متهمين بالافتقار للخبرة أو سلامة الرأى بالمقارنة بالعسكريين، ولكنهم متهمون بالنفاق والجبن». وبالنظر إلى المخاطر السياسية المحيطة بالفشل - مخاطر تحيط بأشخاصهم قبل كل شيء - فلماذا يفعلون ذلك؟ وبشكل أكثر عمومية، ما الذى أوجد هذه الروح المستهترة؟

حتى نفهم دوافع الإدارة الأمريكية ينبغى أن ندرك النطاق العريض للمطامح الداخلية والعالمية التى يأمل الوطنيون المحافظون الجدد فى تحقيقها بواسطة الحرب، والتى تتجاوز بكثير الأهداف التى يعلنونها. فهناك بطبيعة الحال جماعات مختلفة داخل هذا المعسكر: فبعضهم أكثر ميلاً لإسرائيل، وبعضهم أقل عداء للصين، ولن يؤيدوا جميعًا أشد جوانب البرنامج تطرفًا. ولكن الخطة الأساسية والتى يتفقون عليها كلهم هى السيطرة المنفردة على العالم عن طريق التفوق العسكرى المطلق. وهو مسار دافعت عنه بإصرار وعملت من أجله مجموعة المثقفين القريبين من ديك تشينى وريتشارد بيرل منذ انهيار الاتحاد السوفيتى فى أوائل التسعينيات.

وهذا الغرض الأساسى موضع اتفاق من جانب كولين باول وبقية المؤسسة الأمنية. ولا يجوز أن ننسى أن باول هو الذى أعلن، بوصفه رئيس أركان الحرب فى ١٩٩٢، أن الولايات المتحدة تحتاج إلى قوة كافية «لردع أية جهة عن أن تحلم بتحدينا على المسرح العالمى». غير أن فكرة الدفاع الاستباقى، التى أصبحت الآن العقيدة الرسمية، تدفع الأمور بعيدًا إلى الأمام، وأبعد كثيرًا من المدى الذى يرغب فيه باول. وهذه العقيدة يمكن أن تستخدم من ناحية المبدأ لتبرير تدمير أية دولة أخرى إذا بدا فى أى وقت أنها يمكن أن تتمكن فى المستقبل من تحدى الولايات المتحدة. وعندما تم التعبير عن هذه الآراء لأول مرة على لسان بول بولفوويتز نائب وزير الدفاع الأمريكى وغيره بعد انتهاء الحرب الباردة، قوبلت بانتقاد عام، حتى من جانب المحافظين. أما اليوم، فبفضل تصاعد دور الوطنيين المتطرفين فى الإدارة الأمريكية، وتحت تأثير هجمات ١١ سبتمبر على المشاعر الأمريكية، أصبح لهذه الآراء تأثير جوهرى على السياسة الأمريكية.

وحتى نفهم نشأة هذا الطموح غير المألوف،

من شأن تدمير الحكومة العراقية الحالية واحتلال أراضيها والسيطرة على المنطقة بالوسائل العسكرية، أن يزيل حتى الخطر المحدود حاليًا من جانب «الأوبك»، ويقلل من احتمالات حدوث صدمة بترولية جديدة، ويقضى على الحاجة إلى مغازلة روسيا والاستثمار فيها باعتبارها مصدرًا بديلاً للطاقة

ينبغى أيضًا أن نحيط بالعالم المعنوى والثقافى والفكرى الذى تشكلت فيه الوطنية الأمريكية وقد كانت هذه النزعة الوطنية موجودة قبل سبتمبر الماضى بكثير، ولكن أشعلتها تلك الهجمات، والأخطر من ذلك أنها باتت أكثر ارتباطًا بالنزعة الوطنية لدى اليمين الإسرائيلى.

ودعونا نتناول الأهداف الجيوسياسية أولاً. ففيما يتعلق بنظام الدفاع الصاروخى عن الولايات المتحدة، فإن الدافع المعلن للحرب مع العراق هو فى الأساس للحصول على التأييد العام اللازم لعملية هدفها الحقيقى أوسع من ذلك بكثير. فعدم مبالاة الجمهور الأمريكى بالمناقشة الجادة للشئون الخارجية أو شئون الأمن، وإهمال وسائل الإعلام الجماهيرية وجمودها الأيديولوجى يجعل الحوار الجدى حول هذه المسائل صعبًا للغاية، ويسمح لمثل هذه الألاعيب بالنجاح.

وفعلاً فإن الهدف المباشر هو القضاء على أسلحة الدمار الشامل لدى العراق. غير أنه ليس هناك خوف حقيقى من أن يسلم صدام حسين هذه الأسلحة للإرهابيين ليستخدموها ضد الولايات المتحدة - وإن كان هناك خوف أقرب إلى المنطق من أنه قد يفعل ذلك فى حالة إسرائيل. كما أنه ليس هناك احتمال جاد بأنه ربما يستخدمها بنفسه فى هجوم لا يسبقه استفزاز على الولايات المتحدة أو إسرائيل، لأن ذلك ستعقبه إبادة فورية لقواته. والدعاية الفجة التى تصور صدام حسين كدكتاتور انتحارى وفاقد للعقل تلقى نجاحًا فى الشارع الأمريكى، ولكنى لا أعتقد أن هذا هو رأى الإدارة الأمريكية، وإنما هى ترمى إلى الاحتفاظ بقدرتها على الدفاع عن دول الخليج فى مواجهة أى هجوم عراقى. ولكن الأهم من ذلك لديها هو أن يظل للولايات المتحدة وإسرائيل حرية التدخل فى الشرق الأوسط بكامله.

ومن وجهة نظر إسرائيل واللوبى الإسرائيلى وممثليها فى الإدارة الأمريكية، فإن منافع هذه الحرية فى التصرف واضحة. وترى المجموعة المحيطة بتشينى أن أهم اعتبار منفرد هو إمكانية الحصول على البترول الرخيص بشكل مضمون ودون عائق، والسيطرة عليه أكبر سيطرة ممكنة عند المنبع. ومن شأن تدمير الحكومة العراقية الحالية واحتلال أراضيها والسيطرة على المنطقة بالوسائل العسكرية، أن يزيل حتى الخطر المحدود حاليًا من جانب «الأوبك»، ويقلل من احتمالات حدوث صدمة بترولية جديدة، ويقضى على الحاجة إلى مغازلة روسيا والاستثمار فيها باعتبارها مصدرًا بديلاً للطاقة.

كما أن ذلك سيضعف بشكل حاسم الخطوات التى اتخذت بالفعل فى سبيل تنمية مصادر بديلة للطاقة. لقد كانت هذه المصادر قليلة إلى حد مزعج حتى الآن. ومع ذلك فإن ١١ سبتمبر أعطى قوة جديدة لحجج الأمن الداعية إلى إنقاص الاعتماد على البترول المستورد، وهى قد تصبح مع تطوير تكنولوجيات بديلة خطرًا حقيقيًا على اللوبى البترولى - وهو اللوبى المرتبط، شأن اللوبى الإسرائيلى، ارتباطًا وثيقًا بإدارة بوش. ولذا يمكن النظر إلى الحرب مع العراق كنتيجة ترتاح لها كلتا المجموعتين. ولكن الأهم من ذلك بالنسبة لمستقبل الجنس البشرى، أنها أيضًا جزء مما يعد فى الأساس استراتيجية لاستخدام القوة العسكرية الأمريكية حتى تستمر تفرض على بقية العالم تكاليف الاقتصاد الأمريكى الحالى - بدون الحاجة إلى أية تضحيات فى الأجل القصير من جانب الرأسماليين الأمريكيين أو الصفوة السياسية الأمريكية أو الناخبين الأمريكيين.

وينطبق نفس القول على الحرب على «القاعدة» وحلفائها: فخطة تدمير النظام العراقى الحالى ترتبط بهذا الكفاح ولكن ليس بالصورة التى عرضت بها على الجمهور. فليس هناك دليل على وجود علاقات بين بغداد و«القاعدة» وهى علاقات مستبعدة فى الواقع: وما تأمل فيه إدارة بوش بسحقها لدولة شرق أوسطية أخرى (العراق) بأقل تكلفة عسكرية ممكنة هو تخويف كل الدول الأخرى فى العالم الإسلامى، ودفعها إلى التعاون التام فى مطاردة وتسليم المتهمين بالإرهاب، والتخلى عن القضية الفلسطينية. ولكن إيران من جانبها، لا يمكن تخويفها إلى حد التخلى عن برنامجها النووى ولا عن تأييدها للفلسطينيين، ولا يمكن التدبير لتدمير مرافقها النووية عن طريق القصف بالطائرات.

والفكرة بعبارة أخرى هى تخويف تلك الدول بحيث تقتصر على المساعدة فى مطاردة أعضاء «القاعدة» بل تصل إلى حد الرضوخ للأجندة الأمريكية، ثم الأجندة الإسرائيلية فى الشرق الأوسط. وقد أعلن ذلك فى الورقة سيئة السمعة بشأن المملكة العربية السعودية، التى قدمها لوران نوراويك من مؤسسة راند إلى مجلس سياسات الدفاع الذى يرأسه ريتشارد بيرل. فقد دعا نوراويك إلى إرسال إنذار نهائى للسعوديين لا يكتفى بالمطالبة بأن تتعاون الشرطة السعودية تعاونًا كاملاً مع السلطات الأمريكية، بل أيضًا أن تقمع انتقادات الجمهور للولايات المتحدة وإسرائيل داخل المملكة - وهو أمر قد يكون مستحيلاً على أية دولة عربية.

وعلى الرغم من ذلك فإن المطالبة بمنع المطبوعات والإذاعات والأنشطة المناهضة لإسرائيل لقيت صدى واسعًا فى الإعلام الأمريكى.

إن القول بأن الطريق إلى سلام الشرق الأوسط يمر ببغداد، قول تستخدمه إدارة بوش واللوبى الإسرائيلى. وربما يكون بعض أعضاء الإدارة الأمريكية على اقتناع حقيقى بأنه بتدمير أقوى أعداء إسرائيل الباقين. فإن أسهمهم ستزيد لدى الإسرائيليين واللوبى الإسرائيلى بحيث يتمكنون من الضغط على إسرائيل. ولكن هذا بالتأكيد ليس ما يؤخذ من التصريحات العلنية لأعضاء الإدارة - فضلاً عن حلفاء الليكود فى إسرائيل. فقد وصف رامسفيلد مؤخرًا المستوطنات اليهودية بأنها نتيجة شرعية لانتصار إسرائيل العسكرى. كما أن ديك آرمى قائد الأغلبية الجمهورية فى مجلس النواب (وهو من المتشككين بشأن الحرب مع العراق) قد أيد التطهير العرقى («الترانسفير») للفلسطينيين عبر الأردن. وفى ١٩٩٦ دعا ريتشارد بيرل ودوجلاس سيس (وهو الآن موظف كبير فى البنتاجون) بنيامين نتنياهو للتخلى عن عملية أوسلو للسلام والعودة إلى قمع الفلسطينيين بالوسائل العسكرية.

ولذا فالأرجح أن معظم أعضاء إدارتى بوش وشارون يأملون فى أن يؤدى سحق العراق إلى إضعاف الروح المعنوية للفلسطينيين، وبذلك يقل التأييد العربى الواسع لهم، بحيث يمكن إلزامهم بقبول تسوية بانتوستانية، ليس لها أى شبه بالدولة المستقلة، ولا تحمل معها أية إمكانية للنمو الاقتصادى والرخاء.

ومما يدعو للدهشة أن يتصور أشخاص أذكياء أن ذلك يمكن أن ينجح، بالنظر إلى تاريخ السنوات الخمسين الماضية. ويجب ألا ننسى أن الإسرائيليين هزموا الدول العربية عدة مرات ومع ذلك لم تهدأ الوطنية الفلسطينية أو يتناقص التعاطف العربى معها. ولكن الجماعات المهيمنة فى الإدارتين الحاليتين فى واشنطن والقدس على السواء، جماعات «واقعية» حتى النخاع، وهذا يعنى - كما يعنى فى حالات كثيرة - أنها تأخذ بوجهة نظر بعيدة تمامًا عن الواقع بشأن بقية العالم، وأنها غير حساسة إلى حد الانفصال عن الواقع عندما يتعلق الأمر بطبائع الآخرين ودوافعهم. وهم منتشرون بالقوة، وبتقسيم العالم إلى أصدقاء وأعداء، وكثيرًا ما يقسمون العالم إلى بلدهم وبقية البلدان)، ويعتقدون بأن إبداء أى قدر من «الضعف» يؤدى فورًا إلى أخذ «العدو» بمناهج أكثر تطرفًا.

ولا يشك شارون ومؤيدوه فى أن انسحاب إسرائيل من لبنان - وليس الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية - هو الذى أدى إلى الانتفاضة الأخيرة. ومن يسمون «الواقعيون الهجوميون» فى واشنطن على يقين من أن موقف ريجان المتشدد وتسارع سباق التسلح فى مواجهة الاتحاد السوفيتى هو الذى أدى إلى انهيار تلك الدولة. وكلاهما على اقتناع بأن استمرار وجود نظام صدام حسين فى حد ذاته يومئ إلى ضعف محفوف بالمخاطر من جانب الولايات المتحدة ويسمها بالجبن، مما يقوى ساعد أعداء أمريكا وإسرائيل عبر الشرق الأوسط وما وراءه.

ومن وجهة نظر النزاع العربى الإسرائيلى فإن للحرب مع العراق بعض سمات.. الهروب إلى الأمام، من جانب الإدارة الأمريكية. فمن ناحية، أصبح من الواضح أن النزاع يرتبط ارتباطًا وثيقًا بكل ما يجرى فى الشرق الأوسط، ولذا لم يعد فى الوسع الاكتفاء بتجاهله على نحو ما حاولته إدارة بوش فى السنة الأولى لتقلدها السلطة. ومن ناحية أخرى فإن أعضاء الصفوة السياسية الأمريكية الذين يملكون قدرًا من فهم الحالة ولديهم اهتمام بالعدالة، يخافون من مواجهة إسرائيل واللوبى الإسرائيلى بالطريقة التى تلزم لوجود أية فرصة لإقرار السلام.

وعندما تطلب الولايات المتحدة إقامة «الديمقراطية» فى الأراضى الفلسطينية قبل أن تعود إلى العمل فى عملية السلام فإنها تحاول جزئيًا، وبطريقة ساخرة، أن تخرج من هذا المأزق. ولكنها عندما تتحدث عن نشر الديمقراطية فى العالم العربى بأسره، تصبح الأجندة أكثر اتساعًا وأدعى إلى القلق، ولما كانت العبارات الطنانة تجتذب كثيرين من الليبراليين فعلينا أن نبحث هذه الأجندة بقدر كبير من العناية.

والاعتقاد بإمكان نشر الديمقراطية عن طريق القوة الأمريكية لايكون دائمًا حديثًا مخادعًا. وعلى العكس فهو لاينفصل عن التصور الأمريكى بأن للولايات المتحدة رسالة فى العالم وضرورة نشر «العقيدة الأمريكية». غير أن هذا الاعتقاد التبشيرى ثبت أيضًا أنه عظيم الفائدة فى تدمير منافسى الولايات المتحدة أو شل حركتهم، وكان آخر مثال لهم هو الاتحاد السوفيتى.

وعلى أى حال فإن الحرب المعتزمة ضد العراق لاتهدف فقط إلى إبعاد صدام حسين، بل إلى تدمير هيكل الدولة العراقية الوطنية العربية التى تهيمن عليها طائفة السنّة على النحو الذى وجدت به منذ نشأة هذا البلد. والمفترض أن «الديمقراطية» التى تحل محل النظام العراقى الحالى ستكون شبيهة بالديمقراطية القائمة فى أفغانستان - أى تحالف عشوائى من الجماعات العرقية ولوردات الحرب، يعتمد بصورة كلية على القوة العسكرية الأمريكية ويخضع تمامًا للرغبات الأمريكية (والإسرائيلية).

وبالمثل، فبعد تدمير نظام صدام حسين، إذا لم تخضع المملكة العربية السعودية للرغبات الأمريكية وتعرضت للهجوم بدورها، فعند ذلك - واستنادًا إلى الأفكار التى يجرى تداولها فى دوائر البحث فى واشنطن - سيكون الهدف ليس مجرد استبعاد النظام السعودى والقضاء على الوهابية كأيديولوجية للدولة، بل سيكون تدمير الدولة السعودية وتقسيمها. وعند ذلك توضع آبار البترول الخليجية تحت الاحتلال العسكرى الأمريكى، ويتولى الأمور فى المنطقة أمير تابع، وربما تعاد مكة والحجاز إلى الأسرة الهاشمية الحاكمة فى الأردن، والتى كانت تحكم هذه المنطقة قبل أن يفرض ابن سعود سلطته عليها فى ١٩٢٤، أو بعبارة أخرى يجرى بعث البرنامج الإمبريالى البريطانى لسنة ١٩١٩ (وإن كان على الهاشميين إذا كان لديهم أى عقل أن يرفضوا هذا المشروع الذى سيصبح بغير شك حكمًا بالإعدام فى المدى الطويل).

ويعيدًا عن ذلك تقبع الصين. فعندما جاءت إدارة بوش إلى السلطة لم يكن الشرق الأوسط محور اهتمامها الأمنى. وكانت سياستها هناك فى البداية هى الإهمال الحميد (الحميد على أى حال بالنسبة لإسرائيل). وكان أكبر مخاوف دعاة الوطنية اليمينيين أمثال روبرت كيجان تتعلق ببروز الصين فى المستقبل كدولة عظمى منافسة - وهى مخاوف كان من دواعى تصديقها حجم الصين ونمو اقتصادها. وكما جاء فى الوثيقة الاستراتيجية الشهيرة التى وضعها بول وولفويتز فى السنة الأولى لإدارة بوش الأولى - ثم اعتبرها بوش الابن هى السياسة الرسمية المعلنة فى الخطاب الذى ألقاه فى كلية ويست بوينت فى شهر يونيو - أن يكون الغرض الرئيسى للاستراتيجية الأمريكية بعد انتهاء الحرب الباردة هو منع ظهور أى «فريق منافس» فى أى مكان من العالم.

وما يفكر فيه القوميون الأمريكيون المتطرفون هو إما «احتواء» الصين بالقوة العسكرية الساحقة وإنشاء حلقة من حلفاء أمريكا، أو فى حالة المتطرفين الحقيقيين تدمير الدولة الصينية الشيوعية كما سبق تدمير الاتحاد السوفيتى، والمفترض أن يتم ذلك كما حدث مع الاتحاد السوفيتى، بتقسيم الصين عن طريق «تحرير» التبت وغيرها من المناطق، وتحت ستار الديمقراطية يتم تطويق الإدارة الصينية المركزية وشل قدرتها على تنمية اقتصادها أو تقوية جيشها.

وإذا حكمنا بما تنشره وسائل الإعلام الوطنية اليمينية فى الولايات المتحدة، فقد استمر هذا العداء للصين حتى بعد ١١ سبتمبر، وإن يكن فى صورة مخففة. وإذا تمكنت الولايات المتحدة من إثبات تفوقها العسكرى الساحق فى الشرق الأوسط، لاشك فى أنه ستكون هناك مجموعات فى الحزب الجمهورى تجد الشجاعة على المطالبة بموقف أكثر تشددًا تجاه الصين. وهذه الفئات تؤيد قبل كل شىء بطبيعة الحال الاستقلال الرسمى لتايوان.

ولا ريب فى أن نصرًا عسكريًا أمريكيًا آخر سوف يقنع هذه الجماعات بأنه ليس لدى الولايات المتحدة ما تخشاه فى الوقت الحالى من الأسطول الصينى أو سلاح الجو الصينى، وأنه فى حالة إعلان استقلال تايوان سيكون فى الوسع الدفاع عن الجزيرة دون عقاب جزئيًا. وفى الوقت ذاته فإن إذلال الصين المشهود بشأن تايوان يمكن أن يعتبر خطوة أساسية نحو إسقاط الشيوعية وفرض الشلل على جهاز الحكومة الصينية.

أما فى الوقت الحالى فليست هناك غير مطامع فى المدى الطويل أو أحلام. وهى بغير شك ليست مشتركة حتى بين أغلبية الإدارة الأمريكية، ويستبعد أن تنفذ بأى طريقة منهجية. ومن ناحية أخرى، لاينبغى أن ننسى أن الفريق المهيمن فى الإدارة الأمريكية قد تخلى الآن علنًا عن الاستراتيجية والفلسفة التى أخذت بها إدارة كلينتون، والتى كانت تدعو إلى إدخال الدول الرئيسية الأخرى فى العالم ضمن نظام رأسمالى ليبرالى يحكمه القانون، وبذلك يتضاءل خطر التنافس بين تلك الدول.

وهذا الاتجاه لم يمت. والواقع أنه ممثل تمثيلاً قويًا فى شخص كولين باول وأشخاص أقل أهمية مثل ريتشارد هاس. ولكن منافسيهم الوطنيين الأكثر قوة يعلنون التزامهم باستخدام كل وسيلة ممكنة لمنع ظهور أى منافس جاد أو مجموعة من المنافسين للولايات المتحدة، فى أى مكان فى العالم، ومعارضة وجود ليس مجرد أى منافس محتمل فى الهيمنة على العالم بل أيضًا قدرة الدول الأخرى على القيام بدور الدولة العظمى داخل أقاليمها.

وتحت ستار نظام الدفاع الصاروخى، تحلم الإدارة - أو عناصر فى داخلها - بأن تمد الولايات المتحدة سيطرتها إلى خارج حدود الكرة الأرضية ذاتها (وهو طموح أشير إليه بوضوح فى الورقة الرسمية المعنونة «توجيهات بشأن تخطيط الدفاع للسنوات المالية ٢٠٠٤ - ٢٠٠٩» التى صدرت فى هذه السنة عن مكتب رامسفيلد). ولئن كان هذا الطموح يصل إلى حد الميجالومانيا «جنون العظمة» فهو ليس مجرد أوهام فى بعض العقول. وفى ظل التفوق الأمريكى الكاسح ربما يظل هذا الوهم قائمًا عشرات السنين إلى أن يؤدى مزيج من الإرهاب والتكاليف الاجتماعية والسياسية والبيئية غير المحتملة على كاهل الولايات المتحدة إلى إلزامها بتغيير الأوضاع الحالية للعالم.

أما فى الأوضاع الحالية فإن الشعب الأمريكى لايمكن أن يساند عن بينة برنامجًا كهذا - بل ولا يمكن أن يسانده العسكريون الأمريكيون. فالولايات المتحدة حتى بعد ١١ سبتمبر ليست دولة عسكرية بالمقاييس التاريخية ومهما تكن النزعات الإمبريالية الصريحة المتزايدة لدى فئة المفكرين القوميين، فلا العسكريون ولا عموم المواطنين يرغبون فى أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم استعماريون. ومازال الخوف شديدًا من وقوع الضحايا والاشتباك العسكرى لأمد طويل فيما وراء البحار. وقد بينت كل استطلاعات الرأى أن أغلبية الأمريكيين يبدون اهتمامًا بالتعاون مع الحلفاء الآخرين أكثر مما تبديه هذه الإدارة بكثير.

وإلى جانب ذلك، إذا استمر الاقتصاد الأمريكى فى حالة الركود أو أصابه تراجع شديد، والأرجح أن الجمهوريين لن يظلوا فى مقاعد السلطة بعد سنة ٢٠٠٤. ومع ازدياد عدد الشركات التى تعلن إفلاسها، ستغدو ارتباطات الإدارة بدوائر الأعمال التى أصابها الفساد موضوعًا للحديث المتزايد. ومن شأن المزيد من التراجع الاقتصادى المقترن بتضخم الإنفاق العسكرى، أن يؤدى عاجلاً أم آجلاً إلى إرهاق المالية العامة الناتج عن المصروفات العسكرية لهذه الإدارة وما قامت به من إنقاص الضرائب على الأغنياء. وعند ذلك سيثار التساؤل حول الأساس المالى للتأمينات الاجتماعية، وسيضعف تأييد الجمهوريين بين صفوف «الطبقات الوسطى».

ولا تملك أية إدارة أمريكية وسائل كثيرة تسمح لها بتنشيط النمو الاقتصادى. وحتى إذا عاد النمو، يكاد يكون من المؤكد أن تحول الاقتصاد سيستمر. وهذا يعنى أن دخل «الطبقات الوسطى» (والتى تشمل فى الصياغات الأمريكية البروليتاريا العاملة) سيستمر فى الانخفاض، وأن الفجوة بينها وبين أصحاب الأموال سيستمر فى الاتساع. ويمكن للإنفاق العسكرى المرتفع أن يصحح هذا الاتجاه إلى حد ما، ولكن بدرجة أقل مما حدث فى القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين بسبب ما طرأ من تغيير على طبيعة الأسلحة. وإذا ظلت كل الأشياء الأخرى على حالها سيكون من نتيجة ذلك تحول ملحوظ فى اتجاه الناخبين نحو اليسار.

ولكن ليست كل الأشياء الأخرى باقية على حالها. وهناك استراتيجيتان على الأخص يمكن أن تتيحا للجمهوريين فرصة الكسب فى ٢٠٠٤، بل وتكرار النجاح الذى حققه روزفلت للديمقراطيين فى الثلاثينيات وأن يصبحوا هم الحزب الطبيعى الذى يحكم خلال المستقبل المنظور. الأولى هى الاستراتيجية العصرية الكلاسيكية التى تمارسها الأوليجاركية اليمينية المهددة، وهى الانحراف بالسخط الجماهيرى نحو مشاعر الوطنية المتطرفة. والثانية، وهى خاصة بأمريكا بالذات، هى نزع الصوت اليهودى من مكانه التقليدى لدى الحزب الديمقراطى، عن طريق إثبات التزام الجمهوريين القاطع لا بالدفاع عن إسرائيل فحسب بل بالدفاع أيضًا عن مطامعها الإقليمية.

وهذا يرتبط بالتحول اليمينى فى إسرائيل كما يرتبط بزيادة توثيق العلاقات بين الجمهوريين والليكود، من خلال أشخاص مثل بيرل وفيث. وهذا يمثل تغيرًا جذريًا عن موقف الحزب الجمهورى القديم تحت قيادة أيزنهاور ونكسون وبوش الأب، وهو الحزب الذى كان مستقلاً عن إسرائيل بدرجة أكبر من الديمقراطيين. وكان من الأمور المهمة فى هذا الصدد ازدياد التحالف بين اليمين المسيحى - المرتبط بقوة بـ «الجنوب الأبيض» القديم - واللوبى الإسرائيلى، أو على الأقل عناصره الليكودية المتشددة.

وعندما بدأ هذا التحالف يتشكل قبل بضع سنوات، بدا الأمر كأنه توافق غير محتمل. فقد كان اليمين المسيحى والجنوب الأبيض فى وقت من الأوقات موطنًا لنظريات التآمر المعادى للسامية. ومن ناحية أخرى فإن الجوانب المتعلقة بـ «العهد القديم» لدى المسيحية الأصولية أدت إلى إيجاد قدر من التعاطف مع اليهودية وإسرائيل من وقت طويل يرجع إلى بدايات الولايات المتحدة فى القرن السابع عشر.



ما تأمل فيه إدارة بوش بسحقها لدولة شرق أوسطية أخرى (العراق) بأقل تكلفة عسكرية ممكنة هو تخويف كل الدول الأخرى فى العالم الإسلامى، ودفعها إلى التعاون التام فى مطاردة وتسليم المتهمين بالإرهاب، والتخلى عن القضية الفلسطينية

وبالنسبة للأصوليين المسيحيين اليوم، يحتل الفكر الألفي مكانة ملموسة في تشكيل التأييد لإسرائيل: فهم ينظرون إلى وجود دولة إسرائيل على أنه مقدمة ضرورية لمجيء المسيح المنتظر، ونهاية العالم، وإقامة حكم المسيح وحوارييه. ولكن قد يكون الأهم من ذلك أن هذا الالتقاء بين اليمين الأصولي والصهيونيين المتشددين التقاء طبيعي، لأنهما يشتركان في العديد من الكراهيات. فاليمين المسيحي كان دائمًا يكره الأمم المتحدة، وذلك جزئيًا لأسباب وطنية صريحة، ولكن أيضًا بسبب مخاوف غريبة من قيام الحكومة العالمية على يد المسيح المنتظر. وقد كرهوا الأوروبيين على أسس دينية بوصفهم ملحدين منحلين، وعلى أسس طبقية باعتبارهم شركاء «صفوة الساحل الشرقي» البغيضة، وعلى أسس وطنية باعتبارهم ممن ينتقدون القوة الأمريكية غير المحدودة. ويشترك الجانبان في الحب الغريزي للقوة العسكرية. وكلاهما يعتبر نفسه ضحية تاريخية. وقد يبدو هذا غريبًا في حالة اليمينيين الأمريكيين، ولكنه لن يكون غريبًا إذا أخذنا في الاعتبار تاريخ الهزائم التي نزلت بـ «الجنوب الأبيض» ومشاعر اليمين المسيحي منذ الستينيات (١٩٦٠) عند هزيمته وإحراجه بسبب التغير الثقافي والابتعاد عن الإيمان بالدين.

وأخيرًا، وأكثر الأمور خطورة، إن كليهما ينظر إلى نفسه على أنه المدافع عن «الحضارة» في مواجهة «الهمج» ـ وهذا تمييز كان موجودًا دائمًا لدى اليمين المسيحي الذي يتحدد في المقام الأول على أسس عرقية. ولم يعد في الوسع الحديث في أمريكا الآن على هذه الأسس بشأن الأمريكيين السود أو الآسيويين أو اللاتينيين ـ ولكن بات من الممكن منذ ١١ سبتمبر على الأقل أن يقال ذلك عن العرب والمسلمين.

وحتى في انتخابات ٢٠٠٠ تمكن الجمهوريون من انتزاع جزء كبير من أصوات الطبقة العاملة البيضاء من «آل جور» عن طريق اللجوء إلى النزعة الشعبوية الثقافية ـ وخاصة مخاطبة مشاعر المعارضين للحد من حمل السلاح وحماية البيئة. وعلى الرغم من الهوية الطبقية الحقيقية والمصالح الثقافية للصفوة الجمهورية، فقد بدا أنها قادرة على إقناع كثيرين من العمال بأنها هي الحليف الطبيعي للوقوف في وجه «صفوة الساحل الشرقي» الغريبة عنهم ثقافيًا والتي عرضت على أنها المؤيدة لآل جور.

وهذه القيم الشعبوية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالقيم التقليدية للقوميين المتشددين. وهي القيم التي وصفها المؤرخ والتر روسل ميد وآخرون بأنها قيم وطنية شعبوية «جاكسونية» نسبة إلى النزعة الوطنية الشعبوية للرئيس أندرو جاكسون في سنوات ثلاثينيات القرن التاسع عشر (١٨٣٠). وكما ذكر «ميد»، أدت أحداث ١١ سبتمبر إلى زيادة قيمة هذا الاتجاه بين الجمهوريين.

وإذا أضيف إلى هذا أن الجمهوريين يستطيعون أن يجتذبوا أصوات اليهود بصورة دائمة بعيدًا عن الديمقراطيين ـ وهي عملية توحي بها مصالح طبقية خالصة وكانت تجري على مهل ولكن باطراد منذ أيام ريجان ـ تكون هناك فرصة لديهم لشل الديمقراطيين لمدة جيل أو أكثر. وإذا حرم الديمقراطيون من جانب كبير من دعمهم المالي ومساندتهم الفكرية، فقد يصبحون تحالفًا من النقابيين من العمال البيض ومن السود واللاتينيين. ولا يقتصر الأمر على أن هذه الفئات لا تحب إحداها الأخرى ولا تثق بها، بل إنه كلما زادت صورة تحكم الأقليات في الديمقراطيين زاد ميل الأبيض للهروب إلى الجمهوريين.

وقد حدث بالفعل أن أدت معاداة السامية من جانب بعض القادة السود في الحزب الديمقراطي إلى المساهمة في إبعاد كثير من اليهود ودفعهم نحو الجمهوريين. أما الانتلجنسيا اليهودية الليبرالية فقد قطعت بحكم ولائها لإسرائيل شوطًا بعيدًا في الابتعاد عن نزعاتها الأممية القديمة. وهذا التحول واضح في الصحف التي كانت في السابق ليبرالية وذات نزعة أممية نسبية مثل مجلتي Atlantic Monthly و New Repulic وحتى الـ New Yorker. وليس من المبالغة القول بأن الموقف الأممي قد ضعف في الحزب الديمقراطي وفي الولايات المتحدة بوجه عام.

والديمقراطيون على بينة من هذا الخطر الذي يهدد أصواتهم الانتخابية. وقد كان الحزب في مجموعه ملتزمًا بقوة بتأييد إسرائيل. وبشأن العراق والحرب ضد الإرهاب، يبدو أن نهجه هو تجنب ما قد يبدو موقفًا «غير وطني» بأي ثمن. وإذا تمكن الديمقراطيون من تجنب سحق مواقفهم من جانب الجمهوريين بتهمة «الضعف» وانعدام الوطنية سيكون لا يزال لديهم أمل في كسب انتخابات ٢٠٠٤ على أساس السخط الاقتصادي. ولكن النتيجة هي أن الحزب قد اختفى تقريبًا من الجدل الدائر حول العراق. فالديمقراطيون يؤكدون السمعة الشائعة عنهم بأنهم يأخذون مواقف ضعيفة، بينما يأخذ الوطنيون الجمهوريون مواقف متحمسة وواضحة ـ وهي المواقف التي ساعدتهم في نوفمبر ٢٠٠٠ في الضغط على القضاء بشأن أصوات الناخبين في فلوريدا، مما أسفر في الواقع عن سرقتهم للانتخابات.

وهذه الحماسة هي التي تعطي اليمين القومي جانبًا كبيرًا من قوته لا أود في طرحي لآمال وخطط الجماعات المهيمنة على إدارة بوش، أن أعطي الانطباع بأن كل شيء هو مجرد تلاعب واع ومستهتر من أجل تحقيق مصالحهم الذاتية الضيقة. فمثل هذه الاقترابات القاطعة هي التي أضرت بالطريقة التي تطرح بها الأفكار القومية والخلافات الوطنية. وهذا أمر غريب ومحزن، لأن الدراسات التاريخية التي أجريت في العقود الأخيرة عن النزعة الوطنية الألمانية قبل سنة ١٩١٤ ـ على سبيل المثال ـ والتي كانت تبنى على أساس خداع الطبقات قد تراجعت أمام التحليل الأكثر دقة والذي يؤكد دور التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والارتباطات غير الواعية، وتفسير المؤثرات السياسية من أعلى ومن أدنى.

وحتى نفهم اليمين الوطني المتطرف في الولايات المتحدة، والقوى المهيمنة في إدارة بوش، يجب قبل كل شيء أن نفهم تصويرهم لأنفسهم كما لو كانوا هم الولايات المتحدة، إلى حد النظر إلى وجود أي جماعة أخرى في الحكومة على أنها جماعة مغتصبة، وأنها بعيدة عن الشرعية، وأنها «لا أمريكية». وأيضًا بالعناصر المتشددة في مؤسسة الأمن الأمريكية والمجمع العسكري الصناعي، فإنها نتيجة للحرب الباردة، وقد تشكلت بذلك الصراع وما ولد من بارانويا وتعصب. وكما هو المعتاد لدى النخبة الأمنية، فإنهم يصبحون مبرمجين عبر عشرات السنين بحيث ينظرون إلى أنفسهم ليس فقط على أنهم أقوى وأشجع وأكثر حكمة ومعرفة عن زملائهم الجهلة السذج، بل أيضًا على أنهم القوة الوحيدة التي تحول دون وقوع البلد في التفكك والانهيار.

لقد أدت الحرب الباردة إلى ظهور هياكل حكومية واقتصادية وفكرية في الولايات المتحدة يتطلب استمرارها الإيمان بوجود أعداء أقوياء للوطن ـ ليسوا إرهابيين فحسب، بل دول معادية. ومن ثم فإنهم في تحليلاتهم ودعايتهم يعملون غريزيًا على خلق الصورة الضرورية للعدو. ولكننا نقول مرة أخرى أنه ليس من الحكمة أن نتصور أن تلك عملية واعية، إن الحرب الباردة شجعت وعززت وأضفت الشرعية على خطاب بالغ القدم قائم في الولايات المتحدة على الكراهية القومية، ويقال أنه موجه إلى الشيوعيين وحلفائهم ولكنه يحوي عادة لونًا قويًا من التعصب العرقي.

ومن ناحية أخرى فإن جذور هستيريا اليمين تذهب إلى أبعد من النزعة الوطنية والأمن القومي وكراهيتهم المرضية لإدارة كلينتون لا يمكن تفسيرها بدواعي الأمن القومي أو حتى بأسباب سياسية أو اقتصادية معقولة، لأنه بعد فترة قصيرة للغاية من الراديكالية الجزئية (والتي تركزت بالكامل تقريبًا على المحاولة الفاشلة للإصلاح الصحي) كرس كلينتون جهوده بطريقة أشبه ما تكون بطريقة بلير للأخذ بجانب كبير من الأجندة الاجتماعية الاقتصادية للجمهوريين. والواقع أن كلينتون، وزوجته، وأسلوبه الشخصي، وخلفيته الشخصية وخلفية بعض أتباعه المقربين، كان ينظر إليها على أنها غير أمريكية من الناحية الثقافية، وبالتالي من الناحية الوطنية، وذلك أساسًا بسبب الارتباط بالثقافة المضادة التي انتشرت في الستينيات والسبعينيات.

والتجسيد المعاصر لهذه الروح يظهر قبل كل شيء كرد فعل للهزيمة المزدوجة التي عاناها اليمين في حرب فيتنام ـ وهي هزيمة يأملون أن يؤدي انتصار في العراق، وموجة جديدة من النزعة الوطنية في الداخل، إلى إلغائها بصورة نهائية ـ وفي فيتنام تلازمت الهزيمة العسكرية التي لم يسبق لها مثيل مع ظهور ثقافة حديثة وجدها الأمريكيون التقليديون غريبة عنهم، وبعيدة عن أخلاقهم، وكريهة إلى حد لا يوصف. وقد قيل في وقت المحاولة التي قام بها نيوت جنجريتش لإحداث ثورة جمهورية في منتصف التسعينيات، إنها كانت من وسائل النظر إلى الجمهوريين المتشددين ـ خاصة من اليمين الديني ـ على أنهم مدفوعون برغبة وطنية كلاسيكية للعودة إلى «عصر ذهبي» كان في حالتهم أيام الخمسينيات السابقة على فيتنام.

ولا ينطبق شيء من هذه الخيالات على الشعب الأمريكي في مجموعه. ولكن الانحصار في الذات لدى هذا الشعب وجهله بوجه عام لأمور العالم خارج الشواطئ الأمريكية، عندما اقترن بتأثير ١١ سبتمبر، ترك مساحات سياسية واسعة أمام الجماعات المنتشية بالخيالات والطموحات التي أشرنا إليها.

ويمكن طرح الأمر بصورة أخرى بأن نقول: إن الغالبية العظمى من الشعب الأمريكي لا تميل إلى العسكرية أو الإمبريالية أو العدوانية على نحو ما كان عليه نظراؤهم الألمان في ١٩١٤. ولكن معظم أفراد الشعب الألماني كانوا يستطيعون على الأقل أن يعرفوا مكان فرنسا على الخريطة.

وكذلك فقد حرمت الانتلجنسيا الشابة من أية معرفة حقيقية للعالم الخارجي بسبب الإهمال الأكاديمي للتاريخ والدراسات الإقليمية لصالح فروع العلم التي لا تزيد غالبًا عن أن تكون طرحًا فجًا للافتراضات والتجهيزات الأمريكية (وأسوأ أمثلتها «نظرية الاختيار العقلاني»). وأسفر ذلك عن المزيد من تضييق قدرتهم على التحليل الجاد لأحوال بلدهم وتصرفاته. وعندما اقترن هذا بهروب العناصر الأممية القوية، أصبحت الانتلجنسيا مهيأة لقبول الدعوة التبشيرية الوطنية المتلفعة بالرداء المتسامح لـ «نشر الديمقراطية».

وقد حدث الآن مرتين خلال العقد الماضي أن أتاحت القوة العسكرية الساحقة والسيطرة الاقتصادية للولايات المتحدة الفرصة لقيادة بقية العالم عن طريق القدوة وتوافق الآراء. وكان في وسعها أن تأخذ باستراتيجية (أخذت بها بدرجة محدودة للغاية في ظل كلينتون) يتم من خلالها تخفيف هذه السيطرة وإعطاؤها غطاءً شرعيًا من خلال الكرم الاقتصادي والمسئولية الأيكولوجية، ومن خلال ضبط النفس الجيوسياسي، وإبداء «الاحترام لرأي البشرية» ـ على حد تعبير إعلان الاستقلال الأمريكي ـ كانت المناسبة الأولى هي انهيار الاتحاد السوفيتي الدولة العظمى المعادية وسقوط الشيوعية كأيديولوجيا. وكانت المناسبة الثانية هي الخطر الذي تمثل في منظمة «القاعدة». وقد ضاعت كلتا الفرصتين، ضاعت الأولى جزئيًا، ويبدو أن الثانية ضاعت نهائيًا. وما نشهده الآن هو مأساة دولة عظيمة، لديها دوافع نبيلة، ومؤسسات ناجحة، وإنجازات تاريخية رائعة، وطاقات هائلة، أصبحت خطرًا على نفسها وعلى البشرية. ■

بترتيب خاص مع
Londan Revien of Books

ترجمة: أسعد حليم



القول بأن الطريق إلى سلام الشرق الأوسط يمر ببغداد، قول تستخدمه إدارة بوش واللوبي الإسرائيلي. وربما يكون بعض أعضاء الإدارة الأمريكية على اقتناع حقيقي بأنه بتدمير أقوى أعداء إسرائيل الباقين، فإن أسهمهم ستزيد لدى الإسرائيليين واللوبي الإسرائيلي



حرب النفط

أمـــريكـــــــــا.. وأوبـــك والأيـــــام القـادمـــــــــة

حـــسين عـــبـدالله

■ ■ مـاذا تعنى العبـارة Energy Security فى قاموس الدول الصناعية الغربية أعضاء منظمة OECD وهى أساسًا الولايات المتحدة وكندا وأوروبا واليابان وأستراليا؟

معناها ضمان وتأمين مصادر وإمدادات رخيصة للطاقة لمواجهة احتياجاتها المتزايدة والتى تزداد مع الوقت اعتمادا على الاستيراد. وإذ يمثل البترول أهم تلك المصادر (٤٠٪)، فإن فجوة العجز فى احتياجات تلك المجموعة سوف تأخذ فى الاتساع لكى ترتفع معها وارداتها البترولية من نحو ٢٦ مليون برميل يوميًا (ب/ى) فى الوقت الحاضر إلى نحو ٤٠ مليون ب/ى بحلول عام ٢٠٢٠. وسوف يحدث هذا فى وقت تشح فيه موارد البترول العالمية وتتركز إمداداتها فى أيدى عدد قليل من الدول المصدرة له، وهذا ما يثير قلق المجموعة الصناعية الغربية التى تستهلك نحو ثلثى الاستهلاك العالمى من البترول وتنفرد الولايات المتحدة بربع ذلك الاستهلاك. ويبقى السؤال: كيف تستطيع تلك المجموعة تأمين احتياجاتها المتزايدة من هذا المصدر الاستراتيجى الحيوى، وهل تستخدم لتحقيق هذا الهدف أصول المعاملات التجارية والأعراف الدولية المتبعة، أم تستخدم وسائل الضغط السياسى والقهر العسكرى لتحويل آليات السوق فى صالحها وهى التى ترفع راية العولمة وحرية التجارة وتطلق لشركاتها العنان كى تفعل فى الأسواق الدولية ما تشاء؟

بدهى أن تأمين الإمدادات البترولية لايمكن أن يتحقق بدون تكلفة. فالاحتفاظ بمخزون استراتيجى كبير من البترول معناه رأس مال حبيس فى نشاط لايدر عائدًا مباشرًا، كما يتحمل أصحاب المخزون تكلفة إنشاء وإدارة وصيانة المخازن التى تحتويه فضلا عن التأمين ضد المخاطر التى يمكن أن يتعرض لها. ويدخل فى تلك التكلفة أيضًا ما تقيمه الولايات المتحدة من قواعد عسكرية بالقرب من منابع البترول تحسبًا لما يعتقد ساستها أنها عوامل تهدد تدفقه بالكميات التى تريدها وبالأسعار التى تناسبها.

وتأكيدًا لذلك يقول بيتر هين وزير الطاقة البريطانى السابق فى مؤتمر تأمين الطاقة الذى عقد فى لندن يوم ١٧ أكتوبر ٢٠٠٢ إن تكلفة حماية وتأمين الإمدادات البترولية التى مصدرها الشرق الأوسط وإن كانت الولايات المتحدة تتحمل الجانب الأكبر منها إلا أنها تكلفة باهظة إذ تتراوح بين ١٥–٢٥ دولارًا للبرميل. وينصح الوزير هين بأن أفضل الوسائل لتأمين الطاقة هى تطوير البدائل التى يمكن استخدامها فى قطاع المواصلات (سيارات وبواخر وطائرات) والذى يكاد البترول أن يكون وقودها الوحيد. ومع ذلك يعود الوزير هين فيؤكد أنه على الرغم من المليارات التى أنفقت لتطوير تلك البدائل إثر أزمة البترول عام ١٩٧٣، فإن تلك المعجزة التكنولوجية لم تتحقق حتى الآن. إذ على الرغم من الجهود التى بذلت فى البداية ونجحت فى خفض استهلاك البترول إلى ما يقرب من نصف ما كان يمكن أن يصبح عليه بدونها، إلا أن تلك الجهود لم تلبث أن تراخت نتيجة لما طرأ على أسعار البترول من تدهور خلال عقدى الثمانينيات والتسعينيات.

كذلك أقرت المفوضية الأوروبية للاتحاد الأوروبى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ مقترحين يستهدفان إقامة آليات فعالة لضمان الحصول بشكل دائم على منتجات الطاقة بأسعار مناسبة لمواطنى الاتحاد الأوروبى Efficient mechanisms to guarantee permanent access to energy products at affordable prices to European citizens. . ويعتمد المقترح الأول على استخدام المخزون البترولى لمواجهة التقلبات الحادة فى سعر البترول بينما كان هذا المخزون مخصصا فقط لمواجهة الانقطاع الطارئ للإمدادات وفقا لبرنامج وكالة الطاقة الدولية International Energy Agency التى أنشئت عام ١٩٧٤ لحماية مصالح الدول الصناعية الغربية فى مجال الطاقة وبخاصة البترول. ويستند أنصار المقترح الأوروبى إلى أن النظام الذى وضع منذ ٣٠ عامًا لم يعد يلائم الظروف الجديدة التى تجمع دول الاتحاد الأوروبى فى سوق واحدة تتسم بالتضامن وتتمتع بقوة تفاوضية يجب استثمارها لصالح مواطنيها.

أما المقترح الأوروبى الثانى فيتعلق بإمدادات الغاز الطبيعى ويحاول التوفيق بين التناقض القائم بين مطالب منتجى الغاز وبين إجراءات الاتحاد الأوروبى التى استنت لتحرير أسواق الغاز وزيادة التنافسية فيها وذلك بهدف خفض أسعاره. فمنتجو الغاز يؤكدون استحالة توفير التمويل اللازم لتوسيع الطاقة الإنتاجية للغاز ما لم يكن التعاقد مع الدول المستوردة للغاز على أساس عقود طويلة الأجل ضمانًا لتلك الاستثمارات. هذا على حين تستهدف الإجراءات الأوروبية تحرير أسواق الغاز بالتعامل على أساس عقود قصيرة الأجل والتوسع فى الأسواق الفورية للغاز حيث ينخفض السعر لاعتبارات تتعلق بطبيعة تلك السوق ولا تنطبق على العقود طويلة الأجل.

وتحقيقًا لما تستهدفه المفوضية الأوروبية فإنها توصى بزيادة حجم المخزون البترولى بحيث يغطى احتياجاتها لمدة ١٢٠ يوما بدلاً من ٩٠ يومًا وهو المستوى الذى قررته وكالة الطاقة الدولية فى أعقاب أزمة ١٩٧٣، كذلك تقترح المفوضية أن يكون المؤشر الداعى لإطلاق المخزون البترولى إلى الأسواق عندما يبدو أن فاتورة الواردات البترولية لمجموع دول الاتحاد الأوروبى سوف تتجاوز ٠,٥٪ (نصفًا فى المائة) من الناتج المحلى الإجمالى للمجموعة (وهو ما يتحقق عندما يقترب السعر من ٣٠ دولارًا للبرميل فى الوقت الحالى).

وإذ تدرك المفوضية أهمية التنسيق مع منتجى البترول والغاز، فإنها تدعو إلى تنشيط الحوار الدائر معهم فى إطار المنتدى العالمى للطاقة International Energy Forum والذى انعقدت آخر دوراته فى أوزاكا باليابان خلال سبتمبر ٢٠٠٢ وكان انعقاد أولى دوراته فى فرنسا عام ١٩٩١ وثانيها فى النرويج عام ١٩٩٢ وهما الدورتان اللتان شارك فيهما الكاتب ورفضت الولايات المتحدة المشاركة فيهما كما وقفت الدول الصناعية الأخرى فيهما موقف الرفض من مناقشة الأسعار.

وإذا كانت دعوة الاتحاد الأوروبى لتنشيط هذا الحوار الآن تدل على شىء فإنما تدل على ما تتوقعه من ازدياد شحة البترول خلال المستقبل المنظور، ومن ثم اتجاه الأسعار إلى الارتفاع حتى بدون تنسيق من جانب منتجى البترول. وبدهى أن القول بأن السوق البترولية مقبلة على فترة تشح فيها الإمدادات لايعنى أن الإنتاج العالمى منه سوف يأخذ فى الانخفاض المطلق، وإنما المقصود أن الإنتاج العالمى من البترول سوف لايتجاوب ارتفاعا بالمعدلات التى يتزايد بها الطلب العالمى عليه. وهذا هو المقصود بالشحة التى ينعكس أثرها فى السعر وليس فى توفر الإمدادات ذاتها.

انفراد الولايات المتحدة بموقف خاص:

هكذا تقف أوروبا من قضية تأمين الإمدادات البترولية موقفًا سلميًا، وتعالجه فى إطار العلاقات التجارية المعتادة، وإن كانت تقوم بتنسيق مواقفها واستخدام قوتها التفاوضية فى إطار جماعى. وهذا فى ذاته يعتبر عملا مشروعًا وإن كانت الدول الأوروبية تضج بالشكوى عندما تقوم أوبك بعمل مماثل لوقف تآكل أسعار البترول سواء فى صورتها الاسمية أم فى صورتها الحقيقية.

أما الولايات المتحدة فإنها تنتهج نهجًا مخالفًا فى هذا المجال، إذ تبادر بالضغط السياسى على الدول المصدرة للبترول كلما ارتفع سعره، وتبعث ممثليها لإقناع تلك الدول بزيادة الإنتاج وخفض الأسعار. وفى الآونة الأخيرة اتخذ الضغط الأمريكى منحى أشد عنفًا إذ أدخلت فى إطار «محور الشر» المستهدف بضرباتها العسكرية كلا من إيران والعراق وهما من دول أوبك التى كانت توصف بالصقور فى مداولات المنظمة حول الإنتاج والأسعار.

ويمكن البحث عن دوافع الولايات المتحدة لتبنى هذا الاتجاه بتحليل موقفها البترولى فى الحاضر وعبر المستقبل المنظور. فقد بلغ استهلاكها من الطاقة بكافة مصادرها خلال ٢٠٠٠ نحو ٢٢٨٨ مليون طن بترول معادل أو ما يعادل ٤٩ مليون ب/ى (أى بعد تحويل المصادر غير البترولية إلى ما يعادلها حراريًا من البترول) وهو ما يعادل ٢٥٪ من الاستهلاك العالمى من الطاقة والذى بلغ نحو ٩٠٩٦ مليون طن بترول معادل (١٩٥ مليون ب/ى) خلال العام المذكور.

ويمثل البترول نحو ٤٠٪ من استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة، كما يمثل الغاز الطبيعى نحو ٢٥٪، بينما يشترك فيما تبقى كل من الفحم والطاقة النووية والطاقة المائية وغيرها من مصادر الطاقة الجديدة والمتجددة.

الولايات المتحدة لا تقبل أن يمارس منتجو البترول حقهم المشروع في إدارة مرفق البترول الذي يكاد يكون مصدرهم الوحيد للحياة، وتثور ثائرتها عندما يمارس هؤلاء المنتجون من الحرية في السوق قدرًا لا يقارن بما تمارسه شركاتها العالمية

ويختلف نمط استهلاك البترول في الولايات المتحدة عن نظيره في أوروبا، إذ يستخدم الجانب الأكبر من البترول في الولايات المتحدة في قطاع المواصلات الذي يحتل مرتبة حيوية في الحياة اليومية للمواطن الأمريكي ويجعله يجار بالشكوى متى ارتفع سعر الوقود سنتات قليلة. أما في أوروبا فإن استهلاك البترول يتوزع توزيعًا متوازنًا بين مختلف القطاعات من مواصلات وصناعة وتوليد كهرباء.

كذلك يختلف نمط تسعير المنتجات البترولية التي يحصل عليها المستهلك النهائي، إذ يبلغ سعر البرميل من تلك المنتجات في السوق الأوروبية واليابان نحو ١٠٠ مائة دولار، بينما لا يتجاوز هذا السعر في الولايات المتحدة ٤٧ دولارًا. ويرجع التفاوت بين السعرين إلى التفاوت بين ما يفرض من الضرائب في الجهتين، إذ تبلغ الضرائب الأوروبية نحو ٦٨ دولارًا للبرميل بينما لا تتجاوز ١٥ دولارًا في الولايات المتحدة التي يحرص ساستها على تدليل المواطن الأمريكي فيما يتعلق باستخدامه للسيارة والتي تمثل جانبا مهمًا في حياته اليومية. ولذلك لم يكن غريبًا أن يحتل الارتفاع الطارئ في سعر البنزين عام ٢٠٠٠ المرتبة الأولى في الحملة التي شنها بوش ضد حكومة كلينتون أثناء انتخابات الرئاسة في العام المذكور.

وبينما يمثل سعر البترول الخام الذي تستورده أوروبا واليابان واصلا موانيها نحو ٢٠٪ من السعر النهائي للمستهلك، فإن تلك النسبة ترتفع إلى ٤٠٪ في الولايات المتحدة. ولذلك فإن ارتفاع أو انخفاض سعر البترول الخام يجد عند المستهلك الأمريكي صدى أقوى نسبيًا من نظيره لدى المستهلك الأوروبي. وهذا ما مهد الطريق أمام قاض فدرالي في ولاية الاباما الأمريكية لكي يصدر قرارًا في أبريل ٢٠٠١ يتهم فيه أوبك أنها تتواطأ بهدف تقييد حرية التجارة في البترول مخالفة بذلك قوانين مكافحة الاحتكار الأمريكية مما دفع أوبك إلى الاستعانة بمحامين للدفاع عنها، وما زالت القضية تتداول في المحاكم الأمريكية حتى الآن. كذلك تقدم منذ وقت وجيز عضوان في مجلس الشيوخ الأمريكي بمشروع قانون يستهدف تمكين وزارة العدل الأمريكية ووكالة التجارة الأمريكية من إقامة الدعوى القضائية ضد أية دولة أجنبية، بما في ذلك الدول أعضاء أوبك، وذلك في حالة وجود اتفاق ينطوي على تواطؤ لتحديد أسعار البترول أو حجم إنتاجه. وتدعيمًا لذلك الاتجاه يحرض السناتور هيرب كوهل ضد أوبك بقوله إن الشعب الأمريكي يعاني كل يوم من مصاعب حقيقية نتيجة لتصرفات أوبك، كما يتابع السناتور مايك دوين نفس النغمة التحريضية بقوله إنه مادامت أوبك تركت لكي تتحكم في العرض العالمي للطاقة فإن علينا أن نتوقع المزيد من الصدمات والمزيد من المشاكل التي يعاني منها المستهلك الأمريكي.

في ضوء تلك الخلفية يمكننا الآن أن نتقصى الآثار المحتملة لازدياد اعتماد الولايات المتحدة على استيراد البترول، ومدى انعكاس تلك الآثار على سياسة الولايات المتحدة تجاه مصدري البترول عمومًا، وتجاه المنطقة العربية التي تضم ثلثي احتياطات البترول بصفة خاصة.

ففي عام ١٩٨٠ بلغ الاستهلاك المحلي من البترول في الولايات المتحدة نحو ١٧ مليون ب / ى بينما لم يتجاوز إنتاجها منه نحو ١١ مليون ب / ى، وبذلك بلغ العجز ٦ ملايين ب / ى أو ما يعادل ٣٥٪ من احتياجاتها البترولية. أما في عام ٢٠٠١ فقد انخفض الإنتاج المحلي إلى نحو ٧,٧ مليون ب / ى بينما ارتفع الاستهلاك إلى نحو ١٩,٦ مليون ب / ى، وبذلك ارتفع العجز إلى نحو ١٢ مليون ب / ى وهو ما يعادل ٦٠٪ من احتياجاته البترولية.

بذلك صارت قيمة فاتورة الواردات البترولية في الولايات المتحدة تتراوح خلال السنوات الأخيرة بين ٨٠ و١٠٠ مليار دولار سنويًا. وكمثال على مدى تأثير سعر البترول الخام على تلك الفاتورة فإن انخفاض سعره خلال ١٩٩٨ من ١٨ إلى ١٢ دولارا أدى إلى انخفاض فاتورة الواردات الأمريكية من البترول بنحو ٢٥ مليار دولار، بينما انخفضت إيرادات الدول أعضاء أوبك بنحو ٥٦ مليار دولار وما يقرب من تلك القيمة لباقي الدول المصدرة للبترول غير الأعضاء فيها، وكلها تقريبا دول نامية تعتمد على إيرادات سلعة وحيدة وناضبة في تمويل احتياجاتها الجارية والتنموية.

وإذ يتوقع أن يرتفع استهلاك الولايات المتحدة بحلول عام ٢٠٢٠ إلى نحو ٢٦ مليون ب / ى بينما لا يتجاوز إنتاجها المحلي في العام المذكور نحو ٩ ملايين ب / ى، فإن اعتمادها على الاستيراد يمكن أن يرتفع من ١٢ مليون ب / ى إلى نحو ١٧ مليون ب / ى بحلول العام المذكور، وكنسبة مئوية إلى ٦٥٪ من إجمالي الاحتياجات البترولية.

وإذا تركت أسعار البترول لكي تحددها قوى السوق دون ضغط من جانب الدول الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة، فإن تلك الأسعار، يمكن أن ترتفع إلى مستويات شاهقة وترتفع معها فاتورة الواردات البترولية إلى ما يقرب من نصف تريليون دولار سنويا بالدولارات الجارية (وذلك على أساس معدل للتضخم ٣٪ سنويًا في المتوسط وزيادة حقيقية في السعر بمعدل ٢٪ سنويا وهو ما يمثل معدل نمو الطلب العالمي على البترول وفقا لمبدأ سبق إقراره في اتفاقية طهران عام ١٩٧١، وإن كانت تلك الاتفاقية لم تعد قائمة).

ولكن الولايات المتحدة لا تقبل أن يمارس منتجو البترول حقهم المشروع في إدارة مرفق البترول الذي يكاد يكون مصدرهم الوحيد للحياة، وتثور ثائرتها عندما يمارس هؤلاء المنتجون من الحرية في السوق قدرًا لا يقارن بما تمارسه شركاتها العالمية، وخاصة الشركات المنتجة للسلاح وللتكنولوجيا المتقدمة Hi Tech.، والتي تمنح وتمنع من ينتفع بها، كما تحدد ما تراه محققا لأرباحها الاحتكارية الباهظة. وإنما تعتبر الولايات المتحدة كحق مشروع لها أن تفرض على الدول المصدرة للبترول إنتاج القدر الذي يغرق السوق ويؤدي إلى خفض الأسعار. وقد كانت تلك هي الرسالة التي حملها وزير الطاقة الأمريكي ريتشاردسون أثناء الرحلة التي توجه فيها لدول الخليج مارا بالقاهرة في فبراير ٢٠٠٠ مناديًا بزيادة الإنتاج وخفض أسعار البترول التي ادعى أن ارتفاعها يضر الاقتصاد العالمي ويساهم في زيادة حدة التضخم. وقد علق الكاتب على المحاضرة التي ألقاها الوزير الأمريكي في القاهرة فأوضح له أن سعر الزيت الخام لا يمكن أن يكون سببًا فيما يدعيه، أولا لأن المحتوى البترولي في المنتجات الصناعية قد انخفض بحكم التقدم التكنولوجي إلى أقل من نصف ما كان عليه عام ١٩٧٣ عندما صححت أسعار البترول لأول مرة في ظل حرب أكتوبر، وثانيا، لأن سعر البترول خلال عقد التسعينيات لم يتجاوز ١٧ دولارا في المتوسط، وهو ما يعادل في قيمته الحقيقية نحو ٤,٨٠ دولار بدولارات ١٩٧٣، أما السبب الحقيقي لما تعاني منه الاقتصادات الغربية فينبغي البحث عنه في مجالات أخرى لصيقة بتلك الاقتصادات ومنبثقة عنها. وإذا كان منها ما يتصل بالبترول فهو ناتج عن ارتفاع الضرائب التي تفرضها حكومات الدول الصناعية على المنتجات البترولية وتغذي بها خزائنها والتي تصل لنحو ٧٠ دولارا للبرميل في المتوسط، وتبلغ نحو ٩٥ دولارا في دولة مثل بريطانيا وهي دولة منتجة للبترول وتعرف كيف تقتنص القدر الأكبر من الريع البترولي، بينما تضن على الدول البترولية النامية بممارسة مثل هذا الحق. بل إن الدول الصناعية لا تسمح بانتقال الانخفاض الذي يطرأ على سعر البترول الخام – في صورته الاسمية أو صورته الحقيقية – إلى المستهلك النهائي. ومن ذلك أن انهيار السعر من نحو ٢٨ دولارا عام ١٩٨٥ إلى نحو ١٨ دولارا عام ١٩٨٧ لم تقابله الدول الأوروبية إلا بزيادة ضرائبها البترولية من نحو ٢٢,٥٠ دولار للبرميل عام ١٩٨٥ إلى نحو ٣٠ دولارا حيث استمرت تلك الضرائب في الارتفاع إلى أن بلغت المستوى الذي ذكرناه، ويأتي مشروع الاتحاد الأوروبي لفرض ضريبة الكربون بحجة حماية البيئة كعبء إضافي على هيكل الضرائب البترولية في الدول الأوروبية المستوردة للبترول.

ولا تسعى الولايات المتحدة فقط لتأمين احتياجاتها البترولية وبأقل الأسعار، سواء بالضغط السياسي كما كان يحدث في الماضي أم بوسائل أشد عنفًا كما هو متوقع في إطار الحرب التي تشنها الولايات المتحدة ضد ما تطلق عليه الإرهاب العالمي. بل إن الولايات المتحدة التي تعتبر مسئولة عن ربع ملوثات الغلاف الجوي، بحكم استهلاكها لربع الطاقة العالمية، تتنصل من الالتزام الذي أقره العالم في إطار بروتوكول كيوتو الذي يلزم الدول الصناعية بخفض مبتعثاتها الكربونية المسببة لاحترار الغلاف الجوي والذي يهدد نوعية الحياة على كوكب الأرض. وكما هو معروف، فقد أعلن الرئيس بوش عقب توليه السلطة أنه لن يقوم بالتصديق على البروتوكول وما زال يصر على ذلك. («وجهات نظر» عدد أغسطس ٢٠٠٢).



من المتوقع أن يمثل البترول ٣٧٪ من استهلاك الطاقة العالمية، يتبعه الغاز الطبيعي ٢٨,١٪، ويتبقى ٢٤٪ لباقي أنواع الوقود الحفري، أما باقي مصادر الطاقة فتمثل ١١٪ فقط.

شح الإمدادات البترولية:

في تقريرها الذي أذاعته وكالة الطاقة العالمية أثناء انعقاد منتدى الطاقة العالمي International Energy Forum في أوزاكا في سبتمبر ٢٠٠٢ تؤكد أن مصادر الوقود الحفري (البترول والغاز الطبيعي والفحم) سوف تمثل نحو ٩٠٪ من الزيادة المتوقعة في الاستهلاك العالمي من الطاقة حتى عام ٢٠٣٠ والذي يتوقع أن ينمو بمعدل ٢,١٪ سنويا في المتوسط لكي يرتفع من نحو ٩,٢ مليار طن بترول معادل (١٩٤ مليون ب/ى) عام ٢٠٠٠ إلى نحو ١٥,٣ مليار طن بترول معادل (٣٢٥ مليون ب/ى) عام ٢٠٣٠، كذلك يؤكد



حرب النفط

التقرير أن الوقود الحفرى سوف يظل يغطى نحو ٨٩٪ من الاستهلاك العالمى من الطاقة وأن نصيب البترول من ذلك الاستهلاك لن يقل عن ٣٧٪ بحلول العام المذكور، كما سيرتفع نصيب المواصلات فى استهلاك البترول من نحو ٤٧٪ فى الوقت الحاضر إلى ٥٥٪ بحلول عام ٢٠٣٠، وبعبارة أخرى فإن البترول سيظل يمثل أكثر من ثلث استهلاك العالم من الطاقة على مدى ثلث القرن الحالى، كما سيزداد الاعتماد عليه فى القطاع الذى لا يوجد له فيه منافس قوى وهو قطاع المواصلات.

أما نصيب الغاز الطبيعى فيتوقع أن يرتفع خلال الفترة المذكورة من ٢٣٪ إلى ٢٨٪ من الاستهلاك العالمى من الطاقة، لنظافته بيئيا وسهولة تداوله واستخدامه وارتفاع كفاءته فى توليد الكهرباء. وبذلك يبلغ نصيب البترول والغاز الطبيعى معا نحو ٦٥٪ من الاستهلاك العالمى بحلول عام ٢٠٣٠، وهو ما يدعم الموقف التفاوضى للدول المصدرة للبترول والغاز، خلافا لما يدعيه البعض من أن العالم سوف يستغنى عنهما مما يثير المنافسة بين المنتجين لتسويقهما بأقل الأسعار.

وكما يستخلص من نتائج الدراسات المتاحة، فإن الطلب العالمى على البترول سوف ينمو بمعدل ٢٪ سنويا فى المتوسط خلال الفترة ٢٠٠٠–٢٠٢٠، وبذلك يرتفع استهلاكه العالمى من نحو ٧٥ مليون ب/ى عام ٢٠٠٠ إلى نحو ١١١ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ وهو ما يزيد بنحو ٣٦ مليون ب/ى أو ما يعادل ٤٨٪.

أما بالنسبة للعرض العالمى للبترول فإن أغلب الدراسات الغربية تبدأ بتقدير الاحتياجات العالمية منه، ثم تقوم بتقدير الإنتاج المتاح خارج دول أوبك لكى تنتهى بما ينبغى على أوبك أن تقوم بسده معبرا عنه بفجوة العجز. ومن الواضح أن الفصل بين أوبك وبين غيرها من المنتجين فى معالجة العرض العالمى من البترول إنما يرجع إلى توجهات الهيئات البحثية الغربية والتى تفترض قيام أوبك بدور المنتج المكمل Residual producer، بمعنى أنها مطالبة بتوسيع طاقتها الإنتاجية، وخاصة فى منطقة الخليج العربى، بحيث تقوم بسد الفجوة بين الإنتاج خارجها وبين الاحتياجات العالمية المتزايدة من البترول.

وإذ يتركز اهتمام الهيئات البحثية الغربية حول مصالح الدول الصناعية الغربية، فإنها تتوقع أن يرتفع استهلاكها البترولى بحلول عام ٢٠٢٠ إلى نحو ٥٨ مليون ب/ى، فى حين لا يتجاوز إنتاجها المحلى فى ذلك العام ١٨ مليون ب/ى، وبذلك ترتفع فجوة العجز من نحو ٢٦ مليون ب/ى عام ٢٠٠٠ إلى نحو ٤٠ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ (منها نحو ١٧ مليون ب/ى فى الولايات المتحدة وحدها ونحو ١٦ مليون ب/ى فى أوروبا الغربية ويتوزع الباقى بين اليابان وباقى المجموعة).

وإذ ترى تلك الهيئات أيضا أن المجموعة الصناعية الغربية سوف تعتمد على دول أوبك الواقعة فى منطقة الشرق الأوسط لتوفير نحو ٧٦٪ من وارداتها البترولية بحلول ٢٠٢٠، وأن المنافسة قد تحتدم للحصول على البترول من جانب الدول النامية التى يتزايد استهلاكها بمعدلات تفوق معدل الزيادة فى الدول الصناعية، فإنها تدعو الدول الصناعية الغربية لاتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة هذا الموقف.

فما هى الدول التى يمكن ان يتركز عليها الضغط الغربى للوفاء بتلك الاحتياجات وسد فجوة العجز خلال المستقبل المنظور؟

لا يوجد سوى أوبك التى يتوقع أن ترتفع طاقتها الإنتاجية من نحو ٣١ مليون ب/ى عام ٢٠٠٠ إلى نحو ٦٠ مليون ب/ى بحلول عام ٢٠٢٠، وفى داخل أوبك يوجد ست دول فقط ممن سيكون لديها القدرة على توسيع وتنمية طاقتها الإنتاجية بحيث ترتفع من نحو ٢٤ مليون ب/ى حاليا إلى نحو ٤٨ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠، وهذه الدول الست هى السعودية والإمارات والكويت والعراق وإيران، ثم فنزويلا.

بذلك يرتفع نصيب أوبك من الطاقة العالمية لإنتاج البترول بحلول ٢٠٢٠ إلى ٥٤٪ كما يرتفع نصيب الدول الست الكبار إلى نحو ٤٣٪. أما الدول الخمس الباقية من أعضاء أوبك، فلا يتوقع أن تتجاوز طاقتها الإنتاجية مجتمعة نحو ١٢ مليون ب/ى على تفاوت فى الأنصبة الفردية.

وإذا أضيف إلى الدول الأربع العربية داخل مجموعة الستة الكبار من سوف تسعفه احتياطاته من البترول للمساهمة فى الإمدادات العالمية مثل عمان والجزائر وليبيا، فإن إنتاج البترول العربى (متضمنا سوائل الغاز الطبيعى) يمكن أن يرتفع من نحو ٢٣,٥ مليون ب/ى فى الوقت الحاضر إلى نحو ٤٥ مليون ب/ى بحلول ٢٠٢٠، وبإضافة إنتاج إيران المقدر بنحو ٥,٥ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠، فإن المنطقة العربية، ومعها إيران، يمكن أن تزود العالم بنحو ٤٥٪ من احتياجاته عام ٢٠٢٠، كما يمكنها أن تساهم بنحو ٦٣٪ من صادرات البترول العالمية المتوقعة خلال العام المذكور وتقدر بنحو ٧٠ مليون ب/ى.

هذه هى توجهات أغلب الهيئات البحثية الغربية والتى تفترض أن دول أوبك، وخاصة دول الخليج العربى، سوف تلعب دور المنتج المكمل، وأن إمكانياتها البترولية سوف تتسع لكى تفى باحتياجات العالم المتزايدة عند الأسعار المتدنية التى تبنتها افتراضات تلك الهيئات.

غير أن وكالة الطاقة الدولية IEA التى تضم وتخدم مصالح الدول الصناعية الغربية، تتبنى توجها مختلفا، وهو فى نظرنا الأقرب للواقع. إذ تفرق الوكالة بين ما تطلق عليه البترول التقليدى والبترول غير التقليدى. وتتوقع الوكالة ان يبلغ إنتاج البترول التقليدى ذروته فى منتصف العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين (أى حوالى ٢٠١٥) ليبدأ بعد ذلك مرحلة النضوب الطبيعى تدريجيا وبذلك يتوقع أن يرتفع إنتاجه من ٦٤ مليون ب/ى فى الوقت الحاضر إلى نحو ٧٢ مليون ب/ى ٢٠٢٠، أما البترول غير التقليدى ومن أمثلته سوائل الغاز الطبيعى وفوائض التكرير والبترول المستخلص من الطفل البترولى ومن رمال القار ومن الفحم..إلخ، فإن الوكالة تتوقع ان يرتفع إنتاجه، من نحو ١٠ ملايين ب/ى فى الوقت الحاضر إلى نحو ٢٠ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠.

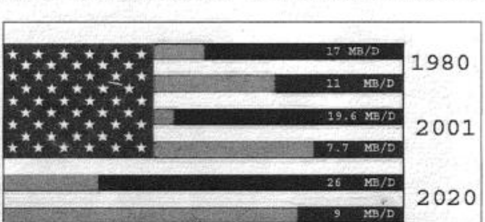
فى ضوء هذا التعريف المزدوج للبترول، يتوقع ان يرتفع إجمالى العرض العالمى من البترول بنوعيه من نحو ٧٥ مليون ب/ى فى الوقت الحاضر إلى نحو ٩٢ مليون ب/ى بحلول ٢٠٢٠، وإذ تقدر وكالة الطاقة الدولية احتياجات العالم البترولية عام ٢٠٢٠ بنحو ١١١ مليون ب/ى فإن العالم يمكن أن يواجه عام ٢٠٢٠ عجزًا يقدر بنحو ١٩ مليون برميل يوميًا، وهو ما ينبغى توفيره من مصادر بترولية غير تقليدية وغير معلومة فى الوقت الحاضر.

ولعل مما يساند رؤية الوكالة ما توصل إليه بعض خبراء جيولوجيا البترول العالميين من أن عصر الحقول العملاقة قد ولى، وأن أغلب ما اكتشف فى الماضى القريب كان من الحقول الصغيرة أو فى مناطق صعبة، وأن العالم لم يتمكن من تعويض ما استخرج منه على مدى السنوات العشرين الماضية. كذلك يتوقع هؤلاء الخبراء أن الإنتاج العالمى من البترول سوف يتجه إلى الانخفاض المطرد فى منتصف العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين، ويؤكدون أن نحو ٨٠ بالمائة من الإنتاج الحالى يتدفق من حقول اكتشفت قبل ١٩٧٣ وبدأ أغلبها بالفعل رحلة النضوب المطرد. كذلك يعارض هؤلاء الخبراء التقارير التى تدعى أن احتياطات البترول قد ارتفعت خلال السنوات العشرين الماضية ويصفون الزيادة بأنها وهمية، ويؤكدون أن العالم بعد أن استهلك بالفعل ما يقرب من ثلث الثروة البترولية (٧١٨ مليار برميل حتى عام ٢٠٠١)، سوف يواجه صعوبات متزايدة فى استخلاص الباقى (ويقدر بنحو ٩٥٩ مليار برميل كاحتياطات مؤكدة ونحو ٩٣٩ مليار برميل لم يتم اكتشافها بعد).

ومما يؤكد تلك الرؤية أيضًا أن بعض الزيادات التى أدخلت على حجم الاحتياطات البترولية كانت زيادات وهمية، إذ قامت بعض دول أوبك خلال النصف الثانى من عقد الثمانينيات بزيادة حجم احتياطياتها البترولية بنحو ٧٠٪ دفعة واحدة وكان أغلب تلك الزيادة ناتجًا من إعادة التقدير Revision أكثر منه نتيجة لجهود استكشافية جديدة. ومن ذلك أن الدول البترولية الست الكبار (الخمس الخليجية ومعها فنزويلا) قامت برفع حجم احتياطياتها خلال الفترة ١٩٨٥–١٩٨٩ من ٤١٣ مليار برميل إلى ٧٠٤ مليارات برميل، وكان الدافع الأساسى لتلك الزيادة محاولة كل دولة عضو فى أوبك استخدام تلك الزيادة لرفع حصتها من الإنتاج بعد أن لجأت أوبك لنظام الحصص كوسيلة لوقف تدهور أسعار البترول التى انهارت إلى النصف عام ١٩٨٦.

وكما يستخلص من بيانات المساحة الجيولوجية الأمريكية US Geological Survey data لعام ٢٠٠٢ فإن الاحتياطات البترولية العالمية المؤكدة حتى الآن (بما فى ذلك سوائل الغاز الطبيعى) تبلغ نحو ٩٥٩ مليار برميل وذلك بنقص قدره ١١٪ عن التقديرات التى تتبناها أوبك وجهات أخرى وتقدرها بنحو ١٠٧٧ مليار برميل (بدون سوائل الغاز الطبيعى). كذلك تبرز البيانات الأمريكية المذكورة تباينًا كبيرًا فى تقديرات احتياطات دول أوبك إذ تقدرها بنحو ٦١٢ مليار برميل بينما تبلغ تقديرات أوبك لهذه الاحتياطات نحو ٨٤٧ مليار برميل. وفى ضوء تلك التقديرات، وأخذًا فى الاعتبار أن الإنتاج العالمى من البترول يمكن أن يبلغ نحو ٩٣ مليون ب/ى كمتوسط سنوى خلال الفترة ٢٠٠٠–٢٠٢٠، فإن عدد سنوات نضوب الاحتياطى أو ما يطلق عليه نسبة الاحتياطى إلى الإنتاج (R/P ratio) (وهو مؤشر متعارف عليه فى صناعة البترول) يمكن أن تنخفض من ٣١,٧ سنة إلى ٢٨,٣ سنة.

وإذا صح أن الأرقام المتداولة بالنسبة لاحتياطات أوبك تتجاوز الحقيقة كما توضحها تقديرات المساحة الجيولوجية الأمريكية بنحو ٣٨٪، فإن ما يشاع عن قدرة أوبك على سد فجوة العجز العالمى المتزايد يصبح موضعا للشك، كما يبعث على التساؤل عن أصحاب المصلحة فى إقناع أوبك بأن لديها ما يكفى لزيادة طاقتها الإنتاجية إلى مثلى حجمها الحالى وذلك على غير أساس من الواقع. وإذا تحققت تلك الشكوك حول حجم الاحتياطات فى دول أوبك، فإن استجابتها لمطالبة الدول الصناعية الغربية



فى عام ١٩٨٠ بلغ الاستهلاك المحلى من البترول فى الولايات المتحدة نحو ٢٧ مليون ب/ى. وبذلك بلغ العجز ٦ مليون ب/ى أو ما يعادل ٣٥٪ من احتياجاتها البترولية. أما فى عام ٢٠٠١ فقد انخفض الانتاج المحلى الذى نحو ٧,٧ مليون ب/ى بينما ارتفع الاستهلاك إلى نحو ١٩,٦ مليون ب/ى وهو ما يعادل ٦٠٪ من احتياجاتها البترولية. كما يتوقع أن يرتفع استهلاك الولايات المتحدة بحلول عام ٢٠٢٠ إلى نحو ٣٦ مليون ب/ى بينما لا يتجاوز انتاجها المحلى فى العام المذكور نحو ٩ مليون ب/ى. فإن اعتمادها على الاستيراد يمكن أن يرتفع من ١٢ مليون ب/ى إلى نحو ١٧ مليون ب/ى بحلول العام المذكور. وكنسبة مئوية إلى ٦٥٪ من اجمالى الاحتياجات البترولية.



بسد فجوة العجز المتزايد يمكن أن يلحق ضررًا بالغًا بتلك الاحتياطات ويعجل باستنفادها في زمن يقل كثيرا عما تبرره معايير الإنتاج الرشيد والاعتبارات الاقتصادية التى تحقق مصالح الدول المصدرة للبترول.

مواجهة أم مصالحة؛

كما أوضحنا، فإن البترول يعتبر - وسيظل - يعتبر واحدًا من أهم مصادر الطاقة، إذ يمثل نحو ٤٠٪ من الاستهلاك العالمي للطاقة وسيظل يحتل نفس المكانة خلال المستقبل المنظور. ومن ثم فإن العلاقة بين الدول المصدرة للبترول والدول المستوردة له سوف تظل بالضرورة ممتدة ووثيقة على مدى هذا المستقبل.

والسؤال الذى يطرح نفسه: هل ستمتد تلك العلاقة امتدادا طبيعيا بصورتها التقليدية التى لاتخلو من الضغط السياسى من جانب الدول الصناعية المستوردة، أم أن أحداث سبتمبر سوف تضيف إلى تلك العلاقة بعدًا جديدًا؟

إن الواضح من تداعيات أحداث سبتمبر أن الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة قد ابتكرت ما تطلق عليه «الحرب ضد الإرهاب». وقد اتخذت تلك الحرب ذريعة للالتفاف حول الشرعية على المستويين الدولى والمحلى. فعلى الصعيد المحلى أخذت تلك الدول تمارس فى تطبيقها للقانون أساليب مقيدة للحريات التى تعود المواطن الغربى على التمتع بها. وتبدو تلك الظاهرة أكثر وضوحا فى الولايات المتحدة التى تسلب فيها أبسط الحقوق الإنسانية للمواطن غير الأمريكى، إذ يحرم من يشك فى صلته بما سمى الإرهاب من الانتفاع بحقوقه القانونية بما فى ذلك حقه فى إقامة محام للدفاع عنه أمام القضاء. ومن ثم صار ممكنا أن يعتقل المشتبه لمدة غير محددة دون أن توجه إليه تهمة ودون أن يقدم للقضاء.

وأما على الصعيد الدولى فقد توسع أنصار تلك الحرب فى تعريف الإرهاب بحيث صار يطبق على كل من يتعارض سلوكه مع مصالح الدول الصناعية الغربية.

هكذا تتسع دائرة التعريف الأمريكى لصفة الارهاب بحيث لن يستغرب أن تطلق يوما على من يحاول تنسيق إمداداته من البترول أو مساندة أسعاره وحمايتها من التآكل، وذلك بدعوى أن هذه السياسة تهدد أمن المواطن الغربى وتعرض اقتصاده للدمار. وحينئذ قد لايتردد المتشددون فى الدول الصناعية الغربية فى المطالبة بتجاوز الضغط السياسى المعتاد إلى ممارسة ضغوط أشد عنفا مثل ما يخطط له من ضرب العراق. ونحن لانشك فى أن الإصرار الأمريكى على ضرب العراق، رغم ما يلقاه من معارضة عالمية قوية، لا يعدو أن يكون مقدمة لهذا الاتجاه. كما لانشك فى أن تكريس الوجود الأمريكى فى الخليج، وما يقترن به من عودة شركات البترول العالمية للعمل فى قطاع البحث عن البترول والغاز وإنتاجه فى المنطقة، يمثلان شقى الرحى التى تستهدف السيطرة على البترول العربى ليس فقط فى العراق بل فى منطقة الخليج بكاملها وتحويل مسار الصناعة إلى ما يخدم المصالح الغربية، وبخاصة الأمريكية.

ولقد بدأ بالفعل صراع محموم حول توزيع الأنصبة فى البترول العراقى عقب إزاحة صدام حسين، إذ شاعت المخاوف حول نية الولايات المتحدة قصر هذا النشاط على شركاتها البترولية. ومما يؤكد ذلك ما أعلنته قيادات المعارضة العراقية المقيمة فى الخارج من أن جميع العقود البترولية التى أبرمتها حكومة صدام سوف تخضع للمراجعة، كما أن تلك القيادات على موعد للالتقاء بممثلى الخارجية الأمريكية فى أوائل ديسمبر ٢٠٠٢ للتباحث حول مستقبل البترول والغاز العراقى بعد صدام حيث تتجه النية لتكوين مجموعة مشتركة من تلك القيادات ومن خبراء وزارة الطاقة الأمريكية لعمل الترتيبات اللازمة فى هذا المجال. وكرد فعل لتلك المخاوف أعلن جون براون رئيس الشركة البريطانية للبترول يوم ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٢ أنه ينبغى إتاحة فرص متكافئة لجميع شركات البترول فيما يتعلق بالتعاقد على بترول العراق فى حالة تغيير نظام الحكم فى العراق. كذلك أخذت الشركات الروسية التى سبق لها التعاقد مع الحكومة العراقية تلهث وراء حكومتها لكى تسعى لدى الأمريكان للاحتفاظ بحقوقها التعاقدية مؤكدة أنها لن تمارس أية أنشطة قبل أن يرفع الحظر رسميا عن العراق. وهذه هى الورقة التى ظلت إدارة بوش تلوح بها للحصول على موافقة الروس فى تفويض الولايات المتحدة بضرب العراق.

هذه هى نوعية المخاطر المحدقة بالمنطقة العربية، فما الذى يمكن أن تقوم به الدول العربية عموما والمصدرة للبترول بصفة خاصة؟

بداية ينبغى أن تدرك الدول العربية حجم ما يحيط بها من مخاطر تهدد كيانها وتتجاوز فى آثارها المدمرة حجم الخلافات العربية / العربية.

وثانيا، ينبغى أن ينبذ العرب سياسة الصمت وانتظار ما يحدث من جانب الغير لكى يقابلوه بردود أفعال يغلب أن تجهض فى مواجهة الفعل المخطط والذى يأخذ فى اعتباره مقدما ما سوف يلجأ إليه الجانب العربى. ولذلك ينبغى الأخذ بسياسة المبادرة والتأثير الفعال فى مسار الأحداث لكى تبلغ المنتهى الحميد قبل أن تصل الأمور إلى نقطة المواجهة الحادة.

وثالث ما ينبغى السعى لتحقيقه أن تقوم الدول البترولية باستخدام أوراق الضغط التى تملكها، وفى مقدمتها علاقاتها المتميزة بشركات البترول العالمية والتى تتمتع بدورها بعلاقات وثيقة مع الإدارة الأمريكية. وعلى تلك الدول ربط تعاقداتها ومعاملاتها مع تلك الشركات بمقدار ما يمكن أن تقدمه من عون فى سبيل تحقيق سياسة غربية متوازنة تعترف للجانب العربى بحقوقه المشروعة وتتعامل معه على أساس من الندية والاحترام المتبادل.

ورابع ما يمكن أن تفعله الدول العربية بذل أقصى جهد، من منطلق جماعى كما تفعل أوروبا، لوضع صفة الإرهاب بالنسبة للعرب فى حجمها الطبيعى، والعمل على إزالتها عن أية دولة عربية. فهذه الصفة إن صحت لايصح أن تتجاوز الأفراد لكى تطلق على الدولة. وبصفة خاصة ينبغى الحرص على عدم ربطها بأية أنشطة بترولية والتى لاتخضع لغير العلاقات التجارية الحرة بعيدا عن الضغوط السياسية والتدخلات الحكومية من جانب الدول المستوردة للبترول. ■

روسيا

البديل الأمريكى للبترول السعودى!

جودت بهجت

■ ■ أوجدت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ آثارًا استراتيجية مهمة فى علاقة الولايات المتحدة بكل من السعودية وروسيا، وبينما وجدت واشنطن وموسكو أنفسهما فى مواجهة عدو مشترك هو الإسلام فى صورته النضالية، كان هناك خلاف كبير بين واشنطن والرياض. ورغم أن المسئولين الأمريكيين أعربوا عن رضاهم عن التعاون السعودى مع الولايات المتحدة فى الحرب ضد الإرهاب إلا أن حقيقة أن خمسة عشر سعوديًا من بين مختطفى الطائرات الأمريكية التى نفذت هجمات ١١ سبتمبر، والبالغ عددهم ١٩، وكذلك الاتهامات الموجهة للرياض بأن بعض الأموال السعودية جرى استخدامها فى تمويل المنظمات الإرهابية أدى إلى وجود شكوك فى التحالف القائم بين الدولتين والذى يعود إلى عقود مضت.

وقد ساد فى الآونة الأخيرة مناخ من فقدان الثقة فى العلاقات السعودية الأمريكية جعل إدارة الرئيس الأمريكى جورج بوش تبحث جديًا كيف يمكن تقليل اعتماد الولايات المتحدة على بترول الشرق الأوسط وإيجاد مناطق أخرى للحصول على احتياجاتها البترولية. وأصبحت روسيا من أهم الدول المرشحة للقيام بهذا الدور.

ويحاول هذا المقال أن يستكشف إمكانية تحقيق هذه الفكرة على أرض الواقع والمدى الزمنى الذى ستستغرقه من خلال الحديث بشكل تفصيلى عن العوامل الجيوسياسية الجديدة المؤثرة على صانع القرار «البترولى» فى الولايات المتحدة وروسيا والسعودية.

فى الوقت الذى التزمت فيه السعودية بحصتها فى إنتاج البترول كعضو فى منظمة الأوبك، توسعت روسيا فى إنتاج البترول، ومن ثم فقد تخطى معدل إنتاجها ما تنتجه السعودية من البترول فى أوائل العام ٢٠٠٢م

البعد الاستراتيجى فى البترول السعودى

تتمتع صناعة البترول فى السعودية بالعديد من الميزات التى جعلت من السعودية واحدة من أهم الدول المؤثرة والتى تلعب دورًا فاعلاً فى سوق البترول العالمية: فالسعودية هى أولى الدول المنتجة والمصدرة للبترول فى العالم، وتمتلك أكثر من ربع المخزون العالمى من البترول، حيث يبلغ حوالى ٢٦٤,٢ بليون برميل من البترول المخزون.

بالإضافة إلى ذلك، فإن تكلفة إنتاج البترول فيها تعتبر أقل مقارنة بالدول الأخرى، إذ تبلغ ١,٥ دولار أو أقل أحيانًا للبرميل فى حين أنها قد تصل إلى خمسة دولارات فى أماكن أخرى من العالم.

كذلك، فإن السعودية ودول الخليج العربى الأخرى تعتبر من أكبر الدول إنتاجًا للبترول، وأقلها استهلاكًا له. فى حين أن كبرى الدول المنتجة له مثل الولايات المتحدة وروسيا تكاد تستهلك كل ما تنتجه من البترول. ويعطى ذلك للسعودية ثقلاً أكبر فى تجارة البترول العالمية.

علاوة على ذلك، فإن صناعة البترول السعودية تخضع لملكية الحكومة على عكس روسيا مثلاً التى تتجه تدريجيًا إلى خصخصة صناعة البترول بها. فالحكومة السعودية تسيطر على آبار البترول وتمتلكها منذ أواخر السبعينيات من القرن

حـــــرب
النـــــفط



الماضي، ولذا فهي لا تخضع لتأثيرات القطاع الخاص وشركات البترول الخاصة في رسم السياسة البترولية على المستويين المحلي والعالمي.

وتتمتع السعودية بمزايا طبيعية في مجال صناعة البترول، إذ تقع على الخليج العربي والبحر الأحمر اللذين تقع عليهما موانئ التصدير التي ترتبط بحقوق إنتاج البترول الخام عن طريق شبكة عملاقة من أنابيب البترول.

كذلك، فإن السعودية قادرة على ضخ معظم احتياجات السوق العالمية الإضافية من البترول. وهذا يعطيها بعدًا استراتيجيًا لا تتمتع به كثير من الدول الأخرى المنتجة للبترول، إذ إنها بمقدورها تعويض أي نقص فجائي في كميات البترول المنتج عالميًا، وتأمين احتياجات العالم الإضافية من البترول.

لكل هذه الأسباب فليس من المستغرب أن تهتم الولايات المتحدة وهي أكبر مستوردي البترول في العالم بضمان التعاون بينها وبين السعودية في مجالين أساسيين: (١) ضمان عدم حدوث أي اضطرابات في إمدادات البترول السعودية، (٢) ثبات أسعار البترول.

إذ إن الاقتصاد المعاصر شديد التأثر بأي اضطراب في كميات البترول المتاحة عالميًا، وبأي آثار عكسية على موازين المدفوعات بسبب حدوث أية ارتفاعات حادة ومفاجئة في أسعار النفط.

تعد السعودية ممولاً أساسيًا للنفط لكل من الولايات المتحدة واليابان، إلا أن الدول المنتجة للبترول في النصف الغربي من الكرة الأرضية (كندا وفنزويلا والمكسيك) بدأت في السنوات الأخيرة تمثل تحديًا للسيطرة السعودية على سوق البترول في الولايات المتحدة. ورغم أن الدول الآسيوية استوردت في السنوات الأخيرة من السعودية بترولاً أكثر مما استوردته الولايات المتحدة، إلا أن السعودية ترغب في الحفاظ على نصيبها في السوق الأمريكية وتوسيعه. وفي الحقيقة، استطاعت السعودية والولايات المتحدة إقامة علاقة ذات طبيعة خاصة تم الحفاظ عليها طوال السنوات الماضية تضمن المصالح المشتركة للجانبين في مجال البترول.

وعلى عكس الكثير من الدول المنتجة للبترول في منطقة الخليج العربي والدول الأعضاء في منظمة الأوبك فإن عمليات الكشف عن البترول وتنمية الثروة البترولية في السعودية قامت بها بصورة تكاد تكون كلية، شركات أمريكية. ففي بداية الثلاثينيات من القرن الماضي كانت شركات البترول الأمريكية تتطلع إلى فرص تجارية فيما وراء البحار. في تلك الآونة تم اكتشاف مخزون هائل وواعد من البترول في عدة مناطق على الخليج العربي تشمل إيران والعراق والبحرين. في ذلك الوقت كانت تسيطر على تلك الثروة الهيدروكربونية المكتشفة حديثًا القوى الأوروبية، خاصة بريطانيا. وكان القادة الأوروبيون في تلك الأثناء يسعون للحصول على امتيازات للشركات العاملة في مجال البترول بهدف دعم قوتها الاقتصادية والسياسية الآخذة في النمو. وسط هذه الأجواء أعطى الملك عبد العزيز آل سعود (مؤسس الدولة السعودية) عام ١٩٣٣م، والذي كان متشككًا في النوايا الأوروبية الحق لشركة بترول كاليفورنيا في الكشف عن البترول في بلاده وإنتاجه. وتوسعت هذه الشركة فيما بعد واتخذت اسمًا جديدًا لها عرف بالشركة العربية الأمريكية للبترول (أرامكو)، ورسخت التعاون مع الحكومة السعودية في هذا المجال. ونجحت هذه الشركة على عكس الشركات الأجنبية الأخرى في إقامة علاقات طيبة مع الحكومة السعودية. ففي الوقت الذي كان هناك نزاع كبير بين السلطات الإيرانية وشركة البترول البريطانية BP في بداية الخمسينيات، كان التعاون وثيقًا بين شركة أرامكو والحكومة السعودية. فقد اتفق الطرفان في نهاية الخمسينيات على نظام معدل للمشاركة في الأرباح بنسبة النصف بالنصف. وفي عام ١٩٧٤م أصبح نصيب الحكومة السعودية في الشركة ٦٠٪. وفي عام ١٩٨٠م أصبحت شركة أرامكو شركة سعودية بنسبة ١٠٠٪. ورغم الهيمنة الكاملة للحكومة السعودية على شركة أرامكو فقد ظل الإداريون والفنيون الأمريكيون يحتلون المناصب المهمة في الشركة إلى جانب شركائهم السعوديين. وأخيرًا وفي عام ١٩٨٩م سلم آخر مدير أمريكي للشركة وهو جون كليبر، السلطة لأول رئيس سعودي للشركة وهو علي النعيمي والذي أصبح فيما بعد وزيرًا للبترول السعودي.

إلا أن هذا التعاون أصابه بعض الخلل في عام ١٩٧٣ حين شاركت السعودية في الحظر المفروض على تصدير البترول إلى الولايات المتحدة بسبب دعمها لإسرائيل أثناء حربها مع العرب. لقد كانت فكرة استخدام البترول العربي كسلاح للضغط السياسي على الدول المساندة لإسرائيل محل اعتبار لدى الدول العربية لفترة طويلة من الوقت، بيد أن السعودية لم تكن مقتنعة بجدوى ذلك اقتناعًا كافيًا، حيث كانت تفضل استخدام عوائد البترول كسلاح إيجابي يمكن استخدامه في دعم القوة العسكرية والاقتصادية للدول العربية. إلا أن الجدل حول جدوى استخدام سلاح البترول للضغط استمر طويلاً. فبعد اندلاع الحرب العربية الإسرائيلية بوقت قصير طلب الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون من الكونجرس الأمريكي رصد مبلغ ٢,٢ بليون دولار لدعم إسرائيل وتعويضها عن خسائرها في هذه الحرب.

وفي اليوم التالي لذلك أعلنت السعودية حظرًا كاملاً على تصدير البترول إلى الولايات المتحدة. وانخفض الإنتاج السعودي من البترول في الأشهر التي أعقبت ذلك انخفاضًا كبيرًا مما أدى إلى حدوث ارتفاع جنوني في أسعار البترول. وتم رفع الحظر في مارس ١٩٧٤ ردًا على الجهود الأمريكية للفصل بين القوات العربية والإسرائيلية المتحاربة. ويمكن القول بأن العلاقات بين السعودية والولايات المتحدة بلغت أدنى مستوياتها في هذه الأثناء. واستطاع الجانبان بعد ذلك بعدة سنوات قليلة التغلب على تلك الأزمة واستعادة التعاون الوثيق بينهما.

ويمكن استخلاص عدة دروس من هذه المرحلة، حيث تعهدت السعودية بمواجهة أي نقص في إنتاج البترول لأي سبب سياسي أو عسكري أو للكوارث الطبيعية من احتياطيها البترولي. وأدى ذلك إلى استعادة الثقة في سوق البترول وتجنب حدوث ارتفاع مبالغ فيه في أسعاره. وأخيرًا فقد قررت السعودية في أعقاب الهجوم على البنتاجون ومركز التجارة العالمي إرسال تسعة ملايين برميل إضافي من البترول إلى الولايات المتحدة لضمان توفير الاحتياجات الكافية منه، وتعبيرًا عن مساندتها للحكومة الأمريكية في أزمتها.

ويمكن القول إن السعودية باستثناء فترة الحظر البترولي عام ١٩٧٣م، أثبتت أنها شريك للولايات المتحدة يمكن الاعتماد عليه، فلم تستمر السعودية في تزويد الولايات المتحدة والأسواق العالمية بحاجتها من البترول فقط، بل وضعت مخزونها في خدمة الأسواق العالمية عند حدوث أي نقص في الإنتاج لأي سبب سياسي أو بسبب الكوارث الطبيعية. كما أن السعودية كانت دائمًا في مقدمة الدول الساعية للحفاظ على أسعار البترول العالمي وثباتها عند حد مقبول.

الأوبك وصـــراع المصـــالح

كانت السعودية واحدة من المؤسسين الخمسة لمنظمة الأوبك عام ١٩٦٠م، ومنذ ذلك الحين فإن الرياض تفضل العمل في إطار هذه المنظمة للحفاظ على أسعار البترول حول المعدل المعتدل. وعلى وجه العموم فقد عملت السعودية على المواءمة بين مصالحها الوطنية ومصالح أعضاء الأوبك الآخرين والدول الأخرى المنتجة للبترول. ورغم الجهود المبذولة لتكوين جبهة متحدة ومتوائمة إلا أن منظمة الأوبك لم توحد كلمتها في كل الأحوال. ففي إطار منظمة الأوبك نجد أن دولاً مثل الجزائر ونيجيريا وإندونيسيا، والتي يرتفع عدد سكانها نسبيًا، وتمتلك مخزونًا قليلاً من النفط، تفضل غالبًا اتباع استراتيجية قصيرة المدى للوصول بعوائد البترول إلى أقصى حد لها، وعدم التساهل السياسي والاجتماعي بالمشكلات الناشئة عن انخفاض ذلك العائد. ومن ناحية أخرى فإن الدول ذات التعداد السكاني المنخفض والمخزون الكبير من البترول مثل الكويت والإمارات العربية والسعودية تفضل غالبًا اتباع استراتيجية طويلة المدى للوصول بعوائد البترول إلى أعلى معدل لها. وغالبًا ما كانت في موقف أقوى للحد من انخفاض الأسعار.

وخاصة أن السعودية نظرًا لضخامة إنتاجها البترولي تحتل عادة موقع القيادة في تحديد سياسات منظمة الأوبك الخاصة بإنتاج ووضع أسعار البترول.

جـــدول الإنتـــاج

توضح الأرقام الواردة بالجدول أن إنتاج السعودية من البترول هو الأكبر بين دول العالم، وأنه يمثل النسبة الأكبر من إنتاج دول الأوبك، وعلى نفس القدر من الأهمية فإن الأرقام توضح كذلك أن نصيبها من الإنتاج الكلي للبترول لمنظمة الأوبك قد بلغ ذروته في عام ١٩٨١، ١٩٩١م إذ مع بداية الحرب الخليجية الأولى بين العراق وإيران، وعند بداية حرب الكويت، لجأت السعودية إلى رفع معدل إنتاجها من البترول لتعويض النقص الحاد في إمدادات البترول بسبب الصراع في المنطقة.

إن اتباع سياسة الحفاظ على أسعار البترول حول معدلات معتدلة ومنع الارتفاع الكبير في الأسعار يخدم المصالح السعودية ذاتها، خاصة على المدى المتوسط والمدى الطويل. فارتفاع أسعار البترول بصورة مبالغ فيها قد يؤدي إلى ظهور بدائل لمصادر الطاقة قد تقلل من أهمية البترول. ومن المعروف أن البترول إذا تعدى حافته التنافسية فإنه من الصعب استردادها حتى لو حدث انخفاض لاحق في الأسعار. ومن المساوئ الأخرى لارتفاع



تحتل روسيا المركز السابع من حيث كمية الاحتياطي العالمي للبترول، بعد من المملكة العربية السعودية، العراق، الإمارات العربية المتحدة، الكويت، إيران، وفنزويلا.



أسعار البترول أنه يؤدى إلى زيادة أنشطة التنقيب عن البترول فى الدول غير الأعضاء بمنظمة الأوبك، والذى بدوره يؤدى إلى زيادة الإنتاج وتخفيض الأسعار إلى حد كبير. وأخيرًا وكما أشار الدكتور على النعيمى وزير البترول السعودى فإننا نعيش فى عالم تتشابك فيه المصالح الاقتصادية وتؤثر فى بعضها البعض تأثيرًا كبيرًا. لذا فإن الأسعار المغالى فيها للبترول يمكن أن يكون لها آثارها السلبية على الاقتصاد العالمى، والذى بدوره يضعف الطلب على البترول على المدى البعيد، وبالتالى تفقد الدول المنتجة للبترول كثيرًا من مزاياها.

وهكذا، وعلى الأقل جزئيًا، فإن الجهود السعودية فى الحفاظ على أسعار البترول جعلت معدل أسعار البترول ما بين منتصف الثمانينيات من القرن الماضى وحتى النصف الثانى من التسعينيات يتراوح بين ١٥، ٢٠ دولارًا أمريكيًا للبرميل، ذلك المستوى من الأسعار الذى حاز رضى الدول المنتجة والدول المستهلكة فى آن واحد.

أدى غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠ إلى نقص مؤقت وقصير الأمد فى إمدادات البترول فى العالم، مما أحدث حالة من التوتر والاضطراب فى أسواق البترول العالمية وارتفاع أسعار البترول. وفى خلال وقت قصير زادت السعودية من إنتاجها لتعويض النقص فى البترول الكويتى والعراقى ولذا فقد انخفضت الأسعار إلى معدلاتها التى كانت سائدة قبل هذه الأزمة.

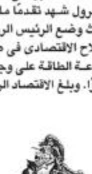
وفى رد فعل للزيادة الكبيرة فى أسعار البترول فى أواخر التسعينيات لجأت الأوبك إلى اتباع سياسة للحفاظ على أسعار البترول منذ مارس عام ٢٠٠٠ سميت باسم «طوق الأسعار» Price band والتى تقضى بأنه فى حالة زيادة أسعار سلة أوبك عن ٢٨ دولارًا أمريكيًا للبرميل أو انخفاضها عن ٢٢ دولارًا للبرميل لعدة أيام، يتم عمل تعديلات فى الإنتاج. ونجحت هذه السياسة فى الحفاظ على سعر سلة أوبك فوق الحد الأدنى لمعدلها المستهدف خلال معظم فترات عام ٢٠٠١م. ولقد أدت أحداث سبتمبر فى الولايات المتحدة الأمريكية والركود الاقتصادى الذى أعقبها إلى تغيير منظمة الأوبك لسياستها الخاصة بالأسعار. وأعلن وزير البترول السعودى فى يناير الماضى، أنه تم تعليق أو الإيقاف المؤقت لتنفيذ سياسة طوق الأسعار لأن ثبات الأسعار فى السوق يعد أكثر أهمية من تحقيق الأوبك لسعرها المستهدف. ومنذ منتصف عام ٢٠٠٢ ظل سعر سلة أوبك حول معدل طوق الأسعار.

وتلخيصًا لما سبق فإن سياسة السعودية فى الحفاظ على أسعار البترول حول مستوى معتدل توافقت مع مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية. فثبات الأسعار عند معدل معتدل يحقق دخلاً ثابتًا للسعودية، ويضمن استمرارية نموها الاقتصادى والسياسى. وكذلك فهى تخدم الاقتصاد الأمريكى، إذ تشبه عملية خفض الضرائب التى تزيد من دخل الفرد، وتخفض من نسبة التضخم، وتزيد من النمو الاقتصادى.

روسيا..
قوة بترولية صاعدة!

تعد روسيا من الدول الرئيسة التى تلعب دورًا كبيرًا فى سوق البترول العالمية، حيث تعتبر ثانى دولة فى العالم إنتاجًا وتصديرًا للبترول بعد السعودية. وتشكل صناعة البترول نسبة كبيرة من مصادر الدخل القومى فيها، ورغم أن الاتحاد السوفيتى السابق كان فى يوم ما أكبر منتج للبترول فى العالم، إلا أن إنتاج البترول فى روسيا فى بداية التسعينيات من القرن الماضى وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى شهد اضطرابًا كبيرًا، حيث هبط إنتاج البترول من ١١,٥ مليون برميل فى عام١٩٨٧ إلى ٦,١ مليون برميل فى عام ١٩٩٦. ويرجع ذلك إلى الركود الاقتصادى الذى أصاب روسيا خلال معظم سنوات التسعينيات من القرن الماضى، وكان لهذا التدهور الكبير فى إنتاج البترول أثره السلبى على عمليات التنقيب عن البترول والاستثمار فى مجاله.

بيد أن الاقتصاد الروسى خاصة فى مجال صناعة البترول شهد تقدمًا ملحوظًا منذ عام ٢٠٠٠، حيث وضع الرئيس الروسى فلاديمير بوتين الإصلاح الاقتصادى فى صدر اهتماماته، وأعطى صناعة الطاقة على وجه الخصوص اهتمامًا كبيرًا. وبلغ الاقتصاد الروسى مع بداية الألفية الجديدة أعلى معدل نمو له منذ تفكك الاتحاد السوفيتى.



إن السعودية قادرة على ضخ معظم احتياجات السوق العالمية الإضافية من البترول. وهذا يعطيها بعدًا استراتيجيًا لا تتمتع به كثير من الدول الأخرى المنتجة للبترول. إذ إنها بمقدورها تعويض أى نقص فجائى فى كميات البترول المنتج عالميًا

ففى الوقت الذى التزمت فيه السعودية بحصتها فى إنتاج البترول كعضو فى منظمة الأوبك، توسعت روسيا فى إنتاج البترول، ومن ثم فقد تخطى معدل إنتاجها ما تنتجه السعودية من البترول فى أوائل العام ٢٠٠٢م. وهكذا فقد بلغ إنتاج البترول فى روسيا أقصى طاقاته الإنتاجية، بينما تحكمت السعودية فى إنتاجها البترولى تجنبًا لإغراق أسواق البترول العالمية.

وقد كان لارتفاع معدل إنتاج روسيا من البترول آثاره على المستويين المحلى والعالمى:

فعلى المستوى المحلى فإن أسعار البترول تؤثر كثيرًا على الاقتصاد الوطنى حيث تمثل صادرات البترول مصدرًا رئيسًا فى الدخل القومى الروسى، ويمثل الدخل الناتج عنها ٢٥٪ تقريبًا من الدخل القومى. وكل انخفاض فى سعر البرميل بمقدار دولار أمريكى واحد ينتج عنه عجز فى الموازنة العامة للدولة يقدر بحوالى بليون دولار، ويقلل من معدل النمو بمقدار ٠,٠٥٪. لذا فليس بمستغرب أن يتأثر الاقتصاد الروسى تأثرًا كبيرًا مع أى اضطرابات فى أسعار النفط فى العالم.

أما على المستوى العالمى، فقد ازداد الدور الروسى بدرجة كبيرة فى تحديد أسعار النفط العالمية. فروسيا ليست عضوًا فى منظمة الأوبك، لكنها شاركت فى الكثير من اجتماعات المنظمة منذ عام ١٩٩٧، وقام الجانبان بجهد مشترك لمنع انهيار أسعار البترول العالمية، إلا أن هذا التعاون أصابه بعض الخلل فى أعقاب الهجمات الإرهابية فى الحادى عشر من سبتمبر الذى نتج عنه تراجع كبير فى الاقتصاد العالمى وفى الطلب على البترول.

وبالرغم من التعهدات الرسمية بتخفيض الإنتاج، إلا أن مدى التزام الشركات الروسية بإجراء تخفيض فعلى ظل موضعًا للشك. حيث أكدت البيانات الصادرة عن وزارة الطاقة الأمريكية US Department of Energy أن صادرات روسيا البترولية شهدت ازديادًا كبيرًا خلال النصف الأول من عام ٢٠٠٢. علاوة على ذلك، فقد أنهت موسكو اتفاقها مع منظمة الأوبك بشأن تخفيض إنتاجها من البترول، وذلك فى منتصف عام ٢٠٠٢م.

ومن هذا الدور المتنامى لروسيا فى تحديد أسعار البترول العالمية يمكننا الخروج بأربعة استنتاجات أساسية:

١ - إن استخراج البترول فى بعض الدول الأعضاء بمنظمة الأوبك يتم بتكلفة منخفضة مما يعطيها مزايا نسبية عن غيرها من الدول الأخرى المنتجة للبترول. فالسعودية على سبيل المثال يمكن أن تتحمل انخفاض أسعار البترول عن غيرها من الدول التى يتم فيها استخراج البترول بتكلفة عالية مثل روسيا.

لذا فالسعودية وبعض دول الشرق الأوسط المنتجة للبترول يمكنها تحقيق مكاسب مادية عندما يبلغ سعر برميل النفط عشرة دولارات أمريكية، بينما لا تستطيع روسيا وشركاتها تحقيق أرباح عندما يكون سعر البرميل اثنى عشر دولارًا.

٢ - تعتمد السعودية وبعض الدول الأعضاء فى منظمة أوبك فى دخلها على البترول بدرجة أكثر من روسيا التى تعتمد فى دخلها على مصادر أخرى غير البترول لأن خسائرها تزداد كلما انخفض سعر البترول.

٣ - لقد ازدادت خصخصة صناعة البترول فى روسيا فى أوائل عام ٢٠٠٠ مقارنة بدول الشرق الأوسط التى تمتلك حكوماتها صناعة البترول بها. نتيجة لذلك فإن القرارات المتعلقة بتخفيض أو زيادة الإنتاج يتم اتخاذها من قبل السلطات الحكومية فى هذه الدول. بينما يختلف الوضع فى روسيا حيث يتم مناقشة تلك القرارات بين شركات البترول الروسية والحكومة.

٤ - إن روسيا باعتبارها على قمة قائمة الدول المنتجة والمصدِّرة للبترول فى العالم يجب عليها المشاركة فى المناقشات والاستراتيجيات الرامية إلى التقليل من ارتفاع أسعار البترول فى السوق العالمية.

شراكة بترولية
أمريكية - روسية:

لقد تزامن استئناف روسيا لدورها الرائد كدولة رئيسية فى مجال إنتاج الطاقة بعد الركود النسبى خلال معظم سنوات حقبة التسعينيات من القرن الماضى مع التغيرات السياسية والاستراتيجية التى أعقبت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١. فقد عمقت تلك الأحداث من إحساس الأمريكيين باحتمال تأثرهم سلبًا بمقدار وارداتهم البترولية خاصة من السعودية، فى هذه الأجواء ولدت الشراكة بين الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، وتزداد تلك الشراكة قوة مع مرور الوقت. إن هذا التعاون الناشئ بين أكبر دول العالم استهلاكًا للبترول (الولايات المتحدة) وثانى دول العالم إنتاجًا للبترول (روسيا) يرتكز على شيئين أساسيين: أن الولايات المتحدة ستقوم بدعم صناعة البترول الروسية ماديًا، وفى المقابل ستقدم موسكو نفسها كبديل للشرق الأوسط المتقلب ويضمن ثبات إمداد الولايات المتحدة باحتياجاتها البترولية.

وبرغم ذلك الحماس المتزايد لإقامة شراكة أمريكية روسية فى مجال الطاقة، فإن الآمال المعقودة على هذه الكميات الهائلة من البترول الروسى التى غمرت السوق الأمريكية ليست آمالاً واقعية. فهذه الشحنات يجب النظر إليها على أنها مجرد إشارة لحسن النوايا، وهى فى الواقع رمزية أكثر منها إنجازًا فى مجال توفير الأمن المتعلق بالطاقة للولايات المتحدة الأمريكية، فصناعة البترول الروسية لايزال أمامها الكثير كى تتغلب على كل الصعوبات الاقتصادية والسياسية واللوجستية.

بالرغم من التغيرات والتوسعات الكبيرة التى حدثت فإن إنتاج وتصدير البترول الروسى لازال مكبلاً ببعض المعوقات

كتاب الزاوية

مرثية حلم

دَعْنى وجرْحى
فقدْ خابتْ أمانينَا
هَل منْ زمانٍ
يُعيدُ النبضَ يُحيينَا
يا سَاقِيَ الحُزنِ
لا تعْجَبْ ففى وطَنى
نهرٌ من الحُزنِ
يجْرِى فِى رَوابينَا
كمْ منْ زمانٍ كئيبِ الوجْهِ
فرَّقنَا
واليومَ عُدْنَا
ونفسُ الجرْحِ يدْمِينَا
جُرحى عميقٌ
خُدعْنَا فِى المدَاوينا
لاَ الجرحُ يشْفَى
ولا الشكْوى تعَزّينا
كان الدّواءُ سُمومًا
فى ضمائرنا
فكيفَ جئنَا بدَاءٍ
كىْ يدَاوينَا

حرب النفط



الاقتصادية والسياسية والجغرافية. ومن أهم هذه المعوقات التردد فى عملية الإصلاح، ونقص الاستثمار الأجنبى، ونقص البنية التحتية لوسائل النقل، والنقص النسبى فى احتياطيات البترول الروسى مقارنة بدول الشرق الأوسط. إن هذه المعوقات تقلل من أهمية الفرض القائل بأن روسيا يمكن أن تكون بديلاً محتملاً للسعودية كمصدر أساسى للبترول إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد بدأت روسيا إعادة هيكلة قطاعها البترولى فى عام ١٩٩٣م عن طريق الشروع فى عملية خصخصة تمت على مرحلتين. ففى المرحلة الأولى (ما بين عامى ١٩٩٣ - ١٩٩٥) بدأ تكوين شركات متحدة ذات رؤوس أموال مشتركة فى سوق يزداد التنافس فيها يومًا بعد يوم. أما المرحلة الثانية التى بدأت عام ١٩٩٥م فقد تضمنت بيع أنصبة الحكومة الكبيرة فى هذه الشركات فى المزاد العلنى. وهكذا ومع بداية الألفية الجديدة فقدت الحكومة الفيدرالية السيطرة على قطاع البترول الذى أصبح معظمه فى يد القطاع الخاص، إلا أن المحللين يؤكدون أنه منذ تولى الرئيس بوتين مقاليد الحكم فى روسيا فى يناير عام ٢٠٠٠ هناك توجه متنامٍ إلى إعادة صناعة البترول الروسية إلى ملكية الدولة.

وسيحدد مستوى إنتاج البترول الروسى فى المستقبل مدى قدرة شركات البترول الروسية على تنمية احتياطى البترول فى القطب الشمالى وغرب سيبيريا وجزيرة سخالين. إن زيادة الإنتاج الروسى من البترول يحتاج إلى كميات كبيرة من رؤوس الأموال التى تتطلبها عملية تطوير آبار البترول الحالية وإطالة عمرها الافتراضى وحفر آبار جديدة. ورغم الجهود المبذولة لإصلاح قطاع البترول الروسى فإن الاستثمار الأجنبى فى مجال صناعة البترول هناك لايزال محدودًا.

لقد قررت بعض شركات البترول الأجنبية بعد رحلة الإصلاح الأولية انتظار حدوث تحسن فى مناخ العمل وفى مجال القوانين والتشريعات قبل أن تودع أى أموال جديدة فى مجال البترول الروسى. وأدى عدم الاستقرار فى مجال الضرائب والتشريعات إلى ابتعاد كثير من المستثمرين.

وقد كان من الممكن أن تكون صادرات روسيا من البترول أعلى مما هى عليه الآن لو لا تردى أحوال البنية الأساسية لوسائل النقل. فقد تم بناء خطوط أنابيب البترول أثناء عصر الاتحاد السوفيتى حينما كانت الأسواق المستهدفة موجودة فى أوروبا الشرقية وتحتاج هذه الخطوط الآن إلى إصلاحات كبيرة.

إن تكلفة شحن البترول إلى الولايات المتحدة تعتبر عالية نظرًا لبُعد المسافة بين الدولتين، وعدم ملاءمة البنية التحتية الروسية خاصة المتمثلة فى عدم وجود موانئ بحرية عميقة تصلح لرسو ناقلات البترول العملاقة. وللتغلب على هذه العقبة ولكى يصبح شحن البترول إلى الولايات المتحدة ذا جدوى اقتصادية اقترحت شركة «لوكويل» وهى أكبر شركات البترول فى روسيا خطة لبناء ميناء خاص بمنتجات البترول فى مدينة مورمانيسك Murmansk، هذا الميناء سيؤدى إلى انخفاض تكلفة النقل بحيث يمكن تصدير البترول إلى الولايات المتحدة دون خسائر.

وأخيرًا فإنه من أهم المعوقات أمام قيام روسيا بدور كبير فى سوق النفط العالمية، وإمكانية أن تصبح دولة أساسية فى مجال تصدير البترول إلى الولايات المتحدة هو محدودية احتياطيها من البترول مقارنة بدول الشرق الأوسط خاصة السعودية. فرغم أن روسيا تعد ضمن أوائل الدول المنتجة والمصدرة للبترول إلا أنها تحتل مرتبة متدنية من حيث نسبة احتياطى البترول لديها. إذ تحتل المرتبة السابعة بين الدول من حيث نسبة الاحتياطى، إذ يبلغ احتياطيها ٦,٤٪، بينما تبلغ نسبة احتياطى السعودية ٢٤,٩٪، العراق ١٠٪، الإمارات ٩,٣٪، الكويت ٩,٢٪، إيران ٨,٥٪، وفنزويلا ٧,٤٪.

ترتيبًا على كل ما سبق يمكن استخلاص ما يلى:

١ - أنه بالرغم من ارتفاع نسبة إنتاج البترول فى روسيا إلا أن احتياجات العالم المتزايدة من البترول سيتم توفيرها من قبل الدول التى تمتلك أعلى نسب الاحتياطى النفطى. إن أقصى طاقة لإنتاج البترول فى دول الخليج يتم التخطيط لزيادتها من ٣١٪ من إنتاج البترول العالمى عام ٢٠٠٢ إلى ٣٦٪ فى عام ٢٠٢٠. لذا فإن السعودية سوف تستمر فى تحمل مسئولية مهمة فى مواجهة الاحتياجات العالمية المتزايدة من البترول، وفى إدارة إمدادات وأسعار البترول العالمى. أما روسيا فإنها ببساطة لا تمتلك احتياطات البترول ولا الطاقة الإنتاجية التى تمكنها من أن تحل محل السعودية.

٢ - إن الأمن البترولى كان يتم تعريفه لفترة طويلة بأنه تقليل الاعتماد على البترول المستورد، وكان يُنظر إلى العلاقات بين المنتجين والمستهلكين للبترول بأنها تحقيق لمصالح أحد الجانبين على حساب الجانب الآخر مع وجود هامش محدود من الفائدة المتبادلة بينهما. إلا أنه فى أسواق العالم فى الوقت الحالى فإن هناك اتجاهًا متزايدًا لتعريفه بأنه مسألة مشتركة بين المنتجين والمستهلكين. ففى بداية عام ٢٠٠٠ أصبحت سوق البترول العالمية أكثر تكاملاً، ويوجد فيها العديد من المنتجين والمستهلكين والعديد من الشركات الوطنية والعالمية. ومن السمات الأساسية لهذه السوق العالمية الجديدة الاعتماد المتبادل بين أعضائها على بعضهم البعض. فنمو إنتاج روسيا من البترول لا يكون بالضرورة على حساب السعودية أو غيرها من الدول المنتجة للبترول، فإن الإنتاج الروسى من البترول سيساهم كثيرًا فى تحقيق مفهوم الأمن البترولى وفى إحداث الثبات اللازم فى أسعار البترول. ■

بترتيب خاص مع:
The Middle East Economic Survey
(MEES)

ترجمة: د. صلاح الدين محمد بدر


وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
شركة مصر للطيران للخطوط الجوية
مصر للطيران
EGYPTAIR
تنشيطاً لحركة السياحة و السفر
بين مصر واليابان
تعلن مصر للطيران
عن رحلة جديدة ثالثة بدون توقف
القاهرة / طوكيو
كل يوم أحد
اعتباراً من ٢٢ ديسمبر
بالإضافة إلى رحلاتنا حالياً
القاهرة / بانكوك / مانيلا / طوكيو
الثلاثاء و الجمعة
القاهرة / أوزاكا
الجمعة و الأحد
www.egyptair.com.eg



الطـــريق إلـى الســـلطة

أنـــدرو ناثان وبروس جـيلى

خلافًا للصراع العنيف على خلافة قمة الزعامة الذى ظل قاعدة سارية فى الصين منذ استيلاء الشيوعيين على الحكم فى ١٩٤٩، فـإن هـذا هـو أول انتقـال للسـلطة يتـم بصـورة منظمـة

اعتبارًا من ١٥ نوفمبر الماضى أفسح الرجـال الذين حكموا الصين منذ أحداث «تيانانمن» فى ١٩٨٩، بقيادة «جيانج زمين»، الطريق أمام مجموعة جديدة من الحكام، يطلق عليهم الصينيون الجيل الرابع. (كان الأول جيل ماو؛ والثانى جيل دينج زياو بنج؛ والثالث جيل جيانج). وأصبح هؤلاء هم أعضاء اللجنة الدائمة للمكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى ـ الزعماء الذين يتمتعون بأعلى سلطة فى الصين. ولن تصبح التعيينات بالمناصب العسكرية والحكومية نهائية حتى مارس ٢٠٠٣، عندما يجتمع مؤتمر الشعب القومى لإعلانها رسميا، ومن المستبعد تغييرها إلا فى حال حدوث أزمة عسكرية أو اجتماعية. وينهى انتقال السلطة هذا معركة هادئة، لم تخلُ من صراع حاد، حول الخلافة، ويشير إلى أن الحزب الشيوعى الصينى قادر على تجديد نفسه من القمة، على أن الجيل التالى قد يسير بالصين فى اتجاهات جديدة مفاجئة.

وبعد انتخابهم رسميا خلال اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى الحاكم، عقب المؤتمر السادس عشر للحزب، وقف أعضاء اللجنة الدائمة للمكتب السياسى، طبقا للتقاليد، لمدة قصيرة أمام مصورى الصحافة المحلية والعالمية. وحسب ترتيبهم باللجنة الدائمة توجهوا إلى غرفة مفروشة بالبُسط بقاعة الشعب الكبرى ببكين، مبتسمين للكاميرات ثم انصرفوا بسرعة. وبهذه الطريقة، ستظهر نتائج الصراع الطويل على السلطة فى أكثر بلاد العالم تعدادا، لتختفى على الفور. وإذا ما سارت الأمور كما يريدون، فإن هذه المجموعة من الرجال ستظل على غموضها الحالى بقية المدة التى سيقضيها أفرادها فى مناصبهم.

أول من وقف أمام الكاميرات هو «هو جينتاو» (٥٩ عامًا)، ذو الشعر اللامع والابتسامة المميزة، الذى اختير سكرتيرًا عامًا، وهو أعلى منصب فى الحزب. فمنذ زمن طويل، وبعد اختياره لعضوية اللجنة الدائمة عام ١٩٩٢ كأصغر الأعضاء سنا، و«هو»، الذى كان يعمل مهندسًا للطاقة الكهرومائية، يعد أحد قيادات الحزب البارزة. وفى مارس ٢٠٠٣، عندما يجتمع البرلمان القومى، سيوكل إليه منصب رئاسة الدولة المركزية. وهكذا سيخلف جيانج زمين، الذى تنحى عن رئاسة الدولة وأمانة الحزب الشيوعى محتفظًا برئاسة اللجنة العسكرية. وفى الصين يبسط كبار قادة المؤسسات الحزبية كذلك سلطتهم على الوزارات والقوات المسلحة.

وكان التالى لـ«هو» وون باتج جو ـ ٦١ عامًا ـ الذى أصبح المسئول الثانى فى الحزب ويفترض أن يصبح رئيسًا للبرلمان ثم وون جياباو الذى يفترض أن يخلف رئيس الوزراء الحالى «زو رونج جى» ـ رئيس مجلس الدولة المسئول عن كل الهيئة فى الصين.

إن سبعة من بين أعضاء اللجنة الدائمة للمكتب السياسى للحزب الشيوعى والتى تم توسيعها إلى ٩ أعضاء من المقربين لجيانج زمين الذى سيظل متمتعًا بنفوذ قوى، من خلف الستار، على صياغة القرار عقب إعادة انتخابه رئيسًا للجنة العسكرية فى الحزب مما يجعله القائد الأعلى للجيش الصينى.

وسيدير هؤلاء القادة الجدد الصين على مدى السنوات الخمس المقبلة، والحقيقة أنهم من صغر السن بحيث يمكنهم الاستمرار فى العمل لفترتين. وقد ثار جدل قبل المؤتمر عما إذا كان جيانج زمين سيتخلى عن مناصبه الثلاثة رئاسة الحزب والدولة والجيش.. وقد نجح بالفعل فى الاحتفاظ برئاسة اللجنة العسكرية، كما نجح فى اعتماد نظريته المهمة التى تسمح بدخول الرأسماليين فى صفوف الحزب وهو تغيير نوعى كبير فى الأطر الفلسفية والفكرية للحزب الشيوعى الصينى.

وتثور تساؤلات عديدة عن مسيرة الصين الجديدة فى ظل حكم الجيل الرابع ومدى تدخل القادة القدامى فى هذه المسيرة.

وفى اعتقادنا فإن أكثر الإجابات عن هذه الأسئلة إقناعا نجدها فى كتاب جديد رائع كُتب باللغة الصينية، يعتمد على تقارير سرية قامت بتجميعها إدارة التنظيم السرية الموثوق بها للحزب الشيوعى الصينى بهدف معاونة اللجنة الدائمة فى اختيار المرشحين للمناصب العليا. وقد صدر الكتاب المعنون باسم الجيل الرابع فى نوفمبر من دار ميرور بوكس، وهى دار مقرها الولايات المتحدة وتتولى نشر الكتب باللغة الصينية. ومؤلفه واسع الاطلاع على أمور الحزب ويستخدم اسما مستعارا هو زونج هايرن، وسبق له الكتابة عن سياسات حكام الصين. وقد أمد زملاء فى مناصب كبيرة ببكين زونج بمسودات من تقارير إدارة التنظيم، لمساعدته فى إصدار كتاب يعتمد على موادها. وبدوره، صرح هايرن لنا بنشر المعلومات التى تلقاها بالإنجليزية.

لقد قرأنا مخطوطة الكتاب بعناية وناقشناها مع المؤلف بإسهاب وكذلك جذوره ودوافعه. وإننا لعلى قناعة بأن الكتاب جدير بالتصديق ومهم. وقد أمدنا زونج، الذى انتهى من إنجاز كتابه فى فبراير ٢٠٠٢، بمعلومات إضافية بحيث إن روايتنا تتواصل حتى آخر فبراير، عندما دفعنا بها للنشر.

بالنسبة لكثيرين، وخاصة فى الدوائر الرسمية الأمريكية، ستكون الصورة التى يقدمها زونج هايرن للزعماء الجدد مطمئنة، حيث إنها تظهرهم كدعاة تحديث جادين، تحدوهم الرغبة فى إدماج اقتصاد الصين فى الاقتصاد العالمى والحفاظ على علاقات طيبة بالولايات المتحدة. ومعظمهم مديرون أكفاء، على قدر كبير من الخبرة بمركب بيروقراطية الحزب ـ الدولة فى الصين، وتكنوقراطيون نفعيون قادرون على حفظ النظام ودفع التنمية فى أكثر بلاد العالم تعدادا. والبعض منهم لديه الرغبة فى السماح بقدر من التنافس السياسى مع الحزب الشيوعى ومنح الصحافة والتليفزيون المزيد من حرية انتقاد أداء الموظفين فى المستويات الدنيا والوسطى.

لكن بالنسبة لغيرهم من المراقبين الخارجيين، فإن الصورة التى يقدمها زونج قد تكون مخيفة. فهو يكتب عن مجموعة من الرجال الذين يؤمنون بالحكم التسلطى كشرط مسبق لتحديث الاقتصاد الصينى. إنهم يؤمنون بقمع المعارضة العلنية للحكم الشيوعى وبالحد من الجريمة بالتوسع فى استخدام عقوبة الإعدام. ويعتقدون بأن حكومتهم تتعامل بكرم زائد مع سكان تايوان والتبت وزنجيانج، ولا يبدون أى قدر من التعاطف مع شكاوى أو تطلعات شعوب هذه المناطق. وعلى الرغم من إيمانهم بالكثير من القيم الاقتصادية الغربية، فهم لا يؤمنون بكثير من القيم الأخلاقية للغرب. إنهم يتوقعون منافسة استراتيجية مع الغرب ويرغبون فى إبقاء سيطرتهم على التبت، وتأكيد سيطرتهم على تايوان، واستغلال علاقاتهم بروسيا وأوروبا فى اختبار القوة أمام الولايات المتحدة. وإن كانوا على قناعة بأن المصالح الاقتصادية للولايات المتحدة وغيرها من البلاد الأوروبية تملى عليها الاحتفاظ بعلاقات طيبة بالصين.

وخلافًا للصراع العنيف على خلافة قمة

1- China's New Rulers: The Secret files

حكام الصين الجدد.. الملفات السرية

Andrew J. Nathan and Bruce Gillez
New York Review Books, 2002.

2 - China's New Rulers: The Path to power

حكام الصين الجدد.. الطريق إلى السلطة

Andrew J. Nathan and Bnce Gillez
New York Review Books, 2002.

الزعامة الذي ظل قاعدة سارية في الصين منذ استيلاء الشيوعيين على الحكم في ١٩٤٩، فإن هذا هو أول انتقال للسلطة يتم بصورة منظمة. وبالرغم من التخمينات الكثيرة التي سرت في العالم - وبين ملايين المواطنين الصينيين المعنيين ممن لا تتوفر لهم معلومات صحيحة - خلال الشهور القليلة الماضية، فإن المفاجأة الحقيقية في كتاب زونج هي أن خمسة من زعماء القمة الستة تم اختيارهم بطريقة سرية خلال السنتين الماضيتين.

وكما في الماضي، كان الولاء الشخصي والتنافس بين العُصب السياسية حاسما في اختيار هؤلاء الرجال. لكن الصراع أُخرس بفضل الإجماع في مستويات القمة على أن التنظيم الحزبي لا يمكن أن يعيش صراعا شرسا آخر كتلك الصراعات الأيديولوجية التي شهدها الحزب على عهد ماو، أو عمليات التطهير المفاجئة التي ميزت زعامة دنج.

في أرجاء الصين بحثهم عن أشخاص في حوالي الأربعين من عمرهم، من أصحاب التعليم الجامعي والخلفية التقنية، ومن أعضاء الحزب، ويتمتعون بسجل إداري مشرف. فقد كان دنج يسعى إلى ترسيخ مبدأ الكفاءة الشخصية كأساس للاختيار في نظام حزبي يعطي الأولوية للولاء السياسي. ففي إقليم جانسو القاحل في شمال غربي البلاد، على سبيل المثال، عثر سكرتير الحزب الإقليمي سونج بينج على الشاب هو جينتاو الذي كان يعمل ضمن أفراد هيئة التشييد الإقليمية. ونظرا لتأثره بذكائه وقدراته، قام بترقيته عدة درجات ليصبح نائب رئيس الهيئة. ومثل هذه الترقيات السريعة كانت ولا تزال نادرة بين كوادر البيروقراطية الصينية، المولعين بالأقدمية. وكان نفس النوع من الترقي السريع وراء دفع الحياة العملية للي رويهوان، الذي انتقل من وظيفة من المستوى المتوسط بسكرتارية رابطة الشباب ببكين إلى منصب

المناصب التي صار هو وريثا لها الآن يثير المزيد من الجدل ويشير إلى مدى هشاشة معايير ومؤسسات الحزب. وقد كُتب الكثير في صحافة الغرب عن رغبة جيانج في البقاء في السلطة، لكن ما لم يفهمه هؤلاء الكتاب هو مدى محدودية الخيارات المتاحة أمامه. فجيانج، الذي يبلغ الآن السادسة والسبعين من عمره، قضى فترتين ونصف الفترة كسكرتير عام. وفي ١٩٩٧، وكجزء من محاولة ناجحة للتخلص من زميل أقدم هو قياو شي الذي كان يهدد نفوذه، اتفق جيانج مع موظف محترم معتزل على أن يقدم الأخير اقتراحا يقضي بألا يعاد تعيين القادة المركزيين بعد سن السبعين - باستثناء جيانج نفسه الذي كان وقتها في الحادية والسبعين من عمره، مع وعد منه آنذاك بأن يظل الاستثناء الوحيد. وقد أرسى هذا قاعدة غير رسمية بألا يعود قادة اللجنة الدائمة إلى مناصبهم بعد سن السبعين.

.. الجيل الرابع يحكم الصين

لقد اتخذت قرارات اختيار أعضاء اللجنة الدائمة والمكتب السياسي (وغيرها من التعيينات، مثل أعضاء سكرتارية الحزب الشيوعي الصيني) بالاتفاق بين عدد محدود من قيادات القمة، ضم جيانج ولي بنج رئيس البرلمان، وأيضًا رجل جيانج، السياسي التكتيكي زنج قنجهونج. ومن جانبهم، وضعوا نصب أعينهم ما يطلق عليه الحزب «الرأي العام»، وهو تعبير يشير إلى آراء مائتين أو ثلاثمائة من كبار موظفي الحزب في أرجاء البلاد.

ومع ذلك، تزايدت حدة الصراعات الشخصية خلال العامين المنصرمين. فقد قاتل جيانج حتى النهاية للتأثير بشكل حاسم على اختيار زعامة ما بعد الانتقال، وحاول إجبار منافسه الرئيسي، لي رويهوان، على التقاعد، وهو ما تم بالفعل. وستتزايد الخلافات مع بدء مفاوضات القيادة الجديدة لاختيار الصف الثاني وشغل المناصب البرلمانية والمقرر حسمها في مارس القادم. وربما كانت هذه أول مرة تدار فيها معركة الخلافة وفق قواعد متفق عليها. لكنها تظل معركة، ومعركة لم تنته بعد.

إن كل الزعماء الجدد من المستفيدين من نظام الفرز على أساس الكفاءة الشخصية الذي بدأ تنفيذه منذ عشرين عاما على يد دنج زياوبنج، صاحب الإصلاحات الاقتصادية التاريخية في الصين. فقد تبنى دنج برنامج «التحولات الأربعة»، الذي كان يهدف إلى إيجاد قادة شيوعيين «ثوريين، وشباب، وأكثر معرفة وتخصصًا»، على حد قوله. وفي أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، كان من شأن هذا البرنامج تدعيم المسيرة الوظيفية لكل الرجال والنساء الذين اختيروا لعضوية المكتب السياسي الجديد.

واستجابة لحملة دنج، كثف كبار الموظفين

نائب عمدة في تيانجين. ويمكن سرد قصص شبيهة عن ون جياباو، ووو بنججو، ولو جان، وزنج قنجهونج، وغيرهم من أفراد قائمة المكتب السياسي الجديدة.

على أن تحديد نمط الترقي لا يفسر النجاح الشخصي في بلوغ أعلى المناصب. فلم تكن القدرات الشخصية والطموح الشخصي وحدهما كافيين في كل الحالات، بل لعب أيضا التوفيق في إيجاد الراعي الصحيح دورا حاسما. فبعد أن عمل هو جينتاو، على سبيل المثال، لفترة قصيرة برابطة الشبيبة الشيوعية ببكين، انتقل للعمل سكرتيرا للحزب في اثنين من أقاليم الصين المناوئة، جيزهو ثم التبت. ولم يحقق إنجازات كبيرة في أي من الإقليمين - باستثناء إعلان الأحكام العرفية في لهاسا في مارس ١٩٨٩، وهي المرة الأولى التي تشهد فيها جمهورية الصين الشعبية إجراء كهذا. وهو ما شكل سابقة لإعلان الأحكام العرفية في بكين بعد ذلك بشهرين اثنين.

على أن دنج رغب، في ١٩٩٢، في أن يرقي شخصا واحدا تحت سن الخمسين إلى أعلى هيئة كوسيلة لإظهار أن عملية الخلافة في الصين أصبح لها أسسها، وأن من الممكن التنبؤ بها، بالقدر الذي يسمح بدخول شاب أمامه مدة خدمة طويلة إلى المكتب السياسي. فاختار «هو»، ذا التسعة وأربعين عاما. وحتى الآن لم يعرف لماذا اختير «هو» من بين العديد من المرشحين، من بينهم المرشح الحالي لرئاسة الوزارة ون جياباو، ويرجع زونج هاينر ترقية «هو» إلى نفوذ مستشاره القادم من جانسو، سونج بينج، الذي كان في ١٩٩٢ عضوا باللجنة الدائمة للمكتب السياسي، وكان له صوت مؤثر في اختيار المجموعة الجديدة من القادة بوصفه رئيسا لإدارة التنظيم.

وإذا كان صعود «هو» للسلطة يبدو تقدما هادئا حثيثا صوب القمة، فإن اعتزال جيانج

ومما سيحد من نفوذ «هو» احتفاظ جيانج زمين بقيادة الجيش على غرار ما حدث مع الزعيم الراحل دنج، الأمر الذي سيمكنه من ممارسة حق الاعتراض على قرارات الجيل الرابع في أكثر المسائل حساسية، مثل الإصلاح السياسي الداخلي والموقف تجاه تايوان.

واعتبارًا من منتصف ٢٠٠٢، شرعت قطاعات من الصحافة التي يسيطر عليها الحزب وتلك التي يسيطر عليها الجيش بترويج القصص التي تحتفي بالقدرات «الفريدة» لزعامة جيانج وتدعو إلى الالتفات إلى الأهمية التاريخية لنظرياته حول دور الحزب. وقد قيل الكثير حول تقديمه لأسس اجتماعية جديدة لدور الحزب في إطار نظريته الخاصة بـ«الأمثولات الثلاث» - قوى الإنتاج المتقدمة، والثقافة المتقدمة، والكتل العريضة من الشعب، التي يجب أن تحظى كل منها، كما يرى، باهتمام رئيسي عند رسم السياسة القومية. وهي مقولة جديدة من حيث إنها تخاطب بوضوح الطبقة الوسطى المتعلمة ذات النزوع الاقتصادي الفردي.

إن الحكام الجدد لا يخططون لمجرد استمرار الوضع القائم. فهناك تجمع مهم، يرغب في انتخابات شبه تنافسية لتولي المناصب الحكومية حتى المستوى الإقليمي والمزيد من الحريات المحدودة للصحافة والتليفزيون والإذاعة في الصين.

وقد تحدث أولئك المسئولون عن مستقبل الاقتصاد الصيني وعن خططهم لمواجهة الاضطراب الذي حدث نتيجة تحويل السوق خلال العقدين الماضيين، مع توجيه المزيد من العناية لتحقيق النمو عبر زيادة الطلب المحلي على حساب النمو الناتج عن تنمية الصادرات؛ ويقولون أنهم يريدون تقليل التفاوت بين الدخول وضمان المزيد من الحماية للبيئة.

ولم يشر أي من الزعماء الجدد إلى نيته في المساومة بشأن احتكار الحزب الشيوعي للسلطة. فإذا كان بمقدورهم التحكم في مساحة التغيير، فمن المرجح أن تنتقل الصين إلى مرحلة بعد تسلطية أيديولوجية تركز على التنمية الاقتصادية. شيء أشبه بالنظم التسلطية التي شهدتها كوريا الجنوبية وتايوان، والتي لاتزال قائمة في سنغافورة، لكن إذا ما أدت إصلاحاتهم المحدودة إلى المطالبة بتغيير أكبر فمن الممكن، في رأينا، أن تتحرك الصين بصورة أسرع باتجاه ثورة ديموقراطية كتلك التي شهدناها في المجر وبولندا.

ومثل أسلافهم، يرى زعماء الجيل الرابع أن النمو الاقتصادي السريع هو أهم متطلبات استمرار الاستقرار الاجتماعي والسياسي، لكنهم يحملون أفكارا جديدة لتحقيق هذا. ففي ظل حكم دنج زياوبنج وجيانج زمين كان هناك إجماع على أن تحقيق النمو عبر التصدير، الذي تحفزه الاستثمارات الأجنبية، هو مفتاح التنمية السريعة. لكن ون جياباو، رئيس الوزراء ورئيس مجلس الدولة الجديد، يتبنى، كما يقال، رؤية مختلفة للنمو تقوم على زيادة الطلب المحلي:

«يجب أن ينبع الاتجاه الاستراتيجي لنمو الاقتصاد الصيني على المدى البعيد من توسيع الطلب المحلي ... ورفع مستوى معيشة الشعب يجب أن يكون نقطة الانطلاق للعديد من المشروعات. إن ما نحتاجه، بوضوح، هو إجراءات فعالة لرفع دخول السكان، وخاصة دخول أسر الفلاحين ومحدودي ومتوسطي الدخل في المدن الصغيرة، والعمل على رفع القدرة الشرائية لهؤلاء السكان».

ولو قدر لهذه السياسة أن تطبق لترتب عليها عدة نتائج. فمن الممكن أن تسهم زيادة الدخول ورفع مستويات المعيشة في تعزيز شعبية النظام، وجعل السوق الصينية سوقًا حقيقية بالنسبة للصينيين والمؤسسات الأجنبية على حد سواء، وتعزيز قدرة الصين على الحركة في مجال السياسة الخارجية عن طريق تقليل اعتمادها على التصدير للأسواق الغربية.

وتعاني الصين تفاوتا ضخما في الدخول بين المدن الساحلية المزدهرة نسبيا وبين الأقاليم الزراعية والصناعية الداخلية الفقيرة. ونفس التفاوت قائم بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، حيث يحقق العمال اليدويون والفلاحون دخولا متدنية للغاية مقارنة بأصحاب المشروعات الخاصة والمديرين وموظفي المشروعات الأجنبية. وهذه التفاوتات يستشهد بها منتقدو النظام في الداخل والمحللون الأجانب، على حد سواء، ممن يتوقعون «انهيار الصين». وهو ما لا يخفى على زعماء الجيل الرابع. ففي زيارة للأحياء الفقيرة بإقليم شانزي، بشمال غرب البلاد، علق لي رويهوان قائلا: «الحزب الشيوعي الصيني في الحكم منذ ٥٠ عاما ولا يزال هناك ٣٠ مليونا يعانون الفقر و٥٠ مليونا محرومون من التعليم الأولى. هذا هو فشلنا؛ هذه هي خطيئتنا».

وفي شاندونج عام ٢٠٠١ أضاف: «في هذه المسألة، علينا أن نزيد من اهتمامنا بالمحرومين، أمثال العمال غير

الدائمين والعاطلين، وأصحاب المعاشات والعمال، وسكان الريف الذين مازالوا لا يحصلون على ما يكفي من الكساء والغذاء».

إن تغيير الاستراتيجية الاقتصادية يعني المزيد من الضغط على مشروعات الدولة التي لا تحقق أرباحا، خاصة الصناعات الخفيفة، والثقيلة التي تنتج الصلب والسيارات والناقلات والسفن والفحم. فبعد ما يقرب من العقدين، دفع المسئولون خلالها باتجاه تنمية الشركات المملوكة للدولة وتصفية أصول المنشآت الخاسرة، أصبح إسهام مشروعات الدولة في إجمالي الناتج القومي لا يزيد على الربع. والكثير منها لا يزال متعثرا، وهو ما يفسر عدم استرداد أكثر من نصف القروض التي قدمتها بنوك الدولة، وكذلك تظاهرات العمال وأصحاب المعاشات المتكررة احتجاجا على عدم صرف أجورهم ومعاشاتهم.

ويميل ون جياباو وغيره من واضعي السياسة الاقتصادية مستقبلا إلى الإسراع بتصفية مشروعات الدولة الخاسرة. فسياسة جيانج زمين ورئيس الوزراء المنصرف زو رونجي كانت تقوم على «التمسك بالكبيرة والتخلي عن الصغيرة» - أي بيع الشركات الصغيرة وتقديم استثمارات جديدة للشركات الكبيرة، لإقامة نظام مختلط على غرار كوريا الجنوبية، يبقى على سيطرة الدولة على الاقتصاد. ويعارض ون هذا الشعار، قائلا بأنه لا يجب تناول الأمر وفق «معيار مطلق». وهو يرى أن بعض شركات الدولة الكبيرة التي تحقق خسائر يمكن بيعها أيضا، مادامت لا تدخل ضمن الصناعات الاستراتيجية، مثل الدفاع، والطاقة، والنقل، والاتصالات، التي يرى ضرورة سيطرة الدولة عليها.

وفي المسألة البيئية، يعتبر «ون» صاحب أكثر الآراء تقدمية في الصين. فهو ينتقد خطة تنمية المنطقة الغربية الكبرى، التي بمقتضاها ترصد بكين الأموال لتطوير المنطقة الغربية النائية بهدف استغلال موارد الإقليم وربطه سياسيا ببقية أجزاء الأمة. وهو ينادي بتنمية متمهلة تركز، ضمن إجراءات أخرى، على تقليل تلوث الهواء والمياه، من أجل وقف تردي الأوضاع البيئية. كما يوجه انتقاداته لبرنامج «نقل الماء من الجنوب إلى الشمال» الذي يقترح إنشاء شبكة من القنوات والأنابيب لنقل كميات كبيرة من المياه من الجنوب، حيث يتوفر الماء، إلى الشمال الذي يعاني الجفاف. وفي تفنيده للبرنامج، يتحدث «ون» بتواضع قل أن تراه في زعيم شيوعي: «يجب أن نحفظ الماء قبل نقله، ونتحكم في التلوث قبل أن نفتح الصمام، ونحمي البيئة قبل أن نستهلك الماء. يجب أن نفكر بجدية في الفاعلية الاقتصادية والاجتماعية والبيئية لنقل الماء ... لا ينبغي أن نتعجل البدء في العمل قبل الوصول إلى ضمانات علمية كاملة. إذ يجب أن نجرب حفظ الماء قبل أن نقرر نقله».

كذلك تريد الزعامة الجديدة تخفيف بعض الضوابط الاجتماعية والحفاظ، في ذات الوقت، على الدولة البوليسية. فعضو اللجنة الدائمة المسئول عن المسائل الأمنية، لو جان، ينادي بإصلاح نظام تسجيل الملكية الماوي، الذي لا يزال يربط الفلاحين إداريا بالأرض، من خلال سجل حالة قومي واحد لجميع المواطنين. وإذا ما التزم لو بأفكاره، سيصبح الفلاحون قادرين على الهجرة بحرية إلى أي مكان تتاح فيه فرص العمل، ويستطيع أي مواطن صيني استخراج جواز سفر بسهولة.

والمشكلة الرئيسية للنظام السياسي الصيني الحالي، كما يراها الجيل الرابع، هي الفساد وإساءة استخدام موظفي الحزب للسلطة، وما يترتب على هذا من نفور الجماهير الصينية وسخطها. والوثائق تشير، على سبيل المثال، إلى العديد من الحالات التي اتهم فيها موظفون وعائلاتهم بتبديد أموال تخص مصانع الدولة أو الحصول على رشاوى لتسهيل أعمال القطاع الخاص. وتورد الوثائق قول رويهوان: «من المؤكد أن عضوية الحزب الشيوعي الصيني قد زادت عدديا حتى جاوزت الستين مليونا ... لكن لماذا تراجعت وحدتنا وجاذبيتنا بصورة غير مسبوقة؟ لماذا لا يشعر المرء بالفخر أو بدوره التاريخي النابع من كونه عضوًا أو كادرًا بالحزب؟ إن هذا أكبر خطر يواجهنا اليوم، والفتيل لإشعال غليان اجتماعي محتمل».

كما تورد الوثائق قول هو جنتاو: «إن أكبر خطر يواجهه الحزب منذ توليه السلطة هو افتقاده الاتصال بالجماهير.. إذا أردنا لشيء أن يحدث أسفل علينا أن نفعله أولا فوق. إذا أردنا أن يمتنع الناس عن فعل شيء، فعلى القادة أنفسهم أن يمتنعوا عنه أولا».

وأعضاء الجيل الرابع منقسمون إلى معسكرين بشأن كيفية مواجهة هذه المشكلات. فهناك مجموعة - تضم هو جنتاو، وون جياباو، ولو جان - تؤمن باستخدام آليات الحزب الداخلية لتقويم سلوك «الكوادر»، أي موظفي الحزب والحكومة. ويقول هو أن الحزب يجب أن يحسن تجنيد وتقييم وتدريب وترقية كوادره، وقد أيد التنظيمات الجديدة التي صدرت في يوليو ٢٠٠٢، التي تحدد إطارا صارما للترقي يدخل فيه التحريات وجلسات الاستماع والاختبارات.

وهناك مجموعة أخرى - تضم لي رويهوان، و- يا للعجب - أكبر مساعدي جيانج زمين، زنج قنجهونج - ترى أن الآليات الداخلية وحدها لا يمكن أن تجنب كوادر الحزب الانغماس في الفساد وإساءة استخدام السلطة. وهم يعتقدون بأن كوادر الحزب بحاجة إلى انضباط إضافي من خلال إجراءات تقوم مقام «الرقابة» الشعبية الخارجية، ويطلق عليها أيضا «الديموقراطية». ويشمل هذا انتخابات تنافسية محدودة وإعلامًا حرًا بقدر ما، بما في ذلك الصحافة والتليفزيون والإذاعة. يقول لي رويهوان: «إذا أردنا تغيير الوضع ومنع الفساد ومكافحته بصورة فعالة، علينا تقييد السلطة ومراقبتها». وفي مناسبة أخرى قال: «إن الناس لا يصدقون أننا نطبق على أنفسنا في الحزب الشيوعي الصيني رقابة ناجحة ... لماذا وصل حزب متقدم، حزب يمثل مصالح أكبر عدد من الجماهير، إلى هذا الوضع؟ في أي موضع من الماركسية أو نظرية دنج زياوبنج نقرأ أن الحزب يجب أن يخاف من الشعب، أن يخاف من رقابة المجتمع، أن يخاف من إصلاح نفسه، أن يخاف من سيادة القانون، أن يخاف من أن يعرف الشعب دخولنا ودخول أسرنا؟».

ويتطلع «لي» إلى أن يمتد نظام الانتخابات التنافسية لاختيار قادة الحكومة، القاصر حتى الآن على مستوى القرية، ليشمل الخمسين ألف حكومة بالجهات النائية - وهو ما يجري



تبنى دنج زياوبنج برنامج «التحولات الأربعة»، الذي كان يهدف إلى إيجاد قادة شيوعيين «ثوريين، وشباب، وأكثر معرفة وتخصصاً»، وكل الزعماء الحاليين استفادوا من ذلك

تطبيقه بالفعل بصورة تجريبية في حوالي ١٢ جهة لكن بدون الحصول على موافقة اللجنة الدائمة. وحسبما يقول «لي»، فإن الانتخابات المباشرة يجب أن تمتد، خلال ثلاث لخمس سنوات، إلى مستوى المدن والمقاطعات، لتغطي في النهاية كل الأقاليم. وسيكون الترشيح لهذه الانتخابات متاحا لغير أعضاء الحزب، لكن لن يسمح بقيام أحزاب غير الحزب الشيوعي. وسيكون لدى الموظفين الذين يخوضون انتخابات المنصب الحافز لإرضاء الناخبين.

إن القيام بحركة إصلاح سياسي حقيقي رهن بحسابات زنج قنهونج، الذي كان لسنوات المخطط السياسي الاستراتيجي، الداهية الهادئ، لزيانج زمين. وتقارير التحريات الخاصة بزنج لا تحوي سوى القليل من البيانات حول الإصلاح السياسي، لكنه في أحاديثه الخاصة، حسبما يرد بكتاب زونج هايرن، يحبذ إلغاء الحظر على قيام أحزاب معارضة. كما يميل إلى مد الانتخابات المباشرة إلى مستوى المقاطعات فاعلي، وإتاحة المزيد من استقلالية الصحافة. لكنه، شأن باقي القيادات، يرفض محاكاة النموذج الأمريكي. يقول: «لدى أمريكا الكثير مما نحتاج إلى دراسته، لكننا، نحن الصينيين، لا نحبذ اتباع النظام الأمريكي. وعندما نقوم بإصلاح جريء للنظام السياسي، فإن ذلك يجب أن يتم على أساس من الوحدة القومية، والتماسك العرقي، والاستقرار الاجتماعي».

وليس هناك ما يشير إلى نية أي من أفراد الجيل الرابع في تخفيف الحظر المفروض على التنظيمات المستقلة للعمال والفلاحين والطلاب من ذلك النوع الذي ظهر لفترة قصيرة في ١٩٨٩، والذي شكل - حسب رأي المتشددين في ذلك الحين - تهديدا لسلطة الحزب. ولا تكشف التقارير عن جورباتشوف صيني في صفوف الزعامة الجديدة - رجل يرى أن مشكلات الحزب من الحدة بحيث تتطلب تغييرات يمكن أن تهدد وجود الحزب نفسه. وهذا أمر ربما لا يثير الدهشة. فلو أن أحدا قال بضرورة إنهاء احتكار الحزب للسلطة، لاستبعد من البداية من عملية الترشيح لاختيار اللجنة الدائمة للمكتب السياسي.

على الرغم من أن أفراد الجيل الرابع أفضل تعليما وخبرة فنية من أسلافهم، فإن خبرتهم في المجال الدولي أقل. واحد منهم فقط، هو لو جان، درس خارج الصين، مقابل ثلاثة أعضاء باللجنة الدائمة السابقة. كما قام الزعماء السابقون بزيارات دبلوماسية عديدة، وشاركوا في مؤتمرات للقمة، واستقبلوا سيلاً من الزوار الأجانب. وباستثناء هو جنتاو الذي عمل مع القيادة المنصرفة، فإن أفراد الجيل الرابع لم تتح لهم الفرصة بعد للاتصال بالخارج.

وحتى الآن، لا يرى الزعماء الجدد حاجة كبيرة لتغيير سياسة جيانج زمين الخارجية. فقد كان أهم إنجاز له هو تحقيق قدر من الاستقرار في العلاقات بين الصين والولايات المتحدة، بالرغم مما يراه الصينيون من تقلب ولا منطقية في السياسة الأمريكية تجاه الصين في غالب الأحيان. وعندما تولى جيانج الحكم في ١٩٨٩، كانت الصين خاضعة للعقوبات من جانب العديد من الدول، تطاردها لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة ببيانات تستنكر القمع الذي تعرضت له حركة تيانانمن شبه الديموقراطية. أما الآن، بعد أن أصبحت عضوا بمنظمة التجارة العالمية، وتعدد لقاءات القمة مع الولايات المتحدة، وبعد اختيارها لتنظيم دورة الألعاب الأوليمبية عام ٢٠٠٨، فإن الصين ترى نفسها زعامة محترمة بين بلدان العالم. وهو ميراث سيسعى جيل «هو» للحفاظ عليه.

وفي ملاحظاتهم الداخلية، لا يعتبر القادة الجدد بلادهم قوة نافرة، كما يصورها البعض في الغرب، أو كقوة متحدية لسيادة الولايات المتحدة الإقليمية، بل كقطب من أقطاب الوضع العالمي الراهن، وكقوة لحفظ السلام والاستقرار. والصين تؤيد الأمم المتحدة، وتتبنى كذلك ما تطلق عليه التعددية القطبية - وهو المبدأ الذي يعطي العديد من البلاد حق المشاركة في تقرير السياسة الدولية. كما تؤيد - بالكلام على الأقل - الحملات الدولية ضد الإضرار بالبيئة، وكذلك ضد الفقر والمرض، وتجارة المخدرات، وإساءة معاملة اللاجئين، والإرهاب الدولي، بالرغم من تسامحها الكبير مع الأضرار التي تتعرض لها بيئتها نفسها.

وحسب «هو» وغيره من الزعماء، فإن الصين تتمتع الآن بسجل دولي جيد وأن صعودها لا يمثل تهديدا لأحد. وكما يقول «هو»، فإن الصين كلما تقدمت، «كلما أتيح لنا المزيد من الموارد لمواجهة سياسات القوة والهيمنة»، ومصدر سياسات الهيمنة والقوة تلك، والتهديد

الحقيقى للنظام العالمى، فى رأى زعماء الصين الجدد، هو الولايات المتحدة.

يقول هو جنتاو: «إن تحرك أمريكا الاستراتيجى باتجاه الشرق قد تسارع». فعند النظر حول الحدود الصينية، يلاحظ جنتاو أن الولايات المتحدة «قد عززت من وجودها العسكرى فى منطقة آسيا - الباسيفيك، ودعمت تحالفها العسكرى مع اليابان، وتعاونها الاستراتيجى مع الهند، وحسّنت علاقاتها مع فيتنام، واستدرجت باكستان، وأقامت حكما مواليا لها فى أفغانستان، وزادت من مبيعات الأسلحة إلى تايوان، وغير ذلك. إنهم يدعمون قوتهم ويضغطون علينا من الشرق والجنوب والغرب. وهذا يشكل تغييرا كبيرا فى مجالنا الجيوبوليتيكى».

وحسبما يرى زنج قنجهونج، فإن المحاولة الأمريكية لاحتواء الصين كانت حتمية. فهو يقول: «الأمريكيون قلقون دائما من أن قيام صين قوية يمكن أن يهدد مكانتهم. لذلك فإن الولايات المتحدة تريد السيطرة على السوق الصينية وفى ذات الوقت توفير كل السبل الممكنة لاحتواء تطورها. وهذا الموقف المتناقض يشير إلى أن العلاقات الأمريكية - الصينية تتخذ مسارا متعرجا، يختلف كثيرا عن (التطور السلس) للعلاقات الصينية الأوروبية».

وبالإجمال، فإن بيانات الزعماء تشير إلى أنهم لا يؤمنون إلا بجانب واحد من الجدل الدائر فى الولايات المتحدة بشأن السياسة الصينية. فآراؤهم تتماشى مع آراء «الواقعيين» الأمريكيين (وتبدو متأثرة بها) الذين يرون أن الصين والولايات المتحدة، باعتبارهما قوتين بالغتى القوة، محكوم عليهما بالتصادم. ولا تشير أى من هذه البيانات، ولو مجرد إشارة، إلى الرأى الأمريكى المعارض، الذى يعبر عنه غالبا الرؤساء الأمريكيون وغيرهم من المسئولين، من أن المصالح الأمريكية تحققها صين مزدهرة ومستقرة.

وعلى الرغم من آرائهم السوداوية بشأن النوايا الأمريكية على المدى البعيد، فلازال الزعماء يعبرون عن تفاؤلهم من أن الولايات الأمريكية سوف تكبح جماح نفسها. وحسب قول ون، فإن البلدين لهما «مصالح وأهداف مشتركة فى كثير من المسائل الدولية مثل معاداة الإرهاب، والتصدى لزيادة النسل، ومكافحة المخدرات والجريمة المنظمة ... كل هذا يبين أن المصالح المشتركة بين البلدين أكبر من الخلافات».

ويشير لى رويهوان إلى أن المصالح الاقتصادية تقرب بين البلدين، ويقول زنج قنجهونج: « إن بوش وكلينتون واضحان، إذ يدركان أن إقامة علاقات سيئة مع الصين يضر بالمصالح القومية الأمريكية فى المدى البعيد. ومن هنا، فإن الولايات المتحدة لن تسىء إلى تلك العلاقات فى المدى البعيد، ولا يمكن للعلاقات الصينية الأمريكية أن تتطور إلى ما يشبه العلاقات الأمريكية السوفيتية فى السابق».

وكما يقول هو جنتاو، فإن الهيمنة الدولية للقوة الأمريكية جعلت من العلاقة مع الولايات المتحدة «تهديدا رئيسيا لاستراتيجية السياسة الخارجية للصين». وينظر زعماء الصين إلى أى علاقة سياسية خارجية أو أى مشكلة أخرى



مثل أسلافهم، يرى زعماء الجيل الرابع أن النمو الاقتصادى السريع هو أهم متطلبات استمرار الاستقرار الاجتماعى والسياسى. لكنهم يحملون أفكارا جديدة لتحقيق هذا

من زاوية العلاقات مع الولايات المتحدة. فهم، على سبيل المثال، يقدرون صداقتهم الجديدة مع روسيا. لكنهم يدركون أن أى محاولة لتوسيع التعاون الصينى - الروسى الاستراتيجى رهن بالمصالح الروسية الأساسية فى علاقتها بالولايات المتحدة. وعند حديثه عن العلاقة بروسيا، يستشهد جنتاو بكونفوشيوس: «العلاقات بين النبلاء يجب أن تكون فى رقة الماء» - لا ينبغى أن نطلب منها الكثير. كما أنهم يقدرون منظمة شنغهاى للتعاون، التى يرعاها الصينيون، والتى تضم روسيا وخمسة من بلاد آسيا الوسطى، منها كازخستان وأوزبكستان. فالمنظمة تسهم، حسب اعتقادهم، فى تحقيق السلام والاستقرار على الحدود الشمالية والغربية للصين.

وبالنسبة لزعماء الصين الجدد، فإن أوروبا تتيح ساحة ديبلوماسية مشرقة، حيث تلتقى مصلحة الصين وبلاد الاتحاد الأوروبى على وضع حد للانفراد الأمريكى. أما اليابان، فتعتبر، على العكس، أداة بيد القوة الأمريكية وتشكل من ثم تهديدا كبيرا للمصالح الصينية. والعيب الوحيد فى العلاقة بأوروبا، كما يراه الزعماء الصينيون، هو الانتقادات الأوروبية لسجل الصين فى مجال حقوق الإنسان. على أنهم يردون هذه الانتقادات إلى الفروق الثقافية، بينما يرون فى الانتقادات الأمريكية واحدة من أدوات استراتيجية الاحتواء الأمريكية. ومن هنا، فإن ون، على سبيل المثال، يبدو أكثر استعدادا لتقديم التنازلات أمام قلق أوروبا بخصوص حقوق الإنسان عن ذلك الصادر عن أمريكا.

كذلك تؤثر العلاقات الأمريكية الصينية على مواقف زعماء الصين تجاه ثلاث مشكلات يعتبرونها، بوضوح، من الشئون الداخلية لا الخارجية - العلاقة مع تايوان، والتبت، وزنجيانج، تلك المنطقة الشمالية الغربية الشاسعة التى تفصل التبت عن آسيا الوسطى، والتى تواجه فيها الصين نزعات انفصالية من جانب المجموعات العرقية المسلمة، وخاصة اليغور الذين يشكلون ٤٧٪ من مجموع سكان المنطقة البالغ عددهم مليون نسمة. والمعارضة الشعبية للحكم الصينى، فى رأى الزعماء الجدد، ليست المصدر الحقيقى للمتاعب فى تايوان والتبت. فالأمريكيون يستغلون الأوضاع ويبالغون فى الموقف، بل إنهم هم الذين خلقوا هذه المتاعب كجزء من استراتيجيتهم لاحتواء الصين.

ويصف زنج قونجهونج تايوان والتبت بـ «كروت المساومة» فى الاستراتيجية الأمريكية تجاه الصين. وحسب قوله، «عندما ترى الولايات المتحدة أن تحسين العلاقات مع الصين يخدم مصالحها، تفقد تايوان أهميتها؛ وعندما ترى ضرورة الصراع بين الجانبين، توضع مسألة تايوان على أجندة البيت الأبيض. والأمريكيون لا يأخذون فى اعتبارهم أبدا مصالح تايوان، بل مصالحهم وحدهم. أتعتقدون أن التايوانيين لا يدركون هذا؟ إنهم يدركونه بالطبع - لكنهم لا يجرؤون على الكلام».

ويأمل الزعماء فى أن يكون ظهور الحزب الديموقراطى التقدمى ذى النزعة الاستقلالية فى تايوان، والذى فاز زعيمه شن شوى - بيان برئاسة البلاد فى ٢٠٠٠ وحقق أكبر أغلبية برلمانية فى ٢٠٠١، أمرا مؤقتا. يقول زنج قونجهونج، فى تقييمه لشن: «إن لديه القوة لكن ليس لديه أدنى فكرة عن كيفية استخدامها؛ إنه ليس سياسيا ماهرا. وقد أيده التايوانيون مؤقتا بدافع من العواطف، والزمن وحده كفيل بإثبات قوة هذه العواطف. إن شن يعتمد الآن على الرخاء الاقتصادى الذى حققه نظام حكم الكومنتانج (السابق) ليبقى وليس بمقدوره الحفاظ على هذا الرخاء. ولذلك لن تبقى العواطف التى يكنها له الشعب التايوانى طويلا».

وشأن تايوان، يرى الجيل الرابع فى التبت ساحة قتال بالوكالة فى العلاقات مع الولايات المتحدة. وحسب زنج قونجهونج، فإن الاتهامات الدولية للصين بالوحشية والعنصرية فى مسألة التبت «تكشف بجلاء عن النية المبيتة لدى عصبة الدالاى لاما والقوى الدولية المعادية لاستغلال ما يسمى بـ «مشكلة التبت» لزعزعة استقرار الصين، وتقسيم المنطقة، واحتواء تطور الصين وقوتها». ويضيف زنج: «إن التبت هو تبت الصين، وليس تبت أمريكا أو أوروبا. إن الجميع يعرفون أن هنود أمريكا قد عانوا إبادة جماعية ثقافية، كما تعانى الولايات المتحدة وأوروبا مشكلات التمييز العنصرى، فبأى حق تعيّر الولايات المتحدة الآخرين بحقوق الإنسان؟ إن عليهم أن يحلوا مشكلاتهم أولا».

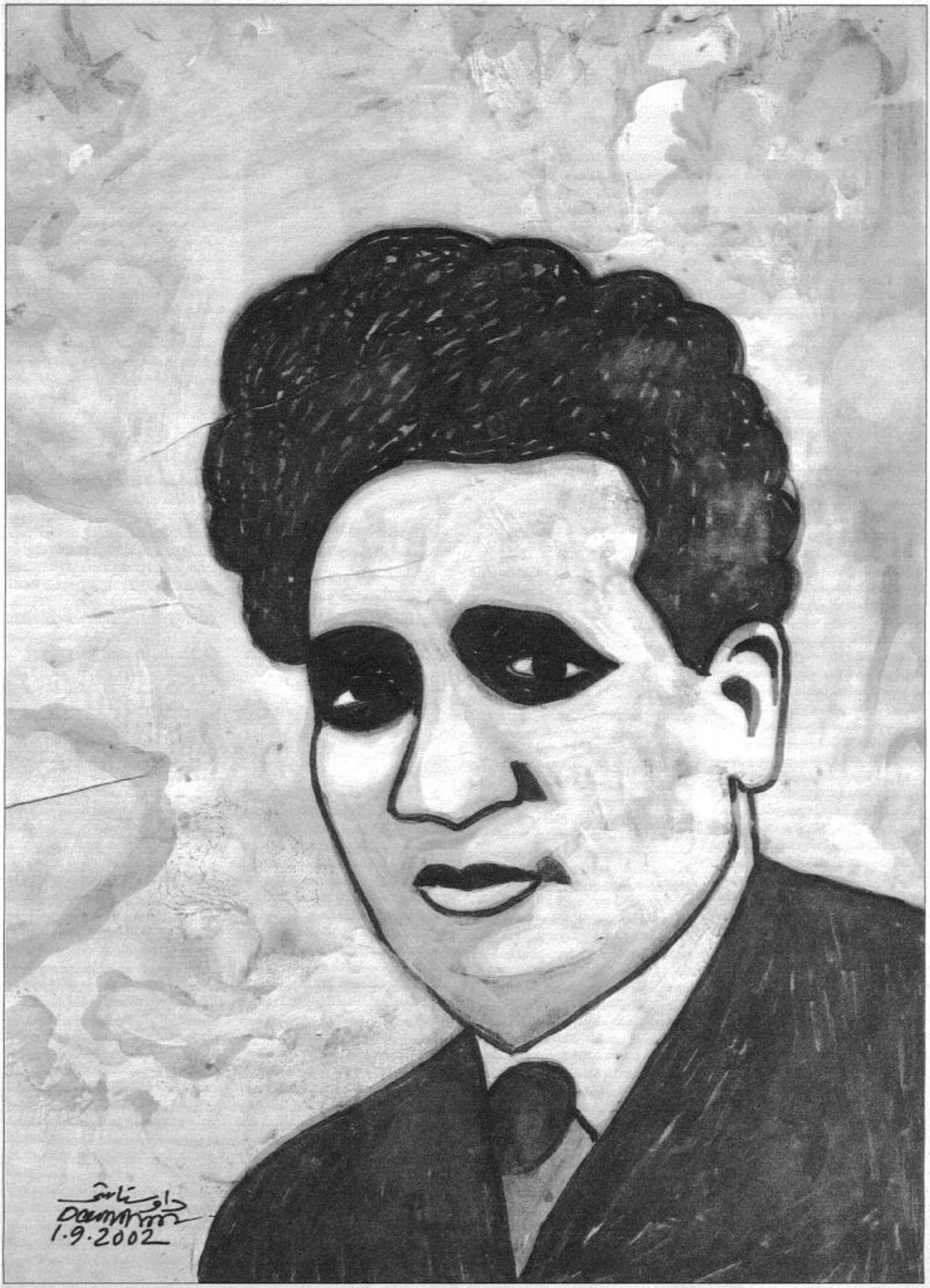
ومن المثير للدهشة أن الجيل الرابع يعتبر الموقف فى زنجيانج أكثر حرجا منه فى التبت أو تايوان. فعلى عكس آراء كثيرين من الخبراء الغربيين، يرى لو جان أن الإرهاب العنيف فى زنجيانج يعد مشكلة خطيرة، وأن حل المشكلات هناك أكثر صعوبة من التبت ذات الأقلية العرقية الواحدة وغير العنيفة بشكل عام. ومن الواضح أن الزعماء يرون أن المعارضة الداخلية هناك هى الأكثر خطورة لتمتعها بدعم قوات اليغور الانفصالية المتمركزة خارج الصين، فى أوزبكستان بالأساس. ويدعو هو جنتاو بقوة إلى إقامة نظام مراقبة شامل جديد فى منطقة الحكم الذاتى.

يقول جنتاو: «علينا أن نرسل مجموعة كبيرة ومنتقاة من الكوادر الممتازة الشابة وفى منتصف العمر، تدخل أجورهم وترقياتهم ضمن ميزانية الحكومة المركزية، للعمل فى القرى ذات الأوضاع المعقدة، والفقيرة اقتصاديا، والتى يصعب الحفاظ على الاستقرار فيها ... علينا أن نرسل أفضل عناصرنا إلى خطوط النار. ويجب أن يكون للجان الحزب فى القرى والمناطق دور قيادى أساسى. يجب أن تصبح فروع الحزب فى القرى قلاع حرب، وعلى مكاتب شرطة المناطق، وشرطة الشعب المسلحة، وقواعد الميليشيا أن تطور دورها كمركز للكوادر والفلاحين المتقدمين».

أما بالنسبة للغرب، فالرسالة الأساسية لوثائق زونج هاين، التى لا زالت سرية حتى الآن، هى الكشف عن أن الحكام الصينيين الجدد قادمون إلى السلطة بثقة رجال تفوقوا فى الأداء على منافسيهم ويتربعون على قمة نظام سياسى قوى. وتوضح السجلات والبيانات أن لديهم، وعلى عكس الزعماء السوفييت السابقين على جورباتشوف، فكرة واقعية عن آليات نظامهم ومواطن الضعف فيه. والجيل الرابع على علم بالاستياء الشعبى من الحزب الشيوعى، لكن هذا لا يخيفهم. وهم مؤهلون لمواصلة إصلاحات الماضى الاقتصادية واتخاذ إجراءات جديدة لمواجهة تفاقم التفاوت الاقتصادى دون التخلى عن دور الدولة فى توجيه الاقتصاد. إنهم يتطلعون إلى التصدى للمشكلات التى طال أمدها والمتصلة بتحديث الحزب - الدولة، لكن بعيدا عن نموذج الديموقراطية الغربية. وهم يقبلون بعلاقة الاعتماد المتبادل والشكوك المتبادلة مع الولايات المتحدة كأمر لا مفر منه: يأملون فى كبح جماح القوة الأمريكية، ويقيمون علاقات مجزية معها، كما يرون آفاقا طيبة لعلاقاتهم بأوروبا، وعازمون على الإسهام فى النظام العالمى، والاضطلاع بدور فى صياغته.

إن نوايا الجيل الرابع قد لا تتحقق فى المستقبل. فالصين قد تضطر للسماح بقدر كبير من الديموقراطية. وقد ترتد إلى تسلطية أشد صرامة، أو تنهار. وقد تدفع تطورات الأحداث الصين إلى مواجهة مع الغرب، أو تحولها إلى النموذج الاقتصادى والاجتماعى الغربى. لكن أيا من هذه الاحتمالات، والتى يجرى تناولها كثيرا فى الغرب، لا يشير إليها قادة الصين الجدد مطلقا وهم يتأهبون لاستلام السلطة. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: بدر الرفاعى

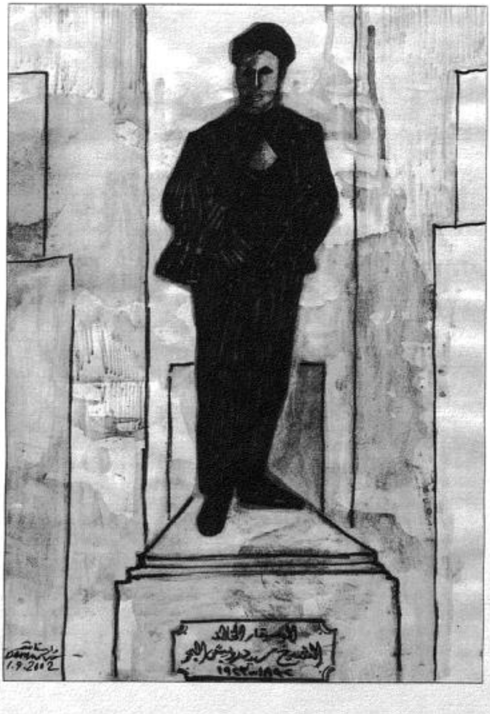

داوستاشي
Dawastashy
1.9.2002



أطلال بيت رجل مهم

فـى حـى «كـوم الدكـة»

جمـال إسمـاعيل



[١]

■■ انتشرت بين أهالى الإسكندرية القدامى أسطورة فى غاية الغرابة، حول حى كوم الدكة، أحد أشهر أحياء الإسكندرية، تقول إن الإسكندر الأكبر كان يجلس على أريكة «دكة بالعامية» مصنوعة من الذهب ومطعمة بالماس والياقوت والجواهر النفيسة. وعندما قرر القيام بحملة من حملاته العسكرية إلى خارج البلاد خشى على الأريكة من السرقة، فجاء بأحد المهندسين وكلفه ببناء غرفة تحت الأرض وضع فيها الأريكة ثم قام بقتل المهندس الذى يعرف السر، حتى لايكون هناك من يعرف مكان الأريكة غيره، وأمر بردم المكان كله دون أن يضع فيه ما يشير إلى مكان الأريكة النفيسة المدفونة. ولم يعد الإسكندر الأكبر إلى الإسكندرية. مات فى تلك الغزوة التى كانت آخر غزواته، وظل مكان الأريكة مجهولاً، لكنه اشتهر باسم «كوم الدكة».

وبعيدًا عن «الأسطورة» يظل هذا الحى العتيق بؤرة المنطقة الأثرية فى الإسكندرية، ولايزال إلى يومنا هذا مليئًا بالحفريات والآثار، وربما يكون من بينها قبر الإسكندر الأكبر نفسه. وقد استعمل المكان كمقبرة فى ثلاثة عصور مختلفة هى اليونانى، الرومانى وعصر المماليك.

وفى عصر محمد على أعيد تخطيط الإسكندرية وأصبح حى كوم الدكة فى مركز الدائرة، وتقود شوارعه الضيقة، الصاعدة الهابطة، إلى مختلف أرجاء المدينة: إلى الميناء الشرقى والبحر، وإلى محطة القطارات الرئيسية، وأحياء الرمل والمنشية والحى اللاتينى و«محرم بك» والوسط التجارى والجامعى فى الإسكندرية. ومع مرور الأيام تحول حى كوم الدكة إلى منطقة تقطنها أغلبية شعبية تضم الحرفيين وأصحاب المهن البسيطة والعاملين فى قصور الأغنياء فى الأحياء المحيطة.

وفى زمن الاحتلال البريطانى كان جنود الاحتلال يخشون الاقتراب من ذلك الحى «الذى تتجسد فيه القضية الوطنية واقعًا ساخنًا تعجز ألاعيب السياسة عن تبريره»، فكان الداخل إليه منهم مفقودًا، والخارج منه مولودًا. وكان أهالى الحى يتجمعون كل مساء، بعد فراغهم من أعمالهم، فى مقهى صغير، وكان أكثر ما يشغل عقولهم شئون السياسة وما ينتاب مصر من شرور على يد المستعمرين والتابعين لهم من كبار الملاك والتجار وأصحاب التوكيلات الأجنبية والنفوذ المستمد من الاحتلال البريطانى.

وفى صباح ١٧ مارس ١٨٩٢ عرف كل أهالى الحى أن «الأسطى درويش البحر» أبو البنات وصاحب ورشة النجارة الصغيرة فى شارع «علوة حكيم»، والقاطن فى منزل صغير بالقرب من ورشته، قد رُزق بطفل جميل من زوجته الحاجة ملوك.. وقد أسماه سيد. لكن أحدًا من سكان الحى لم يكن يتصور أن الطفل سيد درويش سينفرد بموهبة موسيقية متفردة فاقت كل التصورات. فقد أدرك فى وقت مبكر من عمره أن الموسيقى هى تصوير وتعبير، فجدد القديم وابتكر الجديد، وخلف تراثًا يصلح للتداول فى كل عصر وأوان.

ومن الضوء الخافت فوق أرصفة مقاهى وأركان حى كوم الدكة، بدأ سيد درويش يلمع، ومن حفلات الأفراح والموالد ومقاهى الإسكندرية، ورحلاته الفنية إلى الشام، انتقل إلى القاهرة نجمًا ساطعًا وموسيقارًا مؤلفًا لموسيقى «أوبريتات» وملحنًا للأغانى، خاصة عندما شارك بموسيقاه وكلماته فى أحداث ثورة ١٩١٩، وبقدر جعل الفن يبرز، وربما لأول مرة، معبرًا عن القضايا الوطنية.. الأمر الذى دفع العديد من المؤرخين للفن إلى القول: «إذا كان سعد زغلول هو الزعيم السياسى للثورة، فإن سيد درويش هو زعيمها الفنى». كانت موسيقاه هى الأمل الذى استراحت له القلوب تطلعًا إلى نور الحرية فى وطن محتل، وكانت ألحانه وأغنياته الوطنية «منشورات سياسية» تتغنى بحب البلد وتدعو المصرى إلى النهوض والمقاومة. وقبل وفاته بأيام عكف سيد درويش على إعداد النشيد الوطنى الذى سوف يردده الشعب عند استقباله لزعيمه سعد زغلول، العائد من منفاه إلى مصر يوم ٢٧ سبتمبر العام ١٩٢٣. وقد استطاع - بالفعل - تدريب المنشدين والعازفين على الأداء. حفظ الناس اللحن. واستقبلوا به زعيمهم العائد. لكن صاحب اللحن والكلمات لم يكن بين المستقبلين فقد انطفأ سراج عمره قبل عودة سعد زغلول إلى مصر بثمانية أيام، عن عمر يناهز ٣١ عامًا، ودُفن فى مقابر «المنارة» على بُعد خطوات من المنزل الذى ولد وعاش فيه، فى حى كوم الدكة.

قبل عام أويزيد، أبدى فاروق حسنى وزير الثقافة اهتمامًا بأمر حى كوم الدكة، وأوفد إليه لجنة مُشكَّلة من محمد غنيم وكان وقتها وكيلاً لوزارة الثقافة، د. أحمد نوار رئيس قطاع الفنون التشكيلية والمعارض والمتاحف، وأحد المهندسين المعماريين. وقد جالت اللجنة فى الحى العتيق، وحول بيت سيد درويش، وعادت إلى القاهرة ومعها دراسة عن «الحى والبيت» مدعمة بالصور والخرائط، تطوع بإعدادها الفنان التشكيلى عصمت داوستاشى ابن الإسكندرية،



الغسيل على باب منزل سيد درويش المتهدم وقد تحول المكان إلى خرائب.

وتتضمن مشروعًا يعتبر بيت سيد درويش نواة لمتحف ومركز موسيقى.

وقبل مدة رأيت البيت وقد تهدم وتحول إلى أنقاض تحيط بها جدران الطابق الأرضى، وتجلس حولها بعض النساء يغسلن، على الرصيف، ويحفزن كل من يأتى إلى المكان لكى يصعد إلى الطابق العلوى للمنزل المواجه ليرى بنفسه، ومن عل، ما جرى، وكيف تحول مسقط رأس فنان الشعب، صاحب «زُورونى كل سنة مرة» و«أنا هويت وانتهيت» و«قوم يا مصرى» والـ٢٠ مسرحية غنائية، وأكثر من مائتى لحن، كيف تحول منزل صاحب كل هذا التراث إلى خراب تسرح فيه الزواحف، وقد يتجرأ بعض الجيران ويحولونه، مع مرور الأيام، إلى مستودع للزبالة والنفايات.

[٢]

«المكان ينمو وتكون له صيرورة، ليس فقط عن طريق الناس الذين يعيشون فيه، ولكن كذلك عن طريق الذين مروا منه وحملوا صورته فى خيالهم وذهبوا به إلى جميع أنحاء الأرض.. ثم الذين أحبوا المكان وماتوا، الموت أيضًا يُعمِّق فكرة الميثيولوجيا. ويخلق ميثيولوجيا المكان».

الكلمات بين القوسين هى للروائى القدير الطيب صالح، وهو يتحدث عن «مكان» يراه نموذجًا لكيفية حدوث تنمية بواسطة جهد وهمة أبناء البلد، «خصوصًا إذا كان من يتعهد هذا العمل أحد أبناء المدينة، يحب أهله ويعمل على رفاهيتهم».

يتحدث الطيب صالح عن «المكان» ويقصد «أصيلة» القرية المغربية الواقعة ما بين «طنجة» و«العرائش» الساحلية، وهى قرية كانت تفتقر إلى البنيات الأساسية، بلا ماء أو كهرباء، وبشوارع متربة وحالتها مزرية، إلى أن نمت فى رأس نفر من أبنائها المخلصين «فكرة» بدأت بمهرجان ثقافى متواضع، و«تحركت» لتصبح مدينة عصرية جميلة يسعى إلى أحضانها، فى كل عام، فنانون وكتّاب وشعراء وأدباء ومبدعون من شتى أصقاع الأرض. وقبل أن يهل شهر أغسطس من كل عام يعمل الرسامون، من الشرق والغرب، على تجميل جدران وأرصفة وشوارع المدينة بلوحات فنية، ويعيش البشر فى أصيلة فى أعراس ثقافية وفنية، وفى انتعاش لا حدود له يشمل كل دوائر الحياة ودوراتها. ولقد تذكرت أصيلة، وكنت فى طريقى إلى «كوم الدكة» حيث عبق المكان والتاريخ والبشر يلف الحى العتيق الذى ارتبط اسمه فى الأسطورة بالإسكندر الأكبر، كما ارتبط، وسيظل يرتبط باسم فنان الشعب «سيد درويش».

ولم تكن أصيلة وحدها على البال، عند دخولى إلى حى كوم الدكة من ناحية المسرح الرومانى الأثرى، فما أكثر النماذج الرائعة لكيفية حدوث تنمية بواسطة جهد وهمة أبناء المكان. وفى الإمكان استدعاء صور لبعض هذه النماذج من حولنا، فى أحياء لندن والمدن البريطانية القديمة وسوق الخضار العتيق فى «كوفنت جاردن» الذى تحول إلى منطقة جذب سياحى علت قيمتها العقارية وازدهرت أسواقها وانتعش سكانها. أو حى «كامدن لوك» فى العاصمة البريطانية أيضًا، الذى تحول من منطقة لبيع «الخردة» والورش الصناعية الصغيرة المهملة، إلى حى له حيزه الواضح فوق خريطة المناطق النامية المتجددة فى لندن. وهذا هو الحال نفسه فى المناطق الخلفية بشارع أكسفورد التجارى الشهير، الذى اشتهر ببيع الخضار واللحوم، وتحولت إلى مقاصد للمثقفين والفنانين والسائحين. وما حدث فى لندن حدث ويحدث فى مناطق أخرى متفرقة من العالم، فى باريس ومدريد وبرشلونة وفالنسيا فى أسبانيا و«حوارى» ميلانو وروما والمدن الإيطالية، وأيضًا فى القاهرة حيث المناطق التى تحولت إلى أماكن مغلقة مخصصة للمشاه فى وسط القاهرة التجارى وما حوله. نماذج لا تعد ولا تحصى لكن استدعاء صورها يجلب إلى النفس حسرة ترسم علامات دهشة وتعجب وأكثر من سؤال: كيف يمكن لحى كوم الدكة القديم والمؤهل بكل عناصر ميثيولوجيا المكان، أن ينتشى، وأن ينمو ويزدهر فى زمن التحديث؟ وما هى سبل تحويله إلى بؤرة مضيئة تربط الماضى بالحاضر والمستقبل، عبر الاتكاء على عراقته وتاريخه وتاريخ من عاشوا فيه أو مروا به؟ تجيب التجارب البعيدة والقريبة بـ«نعم يمكن» وتشير إلى أن الثقافة والفنون تتصدر السبل الكفيلة باستعادة حى كوم الدكة لعافيته، رغم اختفاء بيت أشهر من عاش فى المكان، وآمن بأن ضياع الشخصية القومية مرهون بزوال الهوية الفنية. وتمثلت همومه الذاتية للحرفة، حرفة الموسيقى والغناء، فى أن البيئة الغنائية السائدة فى طفولته وصباه كانت عبارة عن تكريس للانحلال والتخلف، واستمرار سيطرة الأجنبى. أغنيات «فرانكو آراب» و«هنك ورنك» وغيرهما من أنغام تدور حول اللوعة والعذاب الأجوف والمكابدة الفارغة، غناء بلا هوية لا يعبر عن شخصية. وشخصية بلا غناء خاص لا هوية لها.

هذا هو الفنان الذى، بعد رحيله بعشرات السنين، يمكن أن يكون وحده، المرتكز والكفيل برد الروح إلى المكان الذى أنجبه، إلى حى كوم الدكة العتيق.

[٣]

فوق جدران منزل عند الناصية، لمحت لافتتين: واحدة قديمة كُتب عليها «شارع الشيخ سيد درويش»، والثانية وهى الأحدث، وقد وضعت أسفل الأولى، تكتفى باسم الرجل دون ذكر للقب «الشيخ». وكان سيد درويش قد التحق منذ صغره بالمعهد الدينى وحفظ القرآن، وانتمى إلى عالم المشايخ بكل طبقاتهم وأنواعهم، وكان لذلك أكبر الأثر فى جذبه نحو الغناء. ويقول الروائى خيرى شلبى، وهو يتحدث عن عبقرية سيد درويش و«ثورة الوجدان ووجدان الثورة» أن الوسط الدينى ـ ومنذ قرون ـ لم تنقطع صلته بالغناء والموسيقى، وأن مجتمع المشايخ لعب دورًا كبيرًا فى العصور الحديثة، فى الارتقاء بالموسيقى العربية، سواء على جناح المقرئين والمنشدين والمبتهلين الذين طوروا كثيرًا من المقامات الموسيقية وطوعوها لمقتضيات المعانى القرآنية والابتهالية والتوحيدية، أو على جناح الطرق الصوفية التى ارتبطت منذ نشأتها بالموسيقى ارتباطًا وثيقًا. وقد ساهم رجال الطرق الصوفية فى عصور ازدهارها فى وضع مقامات موسيقية جديدة، وتطوير مقامات أخرى. وقد استفاد سيد درويش من هذا التراث الصوفى للموسيقى. كما أن اندماجه فى عالم المشايخ، فى سنوات شبابه، كان له أكبر الأثر فى تنمية إدراكه وحسه الوطنيين. ويبدو أن الموهبة الموسيقية التى تفتحت بداخله مبكرًا، قد ملكت عليه نفسه فترك دراسته فى المعهد الأزهرى بالإسكندرية، ثم صدر القرار بفصله وهو فى السادسة عشرة من عمره. كان قد تزوج، وكان قرار فصله هو البداية الحقيقية له كنجم عريق ولامع فى سماء الفن المصرى والعربى.

ومن الشارع، الذى يحمل مدخله لافتتين باسمه، صعدت باتجاه البيت، درت حول جدران الطابق الأرضى الباقية حول أنقاضه، ومررت بالمقهى الذى اعتاد رواده الجلوس حول سيد درويش يستمعون إلى غنائه وعزفه، وهو المقهى ذاته الذى ارتاده ذات يوم أحد أصحاب الفرق الفنية واستمع إليه يغنى فضمه إلى فرقته «أولاد عطا» ومعها سافر ـ عن طريق البحر ـ فى أول رحلة فنية له إلى الشام. كان ذلك فى عام ١٩٠٩، وكان عمره وقتها ١٧ عاماً. ورغم «الخسارة المادية» كانت الفائدة الفنية كبيرة بالنسبة لسيد درويش، وبحكم ولعه الشديد بالموسيقى. فقد وقف على أحوال الموسيقى العربية فى بلاد الشام وهناك التقى ـ ولأول مرة ـ بالموسيقار عثمان الموصلى، وعاد وقد زاد من قدراته ومهاراته، وأكثر إتقاناً لكتابة النوتة الموسيقية والعزف على العود. عاد سيد درويش إلى حى كوم الدكة يجلس فى المقهى يغنى ويعزف ويستعين على القيام بأعباء أسرته بالتجارة فى الأثاث. لكنه سرعان ما قرر العودة إلى الشام. وفى عام ١٩١٢ قام برحلته الفنية الثانية إلى هناك، مع فرقة «أولاد عطا»، وكانت هذه الرحلة هى نقطة التحول الكبيرة والمهمة فى حياته، فقد تجددت صلته بأصدقائه القدامى وأساتذته فى دمشق وحلب. راح يحفظ عنهم ويستمع إليهم. أقام هناك سنتين كاملتين وعندما عاد إلى الإسكندرية كان محملاً بأصول هذه الموسيقى، وبموسوعة من الأنغام والألحان. ومن المؤكد أن رواد المقهى وسكان الحى وأهالى الإسكندرية قد عاشوا مع عودة سيد درويش من رحلته الثانية إلى الشام، حالة عالية من النشوة والطرب وروعة التلقى مع الفنان العائد، وقد حقق نقلة نوعية فى نضجه الفنى أكسبته الثقة بالنفس والإيمان بدوره وشخصيته وإدراكه لما تحفل به الشخصية القومية، المصرية والعربية، من تراث موسيقى متنوع الأشكال والألوان. عاد سيد درويش وكوّن فرقته الموسيقية الخاصة، وراح يؤلف ويلحن ويعزف ويغنى ويبدع فى المسرح الغنائى وأغانى العمال والموظفين والحرفيين و«الحلوة» التى قامت «تعجن فى الفجرية». وفى عام ١٩١٧ قام بتلحين «أوبريت» فيروز شاه لفرقة جورج أبيض، وكان فتحًا فى التأليف الموسيقى العربى، وعلامة مضيئة فى تاريخ الموسيقى العربية الحديثة، ومفتاح دخوله إلى القاهرة التى شهدت سطوع نجم لامع. وعلى مدار أكثر من ٤ سنوات استطاع سيد درويش أن يصنع مجده الفنى ويعيد بناء الوجدان الموسيقى العربى ويثبت أسسه ويرسخ أعمدته ويصبح بذلك علامة مضيئة فى تاريخ الأمة، ويُطلق اسمه على قاعة كبرى للموسيقى العربية بالقرب من أهرامات الجيزة، كما يطلق اسمه على شارع



مقهى الشيخ سيد درويش
ميدان بكوم الدكة.

وميدان فى حى كوم الدكة حيث مسقط رأسه، وحيث بيته الذى كان وأصبح مجرد خرابة. واللافت أن معاول الهدم طالت بيت سيد درويش فى الوقت الذى كانت فيه سيرته، وما قدمه من أعمال فنية ووطنية، تتردد على ألسنة فنانين متخصصين، فى ندوات صحفية، مرئية ومسموعة ومقروءة، حول «فن المقاومة» ودور الأغنية الوطنية والقومية. على هامش ما يجرى هذه الأيام فى فلسطين تحت الاحتلال الإسرائيلى.. فقد كان سيد درويش «فارسًا عظيمًا من فرسان المقاومة بالموسيقى والغناء».

[٤]

تحتاج «رؤية الفنان».. لكى تتجاوز دوائر «الحلم» بواقع جميل، إلى «آليات» تنقل الرؤية إلى دوائر التحقق.. كما تحتاج إلى «دعائم» تستند إليها «الفكرة» فتنمو الرؤية على أرض الواقع.

ويحتاج «التحقق» إلى إطار، أو أطر، تفعيل لآليات ودعائم تنفيذ الفكرة، ومتابعة لنمو «الواقع الجميل الذى كان حلمًا».

وينمو «المكان» ويزدهر عندما تكون له «شخصية اعتبارية» تحفظ له هويته الحقيقية وتعلى من قيمته وقيمة «صورته»، وتكون لها القدرة على تحقيق أهداف بعينها، وتفعيل العلاقة بين البشر والمكان فتكون له صيرورة، وتجربة «أصيلة» السابق الإشارة إليها، والتى تعيش هذه الأيام موسمها الثقافى السنوى، بدأت قبل أكثر من ٢٤ عامًا بوجود «جمعية ثقافية أهلية»، أبرز المتحمسين فيها، ولها، هو محمد بن عيسى، وكان نائبًا فى البرلمان. وهو مثقف متفتح. ذهب إلى الغرب ودرس فى أمريكا، وعمل فى الأمم المتحدة وتقلد وظيفة كبيرة وهو بعد فى العشرينيات من عمره. بعد ذلك عاد إلى بلدته وبنى لنفسه منزلاً داخل المدينة القديمة فى أصيلة، قرب قبر أمه، ثم راح يستعيد هويته الحقيقية، ومعها صنع للمكان هوية عبر جمعية أهلية حوّلت «أصيلة» من قرية قديمة مهملة إلى مدينة جميلة لها رونق يشع على من يعيش فيها أو يمر منها، وبها، أو يحبها ويحمل صورتها فى خياله.

وفى تجارب أخرى تتوفر بدائل وأطر متعددة فى مجالات الخدمة المدنية: دوائر حكومية فى وزارات ومحافظات ومجالس مدن وأحياء، تضع فى خططها ضرورات تنمية وتحديث «المكان» وتجميله، والحفاظ على عبق الماضى فيه وتأهيله لكى يكون «حاضرًا» كصورة لها رونق فى عيون الناس. يحدث ذلك فى مدن العالم من حولنا، ويحدث فى مصر، فى القاهرة خاصة المناطق القديمة والإسلامية والأثرية، وفى مختلف محافظات الشمال والجنوب، وفى الإسكندرية نفسها التى يقع حى كوم الدكة فى بؤرة مناطقها الأثرية القديمة.

وهناك تجارب كان وراء نجاحها ووجودها على أرض الواقع، رجال أعمال وأصحاب مصلحة فى تنمية المكان وتعلية قيمته «المادية» وقيم الجمال فيه. وأقرب الأمثلة يقع على بُعد خطوات من ميدان طلعت حرب وتمثاله الشهير فى الوسط التجارى للقاهرة، حيث أصبحت بعض الشوارع المتفرعة من شارع قصر النيل، للمشاه فقط. مُنع دخول السيارات إليها، وطُليت واجهات المنازل والمحال التجارية ورُممت. ووُضعت أعمدة إنارة من نمط واحد يتسق مع الأعمدة القصيرة الموضوعة عند مداخل الشوارع وحدود الأرصفة والطرق التى أعيد رصفها باستخدام نوعية من «البلاط» يضفى مزيدًا من الجمال، ويؤكد أن هذه المنطقة أو تلك لا تصلح لسير وصخب السيارات، وإنما تصلح لكى يتجول فيها البشر بحرية وأمان، ويجدون آرائك خشبية يستريحون إليها، وهذا ما نراه فى المناطق القريبة من شارع ٢٦ يوليو التجارى فى القاهرة.

ويرى الفنان التشكيلى عصمت داوستاشى، فى دراسته حول «كوم الدكة» أن الحى يصلح لأن يتحول إلى منطقة مغلقة ممنوع دخول السيارات إليها. وأن تمتد إلى منازلها ومحالها التجارية وأرصفتها وشوارعها الهابطة الصاعدة، يد الترميم والتجميل، فتصبح المنطقة بما فيها ولها من عبق تاريخى وحكايات وذكريات، مركز إشعاع ومنطقة جذب مضيئة على مدار أيام العام كله، وليس لأيام معدودات فقط يعيشها الناس كل عام عند احتفال «الثقافة الجماهيرية» أو الهيئة العامة لقصور الثقافة، بذكرى سيد درويش، وسط الحى الذى يشكو حاله، وتزيد مرارة شكواه بعد أن تحول بيت صاحب الذكرى إلى أطلال.

وكانت الدراسة التى أعدها عصمت داوستاشى قد تضمنت مشروعًا يقترح أن تقوم وزارة الثقافة بشراء البيت، وبعض المحال التجارية المجاورة له، وتحوله إلى متحف ومركز للموسيقى. ولا يعرف داوستاشى مصير دراسته، أو ما هو قرار و«رؤية» اللجنة الثلاثية التى شكّلها وزير الثقافة، وعاينت المكان ودارت حول البيت. وقد مرت الأيام وهُدم البيت. وقد يصف البعض تهدمه بأنه عبث بالتاريخ، وخيانة فى حق المكان و«محض تهريج». وقد يرى البعض الآخر أن البيت الذى تهدّم لا قيمة له من الناحية المعمارية - الأثرية - وربما يحظى الرأى الأخير بأغلبية تستند إلى أن القيمة الحقيقية للبيوت التى ولد بها المشاهير أو العظماء هى قيمة أدبية وهذه يسهل الحفاظ عليها أبد الدهر عبر لافتة يحرص أصحاب الأرض والعقار، و«مجلس الحى»، على وضعها فوق جدران المكان. توضع اللافتة فى مكان ملحوظ فى كل مرة تمتد يد التغيير إلى البناء.. ويظل العابر والمقيم يقرأ حروفها البارزة ويعرف أن «هنا وُلد وعاش سيد درويش».

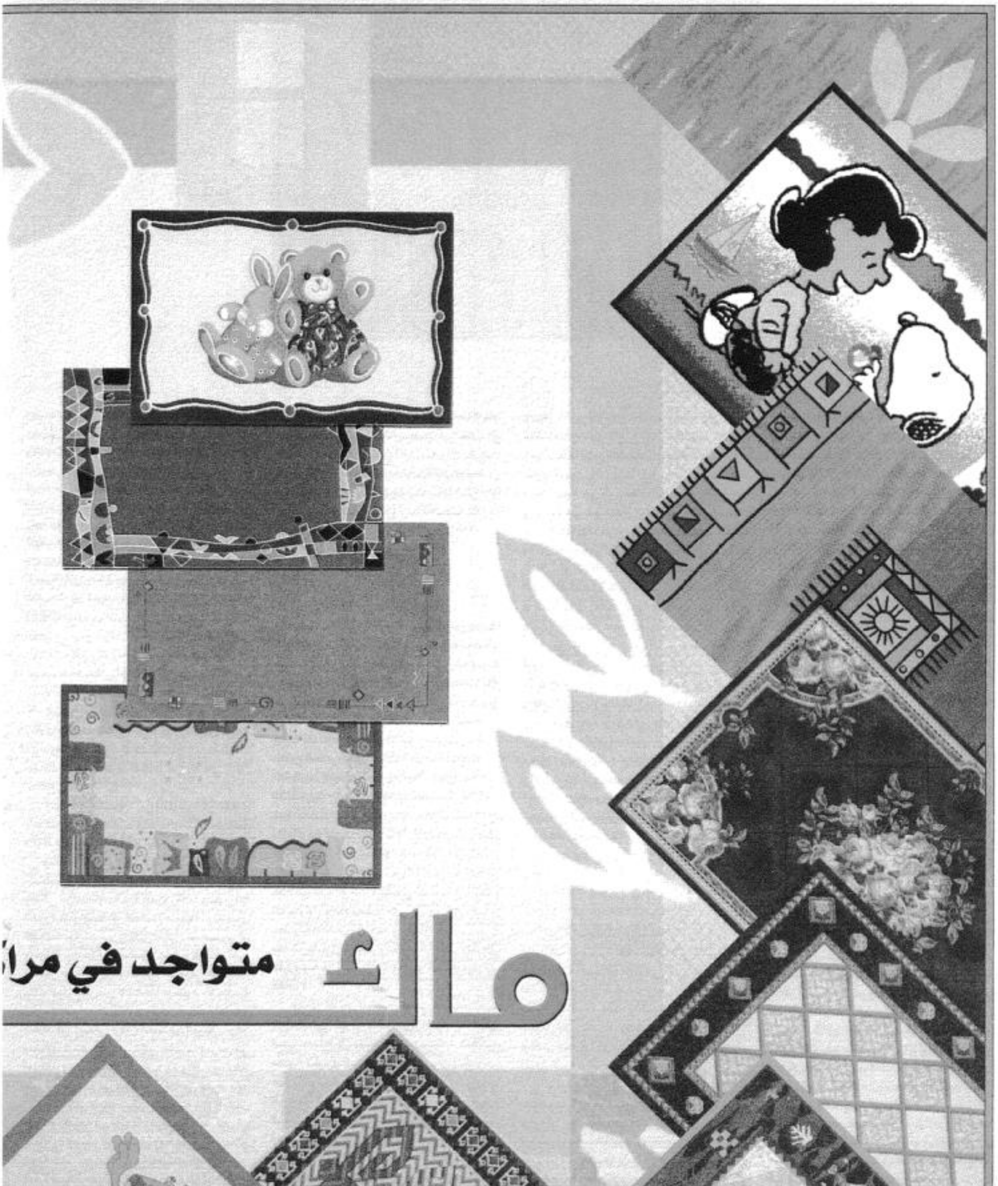
ويبقى «الحى» وتبقى ضرورة أن تتضافر «جهود» تنميته وتوظيف «عبق المكان» فيه، وكل ما يزخر به من أساطير وذكريات تاريخ تجسد له خصوصية عالية، حتى لا يأتى يوم نحُنُّ فيه إلى الماضى ونلتفت فلا نجد غير أطلال مكان فقد روحه.

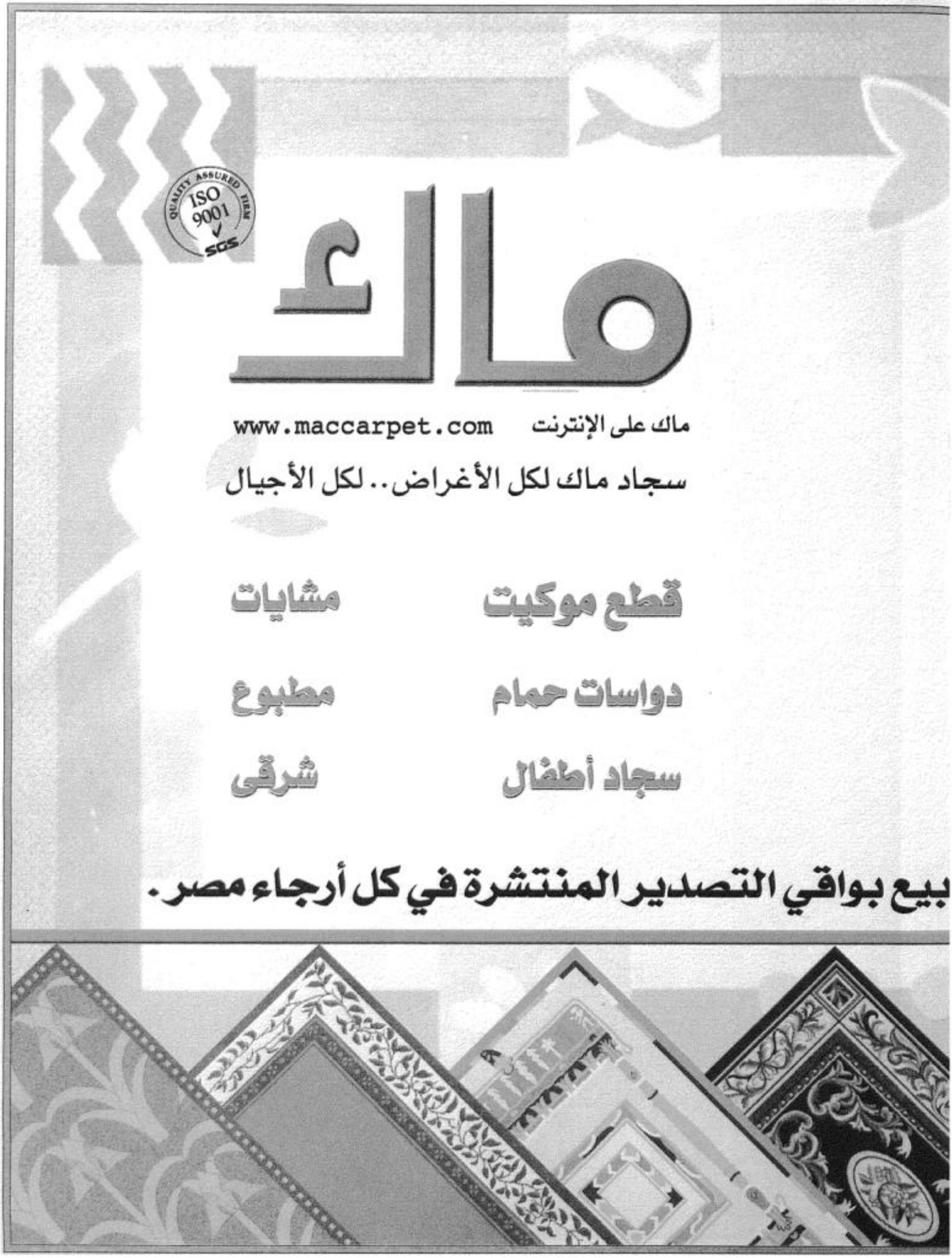
[٥]

بين الإسكندرية والقاهرة فركة كعب ومسافة قصيرة يقطعها القطار السريع فى ساعتين، أمضيتهما أقلب فى صور فوتوغرافية لشارع الشيخ سيد درويش، والميدان الذى يحمل اسمه أيضًا، والقهوة التى اعتاد أن يجلس بها يعزف ويغنى، والبيت الذى وُلد وعاش فيه، قبل أن يُهدم، وصورة أخيرة له وقد تحول إلى أنقاض.

أستعيد «رؤية الفنان» ونقاط دراسة عصمت داوستاشى، فأرى بعين الخيال والتمنى ملامح لصور جميلة لأرجاء الحى وقد امتدت إليها يد التجميل والترميم واحتضنتها «صحوة» الإحساس بقيم الجمال وإدراك أن الازدهار «حالة» تكمن بداخلها عوامل الرواج والانتعاش الجذب، وأن التحديث لا يعنى الهدم وبناء الجديد. أعود أنظر إلى الصور الفوتوغرافية الصغيرة فى يدى، ألتفت فترتسم، إلى جوارى، فوق زجاج نافذة القطار العائد إلى القاهرة ملامح مغايرة استعاد فيها وجه المكان جماله بفعل «عمل» يضع العناصر الثقافية والفنية الخاصة بالمكان فى اعتباره، ويحاصر الجوانب السلبية فى المعمار، ويضع «أساسيات لنظام» خاص بحى كوم الدكة، يتحكم فى واجهات بيوته ومحاله التجارية.. يعيد النظر فى كل الإضافات القائمة فوق الجدران والأرصفة. كما يعيد النظر فى شكل أعمدة الإضاءة والإعلانات وصور الأشخاص واللافتات. حتى لا تؤدى العشوائية فيها إلى إفساد النظام الجمالى المنتظر والقادر على إعادة الحياة إلى دورته الاقتصادية عبر الاهتمام بتجديد «دكاكينه» ومقاهيه وحسن استخدامها واستحداث محال تجارية وخدمية جديدة.

تدفعك الصورة المعدلة ملامحها إلى التجول فى أرجاء الحى، والمكوث فيه أطول فترة ممكنة، بعد التغيير المأمول، وأنت تنصت إلى لحن قديم من ألحان سيد درويش، ينبعث من «المركز والمتحف الموسيقى» أو محال تبيع ألبوماته وتسجيلاته، وكذلك أعمال من سبقوه أو لحقوا به من عمالقة الموسيقى المصرية والعربية. وقد تستمتع إلى اللحن وأنت جالس تحتسى الشاى فى المقهى «الجديد» تنظر إلى وجوه رسمتها ريشة الفنان لبشر أحيوا المكان، ولا تنظر، كما هو الحال الآن، إلى جدران كالحة ووجوه يعلوها الملل. وقد ترغب فى السير فى الشوارع الضيقة الهابطة الصاعدة وتستند إلى جدار من الأرابيسك أو قاطع من الحديد المؤكسد «الفور فورجيه» تتأمل واجهة مشغل للبنات أو ورشة نجارة لتصنيع الأثاث أو حتى إعداد الأطر الخشبية للوحات الفنية التى يرسمها طلبة وطالبات كلية الفنون الجميلة الذين يعرفون المكان وتراهم يرسمون ملامحه التى تنتظر التجديد. وفى الحى المأمول، وليس الحال هكذا الآن، تستطيع أن ترى مكتبة لبيع الكتب الفنية و«نوت» الألحان القديمة وإلى جوارها تطالع واجهة لمحل يبيع الآلات الموسيقية أو يصنعها. وقد تمتد صور التحديث إلى أبعد من ذلك فتتحول صور الخيال إلى ملامح حقيقية موجودة. وكل شىء مرهون بـ«جهد وهمة نفر من أبناء البلد»، وفى المقدمة منهم الفنانون ورجال الأعمال، الذين يؤمنون بأن الجهد السياسى والاقتصادى لابد أن يواكبه جهد ثقافى. فالثقافة هى الأساس، والفن وسيد درويش هما الركيزة والجوهر إذا ما تعلق الحلم بتطوير وتنمية حى كوم الدكة. ذلك الحى الذى تتوافر له كل عناصر ميثيولوجيا المكان ويعانى الإهمال فى زمن التحديث. ■

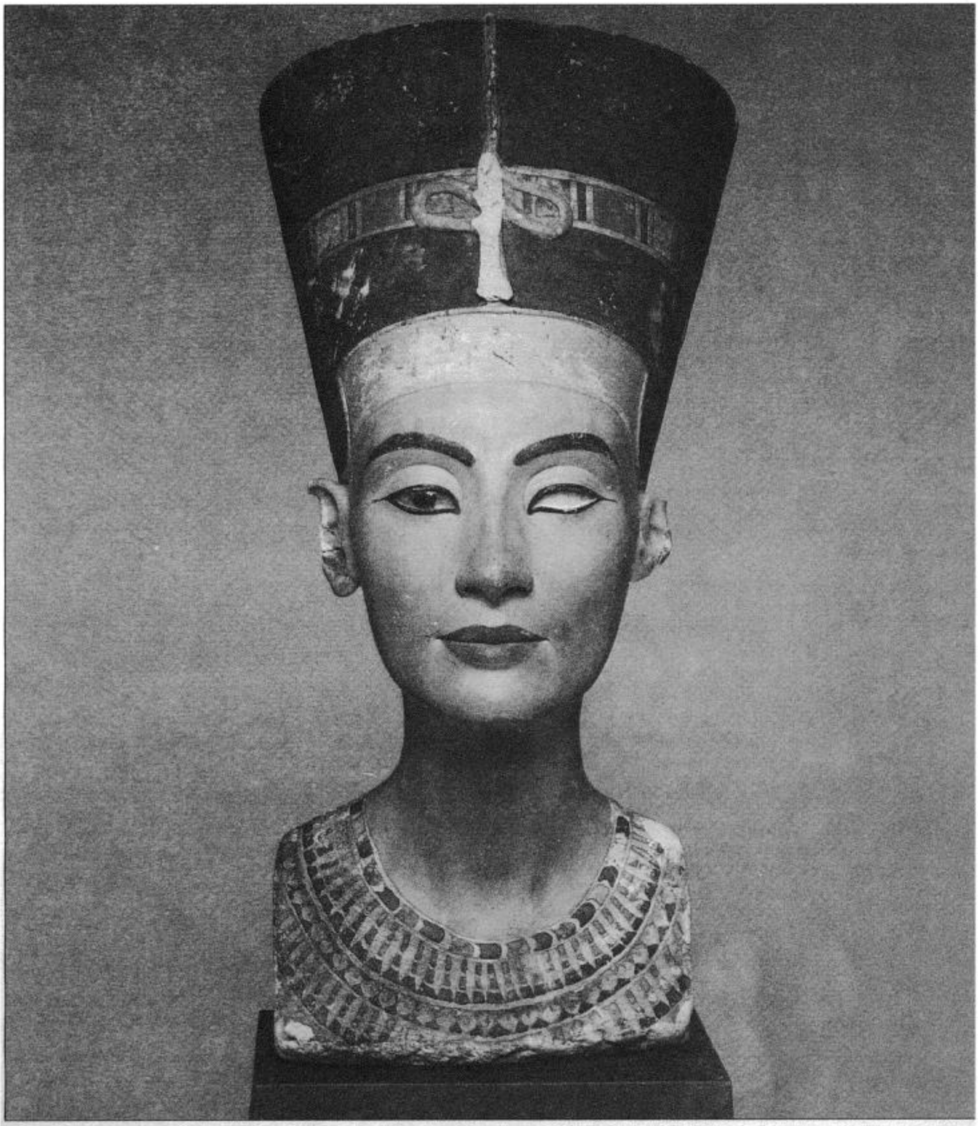

متواجد في


QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
ماك
ماك على الإنترنت www.maccarpet.com
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
مشايات
دواسات حمام
مطبوع
سجاد أطفال
شرقى
بيع بواقي التصدير المنتشرة في كل أرجاء مصر.

تاريـــــخ الآثـــــار المصـــرية .. عـــلم ..

رشـــدى ســـعـــيـــد

تمثال لرأس الملكة نفرتيتى «متحف المصريات فى برلين»



ونفـــوذ .. وســـرقـة .. وصـــراع!

من يملك التاريخ؟

دونالد مالكوم ريد Donald Malcolm Ried أستاذ التاريخ بجامعة ولاية جورجيا الأمريكية والذى اشتهر بأنه «المؤرخ الذى أحب مصر» صدر له أخيرًا كتاب عكف على جمع مادته وكتابته عشر سنوات كاملة قبل أن يصبح بين أيدى القراء. يناقش فيه العلاقة الملتبسة «سلبًا وإيجابًا» بين الآثار المصرية القديمة والأجانب الذين اهتموا بها فى وقت مبكر من القرن التاسع عشر.

.. ومع الاحتفال بالذكرى المئوية لإنشاء المتحف المصرى تنشر «وجهات نظر» مقالين حول الكتاب أحدهما أرسله من واشنطن دكتور رشدى سعيد والثانى طلبته هيئة تحرير المجلة من د. رءوف عباس رئيس الجمعية التاريخية المصرية.

المحـــرر

■ ■ فراعنة من؟ كتاب يعالج نشأة وتطور علم الآثار فى مصر خلال المائة وستة عشر عامًا التى انقضت منذ بدء دراساته الجدية وقت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤، وكيفية استخدام الأوروبيين لهذا العلم لتحقيق مطامعهم الاستعمارية لضم مصر إلى الإمبراطوريات التى تتكون خلال هذه الفترة والكيفية التى استخدم بها الوطنيون المصريون هذا العلم من أجل تأكيد الهوية القومية. والكتاب من تأليف دونالد مالكولم ريد المؤرخ الأمريكى والأستاذ بجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة والذى عرف بدراساته وأبحاثه المتعمقة فى تاريخ مصر الحديث والتى تميزت بموضوعيتها واهتمامها بأخذ الرؤية المصرية للأحداث فى الاعتبار قبل الوصول إلى أية نتائج أو أحكام. وكنت قد تابعت عددًا كبيرًا من أبحاث دونالد مالكولم ريد وأعجبت بها ووصفته بحق «بالمؤرخ الذى أحب مصر». ولا يختلف هذا الكتاب عن سابق مؤلفاته فى موضوعيته وإبرازه للدور المهم الذى أهمل عن عمق والذى لعبه العلماء المصريون فى هذه الفترة المبكرة لإيجاد مكان لمصر فى البحث عن آثارها وكتابة تاريخها بل وإعادة امتلاكه بعد أن كاد أن ينزع منها، واستخدم المؤلف مئات الوثائق التى كتبت باللغة العربية وبعدد من اللغات الأجنبية استخرجها من سجلات دار الكتب المصرية ووزارة المالية المصرية وجامعة القاهرة ومن أرشيف وزارتى الخارجية الفرنسية والبريطانية ومن المكتبة البريطانية وجامعة بنسلفانيا ومن مذكرات مرقس سميكة والتى لازالت مخطوطة لم تنشر.

آثار مصـر عند مقـدم الحملة الفـرنسيـة

وعلى الرغم من أن الاهتمام بآثار مصر بدأ يتزايد فى أوروبا خلال القرن الثامن عشر إلا أن المعرفة الحقيقية لها ولتاريخ بُناتها وطبيعة الحضارة التى نشأت فيها حدث بعد الكشف عن سر الكتابة الهيروغليفية الذى قام به عالم اللغويات الفذ فرانسوا شامبليون الذى استطاع أن يفك رموز هذه اللغة من حجر رشيد الذى كانت الحملة الفرنسية قد كشفت عنه مصادفة خلال إعدادها بعض الاستحكامات العسكرية فى هذه المدينة فى سنة١٧٩٩. وبعد ثلاث وعشرين سنة من هذا الكشف توصل شامبليون إلى فك رموز لغة الفراعنة وإلى معرفة معانى كلماتها بمقارنتها بقريناتها باللغة القبطية التى احتفظت بالكثير منها. وفتحت القدرة على قراءة لغة مصر القديمة الباب واسعًا لإعادة اكتشاف مصر القديمة وكتابة تاريخها من جديد ولتغيير مفهوم أوروبا عنها. وكان هذا المفهوم مستمدًا على طول العصور الوسطى وحتى اكتشاف شامبليون إما عن طريق التوراة وشخصيات الأنبياء الذين ارتبطت أسماؤهم بمصر كإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى عليهم السلام والتى جعلت من مصر جزءًا من الأراضى المقدسة التى كانت تقع فى طريق الحج أو من كتابات المؤلفين القدامى كهيرودوت المؤرخ اليونانى الذى زار مصر فى سنة ٤٥٠ق.م. ومانيتو الكاهن المصرى الذى لم يبق من كتاباته غير قائمة الأسرات الفرعونية القديمة التى لازالت تستخدم حتى اليوم وأراطوسطين وغيرهم من مؤلفى اليونان والرومان كسطرابو وديودور الصقلى.

ولم يكن مفهوم المصريين أنفسهم عن مصر القديمة فى ذلك الوقت مختلفًا. فقد ارتبط منذ أن قبل المصريون المسيحية، فالإسلام بالأحداث التاريخية التى جاء ذكرها بالكتب المقدسة والتى لم يكن الفرعون فيها إلا رموزًا للقسوة والطغيان مما أبعدهم عنه وجعلهم يتبرأون من آثاره وينظرون إليها فى إطار هذا الرمز. وكانت الأهرام عند البعض مرصدًا وعند البعض مخبأ أقامه هرمس (إدريس) ليحفظ العلم ودروس الصناعات وحكمة الأقدمين لكى تسلم من طوفان النبى نوح عليه السلام، وعن الكثيرين مخزنًا للغلال أقامه النبى يوسف عليه السلام، أما عن إهمال مؤرخيهم لآثار مصر القديمة فيكفى أن أذكر أن الرحالة الشهير ابن بطوطة لم ير فى آثار مدينة الأقصر شيئًا يستحق أن يذكر فى كتابه «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» غير قبر الصالح العابد أبو الحجاج الأقصرى الذى يوجد بداخل الجامع الصغير الذى أقيم ببهو معبد الأقصر المهيب، وقد تغيرت هذه الصورة بعد اكتشاف أسماء اللغة الهيروغليفية وبدء انفتاح المصريين المحدثين على العالم الجديد الذى فتحه هذا الاكتشاف عن مصر القديمة. وفى رأى ريد أن المسئول الأول عن هذا التغيير لمفهوم المصريين المحدثين عن مصر القديمة هو رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذى استطاع بكتاباته عن مصر القديمة بمجلة «روضة المدارس» التى كان يحررها وبكتابه «أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل» أن يلعب نفس الدور الذى لعبه شامبليون للأوروبيين. وفى رأى ريد أن رفاعة الطهطاوى كان واحدًا من أبرز شخصيات مصر فى القرن التاسع عشر وأكثرهم أثرًا فى تشكيل هويتها، فقد استطاع بالإضافة إلى دوره فى تغيير مفهوم المصريين عن تاريخهم القديم أن يعرفهم بالحضارة الغربية التى عاش فى ظلالها وعرفها معرفة وثيقة وكتب عنها بالعربية كتابه الشهير «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» وفى هذا المجال فإن دوره فى نقل الحضارة الغربية لأهل مصر لا يقل أهمية عن دور إدوارد وليم لين البريطانى الذى عاش فى مصر وعرفها ونقل حضارتها إلى بنى وطنه فى كتابه الشهير «عادات المصريين المحدثين».

وكما لعب اكتشاف شامبليون للغة الفراعنة دورًا كبيرًا فى تغيير مفهوم الأوروبيين عن مصر القديمة، فقد كان لصدور موسوعة «وصف مصر» التى كتبها العلماء الذين صاحبوا الحملة الفرنسية إلى مصر فى باريس بين سنتى ١٨١٠، ١٨٢٩ أكبر الأثر فى تعريف الأوروبيين بمصر وحضارتها، بل والافتتان بها. وتحتوى موسوعة وصف مصر على ثمانية مجلدات من القطع الكبير من المتن، أربعة منها عن مصر القديمة ومجلدان (من ثلاثة أجزاء) عن مصر المعاصرة ومجلدان (من خمسة أجزاء) عن التاريخ الطبيعى. هذا بالإضافة إلى تسعة مجلدات بنفس الحجم من اللوحات البديعة الإخراج تضم ثلاثة آلاف لوحة عن آثار مصر القديمة (خمسة مجلدات) ومصر المعاصرة (مجلدان) والتاريخ الطبيعى (مجلدان من ثلاثة أجزاء). وبعد سنوات من إصدار هذه المجلدات وفى سنة ١٨٢٩ صدر ملحق الأطلس الجغرافى الذى احتوى على أول الخرائط الطوبوغرافية لمصر.

وهكذا جاءت معرفة الأوروبيين لمصر وحضارتها القديمة ومولد علم المصريات ذاته عن طريق الحملة العسكرية الفرنسية التى حدثت وسط فترة المد الاستعمارى الأوروبى وأحداث العنف والحرية التى سببها التنافس بين بريطانيا وفرنسا على امتلاك الأسواق وفرض السيطرة على الغير. وتعكس المقدمة التى كتبها فورييه J.B. Fourier لموسوعة وصف مصر والتى وافق عليها نابليون بنفسه هذا المناخ العام الذى كان سائدًا فى تلك الفترة. ففى هذه المقدمة يبدأ الكاتب بإبراز الموقع المميز لمصر بين ثلاث قارات والتاريخ العظيم لها عندما كانت موطن العلوم والفنون منذ أقدم الأزمنة وقبل حرب طروادة، فيها درس هومر وسولون وفيثاغورس وأفلاطون وإليها سعى الإسكندر وقيصر ومارك أنطونيوس وأغسطس ونابليون ثم يعود فيقول إن مصر الحديثة قد تدهورت وسقطت فى هوة التخلف والبربرية حتى مقدم الفرنسيين إليها لكى يعيدوا إليها الحضارة من جديد. وتعكس لوحة غلاف موسوعة «وصف مصر» نفس هذه الرسالة وهى رسم يحيطه برواز شديد البهرجة لعدد من الآثار الفرعونية موزعة على خلفية أرض مصر الممتدة من أسوان إلى الإسكندرية، وليس بالرسم أثر غير فرعونى أو وجه لمصرى معاصر. وفى أعلى البرواز رسم لنابليون وهو عار وفى صورة الإسكندر أو الإله أبولو ملوحًا بحربة وممتطيًا عربة تجرها خيول تدوس على المماليك الذين سقطوا أمامها.

علـم الآثـار علـم أوروبـى

ولا يشك أحد فى أن إعادة اكتشاف آثار مصر وتاريخها القديم يعود بالدرجة الأولى إلى العمل الكبير والجاد الذى قام به علماء أوروبا الذين توافدوا عليها منذ الحملة الفرنسية وعلى طول الفترة التى يعالجها الكتاب، إلا أن هذا العمل ارتبط بمحاولة الإمبراطوريات الأوروبية البازغة استخدام علم الآثار لإيجاد موقع لها فى مصر ولإبعاد المصريين عن العمل فيه، فلا غرو أن كان أمر إعادة امتلاك تاريخ مصر هو أحد أهم معارك الحركة الوطنية المصرية، وحتى لا تغيب شراسة المعركة التى كان على الأجداد أن يخوضوها لكى يجدوا مكانًا لهم فى عالم الآثار فإن مؤلف الكتاب يورد نصًا للفرنسى فونيناك سان مور كتبه فى سنة ١٨٣٥ يطلب فيه من أوروبا والعالم المتمدن أن يتقدم بالشكر إلى فرنسا لأنها استولت على إحدى المسلات المصرية ونقلتها إلى بلادها فأنقذتها بذلك من أيدى الجهلة التى حدث وأن كانت بأرضهم ووضعتها بالأرض التى تقدرها والتى ينبغى أن تكون فيها، فالآثار كالحديقة لا ينبغى أن ينال ثمارها إلا من اهتم بها.

وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التى قام بها المصريون لانتزاع مكان لهم فى دراسة علم الآثار إلا أن الحال يبدو أنه لم يتغير خلال المائة عام التى انقضت منذ صدور موسوعة «وصف مصر» وحتى بناء المتحف المصرى بقلب القاهرة الجديدة وعلى ضفاف النيل (ميدان التحرير حاليًا) وافتتاحه فى سنة ١٩٠٢، فقد جاء المتحف وتصميمه

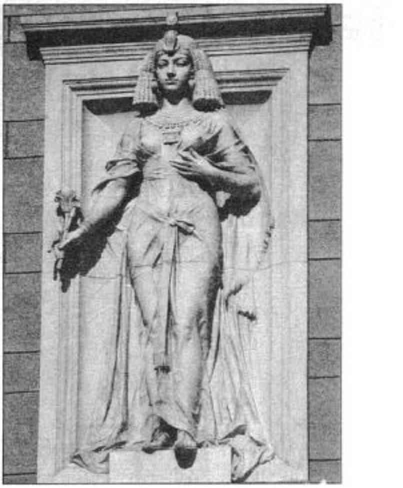
Whose Pharaohs?
Archeology, Museums, and Egyptian National Identity From Napoleon to World War 1
فراعنة من؟ الآثار والمتاحف والهوية الوطنية المصرية
Donald Malcolm Ried
University of Clifornia Press, 2002

بمثابة تذكرة للمصريين بأن آثارهم حتى ولو تم عرضها ببلادهم، لازالت في غير أيديهم، فواجهة المتحف وحديقته التي يقع في وسطها تمثال ماريت مؤسس المتحف ليس بها شيء يمت إلى مصر، فعلى الواجهة نقشت أسماء أعلام علم المصريات من الأوروبيين الذين اعتبروا من مؤسسي هذا العلم ولم يرد بالقائمة اسم مصري واحد، وإن كانت قد احتوت على أسماء ستة من الفرنسيين وخمسة من البريطانيين وأربعة من الألمان وثلاثة من الإيطاليين وهولندي ودانمركي وسويدي. وفي لوحة أخرى من لوحات الواجهة نقشت أسماء كبار المفكرين الكلاسيكيين ممن ساهموا في تعريف الأوروبيين بحضارة مصر القديمة هيرودوت وأراطوسطين ومانيتو وهن أبوللو، وعلى جانبي البوابة الرئيسية وضع تمثالان لإلهين إغريقيين يلبسان ملابس شفافة تظهر مفاتن جسميهما يمثلان مصر السفلى ومصر العليا، وجاء وضع التمثالين على هذه الصورة بمثابة تأكيد على أن علم الآثار هو علم أوروبي فلم تكن لمثل هذه التماثيل أية علاقة بمصر التي لم يكن لسيدات طبقاتها العليا أي ظهور واضح في المجتمع أو حرية الخروج دون حجاب. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يذكر الزائر بأنه أمام مبنى أقيم في مصر هو اسم الخديوي عباس حلمي الثاني الذي نقش فوق البوابة الرئيسية للمتحف وإن جاءت كتابته وما صاحبه من متن باللغة اللاتينية التي يمكن القول إنه لم يكن هناك مصري يعرفها، فلم تكن هذه اللغة تدرس بمدارسها. وحتى سنة افتتاح المتحف الهجرية (سنة ١٣٤٢) والتي نقشت فوق البوابة الرئيسية بجوار السنة الميلادية للافتتاح فقد كانت باللغة اللاتينية وبأرقامها anno Hegirae MCCCXVII.

وكما يقول ريد فإن ما جاء من نقش على واجهة المتحف المصري يكاد أن يكون رسالة للمصريين بأن «علم الآثار علم أوروبي وأن مصر القديمة التي كشف عنها هذا العلم هي جزء من الحضارة الغربية ليس للمصريين المحدثين أية صلة بها وهم غير مؤهلين لدراستها دراسة جدية». وهكذا وعلى طول قرن كامل بعد خروج الحملة الفرنسية لم يستطع المصريون أن ينتزعوا مكانًا لهم في دراسة آثار أجدادهم على الرغم من المحاولات التي قاموا بها خلال ذلك القرن.

آثار مصر في عصر محمد علي

كان محمد علي في مبدأ توليه حكم مصر ولسنوات طوال يستخدم الآثار للمساومة بها للحصول على المساندة الدبلوماسية والمساعدة التقنية من أوروبا وكان مستعدًا في سبيل ذلك لإصدار الفرمانات للأفراد والقناصل الأوروبيين للسماح لهم بالبحث والكشف عن الآثار في أي مكان يطلبونه. والحكايات كثيرة عن التجاوزات الكبيرة التي حدثت في السنوات الأولى من حكم محمد علي والتي نهبت فيها الآثار، والتي قام بالنصيب الأكبر منها قنصلا بريطانيا وفرنسا هنري سولت وبرناردينو دروفيتي واللذان كانا يستخدمان مقاولين من الباطن للكشف عن الآثار وتهريبها والإتجار فيها وبيعها للمتاحف الأوروبية. وكانت تجارة الآثار في عشرينيات القرن التاسع عشر في أوجها والتسارع للحصول عليها كبيرًا شارك فيه بالإضافة إلى سولت ودروفيتي الكثير من المغامرين والذين كان من بينهم قناصل بعض الدول كالنمسا وبلجيكا وغيرهما. وفي سنوات هذا العقد كان محمد علي كريمًا في إهدائه الكثير من الآثار إلى الدول الأوروبية. وتقف المسلتان المصريتان بميدان الكونكورد بباريس وعلى ضفاف نهر التيمس بإنجلترا مثالاً على هذا الكرم الذي كان هذا الحاكم مستعدًا لإبدائه نظير مساندة هذه البلاد لسياساته، كما أن هذا الحاكم بدا وكأنه على غير اهتمام بالحفاظ على آثار مصر في هذه الفترة المبكرة من حكمه، فقد غض الطرف عن أعمال الهدم التي تمت للكثير من المعابد القديمة لاستخدام أحجارها في بناء المصانع أو تكسية قنوات الري التي كانت تشق في أرض الدلتا. وكاد معبد دندرة أن يهدم وأن تستخدم حجارته في بناء مصنع للنسيج بجواره. وفي سنة ١٨٣٠ أرسل شامبليون التماسًا إلى محمد علي يطالبه فيه بالحفاظ على الآثار وعلى معابد مصر القديمة والتي قال في رسالته إن ثلاثة عشر منها قد تهدم منذ خروج الحملة الفرنسية من مصر، ولا يستطيع المرء أن يحكم على جدية هذا الالتماس أو عن مغزاه، فالأغلب أنه كان موجهًا لمحمد علي للتوقف عن هدم المعابد واستخدام أحجارها في بناء المصانع التي كان يقيمها ولم يكن موجهًا للأجانب الذين كانوا يقومون بتهريب الآثار والتي كان الأوروبيون يظنون أن مكانها ينبغي أن يكون في بلادهم، وقام شامبليون بنفسه وبعد سنوات قليلة من تقديم الالتماس بقطع لوحة بديعة من معبد سيتي نقلها إلى متحف اللوفر بباريس.



ابن بطوطة لم ير في آثار الأقصر شيئًا يستحق أن يذكر غير قبر الصالح العابد أبو الحجاج الأقصري!

وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدأت علاقة محمد علي بأوروبا تتوتر ومساندتها له تقل مما دعاه إلى إعادة النظر في سياسته نحو الآثار والتي يبدو أنه تبين أهميتها في بناء الهوية القومية التي أساء استثمارها لمواجهة ما يمكن أن تدبره له أوروبا من أخطار، وفي سنة ١٨٣٥ رأى أن يقبل نصيحة رفاعة الطهطاوي بحفظ آثار مصر بداخلها وأن يصدر مرسومًا يقضي «بمنع تصدير الآثار وجمعها في متحف بالعاصمة من أجل أن يراها زوار البلاد» كما يقضي «بمنع هدم الآثار وبذل كل الجهد للحفاظ عليها». وأرجع محمد علي عملية هدم الآثار إلى الأجانب والذين «لو تركوا لشأنهم لما تبقى شيء منها بمصر». وأن المرسوم أن تذهب كل الآثار التي تجمع إلى رفاعة الطهطاوي ناظر مدرسة الألسن بالأزبكية، والذي كلف هو «جوزيف هككيان» الأرمني والذي لعب دورًا هامًا في تاريخ جمع الآثار المصرية ويوسف ضيا أفندي ببناء المتحف والتفتيش على الآثار. وقد بدأ يوسف ضيا عمله بالفعل بالصعيد وأخذ يرسل الآثار التي يكشف عنها إلى القاهرة تمهيدًا لوضعها في متحف مركزي. ووقفت كافة الدول الأوروبية ضد تنفيذ هذا المرسوم ووصفته فرنسا بأنه غير جاد وأنه وضع للانتقام منها ومنع قنصلها ميمو Mimaut من جمع الآثار وحفظها من تبديد محمد علي الذي اتهمته بأنه المسئول الأول عن هدم المعابد المصرية التي حدث بالفعل هدم البعض منها بعد صدور المرسوم مباشرة واستخدام حجارتها في بناء المصانع. ومما زاد من صدق الفرنسيين ما أعلنه محمد علي بنفسه بعد عام واحد من صدور المرسوم عن نيته لاستخدام حجارة أهرام الجيزة في بناء القناطر الخيرية، وهو الأمر الذي لا يعرف على وجه اليقين إن كان جادًا فيه أم لا ولكنه أخذ على محمد علي مما دفع القنصل الفرنسي ميمو إلى توجيه خطاب إليه يطالبه بالحفاظ على الأهرام فهي «بالنسبة للأوروبيين إحدى عجائب الدنيا السبع والأثر الموقر الذي يعتبر ملكًا لكافة الشعوب وعلى الأخص الشعب الفرنسي الذي وقف على قمته نابليون مخاطبًا جنوده ومذكرًا إياهم بأن أربعين قرنًا تنظر إليهم، إن الأهرام وديعة تركها العالم القديم في أرض مصر للإنسانية جمعاء ينبغي أن تحفظ لها».

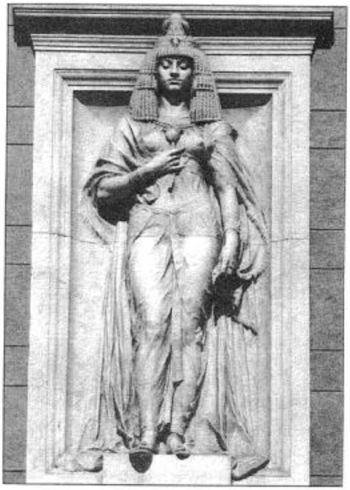
ولم يقدر لمرسوم سنة ١٨٣٥ أن يطبق، فقد واصل الأوروبيون بعد إصداره جمع الآثار وتهريبها إلى بلادهم كما استمر هدم الآثار لاستخدام حجارتها في بناء المصانع والمنافع العامة، ومع ذلك فيمكن القول إن مجرد صدوره كان بمثابة الاعتراف من قبل الحكومة المصرية بالحاجة إلى القيام بعمل شيء لوضع حد للتدمير الذي نال الآثار كما كان نجاحًا لمثقفي مصر بقيادة رفاعة الطهطاوي للمطالبة بأن يلعبوا دورًا في دراسة وحفظ آثار بلادهم.

آثار مصر في عصر خلفاء محمد علي

وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت مصر بقيادة محمد علي ترفض الدخول في شبكة المواصلات العالمية التي بدأت تمد في ذلك الوقت باختراع القطار والمراكب البخارية والتلغراف. وغير ذلك من وسائل النقل والمواصلات الحديثة، لذا فقد ظلت بعيدة عن رجل أوروبا العادي وصناعة السياحة التي بدأت تظهر في ذلك الوقت ـ ولم يبدأ السواح والأجانب في التدفق على مصر بأعداد كبيرة إلا بعد وفاة محمد علي وإنشاء هذه الشبكة التي بدأ فيها عندما تولى عباس حلمي الأول حكم مصر في سنة ١٨٤٨ وقبوله العرض البريطاني الذي كان محمد علي قد رفضه لمد خط حديدي بين القاهرة والإسكندرية ومجيء سعيد باشا من بعده إلى كرسي الحكم في سنة ١٨٥٤ وإعادته للنفوذ الفرنسي الذي كان قد راج إبان حكم سلفه وقبوله عرض الفرنسيين بشق قناة السويس لإيصال البحرين الأبيض والأحمر.. وهو العرض الذي كان قد رفضه محمد علي أيضًا.. وبدخول مصر شبكة المواصلات العالمية والتوسع في مد الخطوط الحديدية زادت معرفة العالم بها وبآثارها وبدأت تتدفق عليها أفواج السائحين والتجار والمغامرين بأعداد كبيرة.

ولم يأت هذا التدفق الكبير إلى مصر مباشرة فقد كان عهد عباس منغلقًا، طورد فيه الفرنسيون وأنصارهم وأوقف العمل في الآثار وأغلقت المدارس على مختلف أنواعها بما فيها مدرسة الألسن والمتحف الصغير الذي ألحق بها ونفي ناظرها رفاعة الطهطاوي إلى الخرطوم. ولم يحدث الانفتاح الكبير على العالم وعلى أوروبا إلا بعد أن تولى الحكم سعيد باشا الذي أعاد الفرنسيين إلى مصر وعمل على إرضاء حكام أوروبا وبدأ طريق الاستدانة من بيوت المال الأوروبية.. أما عن الآثار فقد كان سعيد باشا كريمًا بها فقد أهدى بعض معروضات المتحف الذي كان قد أسسه محمد علي وانتقل إلى مدرسة المهندسخانة بعد إغلاق مدرسة الألسن إلى السلطان عبدالعزيز الذي لم يكن يعرف عنه اهتمامه بالآثار، ثم قام بإهداء كل المتحف إلى صديقه أرشيدوق النمسا ماكسميليان في سنة ١٨٥٥.. وتوجد هذه المجموعة من الآثار الآن في متحف الفن بفيينا Kunsthistorischen Museum.

وأعاد سعيد باشا رفاعة الطهطاوي من منفاه بالخرطوم إلى منصبه القديم كما أعاد فتح الباب أمام الأوروبيين الراغبين في البحث عن الآثار. وفي سنة ١٨٥٠ وصل إلى مصر عالم الآثار ماريت، ليبدأ رحلة استمرت بمصر حتى مماته سنة ١٨٨١، وكان لها أكبر الأثر في تاريخ علم الآثار بمصر، عاصر خلالها العديد من الأحداث والشخصيات التي لعبت أهم الأدوار فيه.. وكان ماريت قد وصل إلى مصر



المتحف المصرى وتصميمه بمثابة تذكرة للمصريين بأن آثارهم حتى ولو تم عرضها ببلادهم، لازالت فى غير أيديهم

فى مهمة لجمع مخطوطات الأديرة القبطية لصالح المتحف الوطنى بفرنسا فلما فشل فى هذه المهمة بسبب الموقف الحازم الذى اتخذه بطريرك الأقباط بمنع دخول الأجانب الأديرة بعد السرقة الكبيرة لمخطوطاتها والتى حدثت لصالح المتحف البريطانى قبل وصول مارييت بسنوات. انتقل للبحث فى منطقة سقارة حيث تبين له أن يكتشف معبد السرابيوم من تحت الرمال التى كانت قد ردمته. ونال مارييت بسبب هذا الاكتشاف شهرة كبيرة أعطى بعدها امتياز للحفر والحق فى استخدام المئات من عمال السخرة بفرمان من سعيد باشا. وفى سنة ١٨٥٨ تم تعيينه بالحكومة المصرية وكلف بإنشاء المتحف والذى عادة ما يعاد فضل إنشاؤه إليه ودون أى ذكر للمحاولة التى قام بها محمد على ورفاعة الطهطاوى قبل ذلك بسنوات عديدة والتى سبقت فيها مصر الكثير من الدول الأوروبية ذاتها.. وبزغ نجم مارييت خلال عمله بمصر والذى استمر حتى وفاته.. فبالإضافة إلى ما قام به من أعمال فى المتحف المصرى، فقد كان مسئولاً عن اشتراك مصر فى المعارض الدولية وفى تنظيم احتفالات افتتاح قناة السويس وكتابة نص كلمات أوبرا عايدة.. وكان ماريت موزع الولاء فهو من جهة موظف الحكومة المصرية التى أراد أن يخدمها ومن جهة أخرى مواطن فرنسى وطنى مخلص لبلده الذى كانت سياساته هى الحد من استقلال مصر تمهيدًا لضمها إلى أملاكها.. وقد تزامن إنشاء المتحف فى مصر مع نشأة الكثير من المتاحف فى أوروبا والتى كانت تقام بها كرمز للقوة والعزة القومية والرأسمالية التى كانت توجه سياسة أوروبا فى ذلك الوقت.. أما فى مصر فقد ساعد الأوربيون على إنشاء المتحف فيها بغرض استخدامه كإحدى الأدوات لاختراق مصر تمهيداً للاستيلاء عليها.. وبطبيعة الحال فلم يكن للمتحف المصرى نفس الأهمية والظهور الذى كان للأدوات الأخرى التى استخدمت فى هذا المجال كقناة السويس أو تجارة القطن أو القروض الدولية أو الامتيازات الأجنبية أو القضاء المختلط.

وعلى الناحية الأخرى فقد كانت هناك الحركة الوطنية البازغة والتى أراد فيها الوطنيون أن يستخدموا الآثار والمتحف الناشئ للتعبير عن الإرادة الوطنية ولكى يكون أداة من أدوات الاستقلال والعزة القومية.. ويمكن القول أن الخديوى إسماعيل كان راعيًا لهذه الحركة التى لعب فيها رفاعة الطهطاوى دورًا رائدًا.. وأفلح إسماعيل فى أن ينشئ مدرسة للمصريين لتعلم لغة مصر القديمة (مدرسة اللسان القديم) على الرغم من محاولات الأوروبيين لمنع إنشائها.. ففى سنة ١٨٧٠ كلف الخديوى هيزيس بروجسن عالم الآثار الألمانى الشهير بإقامة هذه المدرسة والتى حاربها ماريت منذ إقامتها وحتى أفلح فى إغلاقها بعد خمس سنوات من افتتاحها ولكن بعد أن كان قد تخرّج منها الأثرى الكبير أحمد كمال (١٨٥١ - ١٩٢٣) وآخرين. ويمكن القول أن عصر إسماعيل شهد نهضة كبرى كما شهد مولد برجوازية مستنيرة كان من الممكن أن يكون لها أكثر الأثر فى بناء مصر الجديدة والقوية لولا الهزيمة التى لحقت بهذا العصر بسبب الأزمات المالية والسياسية والاجتماعية الاقتصادية التى حلت به والتى أدت إلى احتلال مصر، ومن التبسيط المخل أن يقال أن هذه الهزيمة جاءت فقط بسبب سياسة إسماعيل المالية وقبوله الاستدانة من الدول الأوروبية على مقاييس واسعة. فالحقيقة هى أن مصر كانت مستهدفة للاستيلاء عليها من دول أوروبا التى كانت فى أوج توسعاتها الاستعمارية فى ذلك الوقت.

وفى خلال حكم إسماعيل تأسست الكثير من معاهد العلم والثقافة: دار الكتب والجمعية الجغرافية ودار الأوبرا والمسرح القومى ومدرسة دار العلوم، كما أعيد تنظيم التعليم وانشئت المدارس التجهيزية والثانوية الحديثة وظهرت الصحافة وانشئ مجلس للنواب وشاركت مصر فى المعارض والمؤتمرات العلمية الدولية، وفى حقل الآثار كان الطهطاوى وعلى مبارك وأحمد كمال يمثلون الأجيال المتعاقبة من المصريين التى بدأت العمل فيه على الرغم من الصعوبات البالغة التى كان يضعها ماريت أمامهم، وأصبح المتحف المصرى الذى تأسس فى بولاق سنة ١٨٥٨ وافتتح فى سنة ١٨٦٣ وانتقل إلى مبناه القائم اليوم فى سنة ١٩٠٢ مركزاً يتعرف فيه الوطنيون على هويتهم.. وكان كتاب الطهطاوى «أنوار الجليل» الذى سبق الحديث عنه فتحًا جديدًا فى كتابة التاريخ بالعربية فقد اعتمد ولأول مرة على الوقائع والكتابات القديمة التى كانت قد فكت رموزها بدلاً من النقل عن الكتب السابقة دون تمحيص.

الاحتلال البريطانى والاتفاق الودى لسنة ١٩٠٤:

ولم يمس احتلال مصر فى سنة ١٨٨٢ ودخولها ضمن أملاك الامبراطورية البريطانية الطريقة التى كان علم الآثار يدار بها إلا أن اهتمامًا أكبر أعطى للكلاسيكيات وللتاريخ اليونانى الرومانى والذى كان حتى ذلك التاريخ مهملاً ولم يكن ضمن اهتمامات المصريين.. وربما عاد اهتمام البريطانيين بالكلاسيكيات إلى بناة الإمبراطورية كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للإمبراطورية الرومانية وحراس الحضارة الإغريقية القديمة التى كانت دراساتها تشكل مادة أساسية فى مناهج مدارسهم وجامعاتهم.. وكان جلادستون رئيس وزراء بريطانيا الذى أعطى الأمر للجيش البريطانى بغزو مصر أستاذًا فى علم الكلاسيكيات وصاحب مؤلفات كثيرة عن هومر وغيره من كبار مفكرى الإغريق واللاتين الأقدمين. كما كان كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر من نفس هذه المدرسة. ويعود الاهتمام أيضًا بهذا العصر إلى الجاليات الأجنبية الكبيرة التى بدأت تنشأ فى مصر فى ذلك الوقت وعلى الأخص بمدينة الإسكندرية، والتى كان اليونانيون والإيطاليون يحتلون الجزء الأكبر فيها والتى لابد أن شدها الاهتمام بآثار بلادها الأصلية التى كانت تشهد حركات تحرير وطنية.. ولعبت هذه الجاليات دورًا مهمًا فى تمويل وإنشاء متحف الآثار اليونانية الرومانية بمدينة الإسكندرية والذى افتتح فى سنة ١٨٩٢ بحضور الخديوى عباس حلمى الثانى.. وكان للمتحف مدير إيطالى تعينه بلدية الإسكندرية التى كانت مسئولة عنه حتى منتصف القرن العشرين عندما ضم إلى مصلحة الآثار.. ولابد من التنويه هنا إلى أن المصريين بدأوا يعون أهمية هذا العصر بل أهمية دراسة الكلاسيكيات فى هذه السنوات أيضًا.. وفى سنة ١٨٧٢ نشر العالم المصرى الفذ محمود الفلكى (١٨١٥ - ١٨٨٥) نتائج أبحاثه وحفائره عن مدينة الإسكندرية القديمة فى مجلد نشر باللغة الفرنسية لايزال يعتبر مرجعًا مهمًا عن التاريخ اليونانى الرومانى القديم لهذه المدينة.. وبعد ذلك بأعوام نشر على مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣) فى كتاب «الخطط» فصولاً عن هذا العصر.. ثم جاءت ترجمة الكلاسيكيات اليونانية إلى العربية والتى كان من روادها سليمان البستانى وجورجى زيدان ثم لطفى السيد من بعدهما ونهاية بطه حسين رائد الدراسات الكلاسيكية فى مصر ومؤسس مدرستها العتيدة فيها.

ولم يغير كرومر من عمل مصلحة الآثار التى ضمها إلى نظارة الأشغال العمومية وتركها فى أيدى الفرنسيين والتى كان قد اختير لإدارتها عالم الآثار ماسبيرو (١٨٤٩ - ١٩١٩) بعد وفاة ماريت سنة ١٨٨١.. وكان ماسبيرو وقت اختياره مديرًا للبعثة الفرنسية بمصر، والتى كانت قد تأسست فى سنة ١٨٨٠ وسميت بالمدرسة الفرنسية بالقاهرة ثم المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى سنة١٨٩٨ وهو المعهد الذى لايزال قائمًا حتى اليوم.. وقد لعب هذا المعهد دورًا مهمًا فى ميدان الآثار فى مصر وتميز بإصداراته المرجعية من بحوثه وكشوفه والتى كانت تطبع بمطابعه الحديثة بالقاهرة وكذلك بسبب صلته الوثيقة بمصلحة الآثار فقد خرج من بين علمائه جميع مديرى هذه المصلحة وحتى سنة ١٩٣٦ (باستثناء دى مورجان الذى شغل المنصب لخمس سنوات بين سنتى ١٨٩٢، ١٨٩٧).

وربما عاد عدم تدخل كرومر فى أعمال مصلحة الآثار وعدم تشجيعه لإنشاء معهد بريطانى لدراسة الآثار بمصر كذلك الذى أنشأته فرنسا وألمانيا بعد ذلك بسنوات إلى أنه كان يسعى لإرضاء فرنسا حتى يمكن الحصول على موافقتها مع استيلاء بريطانيا على مصر وهو الأمر الذى تم بالفعل بعد ذلك بسنوات فى الاتفاق الودى الذى أبرم فى سنة ١٩٠٤ والذى يعرفه العرب باتفاق سايكس - بيكو وفى هذا الاتفاق وافق البريطانيون على بقاء إدارة مصلحة الآثار المصرية فى يد الفرنسيين.. ولاشك أن السياسة البارعة التى اتبعها ماسبيرو فى إدارة مصلحة الآثار قد ساهمت فى نجاح سياسة كرومر فى الوصول إلى هذا الاتفاق. فقد غيّر ماسبيرو سياسة المواجهة التى كان يسير عليها سلفه ماريت وفتح الباب أمام البعثات البريطانية التى كانت تمول فى ذلك الوقت من صندوق خاص Egypt Exploration Fund.. وفى هذه الفترة برز الأثرى البريطانى الشهير فلندرز بترى باكتشافاته الكبيرة التى سلك فى الوصول إليها طرق البحث العلمى.. كما فتح الباب أمام البعثات الألمانية وعين مساعدًا له هنرى بروجسن الألمان.. وكانت ألمانيا فى ذلك الوقت ترنو أن يكون لها موضع قدم فى مصر خاصة بعد أن توحدت وأصبحت قوة عسكرية لا يستهان بها وقوة علمية وثقافية مهيبة ببروز نجم معاهدها العلمية وجامعاتها.. ولابد من التنويه هنا إلى أنه كان لألمانيا (أو بروسيا) وجود كبير فى أوائل القرن التاسع وقت نشاط الأثرى الكبير لسبيوس.. وقد توج النشاط الأثرى الألمانى بإنشاء المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة فى سنة ١٩٠٥.

أما أكبر الأثر الذى تركه ماسبيرو فقد كان فى فتحه الباب أمام المصريين للدخول فى حقل الآثار، وكان أحمد كمال خريج مدرسة اللسان القديم التى أسسها بروجسن فى سنة١٨٧٠ ولم يقدر لها أن تستمر أول أثرى مصرى يعين فى مصلحة الآثار.. وكان ماريت قد نجح فى إغلاق هذه المدرسة وعدم الاعتراف بها ومنع تعيين خريجيها، لذا فقد ظل أحمد كمال يتنقل بين مختلف الوظائف وحتى التحاقه بالعمل بمتحف بولاق كمترجم فى سنة ١٨٨١.. وبعد تعيينه بشهور لم



من يملك التاريخ؟

كان محمد على فى مبدأ توليه حكم مصر ولسنوات طوال يستخدم الآثار للمساومة بها للحصول على المساندة الدبلوماسية والمساعدة التقنية من أوروبا وكان مستعداً فى سبيل ذلك لإصدار الفرمانات للأفراد والقناصل الأوروبيين للسماح لهم بالبحث والكشف عن الآثار فى أى مكان يطلبونه

اسمه بسبب ما أداه لإنقاذ موميـاوات ملوك الفراعنة التى كانت قد أُخفيت فى إحدى مغارات الجبل المطل على الدير البحرى بالأقصر فى عهد الأسرة الواحدة والعشرين من التبديد الذى لحقها من أسرة عبدالرسول التى كانت قد كشفتها وحرصت على إخفاء سرها وأخذت تبيع مومياواتها الواحدة بعد الأخرى.. وصاحب أحمد كمال بروجسن فى مهمة إنقاذ هذه المومياوات والتى تمت بنجاح.. ولمع اسم أحمد كمال وكُلف بعمل مدرسة صغيرة داخلية للمصريات بالمتحف كان يُدرِّس فيها اللغة المصرية القديمة والفرنسية والتاريخ.. وكان هناك مدرسون آخرون يدرسون اللغة العربية والحساب والجغرافيا.. وأفلحت المدرسة فى الاستمرار خلال ثورة عرابى ودخول الإنجليز وحتى تخريج أول وآخر دفعة لها فى سنة ١٨٨٥.. وعُيِّن خريجوها بالمتحف فى وظيفة مفتشين مساعدين للآثار بمرتب قدره ستون جنيها فى السنة.. ورُقى أحمد كمال إلى وظيفة نائب مدير المتحف التى كان يشغلها بوريان فى سنة ١٨٩١ وبعد أن ظلت الوظيفة خالية لأكثر من ست سنوات شغل منصب مدير المتحف فى أعقاب استقالة ماسبيرو فى سنة ١٨٨٦ وحتى سنة ١٨٩٢.. وأغلب الظن أن ترقية أحمد كمال كانت بسبب رغبة جريبو فى تفادى تعيين بريطانى فى هذا المنصب، فقد وجد فى تعيين مصرى فيه سببًا وجيهًا يمنعه من تعيين بريطانى.

المصرى الآخر من خريجى مدرسة اللسان القديم والذى وجد مكانًا له فى حقل الآثار هو أحمد نجيب (١٨٤٧ - ١٩١٠) الذى قام بترجمة كتاب «أجرومية اللغة العربية» لبروجسن إلى اللغة العربية فكان بذلك أول من كتب بالعربية عن هذه اللغة القديمة.. واستفاد أحمد نجيب، كما استفاد من قبله أحمد كمال من التنافس الذى كان قائمًا بين فرنسا وانجلترا على قيادة علم الآثار فى الفترة التى ترك فيها ماسبيرو إدارة المتحف بين سنتى ١٨٨٦ و١٨٩٩ وعُيِّن بالمتحف حتى يمتنع تعيين إنجليزى فيه.. وقد عمل ماسبيرو عند عودته لإدارة المتحف فى سنة ١٨٩٩ وحتى وفاته فى سنة ١٩١٦ على إزالة هذا التنافس والذى مهد به لعقد اتفاق سنة ١٩٠٤ الودى.

الآثار العربية والإسلامية،

كان من أثر توسع القاهرة فى عصر إسماعيل وانتقال نخبها للعيش فى المناطق الجديدة التى تم تخطيطها وزودت بخطوط المياه والأنوار وشقت فيها الطرق الواسعة وربطت بطريق النيل بإقامة كوبرى قصر النيل، إهمال القاهرة القديمة وما حوته من آثار عربية وإسلامية مما دعا الخديوى إسماعيل إلى إنشاء لجنة للحفاظ على هذه الآثار فى سنة ١٨٦٩، عُيِّن لإدارتها المهندس المعمارى جوليس فرانز الألمانى والموظف بإدارة الأوقاف التى كانت تتبعها هذه الآثار. وقام فرانز بجمع بعض الآثار وعرضها بجامع الظاهر بيبرس بالقاهرة.. إلا أن عمل اللجنة سرعان ما تعثر بسبب الأزمة المالية التى حاقت بالبلاد مما دعا المؤتمر الدولى للمستشرقين إلى دعوة الحكومة المصرية للموافقة على إنشاء لجنة مشتركة للعمل على الحفاظ على هذه الآثار وقَبِلَ الخديوى توفيق الدعوة وتشكلت اللجنة من عدد من المهتمين بهذه الآثار، من المصريين والأجانب فى سنة ١٨٨١ وأثناء أحداث الثورة العرابية.. وعندما احتل الإنجليز مصر أُعيد تشكيل اللجنة بعد أن أُبعِدَ عنها محمود سامى البارودى وغيره من أنصار الثورة العرابية وإن كان قد أبقى فيها على مبارك ومحمود الفلكى بعد أن أظهرا ولاءهما للخديوى توفيق.. ودفع اللورد كرومر العمل باللجنة ودبّر لها من صندوق الدين ميزانية كافية لبناء متحف للآثار العربية والإسلامية ولدار الكتب وهو المبنى الذى أقيم على الطراز الإسلامى وافتتح فى سنة ١٩٠٣ بحضور الخديوى عباس حلمى الثانى والذى لازال قائمًا حتى اليوم بميدان باب الخلق بالقاهرة.

ولم يكن عمل اللجنة سهلاً فقد تنازعته مصالح الجهات المختلفة التى كانت تتشكل منها.. وكانت اللجنة تابعة لإدارة الأوقاف التى كان الخديوى توفيق ومن بعده عباس حلمى يحرصان على أن تتبعهما وأن تكون تحت سيطرتهما بسبب أن هذه الإدارة كانت تتيح لهما دخلاً لم يكن الحصول عليه محتاجًا لموافقة السلطة البريطانية الحاكمة.. وأدى هذا الحرص إلى كثير من النزاعات التى كان يثيرها رئيس وأعضاء اللجنة من موظفى إدارة الأوقاف مع زملائهم من أعضاء اللجنة من الأوروبيين ممن كان لهم جدول أعمالهم أو من أعضاء اللجنة من الوطنيين ممن كانوا يرغبون فى أن يجعلوا من هذه الآثار تراثًا قوميًا يثرى الحركة الوطنية.. وقد لعبت الصدفة فى أن يقوم بهذا الدور حسين فخرى وزير الأشغال ويعقوب أرتين ذو الأصول الأرمينية واللذان دفعا بالمصريين للعمل باللجنة وشجعا الحفاظ على الآثار من التبديد ومن سوء الاستخدام.. وكان أول من التحق بالعمل باللجنة من المصريين على بهجت (١٨٥٤ - ١٩٢٤) الذى كان قد بدأ اهتمامه بالآثار الإسلامية والعربية فى سنة ١٨٨٧ عندما قام بترجمة محاضر جلسات أعمال اللجنة التى كانت تكتب اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية بتكليف من أرتين الذى توسم فيه المستقبل الحسن وأرسله لدراسة هذه الآثار بالمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة والذى كان قد بدأ دراستها العلمية بوصول رائد هذه الدراسات السويسرى ماكس فان برشم Max Van Berchem ولمع اسم على بهجت بسبب كتاباته العلمية التى وجدت طريقها للنشر فى أمهات المجلات العلمية وبسبب حفائره فى منطقة الفسطاط التى أعاد اكتشافها ونبه إلى أهميتها التاريخية البالغة.

وأتاح قيام الحرب العالمية الأولى وعودة جوليس فرانز مدير المتحف إلى ألمانيا الفرصة أمام على بهجت لكى يصبح مديرًا لهذا المتحف فكان بذلك أول مدير مصرى له.

الآثار القبطية

جاء الاهتمام بالآثار القبطية متأخرًا، فلم تكن بتقسيمات التاريخ المصرى المعمول بها فترة قبطية بسبب أن أمور مصر لم تتولها أبدًا حكومة قبطية أو أمير قبطى سكت النقود باسمه أو كان مؤسسًا لأسرة حاكمة، وطبقًا لهذه التقسيمات فقط سقط المصريون من التاريخ على طول الفترة اليونانية الرومانية (٣٣١ قبل الميلاد - ٦٤١ ميلادية) والتى انتقلوا منها إلى الفترة الإسلامية مباشرة، ومما أسهم فى تأخر الاهتمام بالآثار القبطية وقوع معظمها بداخل آثار مصر القديمة ومعابدها التى كان قد احتلها المصريون عندما دخلوا الأماكن المسيحية وغيروا من معالمها وحولوها إلى أماكن لعبادتهم مما أحدث تشويهًا لهذه الآثار القديمة التى كان الاهتمام بها يسبق أى اهتمام آخر، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأقباط أنفسهم، مثلهم مثل باقى المصريين، لم يكونوا على اهتمام بآثار أجدادهم، ويروى مرقس سميكة فى مذكراته أنه دخل ذات يوم على البطريرك كيرلس الخامس فى سنة ١٩٠٨ فوجده مشغولاً بنزع الأغلفة الفضية لعدد من الأناجيل القديمة التى يعود تاريخها إلى القرنين الرابع والخامس عشر من أجل تذويبها وإعادة استخدامها. وقد استطاع مرقس سميكة أن يقنع البطريرك بألا يفعل ذلك وأن يتركها سليمة لتصبح نواة لمتحف قبطى.

واستطاع مرقس سميكة (١٨٦٤ - ١٩٤٤) بفضل مثابرته أن يقوم - ربما يكاد أن يكون عملاً فرديًا - بإنشاء المتحف القبطى الذى افتتح فى سنة ١٩٠٨. واستطاع سميكة أن يحصل على مساندة البابا كيرلس الخامس الذى تولى كرسى البطريركية لأكثر من ثلاث وخمسين سنة (١٨٧٤ - ١٩٢٧) بعد أن هادنه وتوقف عن نقده بسبب موقفه ضد حركة الإصلاح الدينى التى كان قد بدأها سلفه البابا كيرلس الرابع فى خمسينيات القرن التاسع عشر والتى كان مرقس سميكة أحد أبنائها من أشد المؤيدين لها، وشهدت فترة البابا كيرلس الخامس نزاعًا مستمرًا بين البطريرك والعلمانيين أعضاء المجلس الملى والداعين إلى الإصلاح، وكافأ البطريرك سميكة بالموافقة على بناء المتحف وعلى إعطائه المبنى التاريخى الذى يقع فيه اليوم وعلى السماح له بزيارة الكنائس والأديرة على طول البلاد وحتى الخرطوم لانتقاء ما يصلح من مقتنياتها للعرض به. أما عن تمويل المتحف فقد استطاع سميكة أن يحصل عليه عن طريق التبرعات التى جاءته من أعيان الأقباط والمسلمين وكذلك من لجنة الآثار العربية التى وافقت على رعاية المتحف ومده بإعانة مالية سنوية، ويعتبر المتحف القبطى الوحيد من بين متاحف مصر الذى أقيم ومول بجهد شعبى وظل شبه مستقل حتى دخوله مصلحة الآثار وافتتاحه رسميًا بحضور الملك فاروق فى سنة ١٩٤٦.

ويمكن القول إن ظهور المتحف القبطى كان تعبيرًا عن خروج الأقباط من نظام الملة وانتقالهم إلى نظام المواطنة الكاملة فى إطار الدولة القومية فقد اكتشفوا عن طريقه أن لهم تاريخًا أكثر مجدًا وإثارة للفخر من ذلك الذى عاشوا فى ظله على طول تاريخهم، والذى لم يعرف غير المساكين والمضطهدين من الشهداء أو رهبان الصحراء، فقد رأوا فيه مجدًا يصلهم بحضارة الفراعنة العظيمة، وبهذه الرؤية الجديدة دخل الأقباط الحركة الوطنية مرتفعى القامة وأكثر ثقة بالنفس ودون خوف من الاندماج الكامل فى الوطن الكبير والجديد الذى كان يتشكل فى ذلك الوقت.

الخلاصة

كتاب فراعنة من؟ كتاب موثق يعالج تاريخ الكشف عن الآثار المصرية فى إطار تاريخ مصر الحديث ويثير قضايا كثيرة ويفتح الباب واسعًا لإعادة التفكير فيما حمله الكشف عن حضارة مصر القديمة المبهرة من نزاع بين كاشفيها من الأوروبيين الذين اعتبروا أن من حقهم الاحتفاظ بها لأنفسهم والوطنيين من أحفاد بناة هذه الحضارة والذين اعتبروها ملكًا لهم ونقطة ارتكاز لبناء وطنهم الجديد، وهو كتاب يعالج أيضًا أزمة البحث العلمى عندما تتعارض دوافع وولاءات القائمين به مع أسسه الراسخة فى العالمية والموضوعية وعندما يستخدم كأداة لتحقيق أهداف هى أبعد ما تكون عن أسسه المثالية، وعلى الرغم من أن الكتاب يعالج فترة القرن التاسع عشر إلا أن فى قراءته فائدة كبرى لمن يريد أن يعتبر، فالكثير مما يحدث أمامنا اليوم فى مصر قريب جدًا مما حدث خلال ذلك القرن. ■

كيف تحرر علم الآثار المصرية من السيطرة الأجنبية؟

رءوف عباس

لازالت الآثار المصرية القديمة تخلب لب العالم، وتثير اهتمام الرأى العام المعنى بالتراث الإنسانى، ولا أدل على ذلك مما شهده صيف هذا العام من متابعة عالمية للجهود الأخيرة التى بذلك للكشف عن إحدى حجرات الهرم الأكبر، استخدمت فيها أحدث الأساليب التقنية، ورعتها أهم هيئة علمية دولية. ولا عجب أن نسمع أن هذا الحدث قد حظى بأعلى نسبة مشاهدة للبث التليفزيونى، رغم أنه لم يكشف عن جديد مثير، ورغم أن البث تم فى غضون الأيام السابقة على ذكرى كارثة ١١ سبتمبر التى ركزت عليها آلة الإعلام الدولى. هذا فضلاً عما أثارته التجربة ذاتها، والوسائل المستخدمة فيها من جدل على الصعيد العلمى بين مؤيد ومعارض، مما يعكس مدى «الولع» بالآثار المصرية التى لم تبح بكل أسرارها بعد.

أضف إلى ذلك، ما تخرجه المطابع من كتب بمختلف اللغات عن الحضارة المصرية القديمة، ولعلنا نذكر العمل المهم الذى وقع فى مجلدين بعنوان: «أثينا السوداء» الذى يرجع مؤلفه «برنال» أصول الحضارة الإغريقية إلى الحضارة المصرية القديمة، ملقيًا أضواء باهرة على دور «أكاديمية الإسكندرية» (التى نعرفها باسم مكتبة الإسكندرية) فى بلورة وإثراء العلوم والفلسفة فى العصر الهلينستى، والجذور المعرفية عند علماء ذلك العصر التى تغوص فى أعماق حضارة مصر القديمة. وقد أثارت هذه النظرية - ولازالت - الكثير من الجدل بين المتخصصين فى مختلف أرجاء العالم.

وبمعزل عن «أثينا السوداء»، بل وقبل صدور الكتاب بما يزيد على عقد من الزمان، التمس دعاة «النزعة الإفريقية Africanism»، وكذلك الأمريكيون السود (أو«الأمريكيين من أصل إفريقى» كما يطلقون على أنفسهم). التمسوا فى الحضارة المصرية القديمة تأصيلاً لتوجهاتهم السياسية، باعتبار الحضارات المصرية القديمة - أم الحضارات - إفريقية الهوية، عالمية العطاء.

ولم تنج الحضارة المصرية القديمة من ادعاء الصهيونية بأن لليهود الفضل فى بناء ما تركته تلك الحضارة العظيمة من آثار تقف شاهدًا على عبقرية صناعها، وهم يزعمون أن اليهود كانوا بناتها عندما استعبدهم المصريون قبل أن يبعث موسى «لتحريرهم». وزايد مناحم بيجن بتلك الفرية عندما حرص أن يطير فوق الأهرام ليشهد «عمل أجداده»، عند حضوره إلى مصر - لأول مرة - لمقابلة الرئيس السادات بالإسماعيلية، رغم أن الأهرام بنيت قبل ظهور العبرانيين فى التاريخ بما يزيد على الألفى عام.

وهكذا أصبح تراث مصر القديم - وسيظل - يحتل بؤرة اهتمام العالم، ودليلاً على عبقرية المصرى القديم وقدرته على الإبداع، غير أنه لقى الإهمال من أحفادهم قرونًا عديدة، ويرجع ذلك الإهمال إلى ظرف تاريخى محدد، يتصل باعتناق المصريين المسيحية، واتخاذها أداة فى النضال الوطنى ضد حكم الرومان، فقد أدى التحمس للدين الجديد والعقيدة الجديدة، إلى نبذ كل ما اعتبر وثنيًا. وبذلك حدث انقطاع بين ذلك التراث القديم والعقيدة الجديدة، نبذت فيه المعابد القديمة، وتعرضت نقوشها للتشويه، وكذلك بعض تماثيلها، وخاصة فى المعابد التى تحولت جوانب منها إلى كنائس فى صدر المسيحية. وزاد الانقطاع مساحة، فتحول إلى قطيعة عندما استقلت المسيحية المصرية بكنائسها وأديرتها، وبعدت عن المعابد القديمة.



السلة المصرية بميدان الكونكورد - باريس

ولكن تلك «القطيعة» مع الآثار القديمة، لم تكن قطيعة مع التراث الثقافى المصرى القديم الذى يكمن فى الإنسان ذاته، وليس فى الآثار المشيدة تعبيرًا عن إبداع ذلك الإنسان. وتجلى ذلك فى الموروث الثقافى من العادات والتقاليد، بل والإطار الإيمانى للمصرى، سواء كان قبطيًا أو مسلمًا (وأعنى بذلك ما يسميه علماء الاجتماع «الدين الشعبى»)، كما كانت اللغة القبطية تعترف من منهل اللغة المصرية القديمة، لتفيض - فيما بعد - فى اللهجة المصرية العامية من اللغة العربية.

وإذا كانت العرب قد أبقوا على الآثار المصرية القديمة - بعد فتح مصر - فلم يمسوها بسوء، ولم يكن لهم موقف معاد منها، فذلك يرجع إلى أنها لم تكن غريبة عليهم، فكم كانوا يرونها كلما جاءوا مصر تجارًا، وكم رأوا آثارًا أخرى فى الشام والعراق وفارس عندما ارتادوها تجارًا أيضًا. هذا فضلاً عن كونها «خرائب» لا تقام بها عبادات من أى نوع؛ تخالف ما جاء بالكتاب والسنة، وهكذا بقيت تلك الآثار تبغى الإهمال حتى تم فك طلاسم الكتابة المصرية القديمة (عام ١٨٢٢) بفضل جهود العالم الفرنسى شامبليون، ومولد علم الآثار المصرية (المصريات Egyptology).

ولعل القطيعة مع ماضى مصر الفرعونى، وما ترتب عليها من إهمال للآثار المصرية القديمة لما يقرب من ١٩ قرنًا من الزمان، كان وراء الآراء المتغطرسة التى روج لها من زاروا مصر من الرحالة الأوروبيين والمشتغلين بالاستشراق، فارجعوا هذا الإهمال للآثار إلى قصور متوارث فى الثقافة الإسلامية التى عدوها السبب الرئيسى لتخلف شعوب الشرق. ولا يتسع المجال - هنا - للخوض فى هذا الموضوع الذى يحتاج إلى معالجة خاصة، ويرتبط بمقولة «صراع الحضارات» بحبل سرى، واكتفى هنا بالإشارة إلى ما جاء بكتاب اللورد كرومر «مصر الحديثة» (نشر سنة ١٩٠٧)، وما جاء بمذكرات رونالد ستورس (السكرتير الشرقى بمصر، وحاكم القدس العسكرى زمن الحرب العالمية الأولى) التى نشرت عام ١٩٣٧ بعنوان: «توجهات Orientations»، من إشادة بفضل «الأوروبى المتحضر» الذى يعى قيمة هذه الآثار، ويحرص على الحفاظ عليها كتراث إنسانى، إنقاذًا لها من «جهل» و«تخلف» تلك الشعوب التى لا تدرك قيمتها، بل يبلغ الشطط ببعض كتاب الغرب حد إنكار إمكانية قيام مثل هذه الشعوب «المتخلفة» ببناء تلك الصروح الخالدة التى تعد من عجائب الدنيا. من ذلك ما رددته بعض الأقلام فى ستينيات القرن العشرين من أن بناة الأهرام جاءوا من كوكب آخر!

لكن ذلك لا يعنى أن «لا شىء يأتى من الغرب يسر القلب»، وأن جميع أهل الغرب نظروا إلى تراثنا وما نتج عن تقصيرنا فى رعايته، تلك النظرة السلبية، فهناك من وضعوا تراثنا الحضارى فى موضعه الصحيح من خلال الدراسة العلمية الدقيقة، وهناك من اهتم عند تاريخه لعلم الآثار المصرية بما بذل روادنا من جهد فى العناية بآثارنا فى مختلف العصور. من هنا تأتى أهمية كتاب صدر منذ ثلاثة أشهر كتاب جديد عن دار نشر جامعة كاليفورنيا بالولايات



المتحدة حمل عنوان: «فراعنة من؟ الآثار والمتاحف والهوية الوطنية المصرية من نابليون حتى الحرب العالمية الأولى»، ليسد فراغًا فى الدراسات التاريخية الخاصة بتاريخ العلوم، وتاريخ علم المصريات على وجه الخصوص، وهو مجال ندر التأليف فيه عمومًا، وغاب التأليف فيه عندنا.

ومؤلف الكتاب هو الصديق دونالد مالكولم ريد Donald Malcolm Ried أستاذ التاريخ بجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وتخصص منذ ما يزيد على ربع القرن فى تاريخ الثقافة العربية الحديثة، بدأه بكتاب عن فرح أنطون وريادته للعلمانية (نشر ١٩٧٥)، وثنى بكتاب عن «المحامين والسياسة فى العالم العربى ١٨٨٠ - ١٩٦٠» (نشر عام ١٩٨١)، وكان كتابه الثالث عن «جامعة القاهرة وصناعة مصر الحديثة» (نشر ١٩٩٠) وصدرت ترجمته العربية عن المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومى للترجمة) عام ٢٠٠١، والكتاب الذى بين أيدينا هو عمله الرابع المهم الذى شُغل بإعداده - فيما أعلم - فى السنوات العشر الأخيرة، وقضى بالقاهرة عامين متفرقين فى ١٩٨٨ و١٩٩٩ عكف خلالهما على جمع مادته العلمية، حتى استطاع أن يقدم للأوساط العلمية هذا الكتاب المهم الذى ينفرد به فى التاريخ لعلم المصريات، ولم يثبت دونالد ريد - بهذا الكتاب - تميزه بين المؤرخين الغربيين المتخصصين فى تاريخ مصر فحسب، بل أثبت تميزه كمصور ينافس المصورين المحترفين، فالكثير من الصور التى وردت فى الكتاب كانت من عمله، وهى على درجة عالية من المستوى الحرفى.

لقد سار علم الآثار - كما يلاحظ المؤلف - مع الامبريالية والهيمنة الغربية يدًا بيد، فهناك من علماء الغرب، ورحالته، وقناصله فى مصر وغيرها من البلاد التى كانت تخضع للدولة العثمانية، من كانوا يرون أن أهل البلاد لا حق لهم فى تلك الآثار التى يتم العثور عليها، فهم لا يقدرون قيمتها، ولا يعنيهم من أمرها إلا ما قد يدره عليهم بيعها من مال، والأولى بها الأوروبيون الذين يفردون لها الأماكن اللائقة بها فى متاحفهم باعتبارها تراث الإنسانية، فلا علاقة للمصريين أو العراقيين أو الفلسطينيين (المتخلفين) بما يتم العثور عليه من آثار فى بلادهم، فهى تخص حضارات أرقى، لا يمت إليها أولئك (الهمج) بصلة.

من هذه المقولة التى رددها المؤلف غير مرة فى فصول كتابه القيِّم، كان انطلاقه لتأليف الكتاب لدحضها، متخذًا من حالة مصر ومن علم المصريات مدخلاً للدراسة، فيبدأ - للوهلة الأولى - فى تلك الفرية التى كادت أن تصبح حقيقة مسلمة فى الثقافة الغربية، بل كانت كذلك (على أقل تقدير) فى القرن التاسع عشر. فيعدد دونالد مالكولم ريد كُتَّاب الخطط الذين ذكروا الآثار المصرية وقدموا وصفًا لها فى العصر الذى كتبوا فيه قبل القرن التاسع عشر بعدة قرون، ولكنه يلقى المزيد من الضوء على اهتمام الشيخ عبدالرحمن الجبرتى ورفاعة رافع الطهطاوى وعلى باشا مبارك، لا بالآثار وحدها، ولكن بتاريخ مصر القديم، وبين ما تدل عليه كتاباتهم من وعى بالقيمة التاريخية لما يقع على أرض مصر من شواهد أثرية تدل على تراثها الحضارى العريق.

ومن ثم يصبح اتهام المصريين خصوصًا والعرب عمومًا بعدم إدراك القيمة التاريخية للحضارات القديمة التى قامت فى بلادهم مجرد مبرر - من وجهة نظر المؤلف - لاستلاب المصريين آثارهم الثمينة لتعمر بها متاحف أوروبا، وتزدان ميادينها بالمسلات المصرية.

وإذا كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر يمثل عصر نضج الثورة الصناعية فى أوروبا، الذى شهد هيمنة غرب أوروبا على الأسواق العالمية لتصريف بضائعها واستثمار فائض رؤوس أموالها، وضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة بأبخس الأثمان، فهو العصر الذى لعب فيه الأوروبيون الدور الرئيسى فى وضع أسس «علم المصريات» وفى إرساء دعائم علم الآثار والعناية بها، وإقامة المتاحف فى مصر. ففيما بين عامى ١٨٥٨ و١٩٠٨ سيطر الأوروبيون على الإدارة التى عنيت بالآثار، وعلى المتاحف التاريخية الأربعة التى أقيمت خلال تلك الفترة: المتحف المصرى (الأنتيكخانة) الخاص بتاريخ مصر فى العصر الفرعونى، والمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية، والمتحف القبطى بمصر القديمة، ومتحف الفن العربى (الذى عُرِفَ بمتحف الفن الإسلامى فيما بعد). وهكذا سيطر الأوروبيون على الآثار المصرية فى نفس الوقت الذى كانوا يحكمون فيه السيطرة على مصر ذاتها من خلال الهيمنة على اقتصادها وماليتها ثم احتلالها.

لقد عرف المصريون علم الآثار عن طريق الأوروبيين، ولكنهم ما لبثوا أن عملوا على امتلاك ناصيته، وتوظيفه لخدمة أمانيهم الوطنية، وإذا كان سعيد باشا هو أول من أنشأ متحفًا للآثار الفرعونية عام ١٨٥٨ وإدارة للآثار رأسهما معًا ماريت بك الفرنسى، فقد أسس الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٩ أول مدرسة مصرية عليا لدراسة المصريات عُرفت باسم «مدرسة اللسان المصرى القديم» تولى (نظارتها) عالم الآثار الألمانى هنريش بروجش، والتحق بالمدرسة عشرة من الطلاب المصريين الذين اختيروا من بين المتفوقين فى اللغة الفرنسية، باعتبارها لغة التدريس بالمدرسة، وقد درس أولئك التلاميذ الكتابة المصرية القديمة واللغة القبطية، إضافة إلى الألمانية والإنجليزية، وتاريخ مصر القديم، وأصول علم الآثار. وإضافة إلى إدارته لهذه المدرسة وتكوينه للطلاب المصريين، قام هنريش بروجش بإلقاء محاضرات فى تاريخ مصر القديم بدار العلوم، كان يلقيها بالفرنسية، ويترجمها أحد تلاميذه أو معاونيه إلى العربية، ونشر بعضها بمجلة «روضة المدارس المصرية» التى رأس رفاعة الطهطاوى تحريرها. كذلك نشر بروجش جدولاً بملوك مصر القدامى، ومقالات فى أصول الكتابة المصرية القديمة بنفس المجلة، مما أتاح فرصة نشر المعرفة بالمصريات وتاريخ مصر القديم لأول مرة باللغة العربية. وتدرب الطلاب بمدرسة «اللسان المصرى القديم» على الحفريات الأثرية فى الصعيد.

وفى عام ١٨٧٢ تخرج فى أول مدرسة للآثار المصرية سبعة طلاب كان على رأسهم أحمد كمال (الذى أصبح أول عالم مصريات مصرى فيما بعد). ولكن ماريت باشا مدير الآثار رفض قبولهم للعمل بإدارة الآثار خشية أن يؤدى وجودهم فيها إلى إنهاء الوجود الأوروبى (خاصة الفرنسى) بالإدارة. وكان قد بدأ يضايق الطلاب منذ افتتاح المدرسة، فأصدر أوامره لموظفى المتحف بمنع الطلاب من نسخ النصوص المصرية القديمة. ولما لم يجد أولئك الخريجون مكانًا لهم فى مجال الآثار عينوا مدرسين ومترجمين للغتين الفرنسية والألمانية. وهكذا بددت السيطرة الأوروبية على إدارة الآثار الجهود التى بذلها إسماعيل لإعداد أول أثريين مصريين، فقد أغلقت مدرسة «اللسان المصرى القديم» فى نفس السنة التى تخرج فيها أولئك الطلاب السبعة.

ورغم ذلك أثمرت جهود المدرسة وناظرها، وما نشرته مجلة «روضة المدارس المصرية» من محاضرات الدكتور بروجش فى دار العلوم وغيرها من المقالات والدراسات التى نشرت مترجمة إلى العربية أو كتبها بعض طلاب المدرسة، أثمرت فى نشر الوعى بتاريخ مصر القديم بين المتعلمين ورجال السياسة، وتجلى ذلك فى الخطاب السياسى والثقافى الذى تغنى بمجد مصر القديم، سواء كان ذلك فى كتابات رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وميخائيل عبدالسيد، أو فى أحاديث السيد جمال الدين الأفغانى وأحمد عرابى وعبدالله النديم، أو فى تصميم الجناح المصرى فى معارض لندن وباريس والولايات المتحدة على النسق الفرعونى، أو فى اتخاذ الأهرام وأبى الهول رمزًا لمصر على طوابع البريد وغيرها، واتخاذ «الأهرام» اسمًا لأبرز الصحف التى صدرت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. هذا الوعى بالتراث المصرى القديم ما كان ليتحقق لولا ذلك الدور البارز الذى لعبته أول مدرسة للمصريات «مدرسة اللسان المصرى القديم» - رغم قصر عهدها - وساهمت فى نشره أهم مجلة ثقافية مصرية «روضة المدارس».

وساهم الأجانب المقيمون فى مصر - أيضًا - فى ذيوع الاهتمام بالتراث المصرى القديم، ففى عام ١٨٥٩ أسست مجموعة من نخبة الجاليات الأجنبية فى مصر «المجمع المصرى» بالإسكندرية، حيث كان الوجود الأجنبى كثيفًا. وجاء إنشاء «المجمع المصرى» مصاحبًا للبدء فى أعمال حفر قناة السويس، وقد كانت ذكريات «المجمع العلمى المصرى» الذى أقامه نابليون بونابرت فى مصر أيام الحملة الفرنسية، حاضرة فى أذهان مؤسسى المجمع المصرى، فأرادوا إحياءه تحت رعاية الوالى محمد سعيد باشا، ولكن ليصبح اهتمامه مركزًا على الآثار المصرية والتراث المصرى القديم. وتعاقب على رئاسته (فيما بعد ١٨٦١ - ١٩١٧) أربعة فرنسيين ثم خلفهم يعقوب باشا أرتين وكيل نظارة المعارف، وضم المجمع فى عضويته بالإضافة إلى الفرنسيين، انجليزًا، وإيطاليين وألمانًا، وكانت اللغات الأربع لغات معتمدة لمنشورات ومحاضرات المجمع، بينما كانت الفرنسية لغة مجلس الإدارة، وحدد المجمع هدفه بالعمل على «إحياء المعارف القديمة على ضفاف النيل، تلك المعارف التى تعود إليها عظمة مصر القديمة مهد الآداب والعلوم والفنون». وقد انتقل «المجمع المصرى» إلى القاهرة عام ١٨٨٠.

إذا كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر يمثل عصر نضج الثورة الصناعية فى أوروبا، فهو العصر الذى لعب فيه الأوروبيون الدور الرئيسى فى وضع أسس «علم المصريات»، وفى إرساء دعائم علم الآثار والعناية بها، وإقامة المتاحف فى مصر

لقد سار علم الآثار مع الإمبريالية والهيمنة الغربية يدًا بيد، فهناك من علماء الغرب، ورحالته، وقناصله فى مصر وغيرها من البلاد التى كانت تخضع للدولة العثمانية، من كانوا يرون أن أهل البلاد لا حق لهم فى تلك الآثار

ورغم أن الأجانب كانوا يمثلون أغلبية أعضاء «المجمع المصرى»، وجدت نخبة العلماء المصريين لنفسها مكانًا بين الأعضاء، وكان على رأس تلك النخبة رفاعة الطهطاوى وإلى جانبه على باشا مبارك ومحمود الفلكى (الذى كان العضو المصرى الوحيد بمجلس الإدارة).

وتجلى اهتمام «المجمع المصرى» بالآثار المصرية من اختيار ماربيت نائبًا للرئيس، وغلبة الموضوعات الأثرية على محاضرات المجمع ومنشوراته، فألقى ماربيت ومحمود الفلكى محاضرات حول تاريخ مصر القديم، وقدم الفلكى دراسة لفرع النيل الكانوبى الذى كان يصل فرع رشيد بالإسكندرية. وقد نشرت دراسات الفلكى بالفرنسية فى عدد من الدوريات العلمية الأوروبية الشهيرة عندئذ، وانضم أحمد كمال (أول عالم آثار مصرى) إلى المجمع عام ١٩٠٤.

كذلك اهتمت «الجمعية الجغرافية الخديوية» التى أسسها الخديوى إسماعيل عام ١٨٧٥، اهتمامًا جزئيًا بالآثار المصرية القديمة. وكانت تلك الجمعية تضم فى عضويتها أغلبية من الأجانب الممثلين للجاليات الموجودة - عندئذ - بمصر، على نحو ما رأينا فى «المجمع المصرى» ولكن تميزت «الجمعية الجغرافية الخديوية» بوجود أعضاء أمريكيين من الضباط الذين عملوا فى قيادة الجيش المصرى فى عهد الخديوى إسماعيل.

ويربط المؤلف بين اشتراك مصر فى المعارض الدولية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ورواج حركة السياحة الأوروبية والأمريكية المتجهة إلى مصر لمشاهدة الآثار المصرية، ويلفت المؤلف الأنظار إلى مواكبة الاهتمام بزيارة مصر مع بدء حركة السياحة الأوروبية الخارجية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، حيث نضجت مرحلة الرأسمالية الصناعية، واتسع نطاق الطبقة الوسطى ذات الدخول الكبيرة، وزاد ميلها إلى الاستمتاع بجانب من فائض مدخراتها فى السياحة الخارجية، وخاصة زيارة مصر وفلسطين حيث مهد الحضارة القديمة ومسرح الأحداث التى سجلها الكتاب المقدس.

فقد جاء اشتراك مصر فى «المعرض الصناعى الدولى الكبير» الذى أقيم بلندن عام ١٨٥١ بجناح صمم على الطراز الفرعونى، مثيرًا لاهتمام الأوروبيين والأمريكيين الذين جاءوا لزيارة أول معرض دولى يقام فى العالم، وبهرتهم مظاهر الحضارة المصرية القديمة التى عبر عنها الجناح المصرى»، وحدث نفس الأثر عندما اشتركت مصر فى «المعرض الدولى» الذى أقيم فى باريس عام ١٨٥٥، وكذلك عام ١٨٦٧، خاصة أن المعرض الأخير شهد جناحًا مصريًا متميزًا عبر عن التراث المصرى القديم ببعديه الفرعونى والإسلامى.

وبعد أن كان قدوم الأجانب إلى مصر مقصورًا على الرحالة والمغامرين وأعضاء البعثات التى جاءت إلى مصر بقصد جمع الآثار للإتجار بها فى أوروبا أو لحساب المتاحف الأوروبية، شهدت مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قدوم الأفواج السياحية التى نظمها بيت سياحى بريطانى ما لبث أن اكتسب شهرة عالمية كأول مشروع يعرفه العالم فى هذا المجال، ونعنى به «توماس كوك وولده»، الذى بدأ نشاطه عام ١٨٤١ بتنظيم رحلات داخلية بالقطار من وسط انجلترا إلى لندن، واتسع نشاطه مع إقامة «المعرض الصناعى الكبير» عام ١٨٥١، فزادت رحلاته الداخلية إلى لندن لمشاهدة المعرض، ثم نظم رحلات خارجية - لأول مرة - لزيارة معرض باريس ١٨٥٥، وكذلك رحلات لزيارة جبال الألب وإيطاليا وجاء تنظيم توماس كوك للرحلات السياحية إلى مصر ليحول هذا البيت السياحى إلى مشروع دولى كبير ربط أوروبا وأمريكا بمصر من خلال الرحلات السياحية التى قام بتنظيمها مستخدمًا السفن البخارية، ومبتدعًا خطوط البواخر النيلية، ومشجعًا ومشاركًا فى إقامة الفنادق لإقامة السيّاح بالأقصر وأسوان والقاهرة، ثم جاء امتداد الخطوط الحديدية إلى أسوان قبيل نهاية القرن ليساعد على اختزال زمن الرحلة، ومن ثم تخفيض تكلفة الرحلة، وزيادة أعداد الرحلات السياحية المتجهة إلى مصر. وهكذا صنع «توماس كوك وولده» إمبراطورية سياحية كبرى ظلت تسيطر على هذا المجال كبيت عائلى حتى تم بيعها لشركة «عربات النوم الدولية» لتتحول بذلك إلى شركة مساهمة عالمية (عام ١٩٢٦).

ويرتبط بظاهرة السياحة الخارجية التى كان الاهتمام بالآثار المصرية وراء قيامها وتطورها، ظهور نوع من المطبوعات لم يكن معروفًا من قبل، وهو «دليل السائح» الذى حمل بالإنجليزية اسم «كتاب اليد Hand Book»، وبالفرنسية اسم كتاب الجيب «livre de poche»، ففى ثلاثينيات القرن التاسع عشر طبع أول دليل سائح لمصر باللغة الإنجليزية وآخر بالفرنسية، وازداد العدد فى الستينيات من نفس القرن ليصبح أربعة بالإنجليزية وثمانية بالفرنسية، وظهر أول دليل بالإيطالية فى الستينيات، وبالألمانية فى السبعينيات، وعند نهاية القرن التاسع عشر، بلغ عدد أدلة السائح المنشورة بالإنجليزية ٣١ دليلاً، وبالفرنسية ١٥ دليلاً، وبالألمانية تسعة أدلة، وبالروسية دليل واحد. وهكذا صاحب ظاهرة الاهتمام بالسياحة الخارجية التى استقطبتها مصر ظهور وتطور صناعة الأدلة السياحية المطبوعة التى أصبحت عند نهاية القرن التاسع عشر تتنافس مع بعضها البعض من حيث تنوع المعلومات التى تهم السائح لا عن الآثار المهمة وحدها وإنما عن مصر ذاتها تاريخًا ومناخًا ومجتمعًا، إلى غير ذلك من معلومات، وكذلك بما تقدمه للسائح من خرائط ورسوم وصور إيضاحية، كذلك ارتبط بظاهرة السياحة الخارجية رواج اللوحات المرسومة باليد لمناظر من مصر كان يرسمها بعض السيّاح الأوروبيين، ثم يطبعونها ويبيعونها فى بلادهم أو يصدرونها إلى مصر لتباع للسيّاح. ومع ظهور التصوير الفوتوغرافى عند منتصف القرن التاسع عشر، بدأت تظهر صناعة طبع الصور التى تعبر عن الآثار المصرية ومظاهر الحياة فى مصر، وأتاح ذلك ظهور «البطاقات البريدية Post - Card» التى تحمل صورًا من مصر، ويرسلها السائح لأصدقائه عن مصر بالبريد وكان ذلك فى التسعينيات من القرن التاسع عشر.

ولم تكن زيارة المواقع الأثرية وحدها على جدول زيارات الأفواج السياحية الأوروبية والأمريكية التى كان يجلبها «توماس كوك وولده» إلى مصر، بل كانت زيارة المتحف المصرى بالقاهرة من أهم المواقع التى تتجه إليها أفواج السائحين، وكان المتحف قد أقيم - على نحو ما رأينا - عام ١٨٥٨ فى عهد سعيد باشا على شاطئ النيل عند بولاق (وهو الموقع الذى يقع الآن بين مبنى التليفزيون ومبنى وزارة الخارجية على كورنيش النيل). وكان اختيار الموقع يهدف إلى تيسير نقل الآثار التى ترد من الصعيد على المراكب النيلية، واشتمل المبنى على «مصلحة الأنتيكخانة» (التى كانت تابعة لنظارة الأشغال العمومية)، وصالات عرض التحف الأثرية، ومقر إقامة مدير الآثار. ولكن ما لبث المكان أن ضاق بمقتنياته وزواره، فتم نقل المتحف فى أواخر عهد الخديوى إسماعيل إلى قصر الحرملك بالجيزة (وكان يقع على مشارف حديقة الأورمان). واستمر هناك حتى أقيم له مبنى خاص بميدان الخديوى إسماعيل (التحرير الآن) وهو المبنى الحالى الذى افتتح فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى عام ١٩٠٢، وينوء الآن بما يحتويه من آثار بعد قرن من الزمان دون أن تسعى الحكومات المتعاقبة إلى التفكير فى إقامة متحف آخر إلا فى السنوات الأخيرة، ولم يتجاوز الأمر بعد حدود التفكير!!

وظلت الآثار الفرعونية وحدها موضع الاهتمام حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر عندما بدأ الاهتمام بالآثار اليونانية - الرومانية وكذلك الآثار العربية (الإسلامية) لتضاف بذلك نواة لمتحفين آخرين لهذين العصرين، وجاء الاهتمام بالعصر القبطى متأخرًا (فى أوائل القرن العشرين)، وأسفر ذلك الاهتمام عن إقامة المتحف القبطى، لتكتمل بذلك دور العرض المتحفى للآثار المصرية على مر العصور.

جاء الاهتمام بالعصر اليونانى - الرومانى من خلال البحث فى تاريخ مدينة الإسكندرية، ويعود إلى العالم المصرى محمود الفلكى فضل ريادة الحفائر الأثرية بالإسكندرية (عام ١٨٦٥ - ١٨٦٦) بهدف التحقق من بعض مواقع الإسكندرية القديمة، ونشر خريطة الإسكندرية القديمة محققة فى مجلة المجمع العلمى المصرى (١٨٦٨ - ١٨٦٩) مع تقرير بنتائج الحفائر، وقد نشر أيضًا بكوبنهاجن، وقد استفاد محمود الفلكى من خبرته كمهندس فى تحديد مواقع الحفر وتنفيذه فى وقت لم يكن قد عُرف فيه - بعد - الأصول العلمية والفنية لتنفيذ الحفائر الأثرية، ومن ثم كان عمل محمود الفلكى مبتكرًا فى هذا المجال، ولم يتابع أحد بعده الحفر بالإسكندرية بشكل علمى منتظم حتى نهاية القرن.

وفى ١٨٩١، أسس بعض الإيطاليين والإنجليز بالإسكندرية «الجمعية الأثينية» ونجحت الجمعية فى إقناع المجلس البلدى بالإسكندرية لاتخاذ قرار بإنشاء المتحف اليونانى - الرومانى، ومكتبة البلدية، ووافقت الحكومة على القرار بعد تردد لبعض الوقت، على أن يخضع المتحف لإشراف مصلحة الآثار المصرية، وتتحمل البلدية نفقات إقامته، وتأسست «جمعية آثار الإسكندرية» عام ١٨٩٣ لترعى إقامة المتحف دون أن يكون بين أعضائها مصرى واحد، بل ضمت نخبة الجاليات الأجنبية بالمدينة من المثقفين ورجال الأعمال، ونجحت الجمعية فى إقامة المتحف اليونانى الرومانى عام ١٨٩٧. وظلت إدارة المتحف بيد الإيطاليين حتى مطلع النصف الثانى من القرن العشرين، على حين ظلت إدارة «المتحف المصرى» بيد الفرنسيين حتى ذلك التاريخ أيضًا.

واستطاعت «جمعية آثار الإسكندرية» أن تجمع أموالاً كونت «صندوق الاكتشافات المصرية»، تم الإنفاق منه على الحفائر الأثرية المتعلقة بالعصر اليونانى - الرومانى، وشراء التحف لعرضها بالمتحف وكذلك أوراق البردى اليونانية التى تم جمعها من الحفائر.

أما عن الآثار الإسلامية، فيعود الاهتمام بها إلى «لجنة حفظ الآثار العربية» التى شكلها الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٩ بناء على اقتراح من مهندس نمساوى (أوجست سالزمان) لترميم مسجد الظاهر بيبرس، ولكن الأمر لم يتجاوز حد صدور

فى عام ١٨٧٢ تخرج فى أول مدرسة للآثار المصرية سبعة طلاب كان على رأسهم أحمد كمال (الذى أصبح أول عالم مصريات مصرى فيما بعد). ولكن ماريبت باشا مدير الآثار رفض قبولهم للعمل بإدارة الآثار خشية أن يؤدى وجودهم فيها إلى إنهاء الوجود الأوروبى



القرار بتشكيل اللجنة، ولم يتم دعوتها للانعقاد حتى نهاية عهد إسماعيل. وفى ديسمبر ١٨٨١ أعاد الخديوى توفيق تشكيل اللجنة من شخصيات أجنبية: إنجليز وفرنسيين وإيطاليين وألمان، وكانت اللغة المستخدمة فى أعمال اللجنة هى اللغة الفرنسية، وقد عقدت اللجنة أول اجتماعاتها فى فبراير ١٨٨٢، ثم تعطلت أعمالها بسبب حوادث الثورة المصرية ووقوع الاحتلال البريطانى لمصر، فاجتمعت فى ديسمبر ١٨٨٢ برئاسة ناظر الأوقاف محمد زكى باشا الذى أصبحت اللجنة تتبع وزارته. وظل عمل اللجنة مقصورًا على النظر فى ترميم المساجد القديمة التاريخية فى حدود الميزانية الفقيرة التى ظلت فى حدود ما يقل قليلاً عن أربعة آلاف جنيه سنويًا حتى عام ١٨٩٦ عندما قفزت الميزانية المخصصة لها إلى عشرين ألفا من الجنيهات. ولم يتجاوز ما تم إنفاقه على ترميم الآثار الإسلامية حتى عام ١٩٠٦ (أى بعد ربع قرن من إنشاء اللجنة) ٢٠٥ آلاف من الجنيهات.

وتولت لجنة «حفظ الآثار العربية» إقامة «متحف الفن العربى» عام ١٨٨٤ فى فناء مسجد الحاكم بأمر الله، حيث تكدست التحف المجموعة من هنا وهناك دون اتباع لأساليب العرض المتحفى، ودون أن يكون هناك خبراء بالفن العربى (الإسلامى) بذلك المتحف، ولم تهتم كتب «الدليل السياحى» الخاصة بمصر بذكر ذلك المتحف إلا نادرًا، وفى عام ١٨٩٨ تم رصد اعتماد لبناء مبنى بباب الخلق يضم دار الكتب الخديوية ومتحف الفن العربى معًا، حيث تم افتتاح المتحف عام ١٩٠٣ (ويعرف الآن بمتحف الفن الإسلامى).

وجاء الاهتمام بإقامة «المتحف القبطى» بمبادرة شخصية من مرقص سميكه - أحد أعيان الأقباط - الذى راعه ما تتعرض له التحف القبطية من ضياع، فأخذ على عاتقه مهمة جمعها والدعوة لإقامة متحف للفن القبطى للحفاظ عليها، وكان مرقص سميكه قد سعى لمد اختصاص «لجنة حفظ الآثار العربية» ليشمل ترميم الكنائس والأديرة التاريخية، وهو ما كان محل اعتراض البابا كيرلس الخامس. وفى ١٨٩٦ تم تعديل تشكيل اللجنة لينضم إليها عضوان من الأقباط، وتم رصد اعتماد لترميم الكنيسة المعلقة. ولكن كيرلس الخامس ظل معترضًا على تدخل اللجنة فى أعمال ترميم الكنائس باعتباره أمرًا يخص الكنيسة وحدها، وأخيرًا وافق البابا على ترميم الكنيسة المعلقة عام ١٩٠٦ (وهو العام الذى أصبح فيه مرقص سميكه عضوا باللجنة)، كما وافق على إقامة «متحف قبطى» عام ١٩٠٨ مقابل مساندة مرقص سميكه له فى مواجهة دعاوى الإصلاح التى تبناها المجلس الملى للأقباط الأرثوذكس. واشترط أن يكون «المتحف القبطى» تابعًا للكنيسة، وتم افتتاح المتحف القبطى عام ١٩١٤.

وقد حرص دونالد مالكولم ريد فى هذا الكتاب «فراعنة من؟» أن يؤرخ لرواد علم الآثار المصريين ممن مارسوا العمل الأثرى ليدحض مقولة أن علم الآثار علم غربى لا شأن لأهل الشرق به. وهكذا رأيناه يحرص على تسجيل اهتمام الكتّاب المصريين بالآثار، ويلقى الضوء على الوعى بتاريخ مصر القديم وتراثها الحضارى عند المصريين، كما سجل فضل محمود الفلكى فى ريادة الحفائر الأثرية فى الإسكندرية (على نحو ما رأينا)، ولكنه أفرد مساحة أوسع من دراسته لثلاثة من رواد العمل الأثرى المصريين: أحمد كمال وعلى بهجت ومرقص سميكه (باعتباره صاحب فكرة المتحف القبطى).

كان أحمد كمال أبرز الخريجين السبعة لمدرسة «اللسان المصرى القديم» الذين حال مارييت بك دون تعيينهم بمصلحة الآثار حتى لا يؤدى وجودهم إلى تمصير العمل بالآثار مما يضر بالوجود الفرنسى خاصة والأوروبى عامة بتلك المصلحة. وقد ظل مارييت فى منصبه حتى مات عام ١٨٨١ وخلفه ماسبيرو «Maspero» الذى كان أكثر مرونة وأقل تعصبًا منه. وإضافة إلى كشوفه وأعماله الأثرية، كان له فضل صدور قانون الآثار عام ١٨٨٣ الذى اعتبر الآثار ملكًا للدولة ووضع ضوابط الحفاظ عليها، ولكن استمرت تبعية الآثار لوزارة الأشغال العمومية حتى عام ١٩٢٩ عندما انتقلت تبعيتها إلى وزارة المعارف.

ورغم اضطرار أحمد كمال إلى العمل كمدرس للغتين الفرنسية والألمانية بالمدارس بعد تخرجه من «مدرسة اللسان المصرى القديم» ظل يتطلع إلى العمل بالآثار، ولم يستطع الحصول على وظيفة مترجم بالمتحف المصرى إلا بوساطة مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء (١٨٨١)، وسرعان ما أثبت أحمد كمال كفاءته للعمل كأثرى، وأسند إليه ماسبيرو مهمة إدارة مدرسة صغيرة أقيمت بالمتحف لتعليم خمسة من المصريين علم المصريات. وكان أحمد كمال يتولى تدريس الكتابة المصرية القديمة، واللغة الفرنسية والتاريخ براتب قدره ثمانية جنيهات شهريًا، وعاونه ثلاثة من المدرسين المصريين لتدريس اللغة العربية والرياضيات والجغرافيا. وفى أبريل ١٨٨٢ أضاف ناظر الأشغال العمومية عشرة طلاب آخرين إلى المدرسة من أبناء الأعيان كان من بينهم أربعة من الأقباط. وفى عام ١٨٨٥ تم تخريج طلاب المدرسة المصرية الثانية لعلم المصريات، ولم يجد ماسبيرو سبيلاً لتعيينهم كمفتشين للآثار إلا بإلغاء المدرسة وتحويل اعتماداتها المالية لتمويل الوظائف التى عيّن عليها الخريجون.

وفى ١٨٩١ أصبح أحمد كمال أمينًا مساعداً للمتحف المصرى، وظل أحمد كمال يرقب الأجانب الأقل كفاءة يتخطونه إلى منصب أمين المتحف حتى عام ١٩١٤، ولم يستجب أحد لشكواه المتكررة من التحيز للأجانب على حساب المصريين. ورغم ذلك كان أحمد كمال محل تقدير ماسبيرو (الأدبى) فأشركه معه ضمن لجنة من علماء الآثار فى أوروبا للمشاركة فى إعداد كتالوج الآثار المصرية الذى نشر بالفرنسية والإنجليزية والعربية. كما أصبح أحمد كمال عضوًا بالمجمع المصرى عام ١٩٠٣، وقام بتدريس تاريخ مصر القديم بالجامعة المصرية عند تأسيسها عام ١٩٠٨، وأقنع وزارة المعارف بإنشاء قسم لعلم المصريات بمدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٠، تخرجت أول دفعة منه (عشرة طلاب) عام ١٩١٢، وساهم أحمد كمال وتلاميذه فى الحفائر التى تمت حتى قيام الحرب العالمية الأولى. وكتب عددًا من الكتب، ونشر ٢١ تقريرًا عن الحفائر بالفرنسية فى مجلة المجمع العلمى ومجلة الجمعية الجغرافية الخديوية.

أما على بهجت (رائد علم الآثار الإسلامية) فقد كان موظفًا بديوان وزارة المعارف، ونقل عام ١٩٠٠ إلى «لجنة حفظ الآثار العربية» لإنقاذه من دانلوب (مستشار الوزارة) بوساطة يعقوب ارتين باشا (وكيل الوزارة). وفى عام ١٩٠٢ عين أمينًا مساعدًا بمتحف الفن العربى، وظل (كصاحبه أحمد كمال) دون ترقية حتى عام ١٩١٤ بسبب تفضيل الأجانب على المصريين رغم قلة كفاءتهم، وقد استطاع عام ١٩١٢ أن يدير حفائر الفسطاط بكفاءة كبيرة جعلته رائدًا للآثار الإسلامية، وأصبح أول أمين مصرى للمتحف الإسلامى عام ١٩١٤، ولكن أمانة المتحف انتقلت إلى الأوروبيين مرة أخرى بعد وفاته (عام ١٩٢٤).

وخلال تتبعه لتاريخ علم الآثار المصرية والمتاحف من حملة نابليون بونابرت حتى عام ١٩١٤، لم يسقط المؤلف من اعتباره التطور العلمى والمعرفى والثقافى فى مصر القرن التاسع عشر، بل اتخذ منه إطارًا عامًا لدراسة موضوعه الأساسى، فرسم للقارئ معالم النهضة العلمية والثقافية التى صاحبت مشروع محمد على من إقامة نظام التعليم الحديث إلى حركة الترجمة إلى الاتصال المعرفى بالحضارة الأوروبية الحديثة، كذلك وضع بين يدى القارئ العلاقة بين التطورات التى شهدتها مصر فى عهد الخديوى إسماعيل ومشروعه الثقافى الشامل الذى تولى صياغته على مبارك بمساعدة رفاعة الطهطاوى. كما لم يفصل المؤلف بين الاهتمام بالآثار من جانب الأجانب والموجة الإمبريالية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر التى استهدفت فتح الأسواق لاستثمار فائض رؤوس الأموال وتصريف الإنتاج، وسعت إلى حماية مصالحها من خلال الهيمنة السياسية على مصر.

وهو إذ يتحدث عن محاولات الأجانب إبعاد المصريين عن ميدان الآثار، يضع أمام القارئ صورة الصراع الذى دار بين المصريين والأجانب من أجل تحرير بلادهم من الهيمنة الأجنبية، ويعالج العلاقة بين الرواد أحمد كمال وعلى بهجت والأجانب فى سياق العمل الوطنى الذى يهدف إلى الحفاظ على الهوية المصرية، ويحرص فى خاتمة الكتاب أ يلقى الضوء على ما حدث لعلم الآثار من تطورات بعدما ملكت مصر أمرها بيدها، وما تركته الكشوف الأثرية المهمة (مثل اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون) من آثار إيجابية على الحركة الوطنية المصرية.

لقد سبق للمؤلف أن قدم تاريخًا ثقافيًا لمصر فى القرن العشرين من خلال دراسته لجامعة القاهرة، وكتابه الذى بين أيدينا اليوم يقدم تاريخًا ثقافيًا لمصر فى القرن التاسع عشر من خلال دراسته لتاريخ علم الآثار والمتاحف فى مصر، وهو ما يضفى على العمل أهمية خاصة، ويجعله مرجعًا أصيلاً لمن يريد الوقوف على تطور مصر الثقافى فى القرن الذى شهد التحولات الكبرى فى تاريخ مصر الحديث. ■

جاء اشتراك مصر
فى «المعرض الصناعى الدولى الكبير»
الذى أقيم بلندن عام ١٨٥١ بجناح صمم على الطراز الفرعونى، مثيرًا لاهتمام الأوروبيين والأمريكيين الذين جاءوا لزيارة أول معرض دولى يقام فى العالم،
وبهرتهم مظاهر الحضارة المصرية القديمة
التى عبر عنها الجناح المصرى»


Get Your Family Some Fun in El Gouna
Checkout our Eid & New Year specials
The Brightest Star on the Red Sea
How many times have you dreamt of an ideal family trip, where you can spend some quality time with your beloved ones? El Gouna is a conglomerate of resorts especially designed for your safety and comfort. Stay at any of our various 12 hotels, and enjoy our "dine-around" program that allows you to dine at any hotel in El Gouna. Take your kids to the kids' water-sports' school or to one of our kids' clubs to spend an exciting day supervised by our international team and entertained by a special animation program. In the meantime, you can tan, golf or play some water sports on the beach. You can also just relax and take advantage of our fully equipped health clubs, offering sauna and massage, among other facilities. Get all you ever wanted within the boundaries of the Red Sea's premiere leisure destination, El Gouna.
EL GOUNA
www.elgouna.com
For further information, please call toll-free: 0 800 444 0444 or mobile: 1444
E-mail: info@elgouna.com Website: www.elgouna.com

قد لا تصل الأرقام الرسمية لأعداد غير المتزوجين في مصر إلى حد اعتبارها مؤشرًا على وجود ظاهرة، قياسًا إلى عدد السكان الذى يصل إلى ٦٧ مليون نسمة حسب التعداد الرسمي للسكان الصادر عن الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء في شهر يناير من هذا العام ٢٠٠٢. إلا أنها وبالمقارنة بفترات زمنية سابقة تشير إلى اتجاه يتنامى في المجتمع المصرى ويتمثل فيما يمكن تسميته بتأخر سن الزواج عجزًا أو عزوفًا. أو ربما بطرًا من بعض الفتيات.

إن التفاوت بين الجنسين في الأرقام بأعلى بدهي، إذ أن سن الزواج بالنسبة للفتاة تسبق سن الشاب في مجتمعنا، أولاً: بسبب العادات السائدة به والتي تحبذ زواجها المبكر، وثانيًا: بسبب الوقت الذى يحتاج إليه الشاب ليصنع لنفسه مستقبلاً يسمح بتكوين أسرة، وهو العائل الرئيسي لها حسبما تحدد التقاليد. وعادة لا يتم ذلك قبل سن الثلاثين. ولذا نجد ارتفاع عدد الذكور غير المتزوجين في شريحة الخامسة والعشرين عنه في شريحة الثلاثين.

ومع تخطي مرحلة الثلاثين من العمر، يرى المجتمع أن الفتاة قد فاتها قطار الزواج. وقد لا ينطبق ذلك على الشاب بنفس الصورة، وبشكل عام، يقل عدد الشباب بلا زواج بعد هذه السن، فنجد أن البيانات تشير إلى أن من هم بلا زواج بدءًا بسن الخامسة والثلاثين فأعلى يمثلون ٣٦٩,٥٧٨ شخصًا، منهم ٢١٦,٩٢٢ من الذكور، و ١٥٢,٦٥٦ من الإناث.

ومع ذلك، فإن وجود شباب غير متزوجين يثير تساؤلاً لدينا جميعًا، ونحن نعيش في مجتمع يقدس الزواج، ويعتبره «نصف الدين»، ويحمل في بنائه ضغوطًا اجتماعية تدفع الشباب من الجنسين إلى استكمال هذا النصف في مرحلة مبكرة من حياتهم. لماذا يحجم الشباب عن الزواج؟ وهل هو إحجام طوعي، أم عزوف تفرضه الظروف، أيًا كان نوع هذه الظروف؟ هل هو اختيار من الشباب؟ أم هل هو انسياق وراء اتجاه مستورد، أوجدته مقتضيات العولمة، فتسلل إلينا، مثله في ذلك مثل عناصر أخرى غريبة علينا؟ هل هو نتاج نسق اجتماعي جديد أفرزته عوامل التغير الطبيعي، وأعاد صياغة أولويات الشباب؟ أم هل هو قبل ذلك كله، محكوم بأوضاع اقتصادية، تحد من فرص الشباب في الزواج وتقيدها؟ وهل وجود مثل هذا الاتجاه يعبر عن ارتفاع سن الزواج نتيجة لمتغيرات التحول الاجتماعي في مجملها، أم هو انعكاس لما هو أكثر من ذلك وأبعد منه؟

كلها تساؤلات تدور في الذهن عند محاولة فهم ذلك الاتجاه؟ وإدراك أبعاده المختلفة. وربما

لماذا لا يتزوج المصريون؟!

مديحة محمد السفطي



إن بقاء الفتاة دون زواج حتى سن متأخرة يعتبر وضعًا غير طبيعى، وغير مألوف فى مجتمعاتنا العربية، بخلاف ما هو مقبول، وبصورة منتشرة فى المجتمعات الغربية. وبالتالى فهو يثير تساؤلات كثيرة حولها، وتبرز محاولات عدة لتفسير بقائها بلا زواج حتى هذه السن

يكون مرجع هذه التساؤلات - ولو جزئيًا - أنه حتى منتصف القرن الماضى تقريبًا لم تكن هذه التساؤلات لترد فى أذهاننا، ولم تكن هناك مشكلة تراجع عن مؤسسة الزواج. وكان الوضع الطبيعى متى بلغ الشاب والفتاة سن الزواج المتعارف عليها - وكان مبكرًا - أن يقدما عليه كخطوة طبيعية فى مشوار حياتهما. وليس معنى ذلك أن الوضع كان يخلو من معوقات فى هذا الصدد، ولكنها كانت أقل منها فى الوقت الحالى، وربما تختلف فى مضمونها أيضًا.

ولأن مناقشة عزوف الشباب عن الزواج هى فى الواقع مناقشة وضع غير مألوف لدينا، فإننا نحاول أن نتفهم أبعاد هذا الوضع. وفى نطاق هذه المحاولة، لابد من التطرق إلى ما نعيشه من أنساق المجتمع فى الفترة الآنية، والتى لها مردودها على ما يدور به من اتجاهات وأيضًا سلوكيات، إذ لايمكن فهم أى منها بمعزل عن هذه الأنساق ولا منفصلة عنها. وهنا لا يمكن إغفال عملية التغير التى يمر بها المجتمع، والتى من خلالها تبرز أنماط سلوكية جديدة، تستحدثها الأوضاع المتغيرة، والتى لاتكون بالضرورة وافدة إلينا من مجتمعات خارجية، ولكنها قد تكون نتاج عملية التحول الداخلى نفسه، واتساقًا مع عجلته، يفرزها السياق الطبيعى له. وأنه لايمكن القول إن هذه الأنماط تخلو من قدر من التأثير الخارجى، تختلف درجته من وضع إلى آخر نتيجة لأكثر من متغير فى هذا الصدد. فإذا اعتبرنا أن المجتمع الغربى يعيش اتجاهًا واضحًا نحو رفض فكرة الزواج بين الشباب، والذى قد يصل إلى حد الظاهرة هنا بسبب اتساع حجمه، وبالتالى ترتفع نسبة الشريحة غير المتزوجة بينهم، فإن مجتمعنا لا يزال بعيدًا عن ذلك الوضع، حتى مع ارتفاع عدد غير المتزوجين به، لأن النسق القيمى لدينا يختلف عنه فى المجتمعات غير العربية بشكل عام. فالأخيرة لها عاداتها التى تحكمها، ولها من النواميس ما لا يضع الزواج ضمن أولويات الشباب. ولذلك يمكن القول إن المجتمع المصرى - مثله فى ذلك مثل المجتمعات العربية الأخرى - مازال يقدس الزواج رغم كل شىء، ومازال يعتبر الأسرة نواته، وركنًا أساسيًا به، بل ويتضمن تقاليد وعادات تحبذ الزواج وتحث عليه. ولكن، لايمكن إغفال تسلل بعض عناصر الثقافة الخارجية إلينا، ولا تأثيرها علينا، كما أسلفنا الذكر، ولا يمكن إغفال بعض الأسباب الداخلية ومردودها على الزواج.

إننى أتطرق إلى هذا الموضوع ليس فقط كمراقبة لما يدور فى المجتمع من منطلق التخصص الأكاديمى بل وأيضًا كباحثة لجوانبه المختلفة، ولكن قبل ذلك كجزء منه، أعيش أوضاعه وأشعر بمشكلاته وقضاياه.

فإذا اعتبرنا أن ثمة أسبابًا مجتمعية قد أدت إلى ارتفاع عدد غير المتزوجين من الجنسين، فهل هى نفس الأسباب لكليهما؟ وهل تتساوى الأسباب فى هذا الصدد بين الذكر والأنثى باعتبارها دوافع سلوكية لكل منهما؟ وأيضًا هل تتساوى بالنسبة لجميع أفراد المجتمع مع اختلاف انتمائهم إلى الشرائح الاجتماعية المختلفة؟

إن محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة تؤكد اختلاف الأسباب بين الجنسين، وكذلك الدوافع، وأيضًا بين الشرائح الاجتماعية المختلفة، إذ أنه مع وجود متغيرات فى المجتمع تشكل عوامل لها أثرها على جميع الأفراد، لأنها تتأثر بدورها بظروف عامة، إلا أن هناك تباينًا فى الأسباب بين الجنسين، وأيضًا بين الشرائح الاجتماعية المختلفة، والذى قد يكون حادًا فى بعض الأحيان. وهناك أيضًا الأوضاع التى تفرق بين الريف والحضر، وهما ثقافتان تختلفان فى عدد لا يستهان به من الأنساق. ومعنى ذلك أن لكل فئة من السابق ذكرها خصوصيتها، والتى تنعكس على سلوكيات الأفراد بها، بل وأيضًا توجهها. فالأسباب التى تتعلق بتأخر سن الزواج لدى الإناث قد لاتكون بالضرورة نفس الأسباب التى تؤجل زواج الشباب من الذكور. كما أن الشباب من الشريحة الاجتماعية العليا لا يعيشون نفس الظروف التى يعيشها الشباب من الشريحة المتوسطة ولا الشريحة الدنيا. فلكل من هذه الشرائح أوضاعها الخاصة بها والتى تميزها عن غيرها. وينطبق نفس الشىء على شباب الريف فى مقابل شباب الحضر.

وجدير بالذكر هنا أن بعض هذه الأسباب، والتى سوف نتعرض لها فى الجزء التالى، قد تتطابق بعضها مع بعض، أى بين الجنسين فى شريحة اجتماعية واحدة، وقد تنطبق على جنس واحد فى شريحة بعينها دون الجنس الآخر.

ولكن لابد من إدراك أن المجتمع هو ذكور وإناث، والذكور يتزوجون إناثًا، فإذا كانت هناك أسباب تجعل أحد الجنسين يعزف عن الزواج، فمن البدهى أن يكون لذلك أثره على الجنس الآخر. وبالتالى تنعكس الأسباب التى تؤثر على إحجام أحد الجنسين عن الزواج على الجنس الآخر، وتؤدى فى النهاية إلى نفس المحصلة، وهى انحسار مؤسسة الزواج كمؤسسة اجتماعية.

ولعل ما يمكن البدء به هو متغير له دلالته على المجتمع بشكل عام، وكذلك انعكاساته التى تمتد إلى أكثر من جانب من الجوانب الحياتية به، وإن كان يرتبط بالإناث فى سياق عملية التغير. وهنا نعنى ما حدث من إقدام الإناث على الاستفادة من حقوق كانت محدودة بالنسبة إليهن من قبل، وخاصة فيما يتعلق بالتعليم والعمل. إذ أنه منذ تم التوسع فى التعليم، لحقت الإناث بالركب. وعندما وجدت المرأة أن باب التعليم قد فتح أمامها على مصراعيه، اندفعت نحوه بشوق وحماس. وبعد أن كان أقصى ما تسعى إليه الفتاة فى المراحل التعليمية هو التعليم الثانوى، وربما إتمامه كهدف أمثل، امتد طموحها إلى المرحلة الجامعية وأيضًا ما بعدها. وأصبح من الطبيعى إذن أن يؤدى ذلك الوضع إلى تأخر سن الزواج عند الإناث، باعتبار أنهن ينتظرن حتى ينتهين من التعليم الجامعى، أو على الأقل يصلن إلى مرحلة ما به. بل أيضًا أصبحت الفتاة تتجه إلى السفر إلى خارج البلاد للحصول على درجات علمية، غالبًا فى الدراسات العليا، ولم يعد يعيبها ولا يعيب أسرتها أن تفعل ذلك.

ويتصل بالتعليم، ويرتبط به، انفتاح سوق العمل أمام المرأة، إذ أن اتجاه المرأة نحو العمل واتساع فرصها فيه نتيجة لاتساع فرص التعليم أمامها، قد أوجد لديها آفاقًا جديدة لتحقيق ذاتها، كانت محجمة فى الماضى، فاستجابت لهذا النداء، وسعت الفتيات نحو طموحات جديدة بعد أن اكتشفن مجالات اختيارات لمستقبلهن خلاف الأسرة والبيت - ومثلما يحدث عند اكتشاف الجديد، وضعت الكثير من الفتيات العمل على رأس قائمة أولويات طموحاتهن، بعد أن كان الزواج يحتل هذه المكانة. ومع مزيد من النجاح فى العمل، يتوارى حلم الزواج فى ذهن الفتاة، وخاصة إذا توهمت أنه قد يعوقها عن مسيرة نجاحها. إن الفتاة الطموحة مهنيًا تجد فى عملها ما يحقق ذاتها ويشعرها بشخصيتها، وبالتالى قد يصبح من الصعب عليها أن تدخل شخصًا آخر، أو شيئًا آخر كشريك لعملها.

إن المراقب لعملية التحول فى المجتمع المصرى لابد أن يلفت نظره ارتفاع نسبة الإناث ممن يسعين إلى تحقيق طموح مهنى يطغى على قبول الزواج فى تفكيرهن. وهذا وضع حديث نسبيًا، له انعكاسات فى المجتمع. فالثقافة الذكورية لاترى فى طموح الشاب المهنى تناقضًا مع الزواج، بل إن الشاب قد يسعى إلى الزواج بهدف تحقيق استقرار يعينه على الوصول إلى طموحاته فى العمل. ولكن الوضع يختلف بالنسبة للفتاة، فهى فى هذه الحالة تجد نفسها فى مواجهة تعارض بين طموحها المهنى والزواج. وقد لا يقتصر ذلك الشعور على تفكيرها وحدها، بل عادة يعكس رأى الشاب المقبل على الزواج أيضًا.

وثمة بعد آخر لتعليم الفتاة وعملها وأثرهما على زواجها، يتضح من خلال أحاديث الفتيات وتعبيرهن عن اتجاهاتهن، مما يجعلهن أكثر دقة فى اختيار شريك الحياة. فالفتاة فى الماضى كانت تقبل الزواج برؤية سنها الصغيرة، وبفرحتها بدخول حياة جديدة من خلال الزواج وما يرتبط به من أحلام، تعيشها منذ نعومة أظفارها، وتمثل هدفها الأكبر - وربما الوحيد - فى الحياة. يعزز ذلك الشعور ويغذيه عوامل التنشئة الاجتماعية فى الأسرة، بل وربما فى المدرسة ووسائل الإعلام أيضًا. وعادة ما كان الدور الأكبر فى اختيار الزوج هو حق الوالدين، وواجبهما نحو الابنة، من منطلق حرصهما على مصلحتها واستقرار حياتها. أما الفتاة العصرية، والتى تكون عاملة، فلديها من الدراية والمعرفة ما يجعلها فى موقع يسمح لها باختيار - لنفسها وبنفسها - من تراه مناسبًا لها. وهى هنا تدقق وتكون أكثر انتقائية، حسبما تضع لنفسها من معايير، اكتسبتها من خلال خبرتها فى الحياة. وفى كثير من الأحيان يؤدى ذلك إلى تحجيم فرص الاختيار أمامها.

ومعنى ذلك أن أثر التعليم والعمل على المرأة لا ينعكس فقط على تأخر سن الزواج بالنسبة للإناث، ولكن له أيضًا دلالاته على نظرة الفتاة لنفسها وعلى نظرتها للزواج أيضًا. إن النجاح فى العمل يتيح للفتاة عادة قدرًا من الحرية. والحديث عن الحرية بالنسبة للفتاة هنا لا يعنى الحرية بمعناها السلبى، أو تلك التى يساء استخدامها، ولكنها الحرية التى تمنحها الثقة بالنفس والشعور بالاستقلالية فى حياتها، والتعامل مع القيود التى قد تعوقها عن تحقيق طموحها. ولذلك فإن الفتاة فى هذه الحالة قد تتردد فى الارتباط بشخص قد يحد من هذه الاستقلالية، وتبحث عمن لا يمس إحساسها الكامل بكيانها المهنى. وهنا يبرز عائق آخر أمامها عندما تشعر أن الزواج يتعارض مع استقلال شخصيتها.

ولعل ما يساعد على إحجام الإناث الطموحات فى العمل عن الزواج هو تلك الردة التى انتشرت بصورة تلفت النظر بين الذكور عامة والشباب منهم بشكل خاص، والتى أصبحت تنادى بعودة المرأة إلى المنزل ورفض التحاقها بعمل خارجه. فالملاحظ أنه فى السنوات الأخيرة - وربما فى العقد الأخير بالذات - ظهرت هذه الدعوة بين الشباب وبدأوا يفضلون المرأة غير العاملة عند اختيار شريكة الحياة. فهم إما ينتقون زوجة غير عاملة، أو يمنعونها من العمل بعد الزواج إذا كانت أصلاً تعمل. إن محاولة فهم هذا الاتجاه تضعنا أمام واحد من سببين أو كليهما معًا. فهناك الشاب الذى يرفض عمل زوجته لأنه من أسرة تعمل بها الأم وربما عاش طفولته فى معاناة نتيجة لانشغالها عنه. ثم هناك الشاب الذى يرى فى عمل المرأة خروجًا على الأعراف والتقاليد ويعزز موقفه بتفسير يحاول وضعه فى إطار دينى.

لا يمكن الحديث عن تأخر سن الزواج بالنسبة للمرأة دون التعرض لنظرة المجتمع للفتاة التى يفوتها قطار الزواج، والتى تتسم بالسلبية فى معظم الأحوال. وبالشفقة فى أفضلها، ذلك أن بقاء الفتاة دون زواج حتى سن متأخرة يعتبر وضعًا غير طبيعى، وغير مألوف فى مجتمعاتنا العربية، بخلاف ما هو مقبول، وبصورة منتشرة فى المجتمعات الغربية. وبالتالى فهو يثير تساؤلات كثيرة حولها، وتبرز محاولات عدة لتفسير بقائها بلا زواج حتى هذه السن، أقلها سلبية هو ما يتسم بالشفقة عليها وعلى أسرتها. فالمجتمع هنا قد يتقبل وضع الشاب الذى يفوته قطار الزواج، ولكنه لا يتقبل المرأة فى نفس الوضع، فينعكس ذلك الاتجاه على أسرة الفتاة فى هذه الحالة. ونجد أن الأسرة التى لديها ابنة تأخرت فى الزواج تصاب بقلق شديد، ليس فقط بسبب الرغبة فى الاطمئنان عليها وفى



إن وجــود شــباب غيــر متزوجـين
يثير تساؤلاً لدينا جميعًا، ونحـن نعيش فى مجتمع يقدس الـزواج،
ويعتبـــره «نصـــف الـــدين»

تأمين مستقبلها فى كنف زوج يحافظ عليها، وهى الصورة النمطية للزواج لدينا، ولكن ـ وهو الأهم ـ بسبب نظرة المجتمع إليها.

وليس بغريب أن يصيب الأسرة قلق عندما تتمادى الابنة فى دراستها العلمية أو فى نجاحها العملى، خوفًا من أن تتأخر فى الزواج أو تحجم عنه. لذلك نجد أنه فى كثير من الأحيان، تقبل الفتاة الزواج من شخص قد لا يكون مناسبًا لها تحت ظروف الضغوط المجتمعية، والتى يعززها إلحاح أسرتها عليها، حتى لا تشوه صورتها فى المجتمع، أو على الأقل اتساقًا مع توقعاته وتوقعات أسرتها منها.

فإذا كانت النظرة الشمولية لظروف المجتمع تعتبر التعليم بالنسبة للمرأة والتحاقها بالعمل عاملين لهما أثرهما فى تأخر سن زواج الفتاة، فإن ثمة سببًا مماثلاً يعتبر العائق الأول أمام الذكور، والذى يحول دون إقدامهم على الزواج، وهنا نعنى الأوضاع الاقتصادية بالمجتمع، والتى لا يمكن إغفال آثارها السلبية على الشباب بشكل عام، وعلى الزواج بشكل خاص. إذ أنه مع ارتفاع نفقات الزواج ومتطلباته، وأحيانًا مع المغالاة من قبل أهل العروس فى ذلك الصدد، أصبح من العسير ـ وأحيانًا من المستحيل ـ على الشباب اتخاذ هذه الخطوة. وربما تجدر الإشارة هنا إلى أن ذلك الوضع يساعد على تفسير ظاهرة انتشار الزواج العرفى بين الشباب، وهو ما يلجأون إليه تجنبًا لهذه العقبات وهربًا منها. فلقد وجد الشباب فى الزواج العرفى حلاً بديلاً فى مواجهة صعوبة ـ أو استحالة ـ تحقيق حلم الزواج بالنسبة لهم. فأصبح هذا النوع من الارتباط يمثل مخرجًا لهم من هذه الأزمة. ولكن تبقى نظرة المجتمع والقانون لهم فى هذه الحالة ـ وأيضًا موقف الدين ـ خاصة بالنسبة للإناث من بينهم، وغالبًا فهم يتغاضون عن كل ذلك فى سبيل تحقيق حلم عجزوا عن تحقيقه بصورة شرعية، مقبولة أمام المجتمع والقانون، فى ظل المعوقات التى تواجههم.

ومما يزيد الأمر تعقيدًا هو انتشار البطالة بين الشباب، وهو ما يلقى بعبء عليهم، خاصة الذكور من بينهم، ويحول دون تمكينهم من تكوين أسرة.

ويقع الشباب من الشريحة الاجتماعية المتوسطة ضحية لعائق الظروف الاقتصادية أكثر من أمثالهم من شباب الشريحتين العليا والدنيا. إذ أن الشريحة المتوسطة تعيش فى ظل نمط محافظ، متمسك بالعادات. ويسعى أفرادها إلى التعليم بهدف تحقيق مستقبل مهنى محترم، يحقق لهم وضعًا متميزًا فى المجتمع. وهذه الشريحة هى العمود الفقرى للمجتمع، والعماد الذى يقوم عليه، بقيمها وتقاليدها. فالسمة الغالبة لأفراد هذه الشريحة إذن هى سعيها نحو تحقيق طموحات لأبنائها، استنادًا على التقاليد التى تهتم بالمكانة الاجتماعية وتعزز قيمتها. وبالتالى يعيش الشاب مع أحلامه بحراك اجتماعى، فى حين تضيق موارده المالية عن الوصول إليها. ولا تخلو تلك الأحلام بطبيعة الحال من الزواج والاستقرار العائلى، بما يتضمنانه من نمط معيشى مستقر ومحترم. وغالبًا ما يتوقع الشاب هنا أن يصل إلى طموحاته عن طريق ما حصل عليه من مستوى تعليمى ـ جامعى فى معظم الأحوال ـ ولكنه يفاجأ بواقع لم يدخل فى حساب أحلامه، خاصة الجانب المادى منها، لأنه لو كان سعيد الحظ وحصل على وظيفة، سرعان ما يكتشف أن مرتبه لا يحقق له ولو جزءًا من هذه الأحلام، وكثيراً ما يلجأ الشباب من الشريحة المتوسطة إلى قبول أعمال هامشية كحل لأزمتهم، وعادة لا تدر عليهم هذه الأعمال دخلاً يعينهم على الحياة المستقرة. إن المعوقات المادية أمام الزواج لا تؤدى إلى تأخر زواج الشباب من الذكور فقط بل إن أثرها يمتد إلى الإناث أيضًا من هذه الشريحة، لأنهن يعشن تحت نفس الظروف، وفى أسر لها نفس المعاناة.

وجدير بالذكر أن الشباب من هذه الشريحة الاجتماعية هم أكثر الشباب عرضة للإصابة بالإحباط، بسبب التعارض الصارخ بين طموحاتهم وواقع مواردهم. وليس بغريب إذن أن يكون هؤلاء هم أيضًا أكثر عرضة للاتجاهات المتطرفة أيًا كان موقعها.

فإذا كان الوضع الاقتصادى له أثره على الشباب بشكل عام، مع حدة ذلك الأثر على الشباب من الشريحة المتوسطة، فإن الشباب من الشريحة الاجتماعية الدنيا لديهم من الحلول العملية ما يسمح لهم بالزواج فى سن مبكرة. إذ أن هذه الشريحة عادة ما تعيش فى ظل نمط براجماتى يتعامل مع الأمور الحياتية بشكل عملى. فالشاب هنا قد ينجح فى الزواج بنفقات معقولة نسبيًا، مع وجود العوائق المادية المتوقعة بالطبع. ولكن الأهم من ذلك كله أن الشاب هنا يواجه مشكلة من أصعب المشاكل التى تواجه الشباب فى الفترة الآنية، إن لم تكن أصعبها، خاصة بالنسبة لأفراد الشريحة المتوسطة، وهى مشكلة الحصول على مسكن. إن هذه الشريحة لا تجد غضاضة فى إقامة الزوجين الجدد من الأبناء فى مسكن واحد مع الأبوين وبقية أفراد الأسرة، بصرف النظر عن مساحة هذا المسكن ومن المألوف أن نجد أسرة ممتدة كبيرة الحجم، يعيش أفرادها فى مسكن واحد، يحتل كل فرد منهم حجرة يسكنها مع أسرته النووية الصغيرة، مع محاولة استغلال أمثل لكل جزء من مساحة الوحدة السكنية حتى تتسع للجميع. وهذا ما نعنيه بالحل البراجماتى، فهو إحدى الوسائل التى يلجأ إليها أفراد هذه الشريحة للتعامل مع ظروفهم، التى غالبًا ما تكون محدودة، نتيجة لسنوات طويلة، بل عصور طويلة من محاولة للتكيف مع هذه الظروف. لقد لمسنا تلك الأوضاع فى دراسات لنا عن واقع الإنسان الحضرى، وبالذات فى القاهرة، ورأينا كيف ترتفع نسبة الكثافة السكانية داخل الوحدة السكنية الواحدة، لأسباب كثيرة كان ما سبق أحدها.

لذلك قد لا يتأخر الشباب عن الزواج من الشريحة الدنيا كما هو الحال بالنسبة لأمثالهم من الشريحة المتوسطة، بل إن أفراد هذه الشريحة عادة ما يكونون أكثر تماسكًا بالتقاليد التى تحبذ الزواج فى سن صغيرة، وتشجعه، وبالتالى يتعرض الشباب من الجنسين لضغوط اجتماعية تدفعهم إليه فى سن مبكرة، وليس معنى ذلك أن الشريحة المتوسطة لا تخلو من هذه الضغوط بسبب اهتمامها بالتقاليد أيضًا، ولكن ضيق الموارد المالية لديها يقف حائلاً فى هذا الصدد أمام نمط الحياة الذى يعيشونه.

وفى مقابل ذلك نجد أن الشباب من الشريحة العليا لا يواجهون مشقة فى تدبير نفقات الزواج، بالمقارنة بأمثالهم الذين يصابون بالإحباط أو هؤلاء الذين يتكيفون مع أوضاعهم بصورة أو بأخرى. ومعنى ذلك أن إحجام الشباب عن الزواج هنا لا يكون عادة لأسباب اقتصادية، أى ليس بسبب نقص الموارد. وبشكل عام ينخفض سن الزواج فى هذه الشريحة بين الجنسين نتيجة لذلك.

ولعله من المهم أن نشير هنا إلى نمط الفتاة ذات الطموح فى العمل كما جاء مسبقًا ينتشر بصورة أكثر بين إناث الشريحة العليا، ربما لأن ظروف حياتهن تسمح لهن بقدر أكبر من الحرية، ليس فقط فى حياتهن بشكل خاص، ولكن فى نطاق اختيار شريك الحياة أيضًا. وليس معنى ذلك أن هذا النمط غير موجود فى الشرائح الاجتماعية الأخرى، ولكن تواجده يكون بنسب أقل، وذلك لاختلاف أسلوب الحياة لكل شريحة من الشرائح الاجتماعية المختلفة ونمطها بالصورة التى أوردناها مسبقًا.

أما الذكور من الشريحة الاجتماعية العليا، فمنهم من يفضل الانتظار بلا زواج لأسباب خاصة به، إما للتمتع بحياة العزوبية، أو لانشغاله بحياته العملية، أو للدراسة، أو لعدم عثوره على الفتاة المناسبة له. خاصة أن عزوف الفتيات عن الزواج فيما أوردناه فيما سبق يحجِّم من فرص الذكور أيضًا ولكن أيًا كانت أسباب عزوف الشاب عن الزواج من هذه الشريحة، فلديه ترف الاختيار متى قرر ذلك، أو سنحت له الفرصة المناسبة، وذلك لغياب العائق المادى.

ما سبق عرضه ينطبق على سكان المدينة، أى على المجتمع الحضرى بفئاته المختلفة. ولكن المجتمع الريفى له ثقافته الخاصة به، والتى مازالت تعيش فى ظل نسق اجتماعى يؤكد ضرورة الزواج المبكر، ومن ثم لا يختلف الوضع من شريحة اجتماعية إلى أخرى فى هذا الصدد. ويعتبر الزواج خطوة ضرورية لدى الشاب والفتاة على حد سواء، بصرف النظر عن الظروف الاقتصادية للأسرة.

قد يرى البعض أن اتجاه الشباب نحو العزوف عن الزواج يمثل قضية تستحق الدراسة أو على الأقل المناقشة بهدف التوصل إلى حل لها. وقد يرى البعض أنها ليس ذات أهمية تذكر، خاصة أن عدد هؤلاء لا يرقى إلى مستوى الظاهرة، بالمقارنة إلى إجمالى عدد السكان، وأيضًا إلى إجمالى العدد بالشريحة الشبابية التى تغلب على الهرم السكانى بشكل عام.

أما أصحاب الرأى الأول فهم ينظرون إلى هذا الوضع على أنه يدق ناقوس الخطر، ويشكل تهديدًا لمجتمع من تراثه وضع مؤسسة الزواج فى مرتبة عالية، فهو يعكس رؤى لها خطورتها تجعل من قيمة الأسرة ككيان اجتماعى تتوارى وتنحسر، ومن ثم تفقد مكانتها التقليدية كنواة للمجتمع، خاصة إذا أحجمت الفتيات عن الزواج فقد يتبع ذلك انهيار الأخلاق والقيم السلوكية الأصيلة، التى هى عماد ثقافتنا، متى انحسرت قيمة الأسرة. بل إن القلق على مستقبل مجتمعنا يصل إلى حد الخوف من انحسار قيمة الأمومة لدى المرأة المصرية أيضًا نتيجة لاتجاهها نحو إعادة ترتيب أولوياتها، ووضع العمل فى مرحلة متقدمة منها، إن لم يكن على رأس القائمة، بدلاً من تكوين أســرة، والتى هى الدرع الواقى للأخلاق القويمة.

وقد يتعجب أصحاب هذا الرأى من رأى مخالف يرى فى تأخر سن الزواج، أو حتى العزوف عنه، جانبًا إيجابيًا ربما لا يرد فى ذهن الكثيرين. فنجد أن هناك من يعتقد أن هذا الاتجاه سيساعد على علاج المشكلة السكانية. إذ أن إحجام الشباب عن الزواج، أو حتى تأجيله، من الطبيعى أن يؤدى إلى انخفاض معدل المواليد، حتى ولو لفترة مؤقتة، فينخفض بالتالى معدل الزيادة الطبيعية فى السكان، ليس فقط فى الفترة الآنية، بل فى المستقبل القريب أيضًا، وثمة بُعد آخر لهذه القضية يتضح فى أثر الحد من الزيادة السكانية، والمقصود هنا هو انكماش الشريحة الشبابية فى الهرم السكانى نتيجة لذلك، وعليه تنخفض نسبة الإعالة بالمجتمع بانخفاض نسبة الشباب به. وهنا ينجح ما يراه البعض كاتجاه له آثار سلبية فى أن يجئ بنتائج إيجابية عندما يشكل حلاً تفرضه الظروف فى مقابل حلول أخرى عادة لا تلقى قبولاً من الثقافة التقليدية.

وتبقى كلمة أخيرة.. أيًا كانت وجهة النظر نحو ذلك الاتجاه، وأيًا كانت محاولات تفسيره ومنهجه، فلابد من إدراك أنه وضع قائم، وواقع نعيشه. وتبرز تساؤلات هنا فى النهاية عن توقعات مستقبلية فى هذا الصدد.. هل ينكمش الاتجاه أم يتزايد؟ وهل يتوقع حدوث أى تغير فيه؟ سواء فى المستقبل القريب أم فى المستقبل البعيد؟ وما الذى يمكن أن يؤدى إليه هذا التغير؟ هل نحن حقًا نواجه خطرًا حقيقيًا إذا ما قاطع شبابنا الزواج لفترة طويلة؟ وماذا يمكن أن يكون نوع هذا الخطر؟ هل هو أخلاقى أم هو مؤسسى يتعلق بالأسرة؟ أم أنه فقط قلق على انحسار عاداتنا وتقاليدنا؟ أم هو قلق غير مبرر أساسًا ولا خطر منه على مجتمعنا؟

كلها تساؤلات قد تدور فى الأذهان، ولكن يصعب الإجابة عنها، على الأقل فى المستقبل القريب، وأغلب الظن وبناء على المعطيات الآنية، لن ينحسر ذلك الاتجاه، بل ربما يتزايد مع استمرار الأوضاع الاقتصادية التى نعيشها، وربما تدهورها، وأيضًا الظروف المجتمعية الحالية. وقد نفاجأ يومًا بأن شبابنا قد وجدوا صيغة جديدة للزواج كحل لمشكلاتهم، أيًا كان نوعها، مثلما وجدوها فى الزواج العرفى. ■



اكتئاب.. وضمور فى خلايا المخ!

أحـــمـــد عكاشــه

لا شك انه يوجد عدد كبير من الذكور والإناث محرومين من الزواج لأسباب اقتصادية، اجتماعية، الأمر الذى يمثل ظاهرة سلبية من وجهة نظر الصحة النفسية. إذ اثبتت التجارب العلمية والمعملية أن الاغتراب والوحدة والانعزالية لها تأثير مدمر على الصحة النفسية، فكثير من المهاجرين أو هؤلاء الذين يطلبون الرزق فى الخارج، أو هؤلاء الذين يكملون دراستهم الأكاديمية فى الخارج، ويتعرضون لحضارة وثقافة مختلفة، لغة غريبة، وصعوبة فى التواصل الاجتماعى يعانون من أمراض نفسية مختلفة، بل بعضهم ينهون أعمالهم أو دراستهم بالخارج لما أصابهم من خلل فى الصحة النفسية مما أثر على عملهم أو دراستهم بل وجوده الحياة.

وربما كان من المناسب هنا ذكر تفاصيل دراسة مهمة أجريت على الفئران والشمبانزى وساعقبها بالتشابه مع السلوك الإنسانى، وقبل سرد التجربة، يجب أن نعلم أن يوجد فى المخ جهاز ومسار يسمى بنظام المكافأة واللذة وله مركز واتصالات عصبية تبدأ من قاع المخ إلى المخ الأمامى والفص الحدى المسئول عن العواطف والانفعالات، وكذلك يوجد أحد فصوص المخ المسمى بفرس البحر نظرًا لتشابه الشكل الخارجى له بفرس البحر، وهذا الفص مسئول عن التنسيق فى عملية التعليم، والتركيز، والعواطف، والحوافز، وكذلك التكييف للظروف الخارجية وكروب الحياة، ولذا نستطيع القول بان طمأنينة الإنسان، وإحساسه بالإنجاز وتحقيق الذات، وخلو المزاج من الهم والكرب يعتمد على عمل هذين المركزين جهاز المكافأة واللذة وفص فرس البحر، وبالطبع يمكن قياس نشاط هذين المركزين بوضع مقياس على مخ الفئران أو القردة لقياس النشاط الكهربى، بل وأخذ عينات من هذه المناطق لقياس نسبة الموصلات العصبية المسئولة عن الحالة النفسية. وكذلك بفحص النمو وزيادة الخلايا العصبية فى هذه المنطقة بتأثير التنبيه الاجتماعى.

قام العلماء الذين تولوا هذه التجارب بوضع بعض الفئران أو القردة وسط الكثير من أبناء وبنات جنسهم وكأنها عائلة ممتدة، ووضعوا البعض الآخر فى غرف منفصلة، وتتشابه كل الظروف الأخرى من طعام وشراب ودرجة حرارة.. إلخ، وبعد عدة أسابيع بدأ قياس الموصلات العصبية والنشاط الكهربى فى المراكز التى تبعث البهجة والطمأنينة، فوجدوا اختلافًا شديدًا، فهؤلاء الذين اقاموا فى نسيج اجتماعى وتبادلوا الانفعالات كانت حالتهم النفسية طبيعية، وكان نشاط المراكز المسئولة فى حالة من اليقظة والانتباه، أما هؤلاء المنعزلون فى وحدة، فقد أصابهم اليأس والعجز وتوقف تام عن النشاط النفسى مما يدل على أن النسيج الاجتماعى يؤثر كميائيًا على مراكز المخ المسئولة عن البهجة واللذة، بل إن أحد البحوث الأخيرة أثبت أن وجود الإنسان فى نسيج اجتماعى دافئ به الحنان والحب يزيد من تكوين الخلايا العصبية والنسيج الدماغى فى هذه المراكز.

أظهرت الدراسات الانتشارية المتعددة فى منظمة الصحة العالمية فى بلاد العالم المختلفة أن مآل مرضى الفصام (السكيزوفرنيا)، وهو أخطر الأمراض العقلية، أفضل بكثير فى البلاد النامية عنه فى البلاد المتقدمة، بالرغم من قلة الخدمات النفسية المختلفة كالأطباء، والعاملين فى حقل الصحة النفسية وندرة العلاج الكيمائى والنفسى المتاح لمرضى البلاد النامية، ونقص خدمة علاج المتابعة. ولن نستطيع تفسير هذه الظاهرة إلا انه فى الدول النامية مازالت الأسرة تعيش فيما يسمى بالعائلة الممتدة، أى أن صلة القرابة والاتصال بالأقرباء، والبيت الكبير والسند الاجتماعى الأسرى يعطى مناعة وحماية ضد كل المسببات الكيميائية والفسيولوجية لمرضى الفصام، أى أن كيمياء المخ تتأثر بالحياة مع زوج محب وسط عائلة وأن السند الاجتماعى له أثره فى شفاء مرضى الفصام مثل العلاج الكيميائى إن لم يتفوق عليه، كذلك يثير الدهشة زيادة نسبة مرضى الفصام فى البلاد الاسكندنافية عنها فى البلاد الأوروبية المختلفة، ولا يوجد تفسير علمى واضح لهذا الاختلاف إلا انهم فى هذه البلاد يعيشون فى مجتمعات متفرقة بل قد يبعد المنزل عن الآخر بحوالى ٥٠٠ متر، وهنا تكون العزلة وعدم وجود السند الاجتماعى أحد اسباب زيادة انتشار مرض الفصام، وهنا نستطيع القول بأن الوحدة والعزلة أثرت على نمو النسيج العصبى فى المخ وكذلك فى الموصلات العصبية مما سبب تفجير المرض.

كذلك تدل البحوث المختلفة أن الزواج لمرضى الفصام الذكور والسند الاجتماعى من الزوجة يوقف استمرار وتدهور المرض، وللأسف لا ينطبق ذلك على الأنثى حيث إن مسئولية الزواج تتضاعف مقارنة بالرجل.

وإذا أفردنا بعض المعلومات عن اضطراب الاكتئاب الذى يعتبر ثانى الأمراض بعد أمراض القلب سببًا فى العجز (بين النساء يعتبر المرض الأول المسبب للعجز وعدم القدرة على العمل)، كما أنه من أكثر الأمراض انتشارًا، فهو يصيب ما لا يقل عن ٥ـ٧٪ من مجموع أى شعب، ومن المهم أن نذكر هنا بان الاكتئاب ما هو إلا اضطراب كيميائى فى الدماغ وهو يختلف عن الحزن، والأسى، والنكد، والغضب وهى تغيرات مزاجية حياتية طبيعية.

ويتوقع الباحثون زيادة معدل الاكتئاب فى القرن القادم وترجع الأسباب إلى زيادة عمر الإنسان، وتفكك الأسرة، وهجرة الأولاد، وبقاء المسنين فى حالة من العزلة الاجتماعية، وفى حالة من الحرمان من المساندة الاجتماعية. يعتقد البعض أن الكثرة السكانية والازدحام تزيد من المساندة الاجتماعية، وعلميًا هذه فكرة خاطئة، فكلما ازداد الزحام والتكدس السكانى كلما تفرد الإنسان بالأنانية، وعدم الاكتراث بالغير وتمركز حول ذاته وأسرته ولا يسأل عن الأصدقاء أو الجيران ويصبح محاصرًا بالازدحام مما يجعله فى حالة من الاغتراب والاستغراق الذاتى، والصحة النفسية هى مساندة الغير، أما المرض النفسى فهو التمركز حول الذات. فالقاهرة مثلاً من أكثر بلاد العالم ازدحامًا إذ يعيش ٥٢٠٠٠ فرد فى كل كيلو متر مربع، مما يجعل المساحة الجغرافية المتاحة للفرد محدودة، مما يخلق بيئة تساعد على العزلة الاجتماعية والكفاح للبقاء وليس للإبداع أو الخلق أو العمل.

مما سبق نستطيع استنباط بعض الحقائق وهو أن المساندة الاجتماعية ليست فقط حماية ضد الأمراض النفسية المختلفة من فصام واكتئاب وغيرها، ولكنها كفيلة بتغيير مطاوعة ولدونة المخ وقدرته على زيادة النسيج الدماغى وخلايا المخ فى مراكز المزاج والانفعال. المساندة الاجتماعية قادرة على إعطاء الفرد القدرة على الإبداع والخلق، بل إنها تواكب الحالة المزاجية المبهجة، والانتباه واليقظة اللازمين لأى عمل ناجح، وأحد تعريفات الصحة النفسية وهو أن تعمل وتحب بكفاءة، والمرض النفسى يؤثر على العمل والحب والعطاء.



يذكرنى ذلك بإحدى مسرحيات الفيلسوف جان بول سارتر حين يموت أحد الأفراد وكانت حياته مملوءة بالرذيلة والفسق والاستهتار، ويقابل فى العالم الآخر الملاك المسئول، وسرعان ما يتضح له أن مصيره جهنم، ثم يُقتاد إلى شقة مفروشة بأثاث أنيق، مكيفة الهواء، بها كل المباهج، ويأتى بعد فترة وجيزة الساقى ليعطيه قائمة بالمأكولات والمشروبات ويتعجب صاحبنا من هذه المعاملة الفائقة فى جهنم، ويسأل الساقى عن الجنة فيجيبه نفس المساكن ونفس الطعام ونفس الشراب فيتساءل: أين النار والتعذيب إلخ؟ فلا يرد الساقى، وبعد فترة وجيزة يأتى الآخر فى نفس الشقة، ثم يأتى الآخر وتزدحم الشقة بأناس لا يستطيع أى إنسان معاشرتهم من طباعهم السيئة وغلاسة سلوكهم ونمطية كلامهم، وثقل ظلهم، وتمر الأيام ولا يستطيع تحمل العذاب ويذهب للملاك ويقول له: أفضل النار والنهاية على أن أستمر فى هذا المناخ. والجنة هى أناس تسعد بلقائهم ومحادثتهم، أى أن جان بول سارتر يريد أن يبعث برسالة أنه فى الحياة والآخرة السعادة هى فى الصحبة والإنسان الآخر وينطبق ذلك على المثل الشعبى «الجنة من غير ناس ما تنداس».

تدل الإحصائيات فى مصر وكل البلاد العربية على تأخر سن الزواج، وأحيانًا عدم القدرة على الزواج نظرًا لتكاليفه الباهظة سواء من ناحية الزوج أو الزوجة، والاهتمام بالمظاهر الخارجية، والمنافسات بين الأسر، وعدم اقتناع الوالدين بقدرة الزوج أو الزوجة المحدودة، مما يؤجل الزواج. كما يزيد على ذلك العطالة بين خريجى الجامعات والمعاهد سواء بين الذكور أو الإناث، وعدم وجود السكن المناسب أو إصرار الأسر على السكن فى المستوى الذى وصل إليه الوالدان بعد عمر ومشوار طويل!!

إن تأجيل الزواج وانتشار العنوسة أو العزوبية مشكلة صحية عامة، يجب تداركها من صانعى القرار السياسى، إن المساندة الاجتماعية فى الزواج تلعب دورًا رئيسيًا فى إحساس المرء بالانتماء، ومن ثم العمل، ومن ثم الإنتاج وتقدم الأمة اقتصاديًا. إن الارتباط الأسرى والنسيج الاجتماعى والزواج عوامل مهمة للحماية من الاكتئاب وعدة أمراض نفسية مختلفة، عوامل مهمة لإنماء النسيج الدماغى والخلايا العصبية فى المخ، وهذه تؤثر فى التفكير والوجدان والإرادة والذاكرة والطموح، وتجعل الفرد قادرًا على الإبداع والخلق.

دعنا نأمل فى أن تعود الطمأنينة إلى نفوسنا، وأن نحب ونعطى للآخر، وأن نجد الوقت للمشاركة الإنسانية مع الآخرين، فى السعادة والإنجاز فى المساندة الاجتماعية، ونلفظ الحقد والكراهية اللذين يترعرعان فى مناخ الاغتراب، والتمركز حول النفس وإيثار الذات.



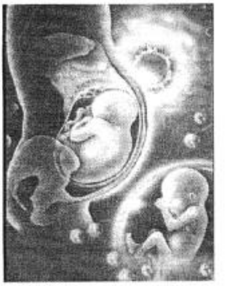
نقص فى الخصوبة واحتمالات تشوه!

محمد أبو الغار

■■ تعتبر العلاقة بين خصوبة المرأة وعمرها وثيقة الصلة ومؤكدة بجميع البحوث العلمية ومن المعروف أن درجة الخصوبة عند المرأة ترتفع تدريجيًا من عمر خمسة عشر عامًا لتصل أقصى درجات الخصوبة فى سن الخامسة والعشرين وتبدأ درجة الخصوبة فى الانخفاض تدريجيًا بعد ذلك وعند بلوغ المرأة سن الخامسة والثلاثين يبدأ الانخفاض بسرعة كبيرة وعند الأربعين يحدث انخفاض حاد فى درجة الخصوبة حتى تنعدم تمامًا بعد الأربعين ببضع سنوات.

وفى السيدات اللاتى يتزوجن بين عمر الخامسة والثلاثين وحتى الرابعة والأربعين تكون نسبة العقم التام وعدم القدرة على الإنجاب حوالى ثلاثين بالمائة وحتى إن لم يكن هناك مشكلة عند الرجل والمرأة أو كلاهما سليم تمامًا. وبالتالى تكون سن الزوجة هى العامل الحاسم والأساسى فى تحديد نسبة النجاح فى علاج العقم ومع تقدم وسائل العلاج ودخول وسائل الإخصاب المساعد هذا المجال أصبحت هناك فرصة حدوث حمل فى أكثر الحالات تعقيدًا عن طريق أطفال الأنابيب ولكن يتبقى أن سن الزوجة ستكون العامل الحاسم فى تحديد نسبة النجاح بغض النظر عن المشكلة القائمة وصعوبة علاجها بالإضافة إلى تكاليف علاج العقم والتى تتجاوز قدرة معظم المصريين الاقتصادية.

يعنى ذلك أن المرأة التى تتزوج بعد سن الخامسة والثلاثين تكون فرصتها فى حدوث الحمل الطبيعى أقل كثيرًا من المرأة التى تتزوج فى الخامسة والعشرين وقد يتأخر حدوث الحمل الطبيعى طويلاً. وفى حالات التدخل بالعلاج إذا كان هناك سبب طبيعى لمنع الحمل فتكون نسبة النجاح أقل. ولنكون أكثر تحديدًا فإن المرأة فى عمر الخامسة والعشرين عندها

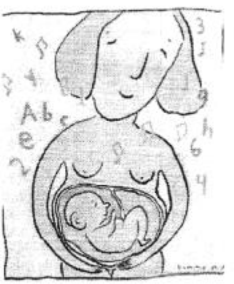


فرصة حوالى خمسين بالمائة فى نجاح عملية أطفال الأنابيب بينما هى ٣٥٪ عند عمر الخامسة والثلاثين وحوالى ١٥٪ عند سن الأربعين وأقل من ٥٪ بعد سن الثانية والأربعين.

وحسب الإحصائيات المنشورة أخيرًا فإن مئات الآلاف من المصريين قد لا يستطيعون الإنجاب بسبب تأخر سن الزواج.

يدفعنا ذلك للتساؤل: هل هناك بعض المشاكل التى قد تتعرض لها المرأة بسبب تأخر سن الحمل إلى نهاية الثلاثينيات؟ والإجابة نعم فمن المعروف أن الأورام الليفية وهى أورام حميدة تنمو داخل الرحم وقد تسبب النزيف والآلام فى الحوض، بالإضافة إلى إعاقة حدوث الحمل تحدث بنسبة أكبر كثيرًا فى السيدات اللاتى لم ينجبن أطفالاً أو تم حدوث الحمل فى سن متأخرة نسبيًا.

ويوجد أيضًا مرض الـ «إندومتريوزيس» وهو عبارة عن أكياس تحمل مادة دموية



مشابهة للشيكولاتة داخل الحوض وحول المبيضين. وهذا المرض يسبب آلامًا مبرحة عند المرأة ويسبب أيضًا حدوث العقم عندها، ومن المعروف من ضمن العوامل المهمة المسببة لهذا المرض هو تأخر سن إنجاب الطفل الأول.

هل هناك مخاطر فى حدوث الحمل الأول بعد سن السابعة والثلاثين؟

تكون السيدة معرضة لبعض المشاكل أثناء الحمل من أهمها ارتفاع نسبة تسمم الحمل والذى يصاحبه ارتفاع فى ضغط الدم وظهور الزلال فى البول وهو ما قد يؤدى إلى مشاكل ضخمة بالنسبة لصحة الأم تؤثر على عمل الجهاز العصبى والكلى والكبد. وتؤثر أيضًا على المشيمة التى تغذى الطفل أثناء الحمل مما قد ينتج عنه ضعف فى نمو الجنين داخل الرحم وإذا كان التأثير على المشيمة شديدًا، فقد يتوقف نمو الجنين تمامًا وقد تحدث له وفاة داخل الرحم، ومن المشاكل الممكن حدوثها أثناء الحمل هى

الولادة المبكرة بمشاكلها المتعددة وكذلك زيادة نسبة الاختلال فى كروموزومات الجنين والتى قد ينتج عنها ولادة الطفل المغولى.

والسيدة الحامل فى سن الأربعين معرضة لضعف نسبة حدوث الإجهاض فى السيدة صغيرة السن وقد تبلغ هذه النسبة حوالى خمسة وعشرين بالمائة أو أكثر وترجع هذه النسبة المرتفعة إلى زيادة اضطراب الكروموزومات والجينات فى البويضات فى هذه المرحلة العمرية للمرأة.

أما عن الولادة نفسها فمن المعروف أن الولادة تكون أكثر صعوبة كلما تأخر سن المرأة عند حدوث الحمل الأول وهناك فرصة أكبر فى اللجوء للعملية القيصرية وذلك لصعوبة الولادة الطبيعية فى كثير من الأحيان فى هذه السن.

هناك مشاكل أخرى مهمة وهى أن ولادة الطفل الأول والمرأة عمرها أربعون عامًا أو أكثر، وربما يكون الزوج قد قارب الخمسين تجعل تربية الطفل أكثر صعوبة، وعندما يصل الطفل لمرحلة الشباب الأولى تكون الأم تعدت الستين من عمرها وقد يكون الأب قارب سن السبعين.

وهناك مشاكل أخرى نفسية وجنسية سببها تأخر سن الزواج وعدم وجود فرصة لتلبية الرغبة الجنسية المتوقدة فى الشباب وفى مجتمع شرقى متدين لا توجد علاقات جنسية بصفة عامة خارج إطار الزواج، ومما لا شك فيه أن هذه الطاقة الجنسية تولد مشاكل نفسية واجتماعية قد تدفع بصاحبها للتطرف الدينى أو قد تشجع على ارتكاب بعض الجرائم مثل الاغتصاب التى كانت نادرة الحدوث عندما كانت الحياة أسهل للشباب.

وأعتقد أن مشكلة بهذا الحجم كما جاء فى التقرير تشكل أيضًا مشكلة صحية ونفسية بجوار الجوانب الاجتماعية والسياسية الناتجة عن تأخر سن الزواج. ■

رسـائل

المـدير.. والعانس والدميمـة!

■■ عزيزتى..

أنا فى ورطة كبيرة.. ففى أى لحظة يمكن أن يدق باب شقتى وعندما أفتح الباب أجد رجال الشرطة فى انتظارى.. ويمكن أيضًا أن تأتى الشرطة للقبض علىّ أمام زملائى فى البنك الكبير الذى أعمل فيه ووصلت فيه إلى مركز مرموق.

أما لماذا أعيش فى رعب فى الأيام الأخيرة، فالسبب أننى منذ عامين وأنا أرتكب مجموعة من الجرائم التى وجدت نفسى مدفوعة إليها وهى جرائم التلاعب فى كشوفات البنك وفى حسابات العملاء وفى اختلاسى مبالغ وصلت اليوم إلى عشرات الملايين.. والمصيبة يا سيدتى أننى لم أرتكب هذه الجرائم التى قد أقضى بسببها بقية العمر فى السجن من أجل المال.. وإنما بسبب الحب.

وأنا يا سيدتى امرأة فى الرابعة والأربعين من العمر، قضيت اثنين وأربعين عامًا منها وأنا أحمل لقب عانس.. وما أبشع وقع هذا الوصف على الفتاة.. ولم تكن مشكلتى هى مشكلة عدم الزواج وحدها.. وإنما المشكلة الحقيقية كانت فى دمامتى الشديدة.. وأعترف وقلبى يتمزق بأنه لا توجد فى وجهى لمسة جمال ولا يحمل جسدى أى أثر من آثار الأنوثة.

وقد مرت سنوات العمر وأنا أعيش فى معاناة نفسية قاسية وهو أمر جعلنى شديدة العدوانية، لكننى وجدت عملاً كسكرتيرة لأحد مديرى البنوك الكبيرة، فقد اختارنى المدير- ولك أن تدهشى - ليس لتفوقى الدراسى أو لذكائى. وإنما لأن زوجته كانت تغار من أن تكون سكرتيرة زوجها جميلة! وهكذا بدأت عملى فى البنك الكبير ومرت السنوات وأنا أتقدم بخطى سريعة جدًا!

وكنت قد وصلت إلى مركز مرموق فى البنك عندما أحيل المدير الجاد الذى كان يساندنى إلى المعاش وعين مدير آخر كان بينى وبينه ما

صنع الحداد، فقد كان وسيمًا مغرورًا ومتزوجًا من امرأة غاية في الجمال، ولم يكن هذا وحده سبب حقدى عليه وإنما لأنه كان يلاطف كل موظفات البنك فيما عداى.. فلم يحدث أن وجه إلىّ كلمة رقيقة واحدة وكان يدير وجهه عنى وكنت أحيانًا أسمعه يردد «إن الله سبحانه وتعالى جميل يحب الجمال».. وما كاد هذا الموظف الكبير يجلس على مقعد المدير حتى بدأت بتوجيه قذائفى إليه، فقد تصورت أنه سوف يبعدنى عن الموقع الممتاز الذى وصلت إليه في البنك، وكان رد فعل المدير الجديد عجيبًا فقد تلقى عدائى له بشكل غير متوقع وبدلاً من أن يثور إذا به يعاملنى معاملة طيبة وإذا به يسند إلىّ أعمالاً أخطر مما كنت أقوم به في زمن المدير السابق، وإذا به ينتهز كل فرصة للإشادة بعملى وذكائى وخبرتى أمام العاملين فى البنك وكانت هذه المعاملة سببًا فى نوع من المصالحة والتفاهم قامت بينى وبينه ثم تطورت الأمور بشكل سريع وإذا به فى إحدى المرات التى انفردت معه فى المكتب يعلن لى أنه لم يعد يستطيع الاستغناء عنى فى حياته الخاصة.. وأنه يريد أن يتزوجنى!

وصدقينى أن هذا الطلب الذى لم أتوقع سماعه من مخلوق قد هز كيانى هزًا وزلزلنى زلزالاً.. وقد تم زواجى أو ما أسماه هو بالزواج فى نفس اليوم وعن طريق قصاصة ورق لم يوقع عليها غيره وغيرى ولم يحدد فيها مهر وكان الاتفاق أن تظل فى السر. وكنت أعرف فى أعماقى أن هذه الورقة لا تساوى شيئًا.. وخاصة أنها كانت من نسخة واحدة احتفظ بها لنفسه. ولكننى كنت على استعداد بعد هذا الحرمان الطويل أن أفعل أى شيء فى سبيل أن أجد نفسى فى أحضان رجل أيًا كان.. فما بالك بهذا المدير الخطير الوسيم.. كان هذا الزواج الصورى الذى هو فى حقيقة الأمر علاقة غير مشروعة بداية لأن يطلب منى هذا المدير بحكم موقعى أن أعبث بحسابات المودعين وأن أقوم بالتزوير ثم الاختلاس، يتم بعدها تحويل المبالغ الكبيرة المختلسة إلى الخارج وإلى حسابات كنت موقنة أنها تخصه وزوجته وأولاده، وذلك بجانب القيام بتقديم قروض بالملايين لشخصيات كان يحددها بنفسه دون أن تكون هناك ضمانات لهذه القروض، وباختصار قمت لحساب هذا المدير بكل الأعمال القذرة التى كان يدفعنى للقيام بها، والتى كنت أظهر فيها وحدى فى الصورة دون أن يكون له دخل بها على الورق.. فكل التوقيعات والموافقات حملت وزرها وحدى.

فجأة.. وبعد أن تمت جريمة تحويل عشرات الملايين من الدولارات إلى الخارج توقف المدير الذى كان يزعم أنه زوجى عن زيارتى التى كان يتعطف بها علىّ بعد كل تحويل.. لكن بلغنى بطريق الصدفة أنه قرر الاستقالة من البنك وأنه يقوم بإجراءات السفر وعائلته إلى الخارج. إننى أفكر فى الانتقام منه والكشف عن جرائمه وجرائمى.. لكننى أخشى الفضيحة. ■

أخبار اليوم ٢٠٠٢/٨/٣١

بلا عــــــــــودة!!

■ ■ أنا رب أسرة أعمل مديرًا عامًا بإحدى الجهات وزوجتى سيدة فاضلة ترعى الله فى زوجها وأولادها، وحالتنا المادية أكثر من متيسرة والحمد لله كثيرًا، فلنا أكثر من عمارة وسيارة حديثة، فضلاً عن المرتب الكبير والدخل الخارجى، ولدينا ولدان فى التعليم الثانوى وابنتان إحداهما تخرجت من كلية نظرية والأخرى فى السنة النهائية، والبنتان ـ ولله الحمد ـ على خلق ودين وتصومان الاثنين والخميس ومحجبتان، هذا فضلاً عن أنهما على درجة عالية من الجمال خاصة الكبرى، وهى صاحبة المشكلة أو المأساة التى أكتب لك عنها، فنحن والحمد لله نحب الخير للكل ونساعد كل محتاج، ولقد من الله علينا بمشروع كان فاتحة الخير لنا، ونستطيع أن نقول إنه نقلنا إلى مصاف الأغنياء وأما مشكلة ابنتى ـ وهى على درجة عالية من الجمال والأخلاق وقبل كل ذلك متدينة إلى أقصى درجة ـ فهى أنها كلما تقدم لها عريس مناسب ورحبنا به فإنه يذهب بلا عودة وبلا سبب، وتكرر ذلك عشرات المرات إلى أن ساءت حالتها النفسية.. وأشار البعض علينا أن نلجأ إلى العرافين، فعلاً حدث ذلك وقالوا هى مسحورة ودخلنا فى طريق مسدود، الدجل فيه أكثر من الحقيقة، ولا تتصور حالتنا جميعًا بسبب هذا الموضوع فضلاً عن حالة الابنة التى تذوب أمام عيوننا وتمر بها الأيام والسنون فى حسرة.

فهل أجد عندك الحل لأب حزين يتمنى أن يرى بسمة على شفاه ابنته؟ ■

الأهرام ٢٠٠٢/١١/١

كتــاب الـزاويــة



رسالة إلى صلاح الدين!

يَا سيّدى . . فَلأعْترِفْ . .
أن الجوَادَ الجَامحَ
المجنُونَ قد خَسِرَ الرِّهانْ
وبأنَّ أوْحالَ الزمَانِ الوَغدِ
صَارتْ ثيابَ المُلك والتيجَانْ
وبأن أشباه الرجال تحكموا
وبأن هذا العَصرَ للغلمانْ . .
يا سيِّدى . . فَلأعترف
أن القصَائدَ لا تسَاوِى رَقْصةً
أو هزَّ خصرٍ فى حِمَى السُّلطانْ
أن الفراشَات الجميلةَ
لنْ تقاومَ خِسَّةَ الثعبانْ
أن الأسُودَ تمُوتُ حزنًا
عندمَا تتحكم الفئرانْ . .
أن السَّماسرَةَ الكبارَ توَحَّشُوا
باعُوا الشُّعوبَ . . وأجهضُوا الأوطانْ . .
ولأعترفْ يا سيدى . .
إنى وفيتُ . . وأن غَيرىَ خانْ
أنى نزفتُ رَحِيقَ عمْرى
كىْ يُطِلَّ الصبحُ
لكنْ . . خَانَنى الزمنُ الجبانْ

قــراءة نقــدية لتقرير التنميــة



حول تقرير التنمية الإنسانية العربية

يعكس حجم الجدل الدائر حــول تقــرير التنميــة الإنسانية العربية غير المسبــوق الصــادر عن برنامج الأمم المتحــدة الإنمائي وبدعم من الجامعة العربية، قدر أهميته.

وفي العــدد الماضي من «وجهات نظر» كتب د. جلال أمين مقالاً نقديًا تضمن وجهة نظره في التقرير وزوايا اهتماماته.

ونستكمل في هذا العدد بمقالين أحدهما للدكتور محمود عبدالفضيل والثاني للدكتور نادر فرجاني المحرر الرئيسي للتقرير يرد فيه على ما أثاره جلال أمين ويقدم فيه رؤيته «النقــدية» لما أثيــر من اعتراضات وانتقادات.

المحـــــرر

تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢
المحرر الرئيسي: د. نادر فرجاني
برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي.

[١]

تم استقبال تقرير التنمية الإنسانية العربية (٢٠٠٢) بضجيج إعلامي كبير، نظراً لأنه التقرير الأول عن التنمية الإنسانية في البلدان العربية كمنطقة عربية مستقلة، ولأنه صادر عن البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة ويحمل شارتها وبالتالي يتمتع بحصانتها في المحافل الدولية.

وليس هناك من شك أن هذا التقرير يمثل أول تقرير عربي مجمع عن قضايا ومشاكل «التنمية الإنسانية» في المنطقة العربية. وبالتالي فهو يحوى جهدًا تجميعيًا جيدًا لعناصر الصورة الإحصائية حول بعض قضايا «التنمية الإنسانية» للمنطقة العربية في إطار مقارن. كما أنه يحتوى على إشارات واضحة ومهمة إلى مصادرة عمليات «التنمية البشرية» في فلسطين والعراق، في ظل الاحتلال والحصار الاقتصادى والمالي والثقافي (حيث يتم اغتيال مستقبل جيل كامل من الأطفال والشباب في فلسطين والعراق).

كذلك قام بالمساهمة في إعداد التقرير نخبة من المفكرين والمتخصصين العرب، سواء على مستوى الهيئة الاستشارية أو في مجال كتابة الأوراق الأساسية والخلفية.

ولكن بالرغم من كل هذا، فإن التقرير يحتاج إلى وقفة تأملية وقراءة نقدية متعمقة، حتى يمكن تحديد النواقص التي ينطوي عليها التقرير، وكذلك نواحي القصور المنهجية المنتشرة في ثناياه، حتى يمكن تلافيها في التقارير القادمة.

وسوف نركز هنا في هذه القراءة النقدية على بعض القضايا التي نعتقد أنها تستحق وقفة تأملية، وهي على الترتيب:

١- الإطار المفاهيمي: مقولة أن «التنمية الإنسانية هي الحرية».

٢- حول مدى صلاحية تشخيص «النواقص الأساسية» في مسيرة التنمية الإنسانية العربية على أنها: نقص الحرية - نقص تمكين المرأة - نقص المعرفة.

٣- المسكوت عنه في تقرير التنمية الإنسانية العربية.

٤- نظرة تقويمية عامة.

وبداية، وعلى مستوى شديد العمومية، يحتوى التقرير على مقولة أساسية خاطئة، وهي أن البلدان العربية أكثر ثراء ولكن أقل تقدماً (Richer than developed). إذ تنطوى هذه المقولة على قدر من التضليل نتيجة عدم التمييز بين «البلدان النفطية» الغنية / قليلة السكان، والبلدان «غير النفطية» الأكثر اكتظاظاً بالسكان. وتأسيساً على ذلك، يصل التقرير إلى العديد من الاستنتاجات شديدة العمومية، والمضللة أحياناً نتيجة وضع كل البلدان العربية في سلة واحدة، مما يؤدى إلى ما يسميه الإحصائيون «أخطاء التجميع» (Aggregation errors). هذا بينما كانت هناك محاولات سابقة في الأدبيات العربية أكثر علمية وتطوراً في مجال تصنيف البلدان العربية في مجموعات متسقة من حيث الخصائص في الموارد والإمكانات: (نفطية، نصف نفطية، غير نفطية)، أو «ريعية» من الدرجة الأولى، أو «ريعية» من الدرجة الثانية، لم يتم الإشارة إليها بالمرة في هذا التقرير.

كما نلاحظ أنه تم التركيز في معظم التقرير على الأوضاع السكانية والصحية والتعليمية والتشغيل، وهي مناطق بحثية مطروحة جيداً منذ سنوات طوال، بينما لم يهتم التقرير بحرث أرض جديدة في مجالات مهمة تتعلق بصميم عملية التنمية الإنسانية مثل: الإسكان العشوائي، وضعف الحماية الاجتماعية والتأمينية، ومصادرة وتبديد «وقت الفراغ» لدى الشباب.

ومن ناحية أخرى، ورغم حجم التمويل الكبير الذى أتيح للتقرير، فإن حجم العينة من الشباب التي طبق عليها الاستقصاء لم يتجاوز ١٢٨ فردًا يتوزعون على خمسة بلدان عربية فقط، بالإضافة إلى ١١٢ طفلاً تم عمل مقابلات معهم في المؤتمر العربي للطفولة المنعقد في عمان (يوليو ٢٠٠١)، وهي عينة متحيزة للأطفال الأردنيين.

ونظراً لضآلة حجم العينة، فإنه لا يعتد بتلك النتائج حتى بصفتها استطلاعية، ولابد من عمل استقصاء كبير يستند إلى عينة كبيرة جيدة التصميم للوصول إلى نتائج لها صفة تمثيلية. وهكذا لم يقدم لنا التقرير معالجة جادة ومعمقة للطموحات والإحباطات التي تعتمل في صدور الشباب العربي الذين يشكلون مستقبل الوطن العربي، حيث يتحدث البعض اليوم عن شعور متزايد «بفقر الكرامة وفائض الإحباط» لدى هذا الشباب العربي.

[٢]

القضية المحورية في التقرير: التنمية هي الحرية.

أعطى التقرير وزناً طاغياً ومبالغًا فيه لقضية الحرية باعتبارها كبرى القضايا، وأنها تفوق كل شيء في حياة العرب. إذ جاء في التقرير (باللغة العربية، ص ١٨)، ما يلي بالنص:

«يفرض الفهم الصحيح لفلسفة التنمية الإنسانية اعتبار القدرات الإنسانية، خاصة الحرية، وليس التمكن من السلع والخدمات عن طريق الدخل، الوسيلة الأساسية لتمكين البشر. ولهذا، فإن استبعاد الدخل من مؤشر التنمية الإنسانية يمثل فارقًا جوهريًا مع مقياس التنمية البشرية، وفي منظور مفهوم التنمية الإنسانية، تحسيناً أكيداً».

وهذه المقولة التي تختزل كل شيء في قضية «الحرية» ضرب من «الطوباوية». فلا أحد ينكر أهمية «الحرية» ومحوريتها كضرورة للتقدم الإنساني. ولكن تلك الصياغة لقضية الحرية هي صياغة متطرفة، تهمل جوانب مادية مهمة تساعد على ممارسة الحرية، مثل إشباع الحاجات الأساسية، والدخل اللائق الذي يساعد الإنسان على عدم امتهان كرامته وتسوّل الرزق تسوّلاً.

وقديماً كان اليسار التقليدي يرفع شعار «الخبز والحرية»، وفي الستينيات كتب الدكتور يوسف صايغ (الاقتصادي الفلسطيني الكبير) كتابًا بعنوان «الخبز مع الكرامة». أي أنه كان هناك باستمرار توازٍ في الطرح بين ركني الحرية: السياسي والاجتماعي.

حتى «أمارتيا سن» الاقتصادى الهندى المرموق (الحائز على «جائزة نوبل» في الاقتصاد) الذي تم الاستناد إلى كتابه (Development as freedom)، سبق أن طرح مفهومًا أكثر ثراء وواقعية أسماه «الحقوق الإنسانية الأساسية في مجال التبادل» (Exchange entitlements)، وحددها على النحو التالي:

(أ) الحق في التوظف.

(ب) الحق في الحصول على دخل يحقق الحياة الكريمة.

(ج) الحق في أن تكون أثمان السلع والخدمات في متناول المستهلك، أيًا كان موقعه في خريطة توزيع الدخل.

ومن ناحية أخرى، فإن التركيز على أهمية قضية الحرية ومحوريتها ليس جديداً على الفكر والنضال العربي. فمنذ كتاب عبد الرحمن الكواكبي طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، كانت هناك أجيال متعاقبة دافعت عن الديمقراطية بضراوة، وناضلت ضد غياب الحريات عبر كافة الأقطار العربية، ودفعوا ثمناً لذلك السجون والمنافي. ويخرج علينا التقرير وكأنه جاء بكشف جديد حول ضرورة ومحورية «الحرية» كأساس للتنمية الإنسانية والتقدم الإنساني عمومًا.

وعندما نجيء لمشاكل القياس، نجد أن التقرير، يعتمد بصفة أساسية على المقياس الذى أقرته مؤسسة freedom house ، وهي مؤسسة أمريكية «لا تهدف للربح»، كما جاء بالتقرير! وهو مؤشر يعبر عن درجة التمتع بالحريات السياسية والمدنية، ويتم وفقاً له إعطاء درجات للبلدان المختلفة على «سلم مقياس الحرية» الذي تم اعتماده من قبل هذه المؤسسة، وكأنه مقياس علمي موضوعي يتسم بدقة شديدة مثل «مقياس ريختر»، لا يجيئه الباطل من أمامه أو من خلفه.

ولكن الجميع يعرف أن مؤشراً من هذا النوع يتضمن درجة كبيرة من التحكم، وعدم القابلية للتطبيق بشكل ناجح عبر كافة بلدان المعمورة، وخاصة إذا ما استخدم لترتيب البلدان العربية فيما بينها، أو إذا ما قورنت البلدان العربية بغيرها عبر بقاع العالم. فأين الإبداع العربي والجهد الذاتي الذى قدمه واضعو التقرير النهائي في مجال تركيب «مقياس جديد للحرية، يأخذ بعين الاعتبار كافة التحفظات التي ترد على مقياس مؤسسة «بيت الحرية» الأمريكية.

ثم ماذا عن التحرر من الحاجة (إشباع الحاجات الأساسية)، والتحرر من الخوف في الحاضر والمستقبل. إذ أنه بجوار الحرية السياسية، هناك ضرورة توافر التسهيلات الاقتصادية، والأمان الاجتماعي لتمكين الناس من ممارسة الحريات الأساسية والعمل على المشاركة في الحياة السياسية مشاركة فعالة والتمتع بالحريات الديمقراطية الأساسية.

وإذا كان التقرير قد أسرف في الحديث عن «حرية المواطن» والحريات الفردية، فإن التقرير لم يتحدث عن كيف يمكن تحقيق «حرية الوطن»؟! فبالرغم من إيماننا من أن «حرية الوطن» لا تتحقق بدون «حرية المواطن»، فإن العكس غير صحيح. نظراً لأنه إذا ما تحققت «حرية المواطن» في وطن تابع أو مغلولة حريته ومنتقص من سيادته، فإنها تظل حرية شكلية.

وهنا نجد أن بعد العلاقات السياسية والاقتصادية الدولية غائب تماماً عن التقرير. ولا سيما دور المال والإعلام والقوة (Finance, Media, and Power) في تشكيل مصائر الشعوب والنظم في ظل موجة العولمة

الإنسانية العربية (٢٠٠٢)

محمود عبدالفضيل

الراهنة التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا، فإن نقطة الضعف الرئيسية في التقرير تكمن في غياب العلاقة الجدلية من بين أوضاع الوطن العربي في الداخل وبين أوضاع العلاقات الاقتصادية والسياسية السائدة في العالم من حولنا (العولمة).

[٣]

حول تشخيص النواقص في مجال «التنمية الإنسانية».

ركز التقرير على ثلاثة أنواع من «الفجوات» أو «النواقص»، باعتبارها أهم «النواقص» التي تعيق مسيرة «التنمية الإنسانية» في الوطن العربي، وهي:

* فجوة في التمتع بالحريات.
* فجوة في تمكين المرأة.
* الفجوة المعرفية.

ـ ويحاول التقرير أن يقيس فقر الاغتراف من المعرفة، بعدد الحاسبات المتصلة بالإنترنت لكل ألف من السكان (١٩٩٨)، ويرى أنها أقل من منطقة «دول أفريقيا جنوب الصحراء». وهذا المقياس السطحي لترتيب البلدان عربياً وعالمياً، لا يتطرق إلى «نوعية الاستخدام المعرفي» لساعات الإنترنت. إذ أن هناك فرقًا جوهريًا بين «المعلوماتية» و«المعرفة». فالإنترنت هي أداة فعالة للاتصال في مجتمع المعلومات، ولكنها ليست بالضرورة أداة معرفية، لأن هناك بنية تحتية معرفية لابد من توافرها لاستخدام ما هو متاح عبر «الإنترنت» مثل النظام التعليمي وبناء الكوادر الفنية، ووحدات «البحوث والتطوير».(R&D)

والكتابات العلمية في هذا المجال تركز على مقاييس فرعية مهمة مثل:

* عدد علماء ومهندسي البحوث والتطوير (R&D) لكل ألف من السكان.
* عدد براءات الاختراع المسجلة سنوياً، مقابل تراخيص البراءات المستوردة من الخارج.

وغير ذلك من المؤشرات ذات الدلالة المهمة في هذا المجال.

ثم من قال أن تلك «النواقص الثلاث»، التي ذكرها التقرير، هي النواقص الحاكمة في عملية التنمية الإنسانية العربية. إذ لم يقدم التقرير تحليلاً وافياً لعلاقات السببية: أي ما هي «المتغيرات» و«العلاقات» الحاكمة، وما هي «المتغيرات» و«العلاقات» التابعة، لكي يبرر هذا الانتقاء للنواقص الثلاثة، اللهم إلا أنها تتماشى مع «الصرعات» الجديدة في الدوائر الدولية.

وباستثناء «الفجوة المعرفية»، هناك أنواع أخرى من «النواقص» التي قد تكون أكثر خطورة وتعويقاً لمسيرة التنمية الإنسانية في الوطن العربي، نذكر منها على سبيل المثال، وليس الحصر:

* العجز المؤسسي.
* عجز القدرات الإنتاجية.
* عجز الدخول عن إشباع الحاجات الأساسية للسكان.
* عجز في مظلة «الحماية الاجتماعية».

ومن يدريك انه إذا ما تم تشخيص دور تلك «النواقص الأخرى» بدقة، فقد يتبين لنا ان «نقص الحرية» و«نقص تمكين المرأة» هي متغيرات «تابعة» وليست «حاكمة» في مسيرة التنمية الإنسانية العربية.

[٤]

المسكوت عنه في تقرير التنمية الإنسانية لم يتعرض التقرير لعدد من القضايا التي تدخل في صميم عملية التنمية الإنسانية العربية. ونسوق على سبيل المثال، عددًا من القضايا المسكوت عنها في التقرير.

* عدم التعرض بشكل إحصائي وموثق إلى ازدياد «درجة عدم العدالة» في توزيع فرص التعليم الجيد (Quality education)، نتيجة تعدد القنوات التعليمية، وصورية «مجانية التعليم». مما سوف يؤثر مستقبلاً على انماط تكوين ما يسمى «رأس المال البشري»، وبالتالي على فرص ومستقبل التنمية الإنسانية لجيل كامل من خريجي النظام التعليمي العربي.

* اتساع «الفجوة الرقمية» (digital Divide)، ليس فقط فيما بين بلدان العالم العربي وبقية بلدان العالم.. فهذا معروف ومرصود وموثق. ولكن الأهم هو توثيق اتساع «الفجوة الرقمية» داخل البلد الواحد، وانقسامه إلى «شمال» و«جنوب»، مما يؤثر على التماسك المجتمعي، وتوافر فرص التنمية الإنسانية المتوازنة للجميع: الغني والفقير.

* لم يعالج التقرير في القسم الخاص بالإسكان (Habitat) قضية من أخطر القضايا تأثيراً على واقع ومستقبل التنمية الإنسانية في الوطن العربي، ألا وهي النمو الهائل لحجم الإسكان العشوائي، وحجم السكان الذين يعيشون بين جنباته، حيث لا توجد المرافق اللازمة من كهرباء ومياه، وحيث تطفح مياه المجاري في الطرقات والحواري، وتزداد معدلات التزاحم في الغرفة الواحدة، وترتفع معدلات الجريمة، وحيث يتم اغتيال ومصادرة «وقت الفراغ» الذي يرتقي بالإنسان ومواهبه ويطلق طاقاته المعطلة.

* رغم أن هناك إشارة عابرة لأهمية شبكات الأمان الاجتماعي (Social protection) من منظور التنمية في بداية التقرير، فإن هذا الموضوع لم يحظ بأية معالجة جادة في ثنايا التقرير، رغم أن هناك إجماعًا عالميًا على أهمية بناء شبكات للأمان الاجتماعي من أجل ضمان عملية التنمية الإنسانية، ولكي يأمن الإنسان من جوع ومن خوف على مستقبله. وهناك دراسات حديثة في عالمنا المعاصر عما يسمى حجم السكان «المؤمن عليهم» (insured population)، أي الذين يستظلون بمظلة التأمينات، وحسب أنواع التغطية التأمينية.



* لم يعالج التقرير اتساع نطاق وحجم العمالة «المتقطعة» و«غير الدائمة» (Casual employment) في الوطن العربي، ومضاعفات ذلك على التنمية الإنسانية لقسم مهم من قوة العمل العربية، واقتصر على معالجة موضوع «البطالة» من منظور تقليدي ليس فيه جديد.

* لا توجد أدنى مناقشة في التقرير لقضايا «وقت الفراغ» (Leisure time) وأسلوب استخدامه لدى الإنسان العربي، بكافة فئاته الاجتماعية. وتلك قضية تدخل بلا شك في صميم قضايا «التنمية الإنسانية»، وهي موضع اهتمام في الدراسات الحديثة في مجال التنمية الإنسانية. إذ أن أسلوب استخدام «وقت الفراغ» (أو انعدامه من الأساس) لغالبية السكان في الوطن العربي، يعتبر قضية جوهرية من منظور «التنمية الإنسانية».

قد تكون هذه القضايا اكثر صعوبة في المعالجة، وتحتاج لبيانات إحصائية ليست ميسورة، ولكن هنا يكمن التحدي الحقيقي في مجال التصدي بالمعالجة العلمية لتلك القضايا التي هي في قلب عملية «التنمية الإنسانية»، وتحتاج لحرث أرض جديدة.

[٥]

نظرة تقويمية عامة

خلاصة القول هنا أن موضوع «التنمية الإنسانية» هو موضوع مطروح في الكتابات والنضالات العربية منذ أمد طويل. إذ كان الحديث يدور دوماً ـ منذ السبعينيات ـ حول أن بناء البشر أهم من بناء الحجر. ولم يأت التقرير بفتح جديد في هذا الموضوع. اللهم سوى تقديم صورة إجمالية لتطور جوانب معينة من عمليات التنمية الإنسانية في المنطقة العربية، كما أسلفنا.

ومعظم المجالات التي غطاها التقرير هي أرض تم حرثها وبذرها من قبل، ولا سيما في حقول:

(أ) السكان ـ الصحة ـ البيئة (الفصل الثالث).
(ب) حالة التعليم وسبل إصلاحه (الفصل الرابع).
(ج) النمو الاقتصادي ـ التشغيل ـ الفقر (الفصل السادس).

ونفس الشيء ينطبق على الفصل السابع المعنون «الحكم الصالح والتنمية الإنسانية». ومصطلح «الحكم الصالح» يعتبر ترجمة ركيكة لمصطلح Governance، الذي شاع مؤخراً في الكتابات الدولية الغربية. وبهذا الصدد، استند التقرير إلى المؤشر المركب الذي ركبه مستر «كوفمان وشركاه» في دراسة قدمت للبنك الدولي خلال عام ١٩٩٩، وركز هذا المؤشر على عدة قضايا هي: المحاسبة ـ درجة الاستقرار السياسي ـ فعالية الحكومة ـ حكم القانون ـ .Regulatory Burden ولم يتطرق هذا المؤشر لعدالة توزيع الدخول والثروات والسلطة في المجتمع كمقياس «لجودة الحكم»، بينما تراثنا العربي يقول لنا أن «العدل أساس المُلك»، قبل أن تخرج علينا المنظمات الدولية بتلك المصطلحات الجديدة مثل «الحكم الصالح» و«الشفافية».

ويبقى لنا أن نشيد فقط بالفصل الخامس المعنون «نحو مجتمع المعرفة» الذي يمثل إضافة حقيقية في هذا الموضوع. وفي المقابل، فإن الفصل الثامن المخصص «لقضية التعاون العربي»، جاء ضعيفاً ودون مستوى الكتابات والمساهمات العربية الغنية في هذا المجال خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات.

ولكن إحقاقاً للحق، فإن بعض الأوراق الخلفية، التي اطلعت عليها، هي أكثر ثراء بكثير مما جاء في التقرير في صيغته النهائية المنشورة.

ومن حيث المنهجية وأدوات القياس، تم استعارة معظم المؤشرات والمقاييس المستخدمة في التقرير من مصادر فكرية «غير عربية»، نخص منها:

١ـ حول مركزية قضية الحرية:
Amartya Sen, Development as freedom (1999)

٢ـ حول دالة الرفاه الاجتماعي:
P. Dasgupta, An enquiry into welfare and distribution, (1993)

٣ـ حول أسلوب قياس الحرية:
Annual survey of freedom (Freedom House).

٤ـ حول المقياس المركب «للحكم الصالح»:
Kauffman D. A. and al. (1999), Aggregating governance indicators, a World Bank Memo.

وكنت أتمنى على فريق التقرير أن يقدم لنا رؤية نقدية لتلك المقاييس، من منظور الواقع العربي، وأن يقترح مؤشرات أكثر ثراء وارتباطاً بالواقع العربي، حتى لا نصل إلى مقارنات خاطئة وظالمة فيما بين البلدان العربية، من ناحية، وفيما بين البلدان العربية والبلدان النامية الأخرى، من ناحية أخرى.

وتبقى المحاولة الوحيدة في التقرير التي تحتوي على قدر من الاجتهاد هي تلك الخاصة بتركيب مؤشر مستحدث للتنمية الإنسانية (ص ١٨ من الطبعة العربية)، وذلك بغض النظر عن عدم اتفاقنا مع مكوناته والأوزان المستخدمة.

وحول فحوى ما جاء في التقرير من نقد شديد للأوضاع العربية الراهنة في ثلاثة مجالات محددة هي: الحريات الفردية – المرأة – المعرفة دون غيرها، فإن أحد الكتاب الغربيين التقدميين المتعاطفين مع القضية العربية (MERIP Report, summer 2002)، رأى أن هذا التقرير: «يؤسس لنظرة استشراقية جديدة للمنطقة العربية، ولكن هذه المرة بأقلام عربية»! ومن هنا، نفهم تلقف بعض الأوساط الغربية المعروفة بعدائها للعرب والإسلام لبعض ما جاء في التقرير، واعتبار أن مقولاته واستنتاجاته تنطوي على جرأة نادرة وصراحة غير مسبوقة!

وختاماً، أود أن أقول أن موضوع «التنمية الإنسانية» موضوع قديم.. قديم، وسبقت معالجته من خلال منهجيات عدة تأخذ بعين الاعتبار: البعد التاريخي (التراث الثقافي والمعرفي)، والإطار الدولي (علاقات التبعية)، والخبرة الذاتية للأمة.

وقديماً قال الحكماء في الصين:

* إذا أردت أن تزرع أرزًا، فخطط لذلك قبل عام.
* وإذا أردت أن تزرع أشجارًا باسقة، فخطط لذلك قبل ذلك بعشرين عاماً.
* أما إذا أردت أن تزرع وتربي رجالاً للغد المأمول، فخطط لذلك قبل مائة عام.

فهل هناك أروع من هذه المقولة في مجال التنمية الإنسانية، قبل أن تصبح شعاراً براقاً ترفعه المنظمات الدولية.■

نحو علم اجتماعى ناقد!

نادر فرجانى

توطئة:

لن يخفى على القارئ الفطن المتابع لهذه الدورية أن هذا المقال يتوخى الرد على مقال الدكتور جلال أمين نقداً لتقرير التنمية الإنسانية العربية، والمنشور فى العدد ٤٦ من «وجهات نظر»، لكنى اخترت أن يرقى الرد أولا إلى مصاف مناقشة فكرية لقضايا مهمة عوضاً عن أسلوب التقاتل أو «المصارعة الحرة» الذى انتهجه جلال أمين، على أن أرجئ قليلاً من الرد المباشر إلى بعض حواشى فى نهاية المقال. كما اخترت، تكريسا لتقاليد العلم الاجتماعى الناقد، أن أقدم وجهة نظرى الخاصة فى نقد محتوى تقرير التنمية الإنسانية، دون أن يعنى ذلك تنصلا من مسئوليتى عن التقرير.

العلم الاجتماعى الناقد، وموقع تقرير التنمية الإنسانية منه

أى علم اجتماعى يخدم النهضة فى المجتمعات المتخلفة؟

نرى أن العلم الاجتماعى الناقد هو الأجدر بالتبنى، خاصة فى المجتمعات المتخلفة.

ويعد العلم الاجتماعى الناقد محاولة لفهم النواحى القهرية فى المجتمع، عقلانياً، بحيث يحفز هذا الفهم جمهور العلم من الناس لتغيير مجتمعهم، وتحرير أنفسهم. فالقصد ليس مجرد الفهم أو التفسير، بل تغيير المجتمع، فى وجهة تحررية، من خلال العلم الاجتماعى.

ويقوم العلم الاجتماعى الناقد على أن القهر هو أساس آفات الوجود البشرى المعاصر. ومن هنا يهتم العلم الاجتماعى الناقد، علمياً، بثلاث عمليات مجتمعية جوهرية: الاستنارة، والقيام أو التمكن بمعنى النهوض، والتحرر.

ومن المهم الإشارة إلى أن هذه التوجهات النبيلة للعلم الاجتماعى الناقد ربما تبالغ فى مقدرة الناس، خاصة فى المجتمعات المتخلفة، على امتلاك المعرفة العقلانية وإمكان استغلالها، بكفاءة، فى مكافحة القهر. بعبارة أخرى، هناك خصائص للمجتمعات البشرية القائمة تعيق وظيفة العلم الاجتماعى الناقد، خصوصاً فى مضمارى الاستنارة والقيام. وتتمثل هذه العوائق فى غياب القدرة على التفكير العقلانى، بسبب نجاح هياكل القوة المسيطرة فى واد هذه القدرة من خلال أساليب التنشئة القهرية (خاصة التعليم النظامى والإعلام المدار)، وعقابها عن طريق اللجوء إلى القوة الغاشمة، وسيطرة التقاليد التى قد يعنى الانضواء تحتها التسليم بواقع القهر المعاش، بل تدويمه.

ورغم أهمية هذه التحفظات على نجاح الوظيفة المجتمعية، والإنسانية، للعلم الاجتماعى الناقد، إلا اننا نرى، إيجابياً، أن هذه العوائق تشكل، فى حد ذاتها، موضوعات لهذا الصنف من العلم الاجتماعى، وتُقوّى الحاجة إليه فى المجتمعات المتخلفة.

وعلى هذا فإن نقد الوضع الراهن، عبر توسل العلم الاجتماعى الناقد سبيلاً للتغيير خدمة للتقدم، يمثل فى نظرى الوظيفة الأسمى للعلم والعمل المجتمعى لفئة المثقفين، خاصة فى المجتمعات المتخلفة.



ويدخل فى نطاق نقد الوضع الراهن، لا ريب، نقد الإنتاج المعرفى. وفى هذا المنظور، فإن نقد تقرير التنمية الإنسانية ظاهرة صحية بامتياز، يزيد إسهامها فى صنع التقدم فى البلدان العربية كلما كان النقد موضوعيا ومترفعا على الاستعداء الفج والمزايدة الرخيصة. وفى هذا المنظور، أستقل شخصيا، دون تنصل من مسئوليتى باعتبارى المؤلف الرئيسى للتقرير، قطار نقد تقرير التنمية الإنسانية فى قسم تال.

تقرير التنمية الإنسانية كنموذج للعلم الاجتماعى الناقد

لقد مثّل تقرير «التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢» اجتهاداً فى مضمار العلم الاجتماعى الناقد، بمعنى أن التقرير اجتهد فى أن يقدم للشعب العربى مقاربة تستحث عمليتى الاستنارة والقيام، تأسيسا للتحرر والنهضة فى الوطن العربى عبر إثارة حوار جاد حول بعض القضايا التى قدّر واضعو التقرير صلتها الجوهرية بفرص التقدم فى هذه البقعة من العالم.

ومن المهم ملاحظة أن العلم الاجتماعى الناقد بحق لا يلقى دعماً من هياكل القوة المسيطرة، محلياً ودولياً. بل هى تقاومه، هذا إن لم تحاربه، قدر الطاقة. ومن هذا المنطلق، فإن صدور تقرير التنمية الإنسانية حاملا رسائل نقدية قوية للواقع العربى الراهن، وسياقيه الإقليمى والدولى، رغم رعاية إعداده من أهم مؤسستين تعنيان بالتنمية فى البلدان العربية على الصعيدين العربى والدولى، لهو إنجاز يستحق التقدير. ولعل فى ذلك أحد أهم أسباب ما حظى به التقرير من اهتمام وما أثار من جدل، عربيا ودوليا.

والتقرير، ككل اجتهاد، لاشك يحتمل الخطأ والصواب، ولكنه يستحق، فى كلتا الحالتين، وفق القاعدة الفقهية، أجر الاجتهاد.

ولا ريب أن أى جهد بشرى هو فى النهاية قاصر ويظل يطلب الكمال. ولكن يكفى التقرير أن أثار كل ذلك الاهتمام، عربيا ودوليا، اختلافا قبل الاتفاق. فالقصد هو عرض القضايا المثارة فى التقرير على القوى الحية فى المجتمعات العربية، كافة، لتنظر ما هى فيها فاعلة.

لقد كان منتهى أمل فريق التقرير أن يثير نقاشا حيا حول القضايا الجوهرية التى يثيرها. وقد تجاوز الاهتمام بالتقرير، فى البلدان العربية وخارجها، توقعات الفريق الذى أعده. وفى نطاق وحيوية النقاش الذى جرى حتى الآن فى البلدان العربية وخارجها، دليل على ذلك. غير أن قلة قليلة من الناقدين قد حادوا عن الموضوعية لأسباب واضحة أحياناً، وتبدو غامضة فى أحيان أخرى.

هل يمتنع النقد الذاتى فى ظروف الأزمة أو استهداف الأمة من أعداء؟

عندى أن معاناة الأمة لأزمة أو استهدافها من أعداء لا يحل فئة المثقفين من التزامها بنقد الأوضاع الراهنة وصولاً للتقدم، باعتباره التزاماً بالمصلحة العليا للوطن التى تجب كل مصلحة عداها، بل تجعل النقد الذاتى ألزم.

لا يخدم غرض النهضة، فى تقديرى، أن نمتنع عن نقاش أمور نراها حيوية لتقدمنا إذا ما كان للغرب فيها رأى أيّاً كان؟ وليس جديرا بأمة تريد أن تنهض أن نعتبر كل ما يقال فى الغرب، رغم العداء السافر، بشأننا كفرًا بواحًا فنغلق عقولنا وراءه وأمامه؟ إن نهج التنمية الإنسانية يجد فى إغناء التنوع الثقافى داخل الأمة، وفى التلاقح المغنى مع الثقافات الأخرى دعائم نهضة إنسانية تصل العرب بالعالم والإنسانية.

فى تجاوز محتوى تقرير التنمية الإنسانية، وجهة نظر شخصية للمؤلف الرئيسى للتقرير!

لا أخالنى أفشى سرا، أو أخون أمانة، بقولى أن لى شخصيا مآخذ على محتوى تقرير «التنمية الإنسانية العربية» للعام ٢٠٠٢، لا تخفى على من تابع مسيرتى البحثية والفكرية. فمحتوى تقرير كهذا، شارك فى العمل عليه ما يقارب مائة شخص، من مشارب مهنية وفكرية متباينة، عبر أدوار مختلفة ينتهى محصلة لتفاعل، بل أحيانا تصادم، عديد من الإرادات وربما المصالح، الفردية والمؤسسية، بحيث يكاد يستحيل أن يرضى أحدًا، ولو ممن شاركوا فى إعداد التقرير، رضاء كاملا عن محتواه النهائى.

ولهذا فإنه من منظور إعلاء منظور العلم الاجتماعى الناقد سبيلا للنهضة، لا أرى أى غضاضة فى أن ينتقد بعض ممن ساهموا فى إعداد التقرير مضمونه النهائى، شريطة تحرى الموضوعية وتوقى المزايدة، ولا أستثنى نفسى. فمن ناحية، أقر بأخطاء، استشعرتها خاصة فى خضم النقاشات التى شاركت فيها، وأتحمل مسئوليتها. ومن ناحية أخرى هناك قضايا كان يحسن، فى تقديرى، أن يتجاوز مضمون التقرير ما قدّم بشأنها، وأعرض فيما يلى لمحات خاطفة بشأن بعضها، وقد يتسع مقال تال لقدر من التفصيل فى هذه الأمور. ويقع تركيزى على البنية المؤسسية للتنمية فى البلدان العربية حيث أقدر أن اختلال السياق المؤسسى للبلدان العربية، وضعف اكتساب المعرفة وقلة توظيفها، بفعالية، فى خدمة التنمية الإنسانية، ناهيك عن القعود عن إنتاجها، هما السببان الأشد حرجاً فى قيام أزمة التنمية فى المنطقة. فانساق الحكم، رغم تطورات مشجعة فى طرفى الوطن العربى، فى المغرب والبحرين، فى الأغلب سيئة السمعة لقلة تمثيلها وصعوبة مساءلتها، والتعاون العربى وهن، ولم تستفد المنطقة حتى الآن بالقدر الكافى من الفرص التى تتيحها العولمة، خاصة ثورة المعلومات والاتصال. وحيث عالج التقرير مسألة اكتساب المعرفة بصورة مناسبة فى

نظرى، أركز فى ملحوظاتى النقدية على القضايا المتصلة بالبنية المؤسسية للتنمية على المستويات العالمية والقومية والقطرية.

ومن حسن الطالع أن أعدادا تالية من سلسلة «تقرير التنمية الإنسانية فى البلدان العربية»، يجرى الإعداد لها حاليا، واحد عن «بناء مجتمع المعرفة» وآخر عن «توسيع نطاق الحرية وإقامة الحكم الصالح» فى البلدان العربية، ستتيح فرصا للتحسين والتطوير وتجاوز ما جاء به التقرير الأول (والذى منعت طبيعته الشاملة، باعتباره التقرير الممهد للسلسلة، من التعمق والتفصيل فى أى موضوع بعينه، بالإضافة إلى عدم التطرق إلى موضوعات يراها البعض مهمة، وبحق فى نظرى، مثل الثقافة والدين). وليست الفرص مقصورة على فرق إعداد التقارير التى ستتنوع باطراد، وتسعى لتنقيح أساليب عملها، ولكنها رهن أيضا بالسياق الذى يجرى فيه إعداد التقارير وتناقش نتائجها.

خطأ أعترف به وسبيل لتصحيحه

وأبدأ بالخطا الذى يؤرقنى اكثر من غيره، ألا وهو اعتماد مؤشر الحرية الذى يصدره «بيت الحرية» الأمريكى. يقينى الآن أن الاعتبارات الفنية والعملية التى قدمها التقرير لتبرير استعمال هذا المؤشر، رغم التحفظات المهمة التى أبداها عليه، لا تصمد أمام إمعان النظر. وتتلخص الاعتبارات الفنية والعملية هذه فى توافر سلسلة زمنية طويلة وقاعدة بيانات تفصيلية عن المؤشر المذكور، مع غياب بديل آخر مقنع خال من شوائب مؤشر «بيت الحرية» نتيجة لضعف قياس الحرية ومؤشرات الحكم الصالح بوجه عام. وقد كان جماع الرأى فى هذا الأمر المشكل، نظرا للأهمية الحيوية لموضوع الحرية، هو استعمال المؤشر، دون تبنيه، مع الدعوة لتجاوزه، بل العمل على تجاوزه، لإثارة موضوع الحرية من أوسع باب، وقد حدث!

لكننى الآن مقتنع بان تحيزات المؤسسة التى تصدر المؤشر، وأساليب تقييمها لمدى التمتع بالحرية، تخضع لتأثيرات عقائدية وسياسية أقوى، وأشد خطرا، من أن تهمل.

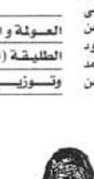
نحن بحاجة، لا ريب إلى تقييمات رصينة علميا ولا يشوبها تحيز عقائدى أو سياسى، لمفهوم ومدى التمتع بالحرية، بمعناها الشامل، وسبل توسيع نطاقها فى البلدان العربية، كما طالب التقرير. والسبيل المناسب لتجاوز ذلك الخطأ فى تقديرى يتمثل فى إنفاذ دعوة التقرير للقيام بدراسات ميدانية مضبوطة فى البلدان العربية فى هذا الميدان الجوهرى فى البلدان العربية. وغاية الرجاء أن يمثل التقرير المزمع عن الحرية والحكم الصالح فرصة لتحقيق ذلك التجاوز، الأمر الذى يتطلب بداهة ظروفا مجتمعية تتجاوز جهد فريق التقرير فى كثرة من البلدان العربية.

قضايا كان يتوجب، فى تقديرى، أن يتجاوز تحليلها ما جاء فى التقرير

التحديات الإقليمية والعالمية

أنا، من حيث المبدأ، ضد المغالاة فى مدى إعاقة التحديات الإقليمية والعالمية للتنمية فى البلدان العربية. هذا مسلك هروبى فى المقام الأول، مريح للنفس المكدودة ولكنه شديد الخطر، حيث ينطوى على تكريس قعود الهمة ووهن القدرة، كما يعمى الأبصار عن مهمة الإصلاح الذاتى التى يمكن أن تؤدى لبناء القدرة الذاتية العربية وهى السبيل الوحيد السليم لمجابهة التحديات الإقليمية والعالمية الجسام التى تواجهها البلدان العربية. ومن هنا كان الخيار الاستراتيجى للتقرير التركيز على الإصلاح المطلوب فى البيت العربى.

ومع ذلك، كان يحسن، فى نظرى، التصدى للتحديات «الخارجية» بما يتناسب مع جسامتها. فبلدان المنطقة تعيش صراعا ضاريا، يتكثف فى مقاومة المشروع الصهيونى الاستعمارى فى الوطن العربى، الذى يعود إلى حرص القوى المهيمنة فى النظام العالمى الراهن على إحكام السيطرة على مستودع الوقود الحفرى الهائل فى منطقة الخليج العربى، وعمد إلى زرع كيان عنصرى ـ هو الوحيد الباقى من صنفه فى العالم ـ فى قلب البلدان العربية، عامل فرقة ونزاع، ونزف مستمر، ماديا وإنسانيا. ما كان له أن يقوم أو يستمر دون دعم مادى ومعنوى هائل من الغرب، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، لإسرائيل حتى أصبح يرشح نفسه لقيادة المنطقة، قهرا لأهلها، وعلى وجه الخصوص الشعب الفلسطينى.



وقد تفاعل هذان التحديان، مع خلل جسيم فى نظم الحكم العربية، فى إنتاج مأساة الشعب الفلسطينى من ناحية، وإلى مرابطة قوات عسكرية أجنبية على الأرض العربية بعد عقود من الاستقلال، وإلى معاناة العرب بعضًا من أقسى أشكال عنت زمرة من القوى المهيمنة على النظام العالمى الراهن وحيد القطب والذى يمارس تسلطا صارخا على منظمة الأمم المتحدة ويقترف ازدواجية فاضحة فى تطبيق المعايير التى يتنادى بها مثل حقوق الإنسان وأضحت هذه القوى المهيمنة تأخذ القانون بيدها تدخلا عسكريا سافرا حين ترى فى ذلك مصلحة لها دون اعتبار للشرعية الدولية، أو حتى حقوق الإنسان التى تتشدق بها. كل هذا يوشك أن يهدر مصداقية المنظمة الدولية، وقيمة مواثيقها وعهودها، بل والقانون الدولى ذاته.

ولعل المنطقة العربية هى أشد مناطق العالم تضررا من هذا النظام الدولى المعوّج فقد تعرضت بلدان المنطقة أكثر من أى منطقة أخرى من العالم لفرض الحصار عليها. وقد بلغ السيل الزبى فى الحصار المفروض على العراق لمدة تربو على سنوات عشر، والذى كلف شعبه، وأطفاله خاصة، تضحيات باهظة، وفى فرض مناطق للحظر الجوى فى شمال وجنوب العراق دون أى سند من الشرعية الدولية.

وتتبدى معاداة النظام العالمى الراهن، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، للعرب فى دعم الولايات المتحدة الأمريكية غير المشروط لإسرائيل، شاملا تعطيل اليات الشرعية الدولية عبر إشهار الفيتو الأمريكى على أية قرارات تدين إسرائيل، حتى تلك التى كانت تستهدف إقامة الية دولية لحماية الفلسطينيين أثناء عدوان إسرائيل السافر عليهم مؤخراً.

وتدخل المنطقة العربية الآن، فى حقبة راعى البقر الأمريكى الأهوج وحربه على ما يتصوره إرهابا فى منطق المشروع الصهيونى الاستعمارى للمنطقة العربية، مرحلة «افغنة» بلدان عربية، قد تبدأ بالعراق ولكن لا تنتهى عنده

العولمة والرأسمالية الطليقة (البطالة والفقر وتوزيع الدخل)

إن تيارات عالمية جارفة فى العالم تضع العرب أمام تغيرات بعيدة المدى، تعيد تشكيل الحياة الإنسانية بمختلف أبعادها. وتنطوى هذه التغيرات على تبعات اجتماعية وثقافية- وربما سياسية- واسعة وعميقة، من ناحية. وإن كانت العولمة تحمل فرصا يتعين على البلدان العربية أن تتوفر على اغتنامها، خاصة فى ميدان الثورة المعرفية والتقانية، إلا أنها تحمل بوجه عام مخاطر محتملة على الوطن العربى يتعين التحسب لها أيضا. ويتمثل أحد السبل الأمثل لتحقيق هذين الغرضين أن تتوقف البلدان العربية عن محاولة الانتساب للعالم فرادى، ومن ثم متنافسين، ضعافًا وهامشيين.

كذلك بدأت البلدان العربية تشهد، بدرجات متفاوتة، منذ منتصف السبعينيات، تحت سياسات «الانفتاح» و«الإصلاح الاقتصادى» و«التكيف الهيكلى»، تغييرات عميقة فى هياكلها الاقتصادية، نفضل تسميتها «إعادة الهيكلة الرأسمالية»، وتستدعى، فى السياق المحلى والإقليمى والعالمى الذى تقع فيه، آثاراً مجتمعية مباشرة وبعيدة المدى.

ونقصد بإعادة الهيكلة الرأسمالية إحداث تغييرات جذرية فى الهياكل الاقتصادية تجاه سيادة توجهات نظام السوق الحر فى النشاط الاقتصادى. وفى بعض البلدان العربية تبلور هذا التوجه، على صورة تنصيب رأس المال الخاص على أنه الفاعل الرئيسى، وإعلاء الربح كالحافز الأساسى، فى إحداث النمو الاقتصادى، الذى يُصبح صنو التقدم، دون ضبط مجتمعى للأسواق أو لنتائج أدائها، أى إقامة الرأسمالية طليقة من الضبط الاجتماعى المحقق لكفاءة الرأسمالية والعدالة المجتمعية فى آن واحد.

وتكفى الإشارة السريعة، أولاً، إلى أن إعلاء دور رأس المال فى النشاط الاقتصادى هكذا يستتبع، تلقائياً، مُحاباته على حساب العمل، وتوكيد سيطرة الأول على الأخير. وغنى عن البيان أن مالكى رأس المال فى مُجتمع فقير قلة، وأن الكسب من العمل يُمثل مصدر الدخل الأهم للسواد الأعظم من الناس. مما يعنى، خاصة فى ظروف الأزمة الاقتصادية، استشراء البطالة السافرة والغلاء والفقر وتفاقم سوء توزيع الدخل، وربما الأهم هو تفاقم سوء توزيع الثروة (حيث ترتبط بتوزيع القوة فى المجتمع)، ولكن تبعات التغيير تمتد إلى نسيج المجتمع بكامله بما فى ذلك نسق الحوافز المجتمعى الذى ينحى لتكريس الفردية واقتناء المال.

ولا ريب أن الآثار المجتمعية لبرامج التكيف الهيكلى تعتمد، إلى حد بعيد، على كيف يتم «الإصلاح». ولكن الرأسمالية الطليقة تميل لأن تكون وحشية (مع اعتذار واجب للوحوش فى الغابات) ولا تمتلك، بوجه عام، ضميرا اجتماعيا، فالأسواق الطليقة دائماً تحابى الأقوياء ولا تكترث بالفقراء، بل تنتهى بعقابهم. وعلى وجه الخصوص، إذا نجح نظام السوق فى تحقيق نمو اقتصادى، ولو كان كبيراً، فإن عوائد هذا النمو لا تتقاطر بالضرورة لعموم الناس. بعبارة أخرى قد يزيد نمو الناتج الكلى ولكن يسوء توزيع الدخل والثروة، ومن ثم القوة، فى المجتمع.

ولذلك لا مناص من أن تتولى الدولة، وليس فقط الحكومة، مسئولية توزيع عوائد النشاط الاقتصادى بحيث تحمى المستضعفين من ناحية، من خلال العدالة التوزيعية، من ناحية، وتضمن الكفاءة الاقتصادية، عبر مكافحة الاحتكار وحماية التنافسية، الأمور التى تضمن إمكان تنامى النشاط الاقتصادى ذاته من ناحية أخرى. وهذا هو دور الدولة، وواقع الحال، فى المجتمعات الرأسمالية الناضجة. فقط تحت هذه الشروط، المفتقدة فى النظام الرأسمالى الطليق القائم فى بعض البلدان العربية الآن، يمكن أن تتحقق الكفاءة الاقتصادية، وتتوزع عوائد النمو الاقتصادى بعدالة، مما يضمن أن يطرد النمو.

أما فى النمط الرأسمالى الطليق الذى تبلور فى بلدان عربية منذ منتصف السبعينيات فقد كان مطلوبًا، وتحقق، إضعاف الدولة، ليس فقط فى ميدان النشاط الاقتصادى ولكن أيضا أن تنسحب من أية مسئولية مجتمعية. ونتيجة لكل ذلك يقدر البعض أن التشكيلة المجتمعية المصرية على سبيل المثال قد عادت لما كانت عليه تقريبًا منذ

كتاب الزاوية

رسالة ثانية.. إلى شارون

قبيحٌ وجْهُكَ المرسوم من أشلاء قتلانا

جبانٌ سيفُكَ المسموم فى أحشاء موتانا

وضيعٌ صوتُكَ المرصُودُ فى أنّات أسرانا

قبيحٌ أنتَ يا ملعونُ عندَ اللهِ . . فى الأديانِ

إنجيلاً . . وقرآنا

قبيحٌ أنت يا خنزير كيف غدوتَ إنسانًا

***

قبيحٌ وجهُكَ الملعونْ

مهانٌ يا زمانَ العارِ أوسمة وتيجانًا

ذليلٌ يا زمانَ العجزِ كهانا وأوطانا

جبانٌ يا زمان القهرِ مَن قد باعَ أو خانَ

خيولٌ أسلمت لليأسِ رايتها

فصار الجبنُ نيشانا

خيولٌ باعها الكهانُ أمجاداً وتاريخًا وفرسانا

فصارت ساحةُ الفرسانِ باللعارِ غلمانا

كسيحٌ يا زمانَ العجزِ

حين ينام سيفُ الحق بين يديك خزيانا

قبيحٌ يا زمان اليأس

حين يصير وجهُ القدسِ فى عينيكَ أحزانا

حول تقرير التنمية الإنسانية العربية

قرن ولى (ما يسمى مجتمع النصف فى المائة!).

وقد كان الأمر يقتضى، فى تقديرى، معالجة أجرأ لتفاقم البطالة والفقر وتفاقم الاستقطاب الاجتماعى، وآثاره السياسية الوخيمة، فى البلدان العربية. ومن المهم فى هذا الصدد تحاشى تقريبات ومقاربات البنك الدولى فى هذه الأمور، حيث البنك شهادته مجروحة بضلوعه فى ارتكاب جريمة إعادة الهيكلة الرأسمالية، ناهيك عن العيوب الفنية الكبيرة التى تشوب تقديراته عن الفقر وتوزيع الدخل فى البلدان العربية.

ولا ريب عندى أن انتشار الفقر وزيادة حدة الاستقطاب الاجتماعى فى البلدان العربية أشد بكثير مما يقدر التقرير. إذ أقدّر أن الفقر أكثر شيوعاً، كما أن توزيع الدخل أقل تساوياً، مما تشير إليه مجموعات البيانات الدولية. والأكثر أهمية هو أنه يخشى، فى ضوء مؤشرات متباينة أن كلا من محددى الرفاه الإنسانى هذين يتردى: أى أنه يُقدّر أن الفقر يتزايد كما يسوء توزيع الدخل (تتراوح تقديرات نسبة الفقر من مسوح قطرية فى التسعينيات بين ٢١٪ فى الأردن، ٣٠٪ فى اليمن، ٤٥٪ فى جيبوتى و ٨٥٪ فى السودان – وفى مصر مثلا قدّر معامل جينى فى العام ١٩٩٧ بما يقارب ٣٧٪ مقارنا بحوالى ٢٨٪ فى العام ١٩٩٥ وهو ارتفاع ضخم فى مدة قصيرة، يدل على تفاقم سريع فى سوء توزيع الدخل، كما انخفض نصيب العمل من القيمة المضافة فى مصر من ٤٦٪ فى العام ١٩٧٥ إلى ٢٥٪ فى العام ١٩٩٥).

وينذر استشراف المستقبل بتفاقم الفقر والاستقطاب الاجتماعى إذا ما استمرت الأوضاع الراهنة، فمنذ عقدين والبلدان العربية تعانى من نمو اقتصادى بطىء وارتفاع مطرد فى حجم البطالة وتوسع رقعة الفقر بمعناه الأوسع المتمثل فى الحرمان من القدرات البشرية. ويدل عدد من المؤشرات على أن توزيع الناتج الاقتصادى يزداد استقطابا (انحيازا لأصحاب رأس المال) بشكل مطرد. ويصعب فى هذه الظروف أن تقل البطالة أو يخف الفقر، أو تتحسن عدالة توزيع الدخل والثروة، بل إن هذه كلها ظروف لا تبشر حتى بازدهار التشغيل أو تعافى النمو الاقتصادى فى المستقبل.

التعاون العربى

ربما لا تتاح لمجموعة من الدول فى العالم مقومات التعاون والتكامل، بل والتوحد، قدر ما يتوافر للبلدان العربية، وعلى حين تسعى بلدان العالم جميعها للانتماء لكيانات أكبر خاصة فى عصر العولمة والمنافسة الشرسة، فمازالت الدول العربية تواجه العالم الخارجى، وتحديات المنطقة، فرادى، بل وتفضل التعاون مع الأجانب عن التعاون العربى، الأمر الذى يفوّت على العرب ثمار التعاون الوثيق فى كلا مضمارى التنمية الإنسانية والأمن القومى. وعليه فإن التشرذم العربى من أشد معوقات رفعة العرب فى العصر الآتى.

و تتسم مؤسسات الحكم (عبر القطرى) العربية بالهشاشة وقلة الفاعلية، وتسيطر الاعتبارات القطرية على القومية فى مجمل نسق الحكم العربى، مما يؤدى فى النهاية لقلة صيانة مصالح العرب جميعا، حيث يدور نسق الحكم العربى حول خدمة مصالح الفئات المتنفذة فى كل من الدول العربية، وقد تتعارض هذه، و ليس من ضمان لأن تتوخى، إن تلاقت، الصالح العربى العام.

ويقتضى تعظيم مساهمة التعاون العربى فى بناء التنمية الإنسانية، اتساعه لمجالات تتعدى تحرير التجارة إلى توليد التجارة من خلال التعاون المشترك فى بناء القدرات الإنسانية والتقانية والإنتاجية فى عموم المنطقة العربية وإقامة منطقة مواطنة عربية تكفل الانتقال الحر لعناصر الإنتاج، شاملة البشر– دون الاكتفاء برأس المال، وليس مجرد السلع والخدمات، تحقيقا لأعلى إنتاجية مجتمعية لعناصر الإنتاج. ويستلزم كل ذلك إنشاء البنية المؤسسية الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف بما يضمن تحقيق المشاركة الشعبية الفاعلة فى تعظيم عائد التعاون العربى على التنمية الإنسانية فى عموم المنطقة.

ومن ثم تقوم حاجة ملحة لتقوية مؤسسات للحكم عبر-القطرى و فوق - القطرى فى الوطن العربى مع العمل على تقوية تنظيمات المؤسسات الأهلية والناس، وإحكام مساءلة مؤسسات الحكم عبر القطرى أمام عامة الناس فى البلدان العربية قاطبة. ويتمثل سبيل التصحيح الأهم هو فى توسيع نطاق المشاركة الشعبية الفاعلة فى اتخاذ القرار على الصعيد العربى.

وهناك ثلاثة سبل رئيسية لذلك يتمثل الأول فى العمل على إنشاء «مجلس الأمة العربية» أو برلمان العرب لتمثيل القوى الشعبية العربية فى اتخاذ القرار على الصعيد العربى. أما السبيل الثانى فهو إنشاء محكمة عدل عربية يمكن أن يلوذ بها المواطن العربى من عسف حكومته. والسبيل الثالث هو دعم وتنشيط منظمات العمل الأهلى العربى، وإدماجها فى عملية صنع القرار على الصعيدين القطرى والقومى.

ولعل هذه التطورات تتمخض يوما عن نشأة شكل لسلطة تنفيذية فوق قطرية فى الوطن العربى على غرار المفوضية الأوروبية مثلا.

الحرية والحكم الصالح

حيث يمثل التضييق على الحرية، بمعناها الشامل، وفساد الحكم، أساس أزمة التنمية الإنسانية، فى تقديرى، تتطلب خدمة النهضة فى الوطن العربى معالجة ضافية، رصينة وجريئة، نرجو أن يتسع لها تقرير التنمية الإنسانية المزمع الانتهاء من إعداده فى منتصف العام ٢٠٠٤ عن «توسيع نطاق الحرية وإقامة الحكم الصالح».



حواشى

حاشية (١)

الادعاء بان «شتيمة العرب أو المسلمين تضمن التهليل في الغرب..» بإيحاء أن تقرير التنمية الإنسانية قد «شتم» العرب والمسلمين، ليس إلا محض افتراء. فمن ناحية، لم يتضمن التقرير كلمة عن المسلمين. وليس حشر المسلمين عنوة فى الهجوم على التقرير إلا توسيعاً رخيصاً لنطاق الاستعداء على التقرير دون ما سند فى الحقيقة. بلغة الفن التجارى («إضافة المسلمين تبيع أكثر!»).

وأتحدى أن يبين لنا أحد أن نص التقرير قد تضمن أى صياغة يمكن أن تُعدّ سباً لأحد أو لبلد عربى أو إسلامى، أو حتى تهكماً على أحد أو سخرية من أحد. وليكن معيار المقارنة هو كتابات جلال أمين ذاته الممتلئة بالسخرية اللاذعة والتهكم الموجع.

ويحق لنا أن نتساءل إلى اين ينتهى الأمر بجلال أمين نفسه إذا أعملنا على كتاباته معياره فى الحكم على تقرير التنمية الإنسانية. إن مجرد تصفح كتاب جلال أمين «ماذا جرى للمصريين» مثلاً لابد سينتهى، حسب معاييره، باعتبار جلال أمين عدواً أول لمصر وللمصريين، بل والمستعدى الأول عليهم. قليلاً من الرحمة، بنفسك قبلنا، يرحمك الله!

وفى النهاية نرى أن الاستعداء على النقد الذاتى بتهمة مداهنة أعداء الأمة قد يجلب استحساناً شعبوياً رخيصاً، فى ظروف الأزمة التى تعيش الأمة. ولكنه لايمثل، تأكيداً، نقداً علمياً رصيناً يشكل زاداً للتقدم عبر المعرفة.

إن تُهَم العمالة والتخديم على أغراض الغرب فى الهجوم على الوطن العربى هى تُهَم سهلة، ولا يليق البتة أن تصدر عن مثقفين يدّعون شرف الفكر. هذه تهم تصدر عن مخبرى أمن فى نظم قهرية، وليس عن «مفكرين» فى مواجهة عمل علمى يتوخى رفعة الأمة، وإن أخطأ اجتهاداً.

وفى هذا السياق فإن اتهام من يتصدون للنقد الذاتى بانهم يخدمون اغراض أعداء الأمة، يكتسى مسحة «مكارثية» عربية مقيتة، لا طائل من ورائها إلا تكريس تكميم الأفواه، ومن ثم تدويم حبس الطاقات الخلاقة للناس، مبعث كل بلاء فى هذه المنطقة من العالم. وننزه جلال أمين عن أن يكون هذا قصده!

حاشية (٢)

واضح أن ثمة حملة شعواء على تقرير التنمية الإنسانية بما فى ذلك كتابات جلال أمين، حيث تواترت كتاباته ضد التقرير فى أكثر من دورية وبأكثر من لغة. ومثل هذه الحملات تثير الريبة حول ما يمكن أن يكون وراءها. ويثير الريبة أكثر اعترافه علنًا فى ندوة بأنه كتب هجومه الأول على التقرير («الحياة»، ٢٥ يوليو ٢٠٠٢) والذى كشف قلة درايته بمحتوى التقرير بل بعنوانه، دون أن يكون قد قرأه، حتى أسميت الرد عليه حينئذ «هجوم على وهم». وفيه استنتجت انه استشاط غضباً من مدح بعض وسائل الإعلام الغربية للتقرير فقرر أن يهاجمه. هكذا!! ويحق لنا أن نتساءل: هل فى مدح بعض دوائر لعمل ما، وكل يقرأ من منظوره، يستوجب أن يتوفر كاتب لشن حملة هجوم على العمل؟ وهل يليق أن يهاجم أحداً عملاً لم يقرأه؟ والآن يؤكد لنا جلال أمين أنه قرأ التقرير، ولكن واضح أنه قرأه بعين الغضب والثأر المبيت. ففى ماذا نفعت قراءته للتقرير؟

حاشية (٣)

يظهر أن الكاتب لم يلحظ فى غمار تلهفه على التهجم على التقرير انه، اى التقرير، قد أدان بغير تحفظ الاحتلال الإسرائيلى للأرض العربية والحصار على شعب العراق بما أثار حفيظة إسرائيل وبعض الدوائر الأمريكية الرسمية حد الاحتجاج الرسمى لدى الأمم المتحدة.

إن العدوان على العرب، الذى لا ننكره، ويدينه التقرير، يزّين له فى الجوهر ضعف العرب وفرقتهم، وليس تقريراً ما، وقد بدأ قبل صدور تقرير التنمية الإنسانية بآجال. وهل كانت محاولة الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، للتحكم فى ثروات العرب وتصعيد قدرتها على الإمساك بمقدرات الشعب العربى، بإقامة إسرائيل، ودعمها غير المشروط مادياً ومعنوياً، وشن العدوان الثلاثى على مصر، وحرب ١٩٦٧، وحصار العراق، وإعادة قواتها المسلحة إلى الأرض العربية بعد عقود من الاستقلال، وعدوان إسرائيل الوحشى على الفلسطينيين مؤخراً تنتظر صدور التقرير؟ وحتى فى خضم الهجوم الغربى الأخير على العرب والإسلام بعد أحداث ١١ سبتمبر، لا بل فى غمارها، لم يكن العدوان المبيّت ينتظر التقرير، الذى كان قد انتهى الفريق الذى أعده من صياغته قبل الأخيرة فى ذلك الحين.

بل أزيد أن رد الفعل الأساسى من كثرة العرب وغير العرب على صدور التقرير- وقد شاركت فى عديد من مناقشات التقرير داخل وخارج الوطن العربى- تمثّل فى الاحترام الشديد للمنطقة العربية، وللفريق الذى أعد التقرير. حيث اعتبر التقرير شهادة قوية على أن المنطقة العربية لا تفتقر إلى الفكر العلمى الرصين أو القدرة على النقد الذاتى البناء، ولا إلى الأمل فى الإصلاح من الداخل، أكرر من الداخل، إذا توافرت شروطه. وأن التقرير يؤذن بنهاية عصر أدمن فيه العرب دفن الرؤوس فى الرمال وهجاء المقادير والأعداء، فعميت بصائرهم عن دروب المستقبل الزاهر الذى لا يمتلكه إلا من استنارت بصيرته وبدأ بإصلاح نفسه.

حيث تتمثل رسالة التقرير الرئيسية، عند من قرأوه واستوعبوا محتواه، أن طريق العرب الوحيد السليم لمواجهة التحديات الإقليمية والعالمية الضخمة التى تواجه الوطن العربى هو فى بناء القدرة الذاتية العربية عبر إطلاق الطاقات الخلاقة الهائلة للشعب العربى، والتى طال حبسها بما أورث الأمة الوهن والهوان. ولن يتم ذلك إلا عبر بناء التنمية الإنسانية فى ربوع الوطن العربى كافة. ■

كتاب الزاوية

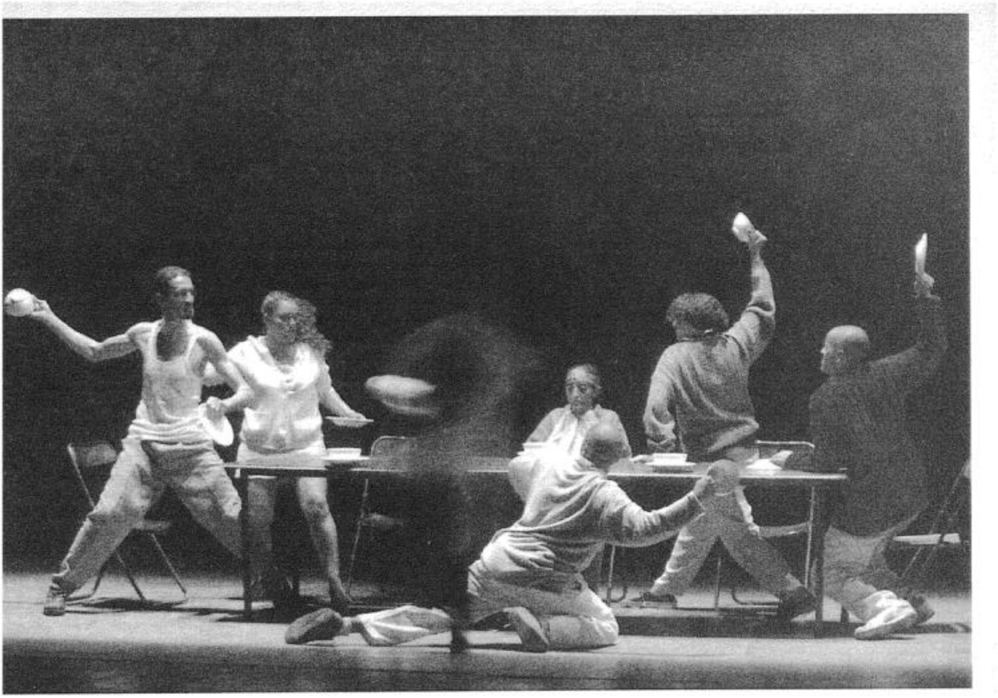


عودة الأنبياء

عطرٌ ونور فى الفضاءْ
والأرضُ تحتضنُ السماءْ
والشمسُ تنظرُ
بارتياح للقمر
والزهرُ يهمسُ
فى حياء للشجر
والعطرُ تنشُره الخمائلُ
فوقَ أهداب الطيورْ
والنجمُ فى شَوق
تصافحه الزهورْ
ضوءٌ يلوحُ من بعيدْ
الأرض صارت فى ظلامِ الليلِ
لؤلؤةً يعانقها ضياءْ
والناسُ تُسرعُ فى الطريقْ
صوتٌ يدَنْدن فى السماءْ
الآن، عادَ الأنبياءْ

***

هذا ضياءُ محمد
ينسابُ يخترقُ المفارقَ
والجسورْ..



من فلســطين إلى جــوانتنامــو

مهرجان أفينيون المسرحى

■■ منذ أن بدأت التردد على هذا المهرجان المسرحى الكبير Avignon Festival، وتابعت أحداثه مع القراء، سعيت إلى معرفة ما يدور فى فضاءات المدينة المسرحية، ولكنه كان سعيًا مشروطًا فى كثير من الأحيان بطبيعة وجودى فى المدينة أو بالقرب منها، كسائح ثقافى من ناحية، وبقصر المدة التى كنت أقضيها عادة هنا من ناحية أخرى. ولذلك فقد كان علىّ دوما أن أتلقى جرعة كبيرة من هذا النشاط المسرحى فى فترة شديدة القصر. وهذا أمر يصيب المرء بشىء أقرب ما يكون إلى التخمة، بما يصاحبها عادة من عسر فى الهضم، ومتاعب فى الاستيعاب. أما هذا العام فقد تغير الحال كلية، حيث جئت هنا لقضاء ما يقرب من شهر كامل فى بيت ريفى فى محافظة «الجارد Gard» المتاخمة لأفينيون، ولذلك فإن لدى الوقت الكافى للتعامل مع المهرجان دون استعجال، واستيعاب أعماله واحدا إثر الآخر دون تخمة. وكان من نتائج هذه الإقامة الأطول أنه قد أتيحت لى الفرصة لاكتشاف عالم المدينة

Avignon Festival

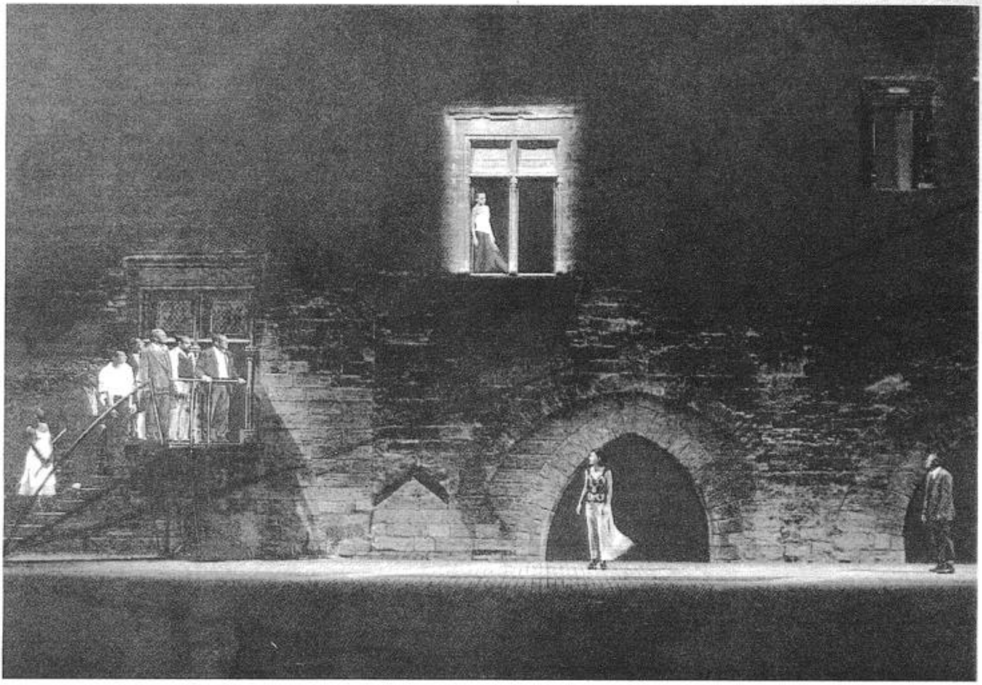
(مهرجان أفينيون المسرحي)

France: 5-27 July 2002.

والمنطقة المحيطة بها. ومعرفة مدى سطوة هذا المهرجان على المدينة، وما يستأديه من تخطيط وإعداد طوال العام. وكيف أن أهلها، وأهل المناطق المحيطة بها، وجزءًا كبيرًا من اقتصادها يرتبط بهذا المهرجان الكبير. بالصورة التى أصبح معها هو الميقات السنوى الذى يضبط التخطيط فى المدينة، وينظم حركة الاقتصاد والحياة الاجتماعية فيها. لأن المهرجان الجيد يصبح رافدا يثرى اقتصاد المدينة، والمنطقة المحيطة بها، وليس عبئا عليها كما هى الحال فى مهرجاناتنا التى ننفق عليها بسفه، ولكنها لاتعود على اقتصادنا أو حتى على حركتنا الثقافية أو المسرحية بأثر ملموس.

وسوف أبدأ هذا المقال بتناول عدد من عروض المهرجان الرسمى الذى جرى تنظيمه من ٥ –٢٧ يوليو، ثم أتعرض بعد ذلك لعدد من عروض المهرجان الموازى Festival Off. وضم المهرجان الرسمى هذا العام تسع عشرة مسرحية قدمتها فرق فرنسية، وثلاث عشرة مسرحية قدمتها فرق أجنبية من تونسية وروسية وبولندية وأسبانية، وبلغارية، وألمانية، وبرازيلية، وإيطالية. وخمسة عروض من الرقص الحديث، حصل أحدها ـ وهو عرض ساشا والتز من مسرح «الشو بوهن» الشهير فى برلين ـ على مكانة الشرف فى العرض. إذ يقدم فى قاعة الشرف بالقصر البابوى، وهى القاعة التى تحجز عادة لأهم عروض المهرجان، حيث يقدم فيها طوال فترة المهرجان عملان فقط يعرض أولهما ـ وكان هذا العام هو عرض مسرحية تشيكوف الأولى «بلاتونوف» للمخرج الفرنسى الشهير إيريك لاكاسكيد ـ بها فى النصف الأول من المهرجان، ويستأثر الثانى ببقية أيام المهرجان. والواقع أن هذا العام شهد مشاركة عربية فى المهرجان الرسمى لأول مرة منذ عدة سنوات، ألا وهى مشاركة المسرحى التونسى الشهير الفاضل الجعايبى بمسرحية (جنون) التى كتبتها، وقامت ببطولتها، الممثلة التونسية القديرة جليلة بكار. وهى المسرحية التى حظيت بقدر كبير من اهتمام النقاد والجمهور عند عرضها فى تونس فى العام الماضى. ومن من القراء العرب المهتمين بالمسرح لايعرف قدر الفاضل الجعايبى وجليلة بكار.

وقد افتتح المهرجان فى ساحة الشرف بالقصر البابوى التى تتسع لما يقرب من ألفى متفرج، بمسرحية تشيكوف الرقيقة الجميلة (بلاتونوف). وهى المسرحية التى كتبها تشيكوف وهو فى الثانية والعشرين من العمر، ثم أعاد كتابتها بعد خمس سنوات بعنوان (إيفانوف). وقد كانت هذه النسخة المعدلة هى المسرحية الأولى لتشيكوف التى أخرجها «إيريك لاكاسكيد Eric Lacascade». لكنه وعلى عادة الكثيرين ممن يدمنون تشيكوف، ويغرمون بشاعريته الشفيفة، عاد بعد سنوات طويلة ـ وبعد أن أخرج بنجاح للمسرح الفرنسى روائع تشيكوف الأخرى من (النورس) إلى (الشقيقات الثلاث) إلى (بستان الكرز) ـ إلى نبع هذه المسرحية الأولى الصافى. وتصور المسرحية فى فضاء ساحة الشرف المتميز فى أفينيون، فكان الإخراج شديد الوعى بجماليات المكان التى استخدمها بحذق، للكشف عن جماليات هذه المسرحية الشاعرية الرقيقة. فلم تستخدم المسرحية جرم المكان الصرحى، ومهابة هذا الجرم الهائل بأحجاره العملاقة فحسب، وإنما استخدمت كل ما يوفره من عناصر جمالية من أقواس ومقرنصات ونوافذ. كان العرض يدخل منها الممثلين أو يحركهم فى تناسق رقيق معها بصورة أضافت الكثير إلى التأويل الإخراجى من ناحية، ومكنت



... الإبداع فى مواجهة القهر

صبرى حافظ

المشاهد من إعادة اكتشاف جماليات المكان التاريخى المألوف من ناحية أخرى. بالصورة التى يتم فيها نوع من التفاعل الخلاق بين المكان الصرحى المهيب، والشخصيات التشيكوفية التى تتخبط فى شباك من صنعها، وتتعثر فى جراحها التى اثخنتها، وما أن تسعى إحداها إلى هدهدة جراح الأخرى حتى تعمق هذه الجراح وتنكأ آلامها دون قصد.

فمسرحية (بلاتونوف) توشك أن تكون النبع الذى خرجت منه الكثير من رؤى تشيكوف وشخصياتها الرقيقة التى تسحقها الفظاظة والغلظة بينما تتخبط فى أحلامها البسيطة والمستحيلة معا. غافلة عما يدور حولها، وعن كر الزمن الذى يتجاوز أحلامها البسيطة ويسحقها فى آن. ولكنها فى الوقت نفسه مسرحية مترعة بالتوتر والحدة والعواطف الجياشة، فيها الكثير من عثرات المسرحية الأولى وغموضها، والكثير من التناقضات والمبالغات الواقعة فى غواية الأفكار الكبرى والرؤى المثالية والتى تجسدها شخصية العنوان الأساسية «بلاتونوف» نفسه، بكل ما تنطوى عليه شخصيته من تناقضات فهو شره يريد كل شيء لنفسه، ورقيق دمث فى آن، ثائر مجازف وأنانى معا، عاشق وملىء بالكراهية، مندفع بإخلاص وكذاب أشر. إنه تجسيد للإنسان فى عرامته وصدقه وتناقضاته معا، ومن هنا فإنه يتيح للمسرحى أن يفجر الشخصية على المسرح بكل طاقاتها وتناقضاتها، وقد استحالت إلى حركة جمالية خالصة، تراقب فيها الشخصيات مساراتها، ولكنها لا تستطيع النجاة بنفسها من الفخاخ المنصوبة لها، والتى لا تستطيع إلا المشاركة فى إحكام أحبولتها من حولها. فالمسرحية تؤكد لنا أن الإنسان يساهم فى صنع تعاسته، ولكن دوره محدود للغاية فى تحقيق سعادته. وليس هنا مجال تفصيل الحديث عن مستويات المعنى المتعددة التى استطاع هذا الإخراج المتميز أن يكشفها للجمهور. ولكن أهم ما طرحه هذا الإخراج هو كيف أن العرض المسرحى الجيد يعيد خلق جماليات المكان الذى يعرض فيه فى أعين مشاهديه، ويضفى عليه دلالات جديدة.

والواقع أنه من المستحيل فى هذا المقال أن أتناول حتى أهم هذه العروض بشىء من التفصيل. وخاصة أن عددا كبيرا مما عرض من المسرحيات غير معروف للقارئ؛ فالمسرحيات المعروفة منها للقارئ قليلة مثل مسرحيات شكسبير وموليير وتشيكوف. أما بقية المسرحيات فهى جديدة عليه كلية. ولابد إذا ما توقفنا عندها أن نقدم للقارئ شيئا عن حبكتها وخلفيتها ثم نتحدث عن إضافات العرض الخاصة فيها. وحتى يكتسب هذا التقرير شيئا من البعد النقدى، ولا يكتفى بالجانب الإخبارى، وهو مهم بلاشك، فلابد من التوقف ولو وقفة وجيزة عند حفنة من هذه العروض. وسأبدأ بالعرض الشيق الذى شاهدته لإعداد (رباعية الإسكندرية) للورانس داريل. لأن هذا العرض قدم فى محجر «بوليبون» الذى سبق أن قدم فيه بيتر بروك عرضه الشهير للملحمة الهندية الكبيرة «المهابهاراتا» قبل عدة سنوات. وهو عرض استغرق أربع ساعات كاملة فى هذا الفضاء المفتوح الذى يؤكد مقولة بروك الشهيرة عن المساحة الخالية. فقد استخدم مساحة تم إخلاؤها عبر عشرات السنين بنحت هذا الجرف أو الهوة العميقة فى الجبل، حفرة بمساحة عدة أفدنة، قدت فى قلب الجبل الصخرى يتم فيها العرض ويجلس فيها الجمهور، بينما بقية حواف هذا الجبل الذى نحتت حوائطه وتشهد كل آثار هذا النحت على ملايين قطرات العرق التى نزفت فى عملية إخلاء هذا الفضاء، وتسوية قاعه بطريقة لا أجد قريبا منها إلا تشبيهها بعرض عمل عند سفح الهرم، بينما جرم الأهرام العملاق يطل على العرض ليسجل حضور التاريخ. مع فارق كبير هو أن جمالية هذا الجرف المحجرى من النوع الخشن الذى يقترب من البداءة أكثر من أى شىء آخر.

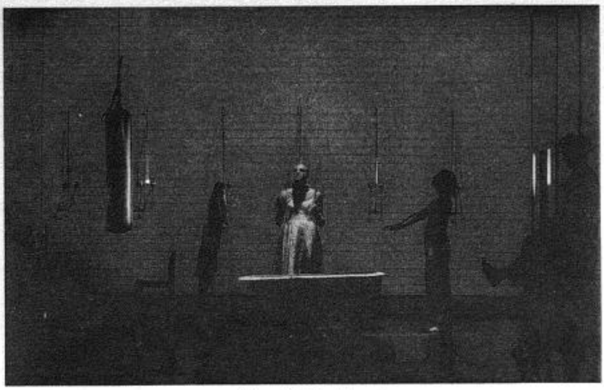
والواقع أن العرض / المسرحية نفسها لا تقل عن هذا الجرف المحجرى تاريخية وتأثيرا. ليس فقط لأن الرواية قد كتبت منذ زمن طويل، وتم اختيار هذا المحجر لتمثيلها فيه لأن داريل نفسه قد عاش فى قرية قريبة منه لسنوات عديدة. ولكن أيضا لأن معد هذه الرواية للمسرح - ستيوارت سيد - ظل منذ سنوات طويلة يراوغ هذا الإعداد المسرحى للرواية، على وجه الدقة منذ عام ١٩٨٨، فالأعمال الجيدة تحتاج إلى تفان وإخلاص وزمن طويل، ويتأملها فى واحد من فضاءات المنطقة. فقد أغوته مدينة أفينيون ومهرجانها، كما أغواه العمل الأدبى نفسه، لأنه يقول إن غواية المدينة لا تقل لديه عن غواية الرواية وسلطانها عليه. وقد استطاع فى النهاية أن يحقق غايته بأن أعد هذه الرواية

للمسرح، وحافظ فى هذا الإعداد على بنية الرواية الأساسية: أربعة أقسام، فى أربعة أيام، وأربع شخصيات أساسية: جوستين، بالثازار، مونت أوليف، وكليا. ويستهدف الإعداد فتح الباب على هذا العالم الروائى الخصيب. ولكن من خلال هذا التساوق المدهش بين عالم الرواية، والمكان الذى تعرض فيها المسرحية التى تمسرح أحداثها ورؤاها. ومن خلال التصور الجوهرى فى الرواية وهو أن البطل الأساسى فيها، والذى استأثر بعنوانها هو المدينة / الإسكندرية، وهى كما يقول هنرى ميلر فى حديثه عن الرواية «وجود كامل منسوج من لحم وحجر وإثم وحلم وأسطورة». وهى كيان طاغ مسيطر يمسك الجميع فى قبضته ويصوغ تصرفاتهم ويحدد إيقاع حيواتهم. سطوة المدينة على نص داريل تناظرها سطوة مهرجان أفينيون على إعدادها المسرحى، حيث اختار المعد هذا المكان العريق ليناظر الإعداد المدينة التى خلق منها داريل أسطورته الخاصة.

ويؤكد داريل أن منهجه الإبداعى فى هذه الرواية يختلف من حيث منطلقه الفلسفى عن بروست أو جويس اللذين يمثلان فى رأيه نظرية الديمومة البرجسونية. أما منطلقه الأساسى وشاغله المقيم فهو العلاقة بين الزمان والمكان، ونظرية الزمن والنسبية. وقد استلهم الإعداد تصور داريل نفسه عن روايته بأنها رقصة ذات أبعاد أربعة، وهى فى نفس الوقت قصيدة روائية عن النسبية من حيث تناولها لما هو مثالى وما هو نموذجى. إذ جسد الإعداد حلم داريل المستحيل بأن تقرأ أجزاء رباعيته بشكل متزامن، وليس بشكل متتابع كما كتبها بها. لأن التزامن هو الذى يكشف حقيقة جوهر مشروعها الروائى، ومدى نسبيته. فالروايات الثلاث الأولى توشك أن تكون كل منها رواية متكاملة مستقلة بذاتها نسبيا. فقد كتب داريل روايته - وهى رواية من أربع مراحل - بطريقة تعتمد على مبدأ النسبية ذاته: حيث تشكل الأجزاء الثلاثة الأولى ما يمكن اعتباره الأبعاد الثلاثة للمكان، بينما يقدم الجزء الرابع البعد الرابع للمكان وهو الزمان إذ يدور بعد الأجزاء الثلاثة الأولى بزمن طويل. ذلك لأن الأجزاء الثلاثة الأولى ليست متصلة ببعضها البعض، ولكنها تستخدم نفس المكان وتمزج الأحداث وتدير حوارا بينها. وتعيد تقديمها من أكثر من منظور، فيما يتعلق بالمستوى المكانى. ويبقى فيها الزمان معلقا أو حتى متوقفا. حتى يجيء الجزء الرابع الذى يقدم الزمن ويمضى بالأحداث إلى نهاياتها وغاياتها الحتمية والقاسية فى كثير من الأحيان. محيلا بذلك الجزء الختامى للنص إلى نوع من التأويل الزمنى لكل ما دار، وإلى برهان على قدرة الفن على استنقاذ الماضى من قبضة الفناء. ذلك لأن الرباعية ـــ فى مستوى من مستويات الدلالة بها ـــ أطروحة فى الفن، تجسد سعى الكاتب لمعرفة الفن من خلال معرفة الإنسان والمكان فى الزمان، والكشف عن أهواء القلب الإنسانى وشهواته.

لكن رباعية الإسكندرية ليست مجرد تجربة فى البناء الروائى وجماليات النسبية فحسب، ولكنها عمل يستوحى عالما تقوض ويستنقذه بالفن من طوايا النسيان. وهو عالم يقدمه النص لا من خلال الحنين إليه وإنما من خلال قدرة الفن على أسر لحظات توهجه وتألقه المنصرمة. وهو بسبب إعمال المخيلة فيه عمل عن الإسكندرية المتخيلة والمصاغة من الحلم الاستعمارى القديم، بقدر ما هو عمل عن البطل / الراوى / داريل نفسه، وعن رغبته فى استكناه حقيقة مشاعره وطبيعة صبواته ومواقفه، وعن الإسكندرية التى لم يستطع حقيقة سبر أغوارها. وهى من هذه الناحية عمل متخيل عن الحب والجنس والتحلل الذى يدب فيهما معا، دون أمل فى إيقاف دبيبه الحثيث. عمل عن اللقاء والوقوع فى الحب أو الغواية والفراق المضنى الصعب. وهى فى الوقت نفسه عمل عن هشاشة الإنسان إزاء سريان الزمن الذى لا سيطرة له عليه، ولا قدرة له على التدخل فى تدفقه المستمر.

وقد استطاع الإعداد المسرحى وقد اختار أن يعرض هذه المسرحية فى محجر بولبون التى لاتبعد كثيرا عن قرية سومير Sommières التى كتب فيها داريل رباعيته بعدما ترك الإسكندرية. وقدمه من خلال راو هو داريل نفسه، وقد تقدم به العمر بعدما عاد من الإسكندرية، يروى لنا عن الأحداث التى عاشها والشخصيات التى عرفها. وقد أتاح استخدام تقنية الراوى / المعلق الذى يكتفى بدور الراوى بينما يقوم أكثر من ممثل بأداء دوره فى الأحداث المجسدة على المسرح، تجسيد النسبية والتراكب فى الشخصية المحورية فى الرواية التى تتبدى لنا فى أكثر من صورة، وتتنوع تجلياتها وتتزامن على الخشبة بطريقة نجح العرض فى ألا يجعلها مربكة أو ملتبسة. كما أتاح للعرض أن يتحرك فى الزمن بحرية نسبية. وأن يتقدم فيه ثم يعود به إلى الوراء دون أن يربك ذلك الجمهور، بل يمكنه من متابعة الأحداث والتعليق عليها فى وقت واحد. كما أتاح له أن يقدم التزامن المرتجى فى التعامل مع روايات الرباعية الأربع أو قراءتها فى آن واحد. فقد كانت تعرض الأحداث المتزامنة بتزامن علينا فى أجزاء متعددة من الخشبة فى وقت واحد. لأن أهم ما قدمه العرض فى تصورى هو قدرته على تجسيد هذه النسبية فى المكان والزمان معا التى ينهض عليها العمل الروائى من ناحية، واستخدامه الحاذق للمكان الذى عرض فيه العمل، بحيث حكم المكان جماليات العرض، واستخدمت المناظر والملابس نفس الألوان الطبيعية التى تتكون منها مهاوى المحجر وجدران جرفه الهائل التى يصل ارتفاعها إلى أكثر من ثلاثين مترا، وهى الألوان الرملية بدرجاتها المختلفة. فأصبح المحجر بوعورته الحجرية وصلادته هو البديل والنقيض معا للبحر الذى تطل عليه أحداث الرباعية بسيولته الرجراجة وعرامته المخيفة وأصبحت ضخامة الصخور العملاقة هى المقابل لاتساع البحر وانفساحه اللامحدود.



مشهد من العرض البولندى «القطبى»

ولننتقل الآن إلى المسرحية العربية الوحيدة فى المهرجان الرسمى وهى (جنون) التى عرضت فى دير الرهبان السيليستيين cloitre des Célestins الذى شكلت أقواسه العملاقة وأعمدته السامقة الخلفية المسرحية الجميلة لهذا العرض العربى الشيق الذى استطاع من خلال تناوله لحالة محددة من حالات الجنون، واستعاضته عن أسماء الشخصيات بالحروف أن يصوغ استعارته المسرحية الجميلة للوضع العربى فى هذا الزمن الردىء. حيث يسرى الجنون فى أوصال الواقع، ويتغلغل فى كل تفاصيله البالغة الدقة. ويبدأ العرض بتلك التشكيلات المسرحية الحركية الصامتة التى تقول لنا أنه فى البدء كان الصمت، وكان الصمت هو الداء العربى الأصيل الذى تدفقت منه شلالات الجنون الذى يلفنا جميعا. وهى تشكلات تعبيرية دالة تؤسس من البداية منهج التعبير المسرحى عند فاضل الجعايبى الذى يمزج بين التعبيرية والواقعية بحساسية شعرية مرهفة. وتحتاج هذه المسرحية العربية الجميلة فى حقيقة الأمر إلى مقال مستقل لأنها تكشف لنا عن أن الجنون ليس حالة طارئة أو عارضة فى واقعنا العربى، ولكنها المنطق التحتى الذى يسرى فى أوصال الواقع، ويكرس فيه العسف والظلم والهزيمة والطغيان. وكيف أن الجنون فى أشد حالاته تجسيدا وخصوصية ليس مفصولا بأى حال من الأحوال عن عسف السلطة الغاشمة وتناقضاتها ونفاقها، سواء أكانت سلطة الأب داخل الأسرة التقليدية، أو سلطة المؤسسة العلاجية التى تتقيد بحرفية المنطق العلاجى أكثر مما تفهم روحه العلمية الاستقصائية، أو سلطة المؤسسة السياسية التى تهيمن على الواقع بمنطق من يعرف أنه سلب حقا ليس له، وأنه يفتقر للشرعية والمصداقية على السواء. أو السلطة الدينية التى تتذرع بفهمها السطحى للدين للسيطرة والقهر وتحقيق المآرب الشخصية.

فهى مسرحية تتقصى حالة جنون محددة فترتقى بها إلى حالة الجنون الجمعى الشاملة، كى تدين عبرها الخوف والاستبداد والقهر والطغيان الذى أصبح من سمات عالمنا العربى الراهن، بعدما فقدت فيه السلطة كل مصداقية ومشروعية، وفقدت حتى ورقة التوت الأيديولوجية، ولم يبق لها من قدرة إلا قدرتها على أن تصيب الجميع بالجنون. فقد قلب العرض مفهوم الجنون من حالة فردية استثنائية،إلى حالة جمعية عامة يعانى منها الجميع، ولايستطيعون التخلص من شبكتها العنكبوتية المدوخة. وتقدم لنا المسرحية قصة مجنون محدد هو «نون» تعالجه طبيبة نفسية، لاتزال تؤمن بقدرة الفرد على مواجهة هذا الجنون وعلاجه فى بداية العرض، ولكنها سوف تعانى بعد سلسلة من المثبطات من اليأس والقهر والإحباط قرب نهايته. وتبدأ المسرحية بتقديم أولى جلسات العلاج والبحث فى حالة المريض على المسرح من خلال وضع ميكروفون فى نهاية المسرح من ناحية، وآخر فى نهايته من الناحية المقابلة، تطرح الطبيبة أسئلتها فى الأول فى نهاية المسرح، ويجيب المريض عليها فى الثانى فى النهاية المقابلة. وعندما ينحرف بوجهه عن الميكروفون، فى نوع من حركات المعاتيه التقليدية، أو التشنجية، تسير إلى نهاية المسرح، تعدل من وضعه أمام ميكروفونه، ثم تعود إلى ميكروفونها لتواصل الحوار. وهو تجسيد مسرحى بارع لطبيعة التواصل العلاجى فى منهج التحليل النفسى وإشكالياته فى آن. ولمدى ما فى هذه العلاقة من اصطناع وتعمّل من ناحية، ومدى تحصن كل من طرفيها فى موقفه بعيدا عن الآخر. إنها فى حقيقة الأمر صياغة جمالية درامية لصعوبة التواصل الحقيقى والحميم بين الطبيب والمريض. وهو الأمر الذى تحاول الطبيبة التغلب على عراقيله بالإجهاز على الفجوة بينهما من خلال معرفة أسرة المريض، ومتابعة تفاصيل ما جرى له خارج المصحة، وخاصة أنه مريض دائم الهرب منها.

وما أن تتعرف الطبيبة على تفاصيل حياة أسرته حتى نكتشف معها مدى تفاوت حظ كل فرد من أفرادها من الجنون، فكلما توغلت بنا المسرحية فى حياة أسرته، كلما وسعت من دائرة الجنون وكثفت دلالاته. فهناك الأخ الأكبر الذى حل محل الأب وتقمص دوره، وهو أخ يتسم بالعنف والإجرام، ويمارسهما فى حياته خارج البيت. وهناك الأخت الكبرى التى تزوجت عن حب، ولكنها سرعان ما انصرفت عن الاهتمام بزوجها الذى يطاردها بهوسه الجنسى، لأن الحب فى هذا الواقع المحبط ليس



مشهد من رباعية الإسكندرية

إلا قناعا باليا للشهوة، بينما الحب الحقيقى الذى ينهض على الفهم العميق والتكامل هو ما تفتقده الأخت، وما يدفعها فقدانه إلى الضيق بمطاردات زوجها الشهوانية لها، والتى أحالها العرض إلى شىء ممجوج لا يثير إلا السخرية. أما الأخت الوسطى فإنها لم تعثر على عمل بعد تخرجها من الجامعة، فاحترفت نوعا من الدعارة المقنعة، تركت فى أعماقها نوعا من الشرخ أو الجرح الغائر غير المرئى الذى لايندمل، برغم اعتدادها بنفسها، ووعيها بمأساوية قدرها. أما الصغرى التى يقع عليها عبء معظم العمل بالبيت، ويطالبها الجميع برعايتهم فى وضع من التراتب المقلوب حيث تصبح الصغرى، وهى الأولى برعاية الآخرين، هى راعية الجميع، وهو وضع يملؤها بالتوتر الشديد، ولا تجد مجالا للتنفيس عن هذا التوتر، فيتجلى باستمرار فى تصرفاتها العصبية. ولاتقل الأم عن بناتها حدة وتوترا وعصبية، بالرغم من استغلالها لمكانتها المتميزة بالأسرة. وتحاول الطبيبة معرفة سر كل هذه التوترات فتكتشف أن الأب الميت كان ومازال يحكم أسرته بيد من حديد، وكان يقمعهم بالتزمت الدينى الكاذب، فى حين كان يسرف كل ليلة فى شرب الخمر، ويعود للبيت مخمورا يمارس عنفه الجسدى على أفراد أسرته، فى إشارة مستترة جريئة معا لما تنطوى عليه البيوت الشعبية من أسرار. فكره الابن «نون» كل ما يمت للعنف والجنس بصلة.

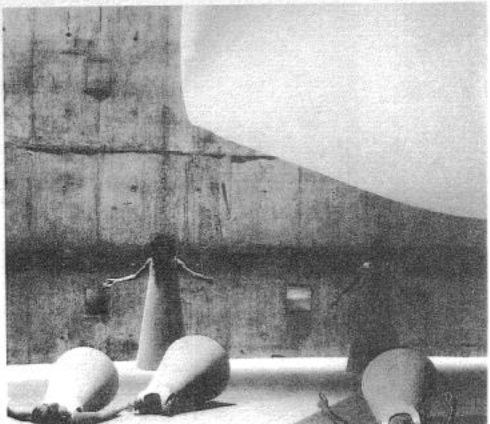
من خلال هذه التنويعات المختلفة للجنون، والتى يصيب الطبيبة المعالجة شىء من رذاذها، عندما تتهمها المؤسسة بالخروج على تقاليد المهنة، لاتصالها بالمريض خارج المصحة، وتوقفها عن العمل، ترتقى المسرحية بالجنون من خلال تمثيلها الذى يمزج بين المنهج التعبيرى والمنهج الواقعى إلى مستوى الاستعارة الدرامية التى يتحول فيها الجنون إلى القرين الدائم للحياة السليمة من ناحية، وإلى تجسيد للوضع الإنسانى المأزوم من ناحية أخرى. وترجع بأسبابه إلى تسلط المؤسسة، وانسحاق الفرد أمام شتى تجليات القهر والهوان. وتكشف عن ضلوع المؤسسات الدينية منها والأسرية والسياسية فى توليد الجنون السارى فى كل تفاصيل الواقع العربى المنكوب، وفى هذا التردى والهوان الذى يعيشه الإنسان العربى فى هذا الزمن الردىء. وهذا الارتقاء بالجنون إلى مستوى الاستعارة هو الذى مكن جمهور أفينيون من الاستمتاع بهذا العمل برغم خصوصيته التونسية، فقد تم حجز كل مقاعد العرض فى لياليه الأخيرة، بالرغم من سعة المكان الذى عرض فيه وزيادة مقاعده على الخمسمائة مقعد، وكثرة العروض المنافسة فى هذا المهرجان الكبير.

إلى جانب هذه العروض الجميلة شاهدت عددا آخر من المسرحيات المهمة فى هذا المهرجان الرسمى. من مسرحية (زيارات) للكاتب النرويجى المعاصر، جون فوسا، وهو أشهر كتاب المسرح النرويجى المعاصرين أوروبيا فقد سبق أن شاهدت له أكثر من عمل فى لندن، ولذلك أود أن أقدمه هنا لجمهور المسرح العربى الذى تأخرت متابعته لما يدور فى هذا البلد الجميل. فهو كاتب يواصل تقاليد المسرح الإسكندينافى القائمة عند أوجست سترندبرج خاصة. حيث يكشف مدى ما تنطوى عليه المواقف اليومية البسيطة فى الحياة العصرية من كوابيس مبهظة. ويستخدم فى ذلك لغة شديدة التركيز والتكثيف، وبناء مسرحيا يتسم بالتقشف والحدة. فنحن هنا بإزاء أسرة اسكنديناقية من الطبقة الوسطى، تركها الأب، ويبهظها الصمت والبحث عن رافد للتحقق. ويبدو هذا الرافد فى صورة حبيب الأم وزياراته المتكررة التى يجىء فيها حاملا زجاجة نبيذ تدخل شيئا من البهجة الحسية عليها. وهو رجل عاطل عن العمل، سرعان ما يقيم علاقة مع ابنتها الغضة التى لم تبلغ العشرين من عمرها، وهى علاقة تثير فى أعماق البنت الأزمات، فتهجر مدرستها، وتبتعد عن صديقاتها، ولكنها تخرج كل يوم من البيت فى مواعيد المدرسة، وتعود بعد انتهائها ممضية الوقت فى التسكع. وتسعى الأم، لمعرفة سبب غياب ابنتها عن المدرسة، ولكن البنت لا تصرح لها به. بينما تفصح لأخيها عن حقيقة الأمر، والأخ يعمل ويقيم وحده بعيدا عنهما. فيحاول الابن أن يواجه العشيق ويهدده بسكين، ولكنه لايستطيع أن يحقق تهديده، فيترك البيت عند وصول أمه التى تدرك أنه لم يجىء لزيارتها، وإنما لمواجهة عشيقها. إن المسرحية تتعمد أن تكشف لكل شخصياتها جوانب من حقيقة ما جرى وأن تحجب عنهم أخرى، ليظل الأمر كله فى منطقة الالتباس، لأن الالتباس هو الوضع الإنسانى الأكثر حقيقية وعمقا، ولأن المسكوت عنه لايقل أهمية عما يقال فى هذه المسرحية. لأن المسرحية تهتم بتجسيد ما تنطوى عليه علاقات هذه الشخصيات الأربع من إشكاليات. ولا تساهم النهاية فى حل هذه الإشكاليات بل فى تعقيدها، لأن الأم تقرر أن تترك الشقة لتبدأ حياة جديدة مع عشيقها، بينما تأخذ ابنتها شقة العشيق الصغيرة - فى نوع من الحلول الرمزى محله - لتعيش فيها وحدها. وهكذا تأخذ المسرحية الفردية الاسكندينافية إلى منتهاها، حيث تضع الأم سعادتها الفردية قبل ابنتها. ولكن أيا من الشخصيات الثلاث لا تستطيع بهذا القرار أن تنجو من شبح الخواء الذى يحوم حول أفراد هذه الأسرة جميعا. وهى من هذه الناحية شهادة على خواء الحياة العصرية، ووصمة دامغة للفردية التى تتنصل من كل مسئولية عن الآخرين.

ومع أننى شاهدت عروضا أخرى من عروض المهرجان الرسمى، فإننى سأتجاوزها هنا كى أختتم الحديث عن المهرجان الرسمى بالعرض الآخر الذى قدم فى ساحة الشرف بالقصر البابوى واستأثر بالنصف الثانى من المهرجان. ودائما ما يكون العرض الثانى تجريبيا. لأن العرض الأول يقدم عادة تأويلا جديدا لإحدى كلاسيكيات المسرح، بينما يقدم العرض الثانى أحدث ما فى جعبة التجريب المسرحى الحديث من إنجازات. وكان عرض هذا العام بعنوان (غياب الجسد noBody) لمخرجة ومصممة الرقص الحديث الألمانية الشهيرة ساشا فالتز Sash Waltz يستخدم كلمة الجسد باللغة الانجليزية، ويسبقها بمنطق السوابق واللواحق اللغوية السائد فى اللغة الألمانية، بأداة النفى التى يتعمد كتابتها بالحروف الصغيرة، لتشير إلى نفى الجسد أو غيابه. وللتمييز بينها وبين كلمة nobody الانجليزية التقليدية التى تعنى لا أحد. وتعد صاحبة هذا العرض واحدة من أهم مخرجات المسرح الألمانى، وهى مديرة مسرح «الشو بوهن» Schaubühne الشهير فى برلين. وقد طلب منها مدير مهرجان أفينيون قبل عامين أن تعد عملا للعرض فى ساحة الشرف بالقصر البابوى، وهو الطلب الذى يعد بمثابة التتويج للمسرحى الأوروبى المعاصر الذى يطلب منه ذلك. وكان فى ذهنها فى هذا الوقت - كما تقول لنا - مشروع عمل عن غياب الجسد، أو عن الموت باعتباره نفيا للجسد وتغييبا له. فالعرض الذى استغرق إعداده ما يقرب من العامين وتطلب من ساشا فالتز أن تزور القصر البابوى فى أفينيون عدة مرات، ينطلق من طرح سؤال مهم: ما الذى يبقى بعد موتنا العضوى؟ وهل ثمة شىء بعد غياب الجسد يبقى منا فى الآخرين، أو فى الحياة بشكل عام؟

ويعد هذا العمل الذى عرضته فى أفينيون هو الجزء الثالث من ثلاثيتها عن الجسد والتى تناول جزؤها الأول «الجسد Körper» الجانب التشريحى والفسيولوجى للجسد الإنسانى. أما الجزء الثانى «س S» وهو الحرف الأول من كلمة الجنس بلغات أوروبية عديدة فقد تناول أصل الحياة والجانب الشبقى وعملية الإخصاب والتوالد. لذلك كان طبيعيا أن يكون هذا الجزء الثالث عن «الموت وغياب الجسد» وعن الوجود الميتافيزيقى للإنسان، وماذا يحدث له بعد الموت، وهل هناك وجود للروح؟ وقد أعدت هذا العمل تحت وقع إحساسها الفادح بالفقدان، عندما فقدت أمها فجأة فى العام الماضى، ولم تستطع أن تتقبل فكرة غيابها النهائى ذاك؟ لأنها لم تستطع استيعاب كيف يمكن لمن منحتها الحياة أن تموت فجأة هكذا! وهل يبقى من الأم شىء بعد رحيلها؟ هذه الأسئلة الملحة هى التى كانت تشغلها حينما طلب منها إعداد هذا العرض، ولذلك فإن هذا العرض مسكون بمسألة غياب الجسد، وعلاقة الجسد الفردى بالجسد الجمعى للجماعة من ناحية، وبروح هذه الجماعة القادرة على استنقاذ الفرد من الغياب والموت، من ناحية أخرى.

وقد استطاع هذا العرض أن يستخدم الفضاء الصرحى المهيب للقصر البابوى بشكل بارع، ويوظف كل نوافذه وارتفاعاته وأقواسه. ويعتمد العرض على نفى المركز وتشتيت الانتباه، والإجهاز على الحبكة، وخلق علاقات بالغة الحداثة من حيث جدلها المستمر بين المتجاورات، واستخدامها الومضات بدلا من التتابع. وتوظيفها الموسيقى المسكونة بالغموض والمخاوف، وموسيقى الضجيج والعجيج اليومى، وتقطيعها للجسد باستخدام شاشات خيال الظل، ولجوئها للتشكيل والصيغ النحتية فى تكوين الكتل وجدل علاقاتها، واستخدام الحوار والصراع بين الفرد والمجموع كالنغمة الأساسية، أو نغمة القرار، فى العرض. فقد استخدمت ساشا فالتز خمسةوعشرين راقصا وراقصة من جنسيات متعددة أوروبية وآسيوية. وخلقت بهم جماليات جديدة للحركة، كما أقامت حوارًا شيقًا بين رأسية هذا الصرح المعمارى المهيب وصلابته، وأفقية الحركة البشرية والجسد الإنسانى اللين وهشاشته. لكن أبرع ما خلقه هذا العرض هو أنه استطاع أن يجسد حضور الموت وسطوته العاتية. من خلال استخدامها هذا البالون المربع الأبيض الضخم الذى يقترب حجمه من حجم بيت صغير، فهو بالقطع أكبر من حجم صالة كبيرة، انطلق من أعلى المبنى، وتم نفخه التدريجى حتى اكتمل، ثم أسقط على المسرح ككابوس رازح لاسبيل للفكاك منه.أو باعتباره الحقيقة الوحيدة المؤكدة فى الحياة، وهى أنها ستنتهى بالموت. تحاول الشخصيات أن تتملص من حضوره الفج، ولكنها ما أن تفلت منه حتى تتخبط فيه من جديد. وبدا من خلال الجدل بين هذا البالون الضخم والراقصين أن ساشا فالترز تسعى لإدارة حوار بين الكون وبين جسد الراقص الإنسانى، بين الحسى والمقدس، أو كأنها تطرح أحدهما فى وجه الآخر بالمعنى الميتافيزيقى للمواجهة. والواقع أن المشاهد يخرج من هذا العرض الأثيرى مثقلا بوطأة الوجود غير المحتملة، وبعبء الأثر الفادح الذى يتركه الجسد الغائب على الجسد الباقى، سواء أكان جسد الفرد أم الجماعة. يخرج مسكونا بأسئلة هذا العرض الأساسية: ما قيمة الجسد دون الروح؟ وما هو الإنسان خارج الجسد؟ وما هى



أهمية الجسد دون حب؟ وهل يمكن الاحتفاظ بالذين رحلوا داخلنا؟ وكيف يعرقل هذا الاحتفاظ بهم حياتنا، ويبهظها؟ لكن المشاهد المهموم بوضع المسرح العربي مثلي سيضيف إلى هذه الأسئلة الفلسفية سؤالا آخر: متى يستطيع مسرحنا أن يقدم عروضا من هذا النوع؟ ولماذا تفصلنا سنوات ضوئية من الفهم والحساسية عما يبدو أنه أرقى ما وصل إليه التعبير المسرحي الأوروبي الآن؟

لكن قبل أن تصيبني مثل هذه الأسئلة بالكمد والحزن على حالنا المسرحي، وحالنا العربي والسياسي فليس الأول بمفصول عنهما، دعنا نتأمل معا ما قدمه المهرجان الموازي والمدهش Festival Off، لأن ما شاهدته من عروض المهرجان الموازي مليء بالإثارة ومترع بالرؤى التي تهم القارئ العربي في كثير من جوانبها.

وقبل أن أتوقف عند بعض المسرحيات التي شاهدتها في هذا المهرجان الهامشي والتي تجاوزت العشرين مسرحية، وهي قطرة من بحر، فإنني أود أولا أن أشير إلى عدد ما ينطوي عليه من أعمال. فقد ضم برنامج المهرجان الموازي هذا العام أكثر من ستمائة عمل مسرحي، بالإضافة إلى عروض السيرك والرقص. بالصورة التي يمكن القول معها أن عدد عروض مهرجان هذا العام تجاوز السبعمائة عمل. عرض معظمها لأكثر من عشرين عرضا على مدى أيام المهرجان ٥-٢٧ يوليو. لذلك يمكن القول أن عروض هذا المهرجان تجاوزت الأربعة عشر ألف عرض أو حفلة في هذه الأسابيع الثلاثة. وبلغ عدد التذاكر المباعة فيه أكثر من نصف مليون تذكرة، دفع فيها المشاهدون أكثر من ستة ملايين يورو. فقد أصبح هذا المهرجان الفرعي فضاءً ثقافيًا لامثيل له، لا بسبب عدد المشاهدين وحدهم، ولكن بقدرته على إبداع مسرح مغاير، وخلق أشكال جديدة من التعبير المسرحي والإبداع الدرامي قادرة على الحوار المستمر مع قضايا الواقع الراهن الملحة من فلسطين إلى الجزائر، ومن أفغانستان إلى رواندا، ومن سجناء جوانتنامو إلى الأحداث العرقية في كوسوفو والبوسنة، ومن الحروب إلى قضايا الفساد والعنصرية. ناهيك عن الإسهام الجمالي في تجديد الصيغ والبنى المسرحية. فهو مسرح فقير، ولكنه مترع بالإبداع والتجديد والتجريب.

ولنبدأ أولا بالأعمال التي تتناول العالم الإسلامي الأعرض قبل الحديث عن واحدة أو اثنتين من مسرحيات العالم العربي المثقل بهمومه وحظه السيئ، سنجد أنفسنا بإزاء مسرحية (كباريه عمر الخيام) التي أعدها وقام ببطولتها أندريه بينيديتو ــــ وهو صاحب فكرة المهرجان الموازي ومؤسسه. وهي عرض كما يقول عنوانه من نوع الكباريه السياسي الذي يستشرف حياة هذا الشاعر الفارسي الكبير ويتغيا أن يقدم للجمهور الفرنسي شيئا من رباعياته وفلسفته وما دار في زمنه من أحداث عاصفة. وخاصة أن حياة هذا الشاعر الكبير توازت مع مرحلة الاستعداد للحملة الصليبية المشهورة على العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر، وهي الحملة التي خرجت من أفينيون وبمباركة مجمعها البابوي.

ويحاول العرض أن يدخل المشاهد إلى قلب عالم عمر الخيام المترع بالاهتمامات الحسية والفلسفية في آن. وبدلا من أن يجلس الجمهور في مقاعد المسرح الصغير الذي دار به العرض، أخذه إلى خشبة المسرح التي نظمت على هيئة مقهى يجلس الجمهور حول مناضده، وعلى كل منضدة شمعة تخلق مناخا حميميا، في حلقة يدور في وسطها التمثيل. وهو ليس تمثيلا بالمعنى المعروف، ولكنه مزيج من المحاضرة والتمثيل. فنحن هنا بإزاء كباريه مسرحي بمعنى الكلمة. وهي محاضرة مجسدة يرويها علينا البطل / الكاتب معا «أندريه بنيديتو» والذي يقوم بدور عمر الخيام والراوي الذي يتحدث عنه في آن. وتصاحبه فتاة راقصة تلعب دور راقصة الحانة، ودور المرأة التي تدور حولها رباعيات الحب التي كتبها هذا الشاعر العظيم في آن. ولكنها تلعب في نفس الوقت دور المرأة المعاصرة التي تريد أن تتحرر من الدور القديم الذي رسم لها، ومن الصيغة الأوروبية لتصور المرأة في الوقت نفسه، ولذلك فقد اختار الممثل / المؤلف راقصة من الكاميرون تجيد الرقص الشرقي في وقت واحد.

لأن العرض يريد أن يجعل قصة الخيام قصة صالحة لعصرنا الحاضر. ولذلك فقد استخدم ازدواج الأدوار والدلالات، شخصية الراوي الأوروبي المعاصر وشخصية عمر الخيام يمثلهما ممثل واحد يقدم لنا هم الممثل الذي يبحث عن شريكته في العرض من ناحية، وهم الأوروبي المثقل بميراث الحروب الصليبية المخجل، وهو ميراث لازلنا نشهد تجلياته المعاصرة في مغامرات غربية لاتقل إخجالا عن ميراث التاريخ، كانت آخرها في أفغانستان. أما ازدواج دور المرأة فإن له هو الآخر وظيفته، فهي تلك الراقصة الرقيقة التي تغزل فيها الخيام في رباعيته، وهي في الوقت نفسه المرأة الأفريقية المثقلة بآثار الاستعمار الغربي الفادحة لبلادها، وضحية التصور الأبوي الظالم لوضعها في آن. تتعامل كممثلة وراقصة مع الراوي / الممثل وهو يبحث عمن يلعب الدور الذي يكتبه، ولكنها تتعامل أيضا كافريقية مع الأوروبي الأبيض فيه، وتكشف لنا عن أنه لم يرق بعد وهو على مشارف القرن العشرين إلى مستوى عمر الخيام الذي عرف كيف يعامل حبيبته بندية لم يستطع الإنسان المعاصر استيعاب حقيقتها بعد. ويستمر العرض في إدارة حواره الخلاق بين مختلف هذه المستويات الدلالية، ويقدم لنا في الوقت نفسه الكثير عن حياة عمر الخيام وأشعاره. وحتى نتذوق هذه الأشعار يقدم لنا أثناء العرض النبيذ، كما كان الحال في الحانات التي كان يتردد عليها الخيام نفسه. في هذا الزمن الإسلامي الزاهر، ويستخدم العرض هذا الزمن المتحرر ليضعه في مواجهة التزمت الإسلامي المعاصر. بصورة جعلتني أشعر بفداحة ما أصاب به الجمود والوهابية واقعنا العربي، وكيف أساءت لسمعة الإسلام الوضيئة. وينتهي بنا العرض وقد شاركنا جميعا في هذا المناخ المتحرر بالرقص والشراب.

وكانت هناك مسرحيتان عن وضع المرأة الأفغانية إبان حكم الطالبان. كتب أولاهما (الأفغانيات وأفغانستان) الكاتب الفرنسي الشاب جان جاك جرينو Jean Jacques Greneau وهو الذي كتب عرضا آخر عن فلسطين سأتناوله بعد قليل، بينما أعدت الأخرى (الوجه الخفي للمرأة الأفغانية) كاتبة وممثلة من أصل مغربي هي معاني صاديه Maani Sadia وإذا كانت المسرحية الأولى قد تناولت وضع المرأة الأفغانية خلال مرحلة طالبان من خلال تجسيدها لقصة امرأة أفغانية «دارية» عانت من زمن الحرب ضد السوفييت، وفقدت عددا من أبناء أسرتها بسببها، ثم بلغت معاناتها ذروتها في زمن الطالبان، حيث فقدت كل المكاسب التي حققتها المرأة إبان فترة نجيب الله، وعادت مرة أخرى إلى قسوة سجن التصورات السلفية الجامدة عن المرأة والإسلام. لكن مشكلة هذه المسرحية التي كتبت قبل أحداث سبتمبر أنها توجه نداءها للغرب لإنقاذ المرأة الأفغانية من تحجر الطالبان، وتطلب منه أن ينهض بواجبه في الدفاع عن حرية المرأة، التي لا تتحقق وفي عالمنا مثل هذا الوضع. وما أن تشاهدها بعدما أسفر تدخل الغرب ـ الولايات المتحدة خاصة ـ في أفغانستان عن وجهه القبيح، وعن جشع احتكارات النفط الكبرى، ولم يعد يهمه حقيقة وضع الإنسان الأفغاني مادام قد أمن مصالحه، حتى تدرك مدى ما ينطوي عليه نداؤها من إشكاليات. وقد تحدثت مع مؤلفها قبل العرض، فأخذ يؤكد على ضرورة أن نرى المسرحية في سياق كتابتها، وقبل التدخل الأمريكي في أفغانستان. لكن المسرح لابد أن يكون قادرا على الفاعلية والتأثير بعد انصرام زمن عليه. أما المسرحية الثانية فإنها تختلف كثيرا عن الأولى في تناولها لوضع المرأة الأفغانية، لأنها اعتمدت على مجموعة من القصائد التي كتبتها النساء الباشتون في زمن الحرب، وحاولت من خلال مسرحتها، وتجسيدها على المسرح بمصاحبة عدد من الآلات الموسيقية التقليدية الأفغانية أن تقدم لنا وجهة نظر هؤلاء النسوة دون تدخل فيها فخرجت المسرحية وكأنها عمل عن الحب في زمن الحرب، أو عن الحياة الإنسانية القادرة على تجاوز المحن وخلق عالم إنساني راق في أشد الظروف ضراوة وصعوبة.

ولابد أخيرا من الحديث عن مسرحيتين عن عالمنا العربي أولاهما كتبها جان جاك جرينو Jean Jacques Greneau، وهو نفس الكاتب الذي كتب المسرحية الأفغانية الأولى عن الوضع الراهن في فلسطين المحتلة. وهو كاتب يردنا إلى زمن الكتاب الفرنسيين الذين يشعرون بأن الكاتب هو ضمير العالم، وأن عليه أن يكون ملتزما إزاء قضاياه الساخنة. من أميل زولا الذي رفع إصبع الاتهام (إني أتهم) ضد العنصرية، إلى جان بول سارتر الذي كان الضمير المثقف لعصره في الخمسينيات والستينيات. فقد كتب هذه المسرحية (حملان الرب) مستخدما فيها هذا الرمز التوراتي أو الإنجيلي الذي يتجذر في الوجدان المسيحي عن الوضع الراهن في فلسطين المحتلة عقب زيارة أخيرة لها إبان اجتياح العدو الصهيوني الشرس لجنين. وهي مسرحية سياسية بكل معنى الكلمة، إذ أنها تقدم لنا صحفيا يروي لنا ما شاهده، في نوع من التقرير الإخباري الذي يتحدث عن تصرفات شارون الوحشية، وردود فعل عرفات وبوش عليها، ويلتقط صورا لما يدور أمام عينيه، بينما تقدم الممثلة التي تقوم بدور امرأة فلسطينية تعاني من الحصار في وطنها المحتل بتجسيد هذا الوضع المؤلم ومنحه وجها إنسانيا على خشبة المسرح. فنحن هنا بإزاء امرأة فلسطينية نبيلة تحكي لنا عن معاناتها الإنسانية تحت وقع القصف الوحشي والحصار، وعن مواجهتها اليومية للمصفحات والاستجوابات، وعن وقوفها اليومي أمام الحواجز العسكرية التي نصبها المحتلون الصهاينة في كل مكان، وبددوا بها وقتها وأمنها. وعن تشبثها بأرضها وبيتها ورغبتها في حماية أطفالها وتوفير الحياة الكريمة لهم. وكيف يذهب ابنها للمدرسة فيجد مدرسه صريعا برصاصة صهيونية غادرة، فيتعلم الكراهية بينما كانت تود أن يتعلم الحب والتسامح. وتقدم لنا من خلال شهادتها الملموسة والحسية والمؤثرة صورة مجسدة

لهـذا الـوضـع المأسـاوى الـذى يجـد فـيـه الفلسطينى الباسل نفسـه وحـده يحارب هذا الطغيان الصهيونى البربرى البشع، بينما بقية العالم، والعالم العربى على وجه الخصوص، لايمد له يد العون فى هذا الزمن الردئ.

ولايكتمل الحديث عن همومنا العربية فى هذا المهرجان دون تناول واحدة من المسرحيات العربية العديدة التى تناولت الوضع الدامى فى الجزائر وعلاقتها المعقدة مع فرنسا. وقد كانت مسرحية (ذكريات مستجلبة) لسليمان بن عيسى واحدة من أجمل المسرحيات العربية التى شاهدتها فى هذا الصدد. فهى مسرحية تتناول قضايا الهوية الجزائرية المعقدة، وذلك من خلال عملية تحليل نفسى لشاب جزائرى يعانى من فقدان الذاكرة، وهى هنا ليست مجرد الذاكرة الفردية، وإنما الذاكرة الجمعية، والذاكرة التاريخية التى يعيش العربى عامة حالة مزمنة من فقدانها الدائم. ويلعب الفرنسى فى هذه المسرحية عددا من الأدوار من دور السجان، إلى المستجوب، إلى المحلل النفسى، إلى راقص الاستربتيز فى الملهى الليلى، وهى كلها على المستوى الرمزى الأدوار التى تلعبها فرنسا بالنسبة للجزائر عبر مسيرتها الحديثة. بينما يلعب الجزائريان فيها دور الأب ودور الابن. فقد كان الأب مجاهدا من الذين حاربوا فى حرب الاستقلال والمليون شهيد. أما الابن فإنه من الجيل الذى عانى من ويلات القهر وتخثر أحلام الاستقلال ودموية الحرب الأهلية. وتتحول المسرحية بالتدريج إلى محاكمة للتاريخ الجزائرى المعاصر، وإلى محاولة لسبر أغوار الشخصية الجزائرية والتعرف على هويتها الوطنية فى آن، بعدما تم تعميد هذه الهوية بالدم والفساد. وإذا كان الفرنسى يحاول أن يطرد أشباح الماضى التى ساهم فى خلقها بالنسبة للوضع الجزائرى، ويدرك فداحة مسئوليته عما دار إبان الفترة الاستعمارية، فإن الأب يشعر بالامتنان لأنه استشهد قبل الاستقلال، ولم ير كيف مسخت أحلامه وأهينت تضحياته وتاجر بها العملاء. بينما يبقى الابن حائرا، بل ضائعا بين شقى رحى تناقضات مرحلة الاستقلال، وما أنجبته من حرب أهلية دامية. لا يستطيع الابن التنصل من مسئوليته عنها، ولكنه لايستطيع فى الوقت نفسه تحمل أوزار هذه المسئولية لأنه فى حقيقة الأمر أحد ضحاياها.

وقبل أن أنهى هذا المقال أود أن أشير إلى المسرحية التى سعت إلى الدخول بنا إلى قلب الكابوس الأمريكى الناجم عن غزو أفغانستان، وهى (جوانتنامور Guantanamour) لجيرار جيلاس عن سجناء هذا المعتقل الجهنمى فى خليج جوانتنامو. وهى مسرحية تلعب على المزج بين اسم هذا المعتقل، وكلمة حب بالفرنسية للكشف عن زيف الدعاوى الإنسانية الأمريكية من خلال هذا المحك الفعلى لاختبارها جميعا. إذ تسعى المسرحية التى تستخدم تقنية الراوى والمراوحة بين الحوار والمنولوج إلى إدخال المشاهد إلى قلب هذا المعتقل الجهنمى الذى لم يسمع العالم عن وجوده الغريب قبل الغزو الأمريكى لأفغانستان. فيقدم لنا الراوى الإطار التاريخى الذى مكن أمريكا من الاحتفاظ بموطئ قدم على الأرض الكوبية، ويكشف لنا مدى النفاق السياسى الذى دفعها إلى اللجوء لهذه البقعة الكوبية المستعمرة كى ترتكب فيها جرائمها البشعة حتى يتاح لها فيما بعد الزعم ببياض صفحتها ونصاعة تاريخها. ثم يقدم لنا مجموعة من الحقائق عن واقع الحملة الأمريكية على أفغانستان، وعن تبريرها للقبض على هؤلاء الأسرى، ويكشف لنا من خلال الراوى الذى يقدم لنا الخطاب التبريرى لها، والأسرى الذين يقدم كل منهم منولوجا يروى فيه حالته مدى التناقض والرياء والمفارقة بين الخطاب الأمريكى والواقع. فالخطاب الأمريكى مترع بالتبريرات الإنسانية والمزاعم الكاذبة عن الحب وحقوق الإنسان، بينما يجسد لنا الواقع هذا «الحب» الأمريكى المترع بالعنف والكراهية. وقد استخدم العرض أربعة ممثلين يقدم كل منهم عددا من منولوجات السجناء، بصورة يمكن معها القول أن كلا منهم يقدم منولوجات مجموعة متجانسة منهم. أولاها هى مجموعة الأفغان الذين لايريدون غير ما يريده الأمريكى لبلده، السيادة والأمن والاستقرار، ولا يقبلون وقوعها تحت وطأة الاستعمار الأمريكى الجديد. وثانيها هى مجموعة ضحايا هذا الاستعمار الأمريكى من الذين غررت بهم أمريكا وشجعتهم على الجهاد ضد «الكفرة» السوفييت، ودربتهم فى معسكراتها وأمدتهم بالمال والعتاد حتى حرروا بلدهم منه، ثم وجدوا أنفسهم من جديد ضحية لمن شجعهم من قبل، وسجناء له. أما المجموعة الثالثة فهى مجموعة من الذين حاربوا ضد طالبان، ولكنهم حاربوا كذلك ضد عملاء أمريكا من الطاجيك، ووجدوا أنفسهم من الخاسرين فى كل الحالات. والمجموعة الأخيرة هى أكثرها مأساوية لأنها تتكون من الذين وضعتهم المقادير التعسة فى طريق الأمريكان بصدف عابثة. مجموعة البشر العاديين غير المسيسين الذين وجدوا أنفسهم فجأة إزاء تهم كبرى لا يدركون أبعادها، أو ألعوبة فى أيدى مردة مجرمين. وفى نهاية المسرحية، يتحول الراوى الذى كان يتذرع بخطاب أجوف متحضر إلى سجان وحشى، يغلق السجن على الجميع، ويطلق زبانيته عليهم إذلالا وتعذيبا، وقد رفض خطاباتهم المتعددة التى لايعترفون فيها بأنهم أجرموا فى حق أمريكا، كاشفا فى نهاية المطاف عن وجهه الحقيقى البشع، وواضعا الجمهور أمام مسئوليته إزاء ما يدور فى هذا العالم الردىء.

والواقع أنه إذا كان على بعد هذا العرض السريع لعدد من مسرحيات المهرجان الرسمى والموازى أن أتحسس شيئا من الاتجاه العام فى كثير من المسرحيات المهمة فى هذا المهرجان فهو أن نظرية بيتر بروك الشهيرة عن «المساحة الخالية» قد تلقت فى هذا المهرجان ما يمكن دعوته بالتطبيق الخلاق لها. والذى أكد أن المسرح الجيد لا يمكن أن يتخلق فى أى مساحة خالية فحسب. بل إن هذه المساحة تستطيع أن تدير ببنيتها الخاصة، وجمالياتها الفريدة حوارا متميزا مع هذا الفضاء وبنيته، وأن تمكنه من أن يكون أحد العناصر الأساسية فى عملية التأويل الإخراجى. بصورة يعيد فيها المسرح اكتشاف جماليات المكان، ويمنحه حياة جديدة ودورًا جديدًا. ■

كتاب الزاوية

رسالة إلى بوش من طفلة مسلمة

يَا سَيِّدِى بُوشُ العَظِيمْ . .
أنَا طِفلةٌ
نَبَتَتْ عَلَى أحضَانِ بُوسْنَةَ
مُنذُ آلافِ السِّنِينْ . .
وعَلَى ثَرَاهَا
لاَحَ فِى عَيْنِى ضِيَاءُ اللَّه
يسْرِى فِى قلوبِ المؤْمِنِينْ
ورَأيتُ فِى أمِّى كِتابَ اللَّه
نُورًا فِى الضلوعِ
وأنجُمًا فوقَ الجَبِينْ
وأتَيْتُ للإسلامِ راغِبةً
ولَمْ أسمَعْ صُرَاخَ الحَاقِدِينْ
ورسَمْتُ فِى قَلْبِى
بِلادَ اللَّه حبًا
لاَ يُعادِى أىَّ دِينْ
الآنَ يا مَوْلاَىَ
تَسْحَقُنَا جُيُوشُ الغَاصِبِينْ
مِنْ ثَدْىِ أمِّى
كَانَ لونُ الدَّم
يَحْكِى قِصَّةَ الأهوالِ
فِى الزَّمَنِ اللعِينْ

أســـــئلة..!

■■ لماذا..؟!

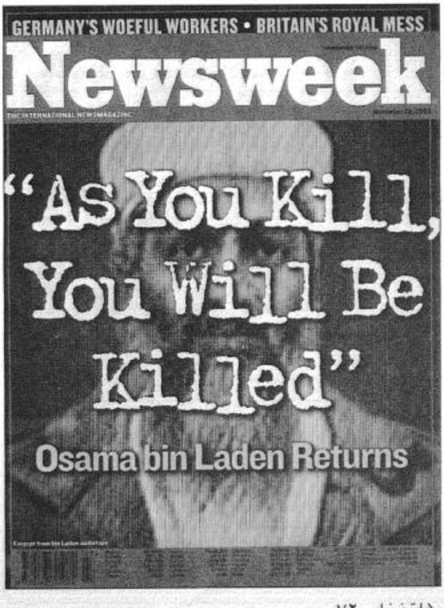
السـؤال.. طرحـه الأمـريكيـون ـ أو بعضُهم على الأقل ـ بعد الحادى عشر من سبتمبر الشهير. وتعامى الأمريكيون ـ أو مسـؤولوهم على الأقل ـ عن الإجـابة. واعتبر مروجو المكارثية الجديدة، طرحَ السؤال؛ مجردَ طرحِ السـؤال؛ «تبريراً للإرهاب». يقع صاحبُه ـ مهما كانت جنسيتُه أو مكانُ إقامته ـ تحت طائلة قوانينِ «أشكروفت» المطاطة الجديدة. فى أجواء مسممة بهستريا الخوف وهوسِ الجبروت (اعتقل الامريكيون ثلاثة طلاب أوروبيين: سويدى وألمانى واسبانى لترديدهم، على سبيل المزاح، عبارات تمجيد لأسامة بن لادن ومحمد عطا فى شريط فيديو عائلى).

السؤال ـ الذى غابَ للأسف ـ حتى عن خطابات المثقفين المفتوحة الشهيرة، عاد للواجهة على استحياء. يطلُ ـ لمن يريدُ أن يقرأ ـ من بين سطورِ عناوينِ الأخبار، ومن خلف ظلال صور وكالات الأنباء. أما من يريدُ أن «يشطُبَ» السـؤالَ ذاته، فله أن يحاولَ ـ ولو على سبيلِ حبِ الاستطلاع ـ زيارةَ منتديات الحوار العربية والإسلامية على الانترنت، حيث الكلام بلا حدود ولاَ قيود. أو يطالع أرقامَ الاستبيانات الأسبوعية على صفحات الشبكة الدولية، حيث لا توجدُ صناديقُ استفتاءٍ «حكومية» ولا نتائج معدة سلفاً.

الخبرُ الأول.. والصورةُ «التى هى بألف كلمة» كما يقولون، لأكثرَ من عشرة آلاف شخص (رويترز ١٤/١١/٢٠٠٢) احتشدوا فى إحدى ساحات «كويتا» الباكستانية الواسعة، قادمينَ من أزقتها الفقيرة الضيقة لأداء صلاة الجنازة وتشييع جثمان «مير ايمل قانسى» الباكستانى الذى أعدمَ بحقنة قاتلة قبل أسابيع فى أحد سجون «فرجينيا»، لإدانته بقتل موظفين فى وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA عام ١٩٩٣، قبلَ أن يتمكنَ عملاءُ مكتبِ التحقيقات الفيدرالية من اختطافه من داخل باكستان عام ١٩٩٧ فى عملية سينمائية مثيرة. يومها قال عميلُ الـ FBI براد جارت أن قانسى (٣٨ عاماً) أقر بانه نفذ عمليةَ الاغتيال «انتقاماً للمعاملة الفظة التى يلقاها المسلمون من أمريكا».

«كما تَقتلون ستُقتلون.. وكما تقصفون ستُقصَفون... تذكروا أطفالنا الذين يُقتلونَ فى فلسطين والعراق، وتذكروا رجالنا ونساءنا الذين قُتلوا فى أفغانستان...».

أسامة بن لادن
فى قناة الجزيرة
١٢/١١/٢٠٠٢



الجنازةُ صارت مظاهرة.. والجانى (حسبِ القانون الأمريكى) صار بطلاً وشهيداً و«مثلا أعلى». رغم كل الاتفاقات العلنية والسرية بين مشرف وباول. ورغم صور المصافحة الباسمة الأنيقة فى واشنطن واسلام آباد.

الصورةُ الثانية، لآلاف من اليابانيين، الدولةُ التى مازالت ـ قانونياً على الأقل ـ تدفعُ فاتورةَ الهزيمة فى الحرب العالمية الثانية، يسيرونَ فى هدوء وصمت البوذيين رافعين لافتات صغيرة بسيطة تحمل شعاراً ـ أونداءً ـ واحدا: «لاتضربوا العراق».

فى «سيدنى» البعيدة التى هزتها عن قرب ـ بحكم الجغرافيا وجنسية الضحايا ـ حادثةُ بالى قبل أن يهدأ صخَبُ الجدلِ حولَ واقعة الاغتصاب اللبنانى الجماعى، كانت الصورةُ فيها ـ بحكم الثقافة ـ مختلفة، وإن كانت أكثر «إثارة». ففى وسط الشارع الذى ازدحمَ بمئات المتظاهرينَ أمامَ المبنى الذى انعقدَ فيه قبلَ أيام «اجتماعُ التجارة الدولية»، تجردت ثلاثُ فتيات من كامل ثيابهن. ورقدن عاريات تماماً مفترشات علما أمريكيا ملطخاً بالدماء (AFP ١٤/١١/٢٠٠٢).

والحاصل أن «العرىَ» الاسترالى الصادمَ والمثير كان احتجاجاً على العولمة. والتى هى بمقتضى الواقع وبحكم التوصيف والتعريف.. «أمريكية».

تتعدد الصور.. وتتعدد الأسبابُ الظاهرةُ على السطح. ولا يستوقفُ الأمرُ الأمريكيين اللاهثين خلفَ صيحات الحرب، وتحتَ سياطِ التهديد والفزعَ والخوف.

صورةٌ واحدةٌ، تذكرها المعلقون وكتابُ الأعمدة بعد حديث بن لادن الأخير. الذى اثبت أن «الشبحَ مازال حياً» وأعاد صورتَه لتحتل أغلفةَ المجلات من جديد. تَذكَّر الأمريكيون انه قبلَ أسابيع، وفى الكويت التى هى «أكثر من صديقة»، تجمعت الحشودُ أيضاً لتشييع جنازة «شهداء فيلكه» كما أسماهم البعضُ على منابرِ المساجد. وأن جدلاً حول التوصيف، شغلَ لكثيرٍ من الوقت ديوانيات البلد الخليجى الذى «يتواجدُ» فيه الأمريكيون منذ عشرة أعوام. وتذكر البعضُ ـ بحكم تداعى الأحداث وترابطها ـ أن بداية هذا التواجد وتوابعه، كانت البداية «المعلنة على الأقل» لحرب بن لادن على الأمريكان. وكان طبيعياً أن يستعيدَ المراقبون الجادون قولتَه التى لم يلتفت إليها أحدٌ أبداً وقتها: «اخرجوا من ديارنا..».

قبل عشرة أيام، وخلال أربع وعشرين ساعة فقط، تعرض عدد من المصالح الأمريكية، ومواطنون أمريكيون؛ عسكريون ومدنيون، إلى اعتداءات مختلفة فى دول عربية عدة. من الرياض.. إلى الكويت.. إلى صيدا جنوبى لبنان.

السـؤال: لماذا شيع الآلافُ قانسى فى كويتا، وترحمَ من ترحمَ فى الكويت على «إرهابيى» فيلكه؟

أو إذا استعرنا الصياغة الأمريكية للسؤال: «لماذا يكرهوننا..؟».

«كما تَقتلون ستُقتلون.. وكما تَقصفون ستُقصَفون... تذكروا أطفالنا الذين يُقتَلونَ فى فلسطين والعراق، وتذكروا رجالنا ونساءنا الذين قُتلوا فى أفغانستان...».

النص مجتزأ من شريط بن لادن الصوتى الأخير، الذى أحيا مخاوفَ تجاوزت بالضرورة تطمينات ديل داتسون رئيس مكتب مكافحة الإرهاب فى مكتب التحقيقات الفيدرالى. والذى كان قد قال ـ بكل ثقة وسخرية ـ قبل أسبوعين فقط من إذاعة تسجيل بن لادن الصوتى: «إذا لم يكن قد مات، فلعله تبخر.. وإلا لماذا لا نسمع صوته على الجزيرة..».

أياً ما كان الأمر، وأيًا ما كان الموقفُ من آراء ومن ثم افعال المتمرد السعودى، تبقى حقيقةُ أن التساؤلَ حول ما إذا كانت تلك الآراءُ تقدمُ إجابةً على السـؤال المسكوت عنه أمريكياً: «لماذا..؟» وجد طريقه إلى العديد من مواقع الإنترنت (منها موقع امريكى حذف فوراً من على الشبكة الدولية..!) . وتبقى حقيقة أن رأى توماس فريدمان المعبِر عن رأى قطاع لا يستهان به من صنّاع العقل الأمريكى من أن «العرب إنما يكرهون أمريكا لأنها أكثر تحضرًا ورفاهةً وثراءً..» يصعب فهمه فضلاً عن الاقتناع به.

لاعاقلَ يمكنه أن يدافعَ عن ما فعله أويفعله بن لادن (وبغض النظر عن الغموض الذى مازال يغلف كل شىء) إلا أنه لا عاقلَ أيضاً يمكنه أن يتجاهل أن الاستبيانات على الإنترنت تقول أن ٧٠٪ من الشباب (الكويتى) يعتبره بطلاً. وأن القمصان التى تحمل صورته توزع على نطاق واسع فى دول آسيا الإسلامية. كما احتلت صورته واجهات التليفونات المحمولة فى غير بلد عربى.

ماذا فعل الأمريكيون فى مواجهة هذا الشعور المتنامى؟

فى ثقافة الـ World Trade Center النيويوركية، لا توجد عادة مشكلة. ما دمت تملك المال.. والحرفية Professionalism.

بوب وودوارد الشهير كشف فى كتابه الذى يصدر بعد أيام، كيف كسبت الدولارات الحرب فى أفغانستان (٧٠ مليون دولار دفعتها الـ CIA لشراء ولاء أمراء الحرب). إذن ليس غريباً أن يُوجَد هناك فى الإدارة من يقتنعُ بأن الحل ليس فى تغيير السياسات لتصبح أكثر عدلاً، أو أقل عنجهية. وإنما فى «تغيير العقول» لتصبح أكثر تقبلاً للسلعة المراد ترويجها، وبغض النظر عن مستوى الجودة. والخطوات (بمنطق الشركات التجارية) محددة سلفاً فى الـ Text Book: مليون دولار تم تخصيصها لحملة «علاقات عامة». و شارلوت بيرس الخبيرة فى الموضوع، بوصفها مديرة سابقة لإحدى شركات العلاقات العامة، تم تعيينها مساعدا لوزير الخارجية لشئون العلاقات الدبلوماسية العامة. ومن ثم احتلت الصحف العربية الكبرى إعلانات ملونة صيغت بحرفية بالغة تحاول أن تقول: «نحن الأمريكيين طيبون».

ورغم أن المضمون الإعلانى ـ ذا

الترجمة الركيكة - لا يتضمن مبالغة فى كثير من الأحيان إلا أننى لست متأكداً أنه قادر على إزالة الأثر الذى يمكن أن تحدثه صورة منشورة، فى الصفحة ذاتها ربما، لأم تبكى ابنها الذى مزقته إربا قذيفة «أباتشى» أمريكية الصنع فى أحد شوارع مدينة نابلس القديمة.

مزيد من الاستقطاب إذن و«سوء الفهم» إذا شئنا تعبيرًا باردًا، رغم إذاعة «سواء» الصاخبة، ورغم كل الجهود المخلصة و«المغرضة» من الطرفين. ورغم استضافة المثقفين و«أشباههم» فى زيارات وجولات فى هذه الولاية أو تلك. فكتب التسويق ذاتها تقول: أن كل إعلانات الكوكاكولا مهما كانت مثيرة وملحة ومشوقة، تصبح غير ذات فائدة إذا وجدت صرصوراً فى زجاجة.

وكم بالسياسة الأمريكية من صراصير..!

* * *

قبل أسابيع صدر فى مصر كتاب مهم يناقش «صناعة الكراهية فى العلاقات العربية الأمريكية» ولا يبدو د. أحمد يوسف أحمد محرر الكتاب الذى شارك فيه عدد من الكتّاب والأكاديميين العرب مقتنعًا بما يكرره فريدمان من أن العرب يكرهون أمريكا «لأنهم ضد الحداثة». بل يذهب مع المشاركين فى الكتاب إلى أن «السؤال» على النحو الذى طُرِحَ به من قِبَل مفكرين ومحللين أمريكيين ليس صحيحًا، وربما يكون الأصوب طرح السؤال كما يلى: لماذا تكره أمريكا العرب والمسلمين؟!

مزيدٌ من الاستقطاب إذن. تغذيه كل يوم أخبار هنا وتأويلات هناك. وتهديدات وتحذيرات لا تتوقف.. فى أجواء مشحونة بالتربص والقلق.

مزيد من الاستقطاب يُذكّر بكتاب طارق على The Clash of Fundamentalisms وبالفهم العقيم لمقولة أن «الشرق شرق والغرب غرب.. لا يلتقيان».

حتى صفوة المفكرين للأسف فى خطاباتهم الفكرية الرفيعة المتبادلة. بدا أن هاجس العولمة سحرهم. فاجهدوا أنفسهم والمسألة كلها، تنقيبًا فى «ثقافة الآخر». وبَدَوا كأنهم لا يرضون بأقل من تطابق مستحيل، غافلين عن أن التمايز من سنّ الله فى خلقه. وأن التباين «الثقافى» فيه إثراءٌ ولا شك، وأنه لا ضير فى اختلاف بلا إضرار.

مزيد من الاستقطاب.. و«الكراهية» إذن. فرغم الصورة الباسمة لوفد الأفغانيات «حاسرات الرأس» يحطن بجورج دبليو بوش فى المكتب البيضاوى (إعلانا للانتصار على طريقة الـ PR)، ترك «رجل أعمال» تجارته - كما ذكرت النيوزويك قبل أسبوعين - ليلتحق بمعسكر تدريب جهادى متنقل فى حضن أحد جبال أفغانستان الوعرة. حيث يتعلم من مدربه بداية أن «هدفنا قتل الأمريكيين وخدامهم.. لا فرق بين بوش وكرزاى».

مشاعر الكراهية تلك.. تقابلها مشاعر الخوف والفزع هناك. فالتقارير الواردة من واشنطن تحكى كيف أدت كلمات بن لادن الأخيرة «رغم صوته الهادئ الرتيب» إلى حالة من القلق غير المنظور. فمحللو الاستخبارات أعلنوا أن التسجيل حقيقى.. وأنه دليلٌ على أن «الشبح ما زال حياً». ووسط عدد هائل من التسريبات غير الموثقة عن أن الرجل أجرى تجارب ناجحة فى « صناعة واختبار كميات من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، ذكر مكتب التحقيقات الفيدرالى فى إنذار «رسمى» غامض يعكس حالة انهيار الأعصاب أن «رجال القاعدة قد يفضلون الهجمات الاستعراضية المثيرة التى بإمكانها أن تسفر عن أعداد كثيرة من الضحايا ودمار شديد للاقتصاد الأمريكى..» وذكرت الصنداى تايمز أن الإدارة الأمريكية بدأت تتعامل بجدية مع المنجمين وأصحاب قدرات «ما وراء الطبيعة» الاستثنائية للتنبؤ مقدمًا بالهجمات القادمة وللبحث عن «الشبح الغامض»!!

* * *

ما العمل..؟

يعيب السؤال أنه يذكر «لفظا» بفلسفات دارت حولها الحرب الباردة. وربما كان مستفزاً لأمريكيين ما زالوا يتذكرون عدوهم القديم.. ولكن يظل «السؤال» حتمياً. ويعتقد الكثيرون أن الاجابة أيضاً «حتمية».

يبحث الامريكيون عن الأمن.. وهذا حقهم ولا ريب. ويبحث «الآخرون» عن العدل.. وهذا أيضاً حقهم ولا ريب.

ويبدو أنه كما أن السؤال حتمى فالإجابة أيضاً كذلك.

* * *

هل هناك ما يدعو للتفاؤل؟

رغم جوانتنامو.. والـB52 وآلاف الأطنان من القنابل.. و٧٠ مليون دولار لشراء أمراء الحرب.. و٣٥ مليونا للعلاقات العامة، مازال الشبحُ مختفيًا.. ومازال الأمريكيون خائفين. ويبدو أن أسئلةً طرحناها فى هذا المكان عشية الحادى عشر من سبتمبر مازالت تحتفظ بعلامات استفهامها.

السؤال يومها كان: هل يتجاوز الأمريكان - ولو بعد حين - ما حدث، ليراجعوا أنفسهم بحثًا عن الأسباب الكامنة وراء ما حدث؟

هل سيجدون بعد أن تهدأ الجلبة والصراخ والعويل وصيحات الانتقام، من يُذكّرُهم بأن ضحايا قنبلتى هيروشيما ونجازاكى «من المدنيين» أضعاف أضعاف ضحاياهم، وإنهم يومًا ما، بزهو القوة، بطشوا - أو على الأقل بطش سلاحهم وقرارهم وحصارهم ونفوذهم - بأطفال فى العراق، وأبرياء فى ليبيا والسودان، وضحايا «باليومية» فى أزقة الأراضى الفلسطينية المحتلة الفقيرة.

هل سيتذكرون مظاهرات سياتل وجنوا.. ويدركون مغزى اتفاق الجمعيات الأهلية فى دربن - بعيدًا عن حسابات الحكومات والساسة - ضد صلف نفوذهم.

هل هناك ما يدعو للتفاؤل؟

يومها تساءلنا: هل من الممكن أن نَجد تلك القوة العظمى - ذات الآليات الخاصة جدًا لصنع القرار - الشجاعة لأن يعترف بعضهم بأن أسباب ما حدث ربما تكمن فى السياسات الأمريكية ذاتها.

هل سيتبينون، بعد انقشاع الدخان من سماء نيويورك - الملبدة دائمًا بالغيوم و«ناطحات السحاب» - الخيطَ الأبيضَ من الأسود، ليؤذنوا بفجر عالمى جديد. يَعرف فعلاً «العَدل المُطلق» لا شعارًا لحرب لا تعرف أهدافها.. بل عنوانا على زمن جديد.

قلنا يومها أنه ربما يكون صحيحًا تمامًا أن بن لادن بدأ مقاتلاً ضد الشيوعية التى كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولكن يبقى صحيحًا تمامًا أيضًا أن أفكاره نمت وترعرعت وانتشرت بين جيل الإحباط العربى بسبب سياسات التسعينيات الأمريكية، التى لم تخف يومًا انحيازها. ولم تدرك أبدًا «مغترة بصلف القوة وجبروتها» أنها بحاجة إلى هذا التخفى.

والآن نقول إن «محاربة الشبح» الذى تصدرت صورته أغلفة المجلات الأمريكية قبل أسبوعين لن يكون أكثر من حلقة أخرى من مسلسل «صناعة الأسطورة» الذى لعبه الأمريكيون باقتدار - وربما بغباء أيضًا - على مدى العشرين عامًا الماضية.

لقد تبين للجميع صباح الحادى عشر من سبتمبر حقيقة أن عشرة مليارات من الدولارات سنويًا مخصصة لمكافحة الإرهاب لم تمنع ما حدث، وأن الترتيبات الأمنية مهما كانت مُحْكَمَةً. والقوة مهما بلغت سطوتها، لا يمكن أن تحمى مجتمعات صناعية حديثة.

ويبدو أننا فى حاجة إلى تكرار القول بأن الضمان الوحيد لأمنك هو ألا يكون لك أعداء يكرهونك إلى درجة «الانتحار لإيذائك».

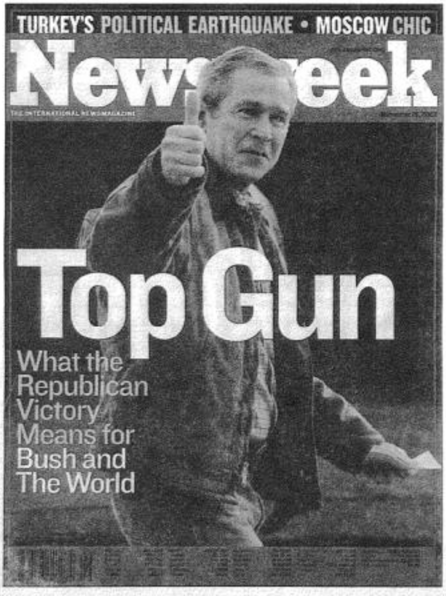
فى عالم له «حاكم واحد».. يبدو أن الوصفة الوحيدة لأمن القوة العظمى «الوحيدة» هى تلك القادمة - ويا للمفارقة - من أعماق تراث المسلمين: «حكمتَ.. فعدلتَ.. فأمنتَ.. فنمتَ يا عمر». ■

«نحن قادة العالم.. ولا يهمنى ما يقوله الآخرون عنا.. أو عنى».

جورج دبليو بوش

ليوب وودوارد

فى كتابه الجديد: «بوش محاربًا»



"آثـــار"

The Meaning of the Dead Sea Scrolls: Their Significance for Understanding the Bible, Judaism, Jesus, and Christianity

(معنى مخطوطات البحر الميت: أهميتهم فى فهم الكتاب المقدس واليهودية والمسيح والمسيحية)

James VanderKam, and Peter Flint

Harper San Francisco, 2002, 480PP., $ 34.95

تم الكشف عن مخطوطات البحر الميت فى كهوف تقع شرق مدينة القدس فى الفترة ما بين ١٩٤٧ و١٩٥٦. وقد أثارت هذه اللفائف جدلاً عنيفًا حول طبيعة كل من اليهودية والمسيحية، فهى تضم أقدم مخطوطات الكتاب المقدس. كما تكشف عن الأشكال المتنوعة من اليهودية التى كانت سائدة فى عهد المسيح وبداية ظهور المسيحية.

يأتى هذا الكتاب متزامنًا مع قرب الانتهاء من نقل وترجمة مخطوطات، لكى يقدم القصة بتفاصيلها منذ اكتشاف اللفائف والملابسات التى أحاطت بهذه العملية، إلى محتوى هذه اللفائف وعلاقته بالكتاب المقدس العبرى والعهد الجديد، وما قد تثيره هذه اللفائف من خلافات.

"اجتماع"

لغة الشارع كدراسة للشخصية المصرية فى الأمثال الشعبية

عزة عزت

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢

تعتبر المؤلفة أن لغة الحياة اليومية هى خريطة نفسية واضحة المعالم تهدى الدارس لتفاصيل التحولات فى المجتمع، المؤلفة تتابع هذه التحولات من خلال الأمثال الشعبية بما تنطوى عليه من عبقرية تلقائية وحكمة بالغة وتعبير صادق عن الشخصية الجمعية.

"إعلام"

حرب المصطلحات

تحرير: أحمد عبد الرحيم

تقديم: صلاح الدين حافظ

القاهرة: اتحاد الصحفيين العرب، ٢٠٠٢

لم تكتف إسرائيل بحرب الإبادة التى تشنها ضد الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة، وإنما تشن حرب مصطلحات بهدف قلب المفاهيم وإيجاد مناخ من البلبلة وتزوير الحقائق وتزييف التاريخ وتلبيس الحق بالباطل، ودس المصطلحات الإسرائيلية المشوهة فى لغتنا بدهاء شديد، وقد ابتلع كثيرون فى مجال الإعلام الطعم فاستخدموا المصطلحات الإسرائيلية بما يخدم الأهداف الصهيونية دون إدراك من هؤلاء لخطورة المسالة.

هذا الكتاب الذى شارك فيه نخبة من الكتاب والمختصين فى الصهيونية يفضح هذه الممارسات ويكشف عن عشرات المصطلحات الإسرائيلية المدسوسة من هذا النوع.

"اقتصاد"

بورصات الأوراق المالية

صلاح الدين السيسى

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٢

يقدم المؤلف الخريطة الصحيحة للتعامل مع البورصات، وكيفية تجنب الهبوط المفاجئ والأزمات التى تواجه البورصات وتاثيراتها على حركة الأسواق والنقد فى العالم كله، وإلى جانب النصائح التى يقدمها المؤلف لإنعاش البورصات وتصحيح أوضاعها، يسرد تاريخ البورصات ودورها فى الاقتصاد العالمى.

"بيئة"

البيئة وقضايا التنمية والتصنيع

أسامة الخولى

القاهرة: عالم المعرفة، ٢٠٠٢

احتلت مشكلات البيئة فى السنوات الأخيرة أهمية متزايدة وتصاعدت مخاطرها على العالم كله مع التغيرات المناخية التى تهدد الأخضر واليابس، وأثرت التنمية الصناعية على البيئة بدرجة لافتة، المؤلف يطرح المشكلة ويقترح حلولاً يتصل أكثرها ببيئة المجتمع الدولى والدول الصناعية وخصوصًا الولايات المتحدة الأمريكية التى اتخذت مواقف سلبية دائمًا من كافة مؤتمرات البيئة.

■■■

State of the World 2002

(حالة العالم ٢٠٠٢)

Worldwatch Institute (editor)

WW. Norton & Co, 2002, 256PP. $ 15.95

تقرير شامل عن حالة البيئة على كوكب الأرض فى عام ٢٠٠٢، يصف فيه الفريق البحثى التابع لمعهد وورلد واتش المشاكل البيئية التى يواجهها العالم وأفضل السبل لحلها. يهتم المعهد الذى يقع فى واشنطن بإعادة التوازن بين الزيادة السكانية فى العالم والمعدلات المتزايدة من الاستهلاك، ومنظومة الطبيعة التى تعتمد عليها الحياة على الأرض.

"تاريخ"

Cursed Is the Peacemaker: The American Diplomat Versus The Israeli General, Beirut 1982

(صانع السلام ملعون: الدبلوماسى الأمريكى ضد الجنرال الإسرائيلى، بيروت ١٩٨٢)

John Boykin

Applegate Press, 2002, 488PP, $ 29.95

دراسة تفصيلية لجهود السفير الأمريكى فيليب حبيب فى وقف الاحتلال الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢، ورفع الحصار الإسرائيلى عن بيروت وتأمين خروج ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. يضع المؤلف الأحداث فى إطار مواجهة بين دبلوماسى أمريكى مضطر للعمل فى ظل مساندة ضعيفة ومشوشة من واشنطن، والجنرال الإسرائيلى آريل شارون، الذى خدع حكومته نفسها متجاوزًا الأوامر الصادرة إليه بسبب طموحه العسكرى وطبيعته العنيفة.

■■■

A History of Iraq (2 nd Edition)

(تاريخ العراق ط٢)

Charles Tripp

Cambridge UP, 2002, 346P, $ 20.00

استجابة للأحداث الجارية قام تشارلز تريب المحاضر فى قسم العلوم السياسية بجامعة لندن بتحديث كتابه عن تاريخ العراق ليضم ما حدث من تطورات حتى منتصف العام الحالى.

الكتاب يتتبع تاريخ العراق منذ القرن التاسع عشر أثناء الحكم العثمانى، مرورًا بإنشاء الدولة والتحول من النظام الملكى إلى النظام الجمهورى، وصعود حزب البعث وبروز صدام حسين.

■■■

The Two O'Clock War

(حرب الساعة الثانية)

Walter Boyne

Thomas Dunne Books, 2002, 320PP., $ 25.95

رواية تفصيلية لحرب أكتوبر والمعارك العسكرية والدبلوماسية التى اشتملت عليها فصولها. للمؤلف والتر بوين وهو كولونيل سابق فى القوات الجوية الأمريكية ومدير متحف الفضاء فى الولايات المتحدة. يؤكد الكتاب على الهزيمة العسكرية الإسرائيلية فى بداية الحرب، وامتياز خطة الهجوم المصرى/السورى المفاجئ، ودقة تنفيذه. كذلك يرى المؤلف أنه لولا التدخل الأمريكى العسكرى بالجسر الجوى لكانت اختفت إسرائيل ونشبت حرب نووية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

"تعليم"

الإنترنت فى التعليم

زكريا يحيى لال

مكة المكرمة: المؤلف، ٢٠٠٢

اقتحم الكمبيوتر مجال التعليم بصورة غير مسبوقة تتوافق مع مقتضيات العصر، فقد صار الإنترنت بما يقدمه من تسهيلات معلوماتية مما لا يمكن التغاضى عن أهميته فى الارتقاء بمستوى التعليم والخريجين وربطهم بعلوم العصر وتقنياته.

■■■

تهيئة الطفل للقراءة برياض الأطفال

فهيم مصطفى

القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٢

حلول عملية يقدمها الكتاب لتنمية مهارات القراءة وتدريب الأطفال عليها فى هذه المرحلة من عمرهم، والتى تسبق الانتظام فى الدراسة، وتشرح كيف يمكن أن ننمى الوعى المعرفى للأطفال لمساعدتهم على اكتشاف طرائق حياتهم وتحديد اختياراتهم.

"حقوق الإنسان"

حقوق الإنسان العربى

أحمد الرشيدى - عدنان السيد حسن

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

مازال الوطن العربى يتنازل طوعًا أو كرهًا عن العديد من حقوقه المدنية والدستورية تحت ذرائع مختلفة، كما أن حقوق الإنسان ليست شعارات غربية، بل هى قيم مترسخة فى تراثنا القديم، وفى هذه الحوارية، يقدم لنا مفكران عربيان متخصصان فى القانون والسياسة، جدلاً متميزًا حول هذه المسالة ضمن سلسلة حوارات لقرن جديد التى تبنتها دار الفكر وصدرت منها كتب عديدة فى موضوعات شتى.

■■■

Like Water on Stone: The Story of Amnesty International

(كالماء على الحجر: قصة منظمة العفو الدولية)

Jonathan Power

Sir Paul Mc Carthey (Foreword)

Penguin Books, 2002, 352PP, £ 8.99 (pb)

فى العام الماضى احتفلت منظمة العفو الدولية بمرور أربعين عاماً على إنشائها، وبهذه المناسبة قام الصحفى جوناثان جاور ببحث تاريخ هذه المنظمة غير الحكومية التى أصبحت من أكثر منظمات حقوق الإنسان نفوذًا واحترامًا فى العالم. أنشأ منظمة العفو الدولية محام شاب يدعى بيتر بيرنسون فى لندن عام ١٩٦١ عندما قرأ عن حبس طالب برتغالى لمناداته بالحرية، وتعبر الشمعة التى تتخذها المنظمة شعارًا عن مثل قديم يقول: «من الأفضل أن تشعل شمعة بدلا من أن تلعن الظلام».

"دين"

مواقف من حياة الصحابة

على أحمد الخطيب

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

هذا هو الجزء الخامس من الكتاب الذى يحمل العنوان ذاته ويتضمن سيرًا لأربعة عشر صحابيًا هم عكاشة بن محصن وقتادة ابن النعمان وعبادة بن الصامت وسماك بن خرشة وأنس بن النضر وعتبة بن فرقد وثوبان بن بجدد وخراش بن أمية وعتبة بن أبى لهب وجبار بن صخر وعمرو بن شاس وبسبس الأنصارى وقثم بن العباس وعروة بن نفاثة.

■■■

قــــــــراءات جــــــــديدة

Abraham: A Journey to the Heart of Three Faiths

(إبراهيم: رحلة فى قلب ثلاث ديانات)

Bruce S. Feiler

William Morrow & Co, 2002, 240PP, $ 23.95

حرص الناشر على أن يصدر هذا الكتاب مواكبًا لذكرى مرور عام على أحداث ١١ سبتمبر، فمؤلفه سعى أن يقدم عملاً يذكر أصحاب الديانات السماوية الثلاث برمز يجمعهم ويوحدهم فى ظل الصراعات القائمة بينهم مؤخرًا، فاختار أن يقدم قصة «أبو الأنبياء» سيدنا إبراهيم. يتناول الجزء الأول من الكتاب ما ورد عن سيدنا إبراهيم فى كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم، خاصة دعوته لعبادة إله واحد، وقصة أولاده إسماعيل وإسحق. ومن اللافت أن المؤلف ـ وهو يهودى أمريكى من الجنوب ـ ذكر كيف استعار أصحاب كل ديانة من الديانات الأخرى القصص الواردة فيها عن سيدنا إبراهيم. فقد ظهر فى القرن الثامن فى الكتابات اليهودية استعارات من التراث الإسلامى تتعلق بسيرة سيدنا إبراهيم.

فى الجزء الثانى من الكتاب يتعرض المؤلف للفهم الحاضر لسيدنا إبراهيم وما يعنيه بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين المعاصرين، فيلجأ للقاءات حيّة ومقابلات مع الدارسين والعلماء من عدة مدن فى الشرق الأوسط. وفى النهاية يدعو المؤلف أتباع وورثة سيدنا إبراهيم حول العالم إلى الحوار من أجل إحلال السلام والقضاء على الصراعات.

رحــــلات

Among Muslims: Meetings at the Frontiers of Pakistan

(بين المسلمين: لقاءات على حدود باكستان)

Kathleen Jamie

Sort of Books, 2002, 224PP, £ 6.99

تشتهر كاثلين جايمى فى المملكة المتحدة باعتبارها شاعرة متميزة من سكوتلاندا، وفى أوائل التسعينيات قامت الشاعرة برحلة فى المناطق الشمالية من باكستان فعاشت واختلطت مدة طويلة بالمسلمين الشيعة والإسماعيلية هناك، وتأثرت بطقوسهم واحتفالاتهم الدينية العاطفية التى ذكرتها بمسيرات جماعات «أورانج مين» فى شوارع جلاسكو. كتبت كاثلين جايمى عن رحلتها فى هذا الكتاب الذى صدر منذ سنوات، ولكن بعد أحداث ١١ سبتمبر والحرب فى أفغانستان قام مجموعة من الشباب الباكستانى بعمل مسيرة سلمية حول منزلها، فعادت جايمى إلى باكستان فى زيارة قصيرة لتضيف فصلا أخيرا لكتابها الذى أعيد نشره مرة أخرى منذ شهرين.

روايات وقصص

السيد ستون ورفقة الفرسان

ف. س نايبول

ترجمة: ياسر شعبان

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

رواية لحائز جائزة نوبل فى الآداب العام الماضى عن السيد ستون، وهى تنقسم لفترتين: الأولى قضاها بين عمله وحديقة منزله فى وحدة وعزلة، والثانية مع زوجته الأرملة التى تعرف عليها فى حفلة الكريسماس.

■■■

انتحالات عائلية

عبد الهادى سعدون

عمان: دار أزمنة، ٢٠٠٢

قصص قصيرة تجوب مناطق عدة من النفس الإنسانية، وتلتقط مشاهد من الحياة اليومية وتعيد صياغتها فنيًا، بينها: طيران بالمقلوب وحراكه وحنين ومخبرو أجاثا كريستى ومصارعات ثيران والعنعنة.

■■■

وفاء إدريس وقصص أخرى

محمد سلماوى

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية جديدة تستلهم تضحيات المناضلين فى فلسطين المحتلة، وكفاحهم من أجل الحرية والاستقلال، وإلى جانب الشهيدة وفاء إدريس، لا تغفل المجموعة شهداء آخرين منهم محمد الدتو وراجى وغيرهم.

■■■

Adelle: Jane Eyres Hidden Story

(آديل: قصة جين إير المحجوبة)

Emma Tennant

Harper Collins, 2002, 240PP., $ 25.00

تبنى المؤلفة روايتها حول شخصية ظهرت فى رواية أخرى، هى رواية «جين إير» الكلاسيكية للكاتبة الإنجليزية تشارلوت برونتى. أما الشخصية فهى شخصية الطفلة آديل التى أنقذها أبوها أو عشيق أمها «روتشستر» من الحياة المستهترة لأمها الممثلة الفرنسية المشهورة. فالشخصية التى كانت هامشية فى الرواية الأولى هى مركز هذه الرواية وتدور الأحداث من خلالها كما تستمر أحداث جديدة مع تحولها من طفلة صغيرة إلى امرأة شابة تبحث عن والدتها فى باريس وتتعرض لعذابات متنوعة.

سـيـاسـة

الحركات الإسلامية

حسن حنفى وآخرون

أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث، ٢٠٠٢

يتناول الكتاب الحركات الإسلامية المعاصرة، من أين انبثقت وما هى الأيديولوجيات التى تحكمها والمرجعيات التى تستند إليها وخصوصًا أن بعضها لا ينسجم مع بعضها الآخر رغم الادعاء بالمرجعية الواحدة.

كيف نشأت هذه الحركات وما أهدافها، وكيف يمكن ترشيد أدائها، هذا بعض ما يناقشه المشاركون فى هذا الكتاب.

■■■

العراق وأسلحة الدمار الشامل

أحمد إبراهيم محمود

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢

تتناول الدراسة الإطار التاريخى والاستراتيجى لنشأة وتطور وأهداف برامج الأسلحة العراقية وبرامج العراق النووية وأنماط أسلحته الكيماوية والبيولوجية والصاروخية وحدود فاعليتها فى حرب الخليج، ثم الإجراءات التى اتخذتها الولايات المتحدة الأمريكية والأمم المتحدة لنزع أسلحة الدمار الشامل العراقية بعد حرب الخليج الثانية وعمليات الشد والجذب بين لجان التفتيش والعراق حتى وصلت الأمور إلى ما آلت إليه الآن.

■■■

الموقف اليهودى من الإسراء والمعراج وانعكاساته على المسجد الأقصى

زاهية راغب الديجانى

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

دراسة جديدة تضاف إلى سابقاتها تؤكد على عروبة القدس وقدسية المسجد الأقصى وما حوله من أرض مباركة، وتحلل المؤلفة ظاهرة الإسراء والمعراج والموقف اليهودى المشكك فيها كى ينفى عن القدس عروبتها، كما تعرض لأهم النكبات التى تعرضت لها هذه البقعة المقدسة مثل الحملات الصليبية وغيرها.

■■■

رهان المليون السابع

كارم يحيى

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٢

يسعى الكتاب إلى الإجابة عن أسئلة مهمة من نوع: من أين ستأتى إسرائيل بمليون مهاجر جديد حتى عام ٢٠٢٠؟ ولماذا وكيف، وهل مازال يهود العالم مستعدين للهجرة إلى إسرائيل برغم الحالة الأمنية المتردية والتى تتفاقم يومًا بعد آخر بسبب السياسات الإسرائيلية الخرقاء، المؤلف يؤكد على أهمية البعد الديموجرافى فى الصراع العربى الإسرائيلى وهو ما تنتبه إليه إسرائيل جيدًا وتبذل جهدها للتفوق فيه.

■■■

عروبة إريتريا

محمد عثمان على خير

دمشق: دار الجليل، ٢٠٠٢

دراسة تاريخية للمجتمع الإريترى منذ القدم وحتى اليوم، والمؤلف يتابع الدور التاريخى الذى لعبته إريتريا لمساندة الدعوة الإسلامية فى مهدها فى هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة وكذلك مساندتهم للدعوة فى زمن الصحابة، ويعرض للموقف من عروبة إريتريا لدى المؤيدين والرافضين وحججهم السياسية وغيرها.

■■■

Bush at War

(بوش فى الحرب)

Bob Woodward

Simon & Schuster, 2002, 400PP, $ 28.00

فى هذا الكتاب يقدم بوب وودوارد، الصحفى الذى اشتهر بالكشف عن فضيحة واترجيت، قصة الشهور الأولى من تولى جورج بوش الابن رئاسة الولايات المتحدة وخاصة إدارته لأزمة ١١ سبتمبر والحرب التى لحقتها. اعتمد وودوارد على لقاءات شخصية مطولة مع المسئولين فى الإدارة الأمريكية، من بينها أربع ساعات مع الرئيس بوش واقتباسات مباشرة من أعضاء مجلس الأمن القومى الأمريكى قدرها خمسة عشر ألف كلمة.

يكشف الكتاب عن الخلافات داخل الإدارة، خاصة الخلاف المستمر بين كولين باول من جانب وديك تشينى ودونالد رامسفيلد من الجانب الآخر. كما يؤكد الكتاب أن هزيمة قوات طالبان لا ترجع سوى للسبعين مليون دولار التى دفعتها الـ CIA نقدًا فى أرض المعركة لكسب تأييد المحاربين الأفغان.

سير ومذكرات

منيرة المهدية.. السلطانة

رتيبة الحفنى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

مثّلت منيرة المهدية عهدًا من عهود الفن الأصيل، لقبت بسلطانة الطرب وحققت مجدًا لم يحققه نجم فى عالم الغناء من قبل حيث تربعت على عرش الغناء أكثر من ثلاثين عامًا وانتشرت أغانيها فى ربوع الوطن العربى من المحيط إلى الخليج، وعبر مسرحها تزعمت حركة وطنية وناضلت لتحرير المرأة، وفى بيتها التقى مفكرون وساسة وأدباء حتى أن الصحافة أطلقت على مسرحها هواء الحرية.

■■■

Martha Inc: The Incredible Story of Martha Stewart Living Omnimedia

(قصة نجاح مارثا ستيوارت)

Christopher Byron

Wiley, John & Sons, 2002, 416PP, $ 27.95

تمتلك مارثا ستيوارت الآن ثروة شخصية تقدر باثنين مليار دولار، وأصبحت تتولى رئاسة مجلس إدارة مؤسسة تحمل اسمها. هذا الكتاب يروى قصتها منذ أن ولدت فى أسرة فقيرة فى نيوجيرسى، إلى أن صعدت سلم الشهرة والمال من خلال برنامجها التليفزيونى الذى يقدم نصائح منزلية لربات البيوت عن كيفية إعداد الطعام والعناية بالمنزل.

طـــب

طريقك إلى الشفاء.. الأعشاب، العطور، الغذاء

عز الدين الدنشارى
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢

يعنى الطب البديل العودة للطبيعة للوقاية والعلاج من الأمراض بعيدًا عن الأدوية المصنعة وآثارها الجانبية. العلاج العشبى والعطرى يتم استخدامه الآن بكثرة لتقوية جهاز المناعة وعلاج الزهايمر. وهناك أعشاب أخرى كثيرة استخدمها الأقدمون ومازالت فاعلة لعلاج أمراض الكبد والروماتيزم وغيرها. هذا الكتاب يعد موسوعة مبسطة فى هذا المجال.

■■■

Chiropractor's Self help Back & Body Book: How you can Relieve Common Aches and Pains at Home and on the Job

(دليلك الخاص لآلام الظهر والجسم: كيف تتخلص من الآلام والأوجاع الشائعة فى المنزل وفى العمل)

Samuel Hamola
Hunter House, 2002, 320PP, $ 17.95

دليل لمساعدة الأشخاص الذين يعانون من الآلام المزمنة فى المناطق المختلفة من الجسد للتغلب عليها ومعالجتها معتمدين على أنفسهم، ودون اللجوء لطبيب. يركز الدليل على الآلام الشائعة التى يشكو منها الناس فى مناطق الرأس والظهر والرقبة والكتف والسيقان والأذرع.

** علـــوم **

The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature

(الصفحة البيضاء: الإنكار الحديث للطبيعة البشرية)

Steven Pinker
Viking Press, 2002, 528PP, $ 27.95

يعمل ستيفن بنكر أستاذًا لعلم النفس بقسم العلوم المعرفية فى معهد ماستشوستس للتكنولوجيا، وهو من أبرز العلماء فى مجال أبحاث المخ وعلاقته باللغة. فى هذا الكتاب يتصدى ستيفن بنكر للجدل العلمى حول الطبيعة البشرية، وما يتبعه من مدلولات أخلاقية وسياسية. فهو يعارض الرأى القائل بأن الطفل يولد بمخ يشبه الصفحة البيضاء وبالتالى تتحدد شخصيته حسب الظروف الخارجية التى يتعرض لها فى حياته، كما أن روح الإنسان هى التى تتحكم فى خياراته بشكل منفصل عن خصائصه البيولوجية. فعلى العكس، يرى بنكر أن العلوم البيولوجية الحديثة تثبت أن الإنسان يولد بشفرة جينية محددة مسبقًا داخل مخه تحتوى على سماته الشخصية المميزة، محاولاً توضيح أن هذا لا يعنى بالضرورة غياب المسئولية الفردية وتكريس عدم المساواة بين الأنواع والأجناس.

■■■

The Definitive Guide to the Evolutionary Biology of Sex

(الدليل الشامل للجنس من مدخل الأحياء التطورية)

Olivia Judson
Henry Holte & Co, 2002, 308PP, $ 24.00

استعراض لغرائب الجنس عند مختلف أنواع الكائنات الحية؛ من الحشرات والحيوانات الثديية إلى الزواحف والأسماك والكائنات الخلوية. الكتاب يجمع بين المعرفة العلمية بخصائص الجماع عند الكائنات المختلفة والأسلوب الساخر الذى يقارنها بالمعايير البشرية السائدة.

** عمـــارة **

أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة

عاصم محمد رزق
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢

أكثر من ستمائة أثر تتنوع مستوياتها ووظائفها ما بين قصور ومنازل وكتاتيب وقلاع وأسوار وبوابات ووكالات وخانات يتناولها الكتاب، كما يتناول التأثير المتبادل بين فنون العمارة المختلفة قبطية وإسلامية، وتداخل الخطوط بينها لتفرز فى النهاية هذا الفن المصرى البديع.

■■■

Gardens, Landscapes, and Vision in the Palaces of Islamic Spain

(الحدائق والمناظر الطبيعية والرؤية فى قصور أسبانيا الإسلامية)

Fairchild Ruggles
Pennsylvania State UP, 2002, 264PP., $ 29.95

تقدم المؤلفة رؤية جديدة لفهم دلالة تاريخ الحدائق فى أسبانيا أثناء الحكم الإسلامى، حيث إن الرؤية التقليدية ترجع شكل الحديقة الإسلامية إلى محاولة المسلمين بناء ما يشبه الجنة التى وصفها القرآن. أما هذا الكتاب فيثبت أن حدائق القصور كانت أساسًا منشآت بيئية واقتصادية وسياسية، وأن رمزية الجنة لم تؤثر عليها إلا بعد أن أصبحت هذه الحدائق تضم قبورًا لملاكها.

** فنـــون **

أزياء الاستعراض فى السينما المصرية

مها فاروق
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

بانوراما تاريخية لفن الاستعراض فى الحضارات القديمة وحتى اليوم، وتتتبع المؤلفة المراحل المختلفة لتطور هذا الفن ونجومه ونجماته، نعيمة عاكف وسعاد حسنى وسامية جمال ومحمود شكوكو وغيرهم، وكذلك أهم المخرجين فى هذا المجال. كما تستعرض العلاقة بين الشخصية واختيارها للزى وكيف يمزج المصمم كافة العناصر المؤثرة من لون وإضاءة وماكياج لصناعة الاستعراض.

■■■

المسرح الهندى

نيميشا ندراجين
ترجمة: مصطفى سويف، منى أبو سنة
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

للسينما الهندية شهرتها فى العالم كله وإن على صعيد تجارى، أما المسرح الهندى فليس معروفًا على أى مستوى، المؤلف يرصد تاريخ المسرح الهندى باحثًا عن قضاياه وتوجهاته الثقافية والفنية ومفندًا ما يشاع عن أن هذا المسرح مأخوذ عن الغرب فى مجمله.

■■■

The (New York Times) Book of Broadway

(كتاب «نيويورك تايمز» عن برودواى)

Ben Brantley
St. Martins Press, 2002, 272PP., £ 25.00

قائمة أعدها الناقد بن برانتلى بأهم مائة مسرحية قدمتها مسارح برودواى خلال القرن العشرين إلى جانب أهم المسرحيات التى قدمتها مسارح أخرى خارج برودواى أو Off Broadway.

يقدم الكتاب هذه المسرحيات من خلال العروض التى كتبت عن هذه المسرحيات بعد ليالى العرض الأولى وغيرها من المقالات النقدية المنشورة فى أعداد صحيفة النيويورك تايمز.

■■■

London's Theatres

(مسارح لندن)

Mike Kilburn, Alberto Arzoz
New Holland pub., 2002, 160PP, £ 24.99

مسح شامل يقدمه هذا الكتاب المصور لما يزيد على خمسين مسرحًا من أشهر مسارح مدينة لندن. يتناول تاريخ إنشاء كل مسرح وتطور دوره المسرحى والفنى عبر العصور، إلى جانب العديد من الصور الفوتوغرافية التى تنقل أهم سماته المعمارية.

** قضايا المرأة **

حدائق النساء

فريدة النقاش
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٢

تقتحم المؤلفة مشكلات المرأة العربية التى تعانيها منذ عشرات السنين كجزء من حالة الاضطهاد والاستغلال والتمييز والقهر التى يعانيها المواطن العربى، ويعد الاقتراب من مشكلة المرأة بأوجهها اقترابًا من الهم العربى كله ومحاولة لاستكناه جوهره.

■■■

مدخل إلى قضية المرأة فى سطور وصور

هدى الصده (محررة)
القاهرة: ملتقى المرأة والذاكرة، ٢٠٠٢، ٢٧٧ صفحة

إضافة مبتكرة للأدبيات النسوية فى مصر، تقدم للقارئ العادى فكرة مبسطة عن أهم القضايا والحقوق التى تدافع عنها المرأة، والحجج الرئيسية التى تدفع بها فى الجدل الدائر حول التمييز أو التحامل الواقع ضدها فى المجتمع المصرى.

يعتمد الكتاب على الرسوم والكاريكاتير بشكل رئيسى فى تقديم أفكاره التى تشمل أيضًا تاريخ الحركة النسوية فى مصر.

■■■

Desiring Revolution

(الرغبة فى ثورة)

Jane F. Gerhard
Columbia University Press, 2002, 192P, $ 13.99(Pb)

تعمل المؤلفة محاضرة فى التاريخ والأدب بجامعة هارفارد.وهى فى هذا الكتاب تقوم بتحليل قضية الجنس فى الموجات الثلاث للحركة النسوية فى الغرب، خاصة نسويات الموجة الثانية التى ظهرت فى السبعينيات وأفرزت ما سمى بالثورة الجنسية. ثم تحلل المؤلفة الانقسام الموجود حاليًا بين النسويات المعاصرات، حيث يعارض فريق مهن العرى وتصوير الجنس بينما يعارض الفريق الآخر أى رقابة على البورنوغرافى.

** مراجـــع **

The Guardian Media Guide 2000

(الدليل الإعلامى لعام ٢٠٠٠)

Guardian Books
Atlantic Books, 2002, 453PP, £ 15.00

للعام العاشر على التوالى تصدر جريدة الجارديان البريطانية دليلها الإعلامى والذى يحتوى على عناوين وأرقام ومواقع الإنترنت للشركات العاملة فى كل الحقول الإعلامية فى بريطانيا، بالإضافة إلى قسم خاص بالمصادر الخارجية والتى تشمل الجهات الناشطة فى الاتحاد الأوروبى. تشمل هذه الشركات المجلات والصحف ومحطات التليفزيون بالإضافة إلى مراكز الدراسات ومعاهد التدريب الإعلامى.. إلخ.

** نقـــد **

أفق آخر.. آراء ومتابعات فى الشأن الثقافى الليبى

محمد الفقيه صالح
ليبيا: سلسلة منشورات المؤتمر، ٢٠٠٢

تفتقر ليبيا إلى منابر ثقافية وصحافية تعكس ما يموج بها من تيارات أدبية ونقدية. المؤلف يبدى آراءً فى الشأن الثقافى الليبى إبداعًا ونقدًا من خلال هذه المتابعات.

■■■

تلطيف المزاج من شعر ابن حجاج

نجم عبد الله مصطفى
تونس: دار المعارف، ٢٠٠٢

مختارات شعرية من إبداع الشاعر المصرى عبد الله بن الحجاج، تلخص أهم الموضوعات التى تناولها والقضايا التى اهتم بها. ومدى تعبير هذه القصائد عن عصرها وانعكاس عصرها عليها.

عـــروض موجـــزة

كتب عربيـــة

العرب فى مواجهة العدوان
طارق البشرى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ١٢٠ صفحة



ما وجه الشبه بين مايحدث اليوم فى فلسطين، وما جرى هناك قبل أربعة وخمسين عامًا، أى فى عام ١٩٤٨؟

المؤلف يرى أن العرب اليوم فى موقف شبيه بهزيمتهم الأولى قبل أكثر من نصف قرن وتتحمل الأنظمة وسياسات الحكم العربية مأساة ضياع فلسطين بأكثر مما يحملها للشعب الفلسطينى ذاته، وعليه فإن هذه الأنظمة مسئولة أخلاقيًا وتاريخيًا عن استرداد فلسطين واسترجاعها من أيدى الصهاينة، وهذا لن يتأتى - الآن على الأقل - بالحرب التى لا تقوى عليها الأنظمة، كما أنه لن يتأتى عبر الشرعية الدولية ممثلة فى الأمم المتحدة، فقد صارت هى ذاتها فى جيب الولايات المتحدة، والبديل الذى يطرحه المؤلف هو الصراع السلمى، بل ما يعنيه من مقاطعة تجارية واقتصادية ودبلوماسية، وإلى هذا يشير المؤلف فى مقالة أخرى إلى المشكل الذى أثارته الانتفاضة الفلسطينية الباسلة أكثر من أى حدث آخر هو العلاقة بين الدول والشعوب، إذ فيما تبدو المواقف الرسمية عاجزة ومحاصرة، يأتى الموقف الشعبى معبرًا عن صلابة وفهم واع لطبيعة الصراع، ويتساءل المستشار البشرى: إلى أى مدى صارت قوة الدولة المركزية الحديثة عندنا مما يضعف قوة الأمة وفاعليتها، وكيف يمكن فك هذا التلازم بين قوة الدولة وضعف الأمة؟

الحديث عن الصراع العربى الإسرائيلى يستدعى بالضرورة الولايات المتحدة الأمريكية وما جرى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وما تلاه من قصف وتدمير وحشى لأفغانستان، وما ينتظر العراق بصرف النظر عن موقف المجتمع الدولى. ويتضمن الكتاب قراءة على هوامش الحدث الأفغانى ودراسة فى ضوابط العنف السياسى، ويشير إلى ما آل إليه الصراع اليوم فى عالم غابت فيه الشرعية تمامًا.. «وصارت القوة المادية المعتدية تواجه بقوة الصدور العارية وبروح الشهادة وصارت الدنيا تواجه بالآخرة».

ويبشر المؤلف عبر تحليله التاريخى العميق بأن «هذا التجبر والقهر والشراسة كانت فى الغالب من ملامح نهاية العصور ومن مظاهر الانحدار الأول بالنسبة للدول العدوانية».

□ □ □

تأميم شركة قناة السويس
دراسة فى عملية اتخاذ القرار
محمد السيد سليم
القاهرة: ٢٠٠٢، ٢٦٧ صفحة



عبر تسعة فصول يتناول المؤلف قرار تأميم شركة قناة السويس الذى اتخذه الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، والذى يرى المؤلف أنه نموذج للقرارات التى اتخذت فى بيئة تتضمن قدرًا كبيرًا من عدم اليقين.. «فضلاً عن أنه أدى إلى تغيير جوهرى فى المسرح الاستراتيجى الإقليمى والعالمى».

وهو يبدأ بفصل تمهيدى عن اتخاذ القرار فى مجال السياسة الخارجية، ثم يبحث فى علاقة مصر بشركة قناة السويس ثم علاقة الثورة المصرية بها، ويخصص الفصل الثالث للإجابة عن السؤال المهم: هل كان قرار التأميم ضروريًا آنذاك، أم كان يتعين الانتظار حتى عام ١٩٦٨، وهى السنة التى ينتهى فيها امتياز شركة قناة السويس ويناقش بعد ذلك عملية اتخاذ القرار واستراتيجية حمايته ونتائجه، قبل أن يعرض لعدد من الملاحق المصرية والأجنبية والمذكرات المتبادلة ووثائق ذات صلة بشركة قناة السويس.

والخلاصة التى يقدمها المؤلف هى تأكيده على أن تأميم شركة قناة السويس لم يكن رد فعل لسحب عرض تمويل السد العالى، إذ أن التأميم كان يجرى التحضير له منذ عام ١٩٥٢، وأن عبدالناصر كان قد قرر بالفعل تأميم الشركة عام ١٩٦٠، لكن سحب عرض تمويل السد كان المناسبة التى عجلت باتخاذ القرار.

ويشير المؤلف إلى الدور المهم الذى لعبته «السرية» فى اتخاذ قرار التأميم، حيث لم تكن القوى الغربية تتوقعه مما ساعد على نجاحه وعدم قدرتها إعاقته، والمؤلف إذ يثنى على سرية اتخاذ قرار التأميم، فإنه يؤكد من ناحية ثانية على أهمية الرقابة الاجتماعية على عملية صنع السياسات العامة ومناقشتها على نطاق واسع وإتاحة المعلومات التى تعطى جدوى لعملية المناقشة، لكنه يؤكد أيضًا على أهمية ترك مساحة من حرية الحركة لمتخذ القرار، خصوصًا فى الحالات التى تلعب فيها المفاجأة دورًا رئيسيًا فى نجاح تنفيذ القرار.

على الجانب الآخر، يشير المؤلف إلى أن الخطأ الرئيسى هو أن عبدالناصر لم يضع فى حسبانه احتمال الرد العسكرى الغربى السريع، وكان رده أن مصالح بريطانيا فى الوطن العربى ستمنعها من التواطؤ مع إسرائيل.

ويرى المؤلف أن عبدالناصر قلل من شأن البدائل التى لا تتسق مع عقيدته السياسية ومنها فرض حراسة قانونية على شركة قناة السويس.. «رغم أن هذا البديل كان أقل البدائل من ناحية المخاطرة السياسية مع تحقيق الهدف ذاته» كما أن إخراج قرار التأميم بالصورة التى تم عليها أدى إلى تصعيد لم يكن عبدالناصر يتوقعه. وأخيرًا فإن الردع الذى قدمه عبدالناصر لمواجهة احتمالات الرد الغربى كان لفظيًا وفاقدًا مصداقيته، وهو ما يشير إليه المؤلف فى تحليله لاستراتيجية حماية القرار.

□ □ □

الإنسان والحضارة
عبد الوهاب المسيرى
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ٣٩١ صفحة



تقوم دراسات الكتاب على استخدام منهج تحليلى يعمد إلى النماذج المركبة فى تفسير الظواهر الإنسانية، أى الإحاطة بجوانب الظاهرة عبر عدة عناصر متشابكة معًا، سياسية واجتماعية واقتصادية وحضارية ومعرفية.

وينطلق المؤلف من فرضية أساسية هى أن ثمة فارقًا جوهريًا بين عالم الإنسان المركب وعالم الطبيعة، فالإنسان موجود فى الطبيعة لكنه بخصائصه الفريدة، قادر على تجاوز قوانينها الحتمية.

وفى هذا الإطار يدرس المؤلف الظاهرة الصهيونية، ويميز بين أشكال عدة من الخطاب فى التعاطى معها، وبينها الخطاب العملى (الدعائى التعبوى) والذى يهدف إلى تعبئة الجماهير دون اكتراث بالتفسير، وتحت هذا النوع من الخطاب يندرج الخطاب التآمرى الذى يشيع عن اليهود فكرة التآمرية، ويختزلهم جميعًا فى قوالب جاهزة تحيل أفعالهم الشريرة إلى مخطط رهيب وضعه حاخاماتهم لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس، وهذا الخطاب يجعل من اليهود محركًا أساسيًا لمصائر الشعوب.

وضمن الخطاب العملى أيضًا يأتى الخطاب شبه الدينى الذى يعبئ الجماهير ضد اليهود باعتبار أن الشر متأصل فيهم وراثيًا إلى يوم الدين.

ويورد المؤلف إلى جانب الخطاب العملى بأنواعه خطابًا تفسيريًا وهو الآخر يشتمل على أنواع متعددة، منها ما هو نفسى، أى يدور داخل الذات الفلسطينية والإسرائيلية، ومنها الخطاب النصوصى الذى يفسر سلوك اليهود فى ضوء ما جاء فى العهد القديم وكتب اليهود المقدسة، ومنها الخطاب الموضوعى المتلقى، وهو يراكم المعلومات والأفكار والتصريحات الصادرة عن اليهود دون تمييز لمقدرتها التفسيرية ومركزيتها وأهميتها ذات الصلة بالصراع.

ويعتمد الخطاب التفسيرى على فكرة النموذج، لكن هذا النموذج قد يكون اختزاليًا يرد الظاهرة برمتها إلى عامل وحيد وهو ما يرفضه المؤلف، ويقترح بديلاً عنه النماذج المعرفية الإدراكية والتحليلية، وهذا النموذج المركب هو نموذج منفتح تعددى يحوى عناصر متعددة، وبواسطته يدرس المؤلف الظاهرة الصهيونية كنموذج تطبيقى عبر فصول الكتاب الثمانية.

□ □ □

أمكنة
علاء خالد، مهاب نصر، سلوى رشاد
الإسكندرية: ٢٦٠ صفحة



يأتي الإصدار الرابع من هذه الدورية ليؤكد قدرة المبادرة الفردية على إنجاز عمل ثقافي يتجاوز بهما قدرة المؤسسات بما لها من طاقات تمويلية وقدرات تنظيمية هائلة على إبداع مماثل.

«أمكنة» كتاب غير دوري يحرره ويصوره ويموله مجموعة من الشباب، وهو يصدر عن مدينة الإسكندرية - وهذه ميزة إضافية - في وقت تستأثر فيه القاهرة بالإصدارات الثقافية وغيرها، بما يعكس حالة من المركزية الشديدة لا تفلت منها - ربما - عاصمة عربية..

خصص القائمون على أمكنة هذا العدد لـ«الفلاح»، لم يشأ المحررون أن يقولوا لـ«القرية»، وهو ما يعكس الامتزاج بين الاثنين إلى حد التماهي، فما جري للفلاح المصري الذي تغرّب وسافر إلى العراق ودول الخليج وليبيا بحثًا عن

عـــــــروض مــــوجـــــزة

الرزق، انعكس بالضرورة علي القرية.

لم يعد الفلاح هو الفلاح ولم تعد القرية هي القرية، ما يكتبه علاء خالد الذي جال في قريتي شبراويش والسلامية في الدلتا، وفي قرى الأسدية وعزبة أبوحرجة والعسيرات في الصعيد، والحوارات التي أجراها مع ناسها، تعيد اكتشاف القرية وترسم ملامحها «الحداثية» وطموحات فقرائها، بعيدًا عن الصورة النمطية التي قدمتها السينما للفلاح، والذي تحفظ الذاكرة كثيرًا من تفاصيلها، والتي في معظمها بريئة ساذجة لثيمة عفية متهاودة في آن معًا، هل ما زال «محمد أبوسويلم» - بطل فيلم «الأرض» الذي لعبه محمود المليجي باقتدار - ماثلاً في الأذهان؟ أظن أنه لا.

غابت الدهشة، وتراكمت خبرات معرفية وإنسانية جديدة، وتجاوزت الأماني ملء بطون ناس المدينة إلي محاكاة عيشتهم، ما كتبه عادل عصمت عن قريته التي «طغت فيها البيوت الجديدة علي المكان وشغلت مساحات كانت في صبانا جزءًا من الغيطان»، وما كتبه أسامة الديناصوري عن قريته «محلة مالك» القريبة من مركز دسوق يؤكد هذا المعني.

العدد يتضمن ترجمات لمستشرقين كتبوا عن الريف المصري وفلاحيه، ودراسة عن الريف والمدينة في أدب يوسف إدريس وإبراهيم أصلان، ودراسة للصحافية البريطانية نرمين نزار عن فلاحي فلسطين، ودراسة أخري عن الفلاح في لوحات ثلاثة من الفنانين التشكيليين المصريين هم: راغب عياد وإنجي أفلاطون وصبري منصور، ومقالات عديدة تصب في المجرى ذاته، والهدف كما يقول المحرر في الافتتاحية: أن نحمي هذا الكيان الشفيف من النسيان والتجاهل.

□ □ □

عشاق بينة

الحبيب السالمي

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢، ٢٣٠ صفحة



رواية يحكيها أربعة من العجائز، الطيب والبرني والمكي ومحمود الصبايحي، أصدقاء عمر تنتهي بهم رحلة الحياة عند زيتونة الكلب. يقضون في ظلها يومهم كله، لا يتخلفون عن اللقاء مهما جرى، اثنان منهم يحبان المرأة ذاتها التي تبدو لهما مثل حلم بعيد المنال لا تقوى عليه أجسادهم التي ضمرت وأرواحهم الشائخة، لكن بيّة الهجّالة التي أشعلت صبا وصبابة البرني حين رآها «تتعرى في مكان مقفر تحت شمس حارقة»، تتزوج من ابن صديق عمره المكي، الشاب الذي عاش في بلاد الألمان وجمع الفلوس وعاشر الروميات، ثم عاد ليصحب معه «بيّه»، ولتكتشف هناك في بلاد الغربة، أن زوجها لص، وأنه ينفق عليها من مال حرام، وأن الفلوس التي وعد بإرسالها إلى أبيه كي يحج - وهو حدث لم يجرّبه أحد في كل «دواوير العلا» - هي من حصيلة سرقات، حكت لهم «بيّه» ذلك كله في خطابات، قالت لهم أيضًا أنها صارت تكرهه لأنها تكره السرقة.. «التي هي كما تعلمون حرام في حرام»، ورد هو عليها بكراهية مماثلة وضرب.. «يفعل ذلك بعنف شديد كأنه ينتقم من شيء ما».

شغلت مشكلة بيّة وابن المكي بالهم، هم الذين اكتفوا من الدنيا بالصمت ومراقبة الأموات يساقون في نعوشهم إلى الجبانات حيث يواريهم التراب، في انتظار يومهم الذي نبأت به عظامهم التي تئن في كل موضع، تلاحقهم الهواجس، هواجس الموت الذي صار قريبًا منهم إلى حد مجادلته ورؤيته بعين الحقيقة، وكان محمود الصبايحي هو أول من فارقهم.

إنها حكايات العجائز، عالمهم الصغير، الممتد في عمق الزمن، سنوات بعيدة مرت ربما يذكرون تفاصيلها ويضحكون أو يتأوهون، ويأسون على صبا ولّى وشباب آل إلى شيخوخة مُذلّة.

□ □ □

المخ البشرى

كرستين تميل

ترجمة: عاطف أحمد

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٢، ٢٣٥صفحة



كيف يعمل المخ، وما علاقته بالسلوك البشرى؟

في الماضى كان جزء كبير من الظواهر النفسية والعقلية يرد إلي الخرافات وأعمال السحرة، جري ذلك في كل الحضارات، فلما ظهرت الفلسفة اليونانية وتطورت مباحثها، شرعت في تفسير عديد من هذه الظواهر، ومع التقدم العلمي والإنساني والمجالات الجديدة التي خاض فيها الفكر الإنساني، صار للعقل الكلمة العليا.

المؤلفة وهي متخصصة في «السيكولوجيا العصبية للعمليات المعرفية»، تبدأ بفصل تمهيدى عن خلايا المخ وتركيبه، تنتهي فيه إلي أن الاختلال في «الموصلات العصبية» يمكن أن يقود بدوره إلي خلل في التفكير وفي السلوك، وهي في سبيلها لتوضيح فكرتها وتقدم عددًا من الرسوم التوضيحية كي تعرف تحديدًا: أي الأجزاء في المخ يعمل ماذا؟ وهي تشير في تقديمها للفصل الثاني إلي أن أقدم سجل مكتوب يشير إلى ارتباط عمليات التفكير بمواضع محددة في المخ اكتشف في الأقصر ويعود تاريخه إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد.

وهكذا مثلاً، فإن الشعور بالجوع تختص به منطقة في المخ تسمي تحت المهاد، والتعرف على ما هو صالح للأكل يختص به الجسم اللوزي، والفصوص القفوية تشترك في العمليات الخاصة بالإبصار، وتميز الفصوص الجدارية بين الأنواع المختلفة من الطعام، وتساعد الفصوص الصدغية في عمليات التنصت وتذكر النكت والحكايات، وحين تتحدث عن الجسم الجاسئ تنبه إلى حقيقة علمية غاية في الطرافة، هي أن كل نصف مخي بوسعه أن يتخذ قرارًا مستقلاً عن الآخر في الوقت نفسه، أما اللغة فإنتاجها تختص به المواقع الأمامية في المخ، فيما تتولى المواقع الخلفية عمليات فهم وإدراك اللغة.

أما الزهايمر، فيحدث حين تتلف أجزاء في المخ الأوسط، وكذلك أجزاء في المنطقة الصدغية من القشرة الدماغية، أما مرض الانفعالات العصبية والفصام وأنواع أخرى من الأمراض النفسية، فإن الفصوص الأمامية وجذع المخ والنخاع الشوكي ومكونات المخ الوسيط إجمالاً، ذات صلة بحالاتهم المرضية.

هكذا يمكن أن يفسر تحليل المخ السيكولوجيا والسلوك.

□ □ □

خدعة التكنولوجيا

جاك إلول

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢، ٤٨٥صفحة



على مدار ربع قرن شهد العالم تحولات كاملة أثرت على كافة الأنشطة المجتمعية، وتضافرت لإحداث هذه التحولات أربعة عناصر مسيطرة هى علوم الحاسب والهندسة الوراثية وعلوم الفضاء والليزر، ولم يعد بالإمكان تجاهل المنظومات المتكاملة من العلاقات وطرق العيش التى تفرضها التقنية الناجمة عن تكنولوجيا الحاسب الآلى مثلاً، ولا سبيل حتى أمام رافضيها سوى التكيف معها والاستفادة منها، وهكذا يصبح الإنسان أمام تحدى التكيف نفسيًا وفكريًا واجتماعيًا مع الحاسب، والتكيف أخلاقيًا مع الهندسة الوراثية ونتائجها، بعبارة أخرى فإن الإنسان مطالب بالإجابة عن تساؤلات من نوع: ماهية إطالة العمر، وجدوى «تخليق» الإنسان السوبر، والعلاقة بين الذكاء الطبيعى والذكاء الصناعى، وما ستئول إليه الأيديولوجيات السياسية والدينية فى ضوء احتكاكها بالواقع التقنى الضاغط بقوة، وأين الحدود بين ما نستطيع أن نقرره وما لا نستطيع أن نرفضه فى العلاقة مع هذه التقنيات، ثم ما هو شكل العلاقة بين الشمال والجنوب، وهى علاقة تنحى فيها السياسى لصالح التقنى بصورة أكبر كثيرًا من ذى قبل، فالعالم يعيش مفارقة غير مسبوقة، إذ هو عالم واحد بفعل الاقتصاديات المتكاملة وثورة الاتصالات وتلاشى الفروقات الأيديولوجية، لكنه منقسم إلى عوالم بعضها مفرط فى التقدم وأكثرها لا يعى شيئًا مما يحدث على الشاطئ الآخر. كثيرون يطرحون فكرة سيادة القانون على التقنية، ويعنون هنا القانون الدولى فى صورة مؤسسات ومعاهدات دولية ومواثيق تحدد المسئولية، لكن الواقع السياسى يرد بما يخيب آمالهم على الأقل فى اللحظات الراهنة.

والفكرة الأساسية التى يبنى عليها المؤلف استنتاجاته عن الخدعة التكنولوجية تتصل بالتناقض بين المجتمع التقنى والنظام التقنى، فالمجتمع يحمل بين طياته مجموعات متكاملة من الأيدلوجيات والأساطير والتقاليد والعادات، وهو بهذا المعنى يبقى خارج النظام التقنى مهما بدت التقنية متغلغلة وأساسية فى مرافق حياته، الناس تعود إلى ماضيها وجذورها كى تكتسب ملامحها، فيما التقنية والتكنولوجيا ترنو دومًا للمستقبل، وعبقرية التقنية هى إنتاج أشكال من الآلات أكثر ألفة وطمأنينة، وهنا بالضبط يكمن الخداع التكنولوجى.

المؤلف يبرز الدور المتصاعد «للتقنيين» فى عالم تقوم القوة فيه على المعرفة، ويسميهم الأرستقراطيين الجدد، وهؤلاء لا يعطون للقانون ولا للدولة بحدودها التقليدية أهميتها المفترضة، هؤلاء هم حكام العالم الجدد وصانعو قراراته ومستشارو رؤساء دوله العظمى.

عشرون فصلاً عن عدم اليقين الذى بشرت به التقنية وعن خطابها وخبراتها وانتصار العبث والإلهاء اللذين سيطرا على قطاع كبير من المنتج التكنولوجى، كما يتضمن الكتاب مناقشات جادة لعدة كتب صدرت فى الإطار ذاته.

□ □ □

عـــروض موجـــزة

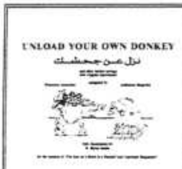
كتـب أجنبية

The Threatening Storm.. The Case For Invading Iraq

(العاصفة المتوعدة.. حجة غزو العراق)

Kenneth M. Pollack

Random Nause, 2002, 494PP., $25.95



يقدم كينث بولاك مؤلف الكتاب، والذى عمل محللاً فى المخابرات المركزية الأمريكية، ثم مدير شئون الخليج فى مجلس الأمن القومى الأمريكى، ما يعتبره حججًا قوية لتبرير غزو العراق. وهو يجادل بان إرسال حوالى ٢٠٠ ألف جندى أمريكى لغزو العراق ليس أمرًا مرغوبًا فيه، لكن الغزو، حسب رأيه، هو أقل الخيارات ضررًا. إن الغزو هو الخيار الوحيد، كما يقول بولاك، لإنهاء موقف خطير. ويتصاعد خطره مادام ظل صدام حسين فى السلطة.

ويشير المؤلف إلى أن سياسة الاحتواء التى أعقبت حرب الخليج ١٩٩١ وتعتمد على فرض عقوبات اقتصادية واستمرار التواجد العسكرى الأمريكى فى الخليج ومواصلة فريق التفتيش الدولى عمله، تآكلت بسرعة.

إن التواجد الأمريكى الحالى فى الخليج يثير استياء المواطنين، كما أن العنصر الأهم فى سياسة الاحتواء وهو فريق التفتيش على أسلحة الدمار العراقية توقف عن العمل عام ١٩٩٨، وفى نظر المؤلف فإنه لن يكون فعالاً لو تمت إعادته للعمل مرة أخرى.

ما العمل؟ يستعرض بولاك كل الخيارات من فعل لاشىء إلى عمل عسكرى يعتمد على المعارضة العراقية ومدعوم بضربات جوية على غرار ما جرى فى أفغانستان ضد نظام طالبان. ويتناول مميزات وعيوب كل خيار، ثم يخلص إلى أن العمل الوحيد العملى أمام الولايات المتحدة هو القيام بغزو شامل للعراق لتحطيم القوات المسلحة العراقية وإسقاط نظام صدام حسين والتخلص من أسلحة الدمار الشامل.

ويعدد بولاك المزايا التى ستنجم عن التخلص من صدام حسين وأهمها قيام نظام ديمقراطى على النمط الغربى. لكنه رغم كل تلك الحجج لا يركز على سؤال أساسى وهو.. هل يمثل العراق بالفعل تهديدًا خطيرًا للولايات المتحدة والعالم الحر كما يقول بولاك؟ بمعنى هل بقي لدى صدام أسلحة دمار شامل بعد كل عمليات التفتيش التى تمت وبعد أن أكد خبراء فى فريق التفتيش أن ما لا يقل عن ٩٥٪ من ترسانة أسلحة الدمار العراقية جرى التخلص منها؟

ثم إن بولاك لا يعير المعايير والمواثيق الدولية الكثير من الاهتمام، فالقضية واضحة أمامه وهى أن على أمريكا أن تغزو العراق وتتخلص من صدام حتى لو أدى ذلك إلى إثارة استياء الرأى العام العالمى والأوروبى بشكل خاص، ومسألة احترام واشنطن لسيادة الدول أو دور الأمم المتحدة ومجلس الأمن أمر غير ذى جدوى فى نظر المؤلف. لقد أعطى بولاك رأيه المؤيد بشدة لغزو العراق دون أن يتساءل عن عواقب ذلك على الشرق الأوسط والعالم.

□ □ □

Ramesses The Great

(رمسيس العظيم)

T.G.H James

Cairo: Auc press, 2002, 304PP., $59.50



إذا أمكن للمرء أن يختزل الحضارة الفرعونية فى مصر القديمة فى شخص واحد، وهو أمر صعب للغاية بالنظر إلى مدى ثراء وتنوع وطول فترة هذه الحضارة، فإن الاسم الذى يأتى إلى الذهن للوهلة الأولى هو رمسيس الثانى، وهو اسم ورمز وصورة وتمثال يجده الزائر الأجنبى فى كل مكان يزوره، ففى القاهرة هناك التمثال الضخم فى محطة رمسيس الرئيسية فى هذه المدينة. وهو هناك فى المعابد العظيمة فى أبو سمبل.

وقد تولى رمسيس الثانى حكم مصر لمدة ٦٧ عامًا فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد فى ذروة قوة مصر وتأثيرها وترك هذا الفرعون وراءه واحدة من أفضل المجموعات الأثرية التى خلفها فرعون مصرى سواء كانت مبانى أو تماثيل أو معابد منتشرة فى أنحاء مصر وحتى فى السودان فقد كان مشغولا بتخليد نفسه وأعماله.

وهذا الكتاب الذى ألفه تى جى إتش جيمس مسئول قسم المصريات فى المتحف البريطانى فى الفترة من ١٩٧٤ حتى ١٩٨٨، يعيد فرعون مصر رمسيس الثانى وأعماله إلى الحياة بأزهى صورة كما لم يحدث من قبل من جانب أى متخصص آخر فى علم المصريات، فمن خلال ٥٠٠ صورة ملونة للمعابد والمقابر والتماثيل والمبانى يمكن للقارئ أن يرى بعينيه صورة من قريب لعصر هذا الفرعون وأعماله بالإضافة إلى المادة الثرية التى كتبها جيمس. ويتحدث المؤلف عن رمسيس الثانى كشخص وملك واصفًا الظروف التى أحاطت بتوليه العرش وأجواء عصره والسياسات المتبعة آنذاك وصراعه مع الحيثيين ومعركة قادش.

إن رمسيس الثانى كان ولاشك أحد البنائين العظام فى تاريخ مصر الطويل لكنه أيضًا كان سباقًا لعصره فى الدعاية لنفسه وصنع صورة لنفسه تتجاوز الواقع إلى حد واضح. أيضًا فى الكتاب تفاصيل عن زوجات رمسيس الثانى وأطفاله والمسئولين الذين عملوا معه، وكذلك عن أحوال الشعب المصرى فى تلك الفترة كما يتناول الكتاب ماذا بقى من رمسيس الثانى.

وقد وصف عديد من النقاد والكتاب بأنه غير عادى وهو واحد من أهم الكتب التى تناولت عصر رمسيس الثانى.

□ □ □

The British Museum.. A history

(تاريخ المتحف البريطانى)

David M Wilson

London. British Museum,2002, 416PP., £ 29.99

بمناسبة الاحتفال بالذكرى الـ ٢٥٠ على إنشائه والتى توافق العام المقبل صدر هذا الكتاب ليتناول سيرة واحد من أقدم وأعظم المتاحف على الإطلاق فى العالم وهو المتحف البريطانى الشهير فى لندن. لكن صدور الكتاب توافق مع أزمة مالية شديدة يمر بها المتحف حيث بلغ العجز فى ميزانيته ٦ ملايين جنيه استرلينى. وهناك محاولات متعددة لاستكشاف سبل الخروج من هذه الأزمة.

ومؤلف الكتاب مدير سابق للمتحف الذى تأسس بمقتضى قانون من البرلمان البريطانى عام ١٧٥٣ بناء على وصية من السير هانز سلوين الفيزيائى الذى كان يمتلك أكبر مجموعة مقتنيات عالمية لدى شخص واحد وأراد أن يتم إنشاء متحف لجمع تلك المقتنيات وتتم المحافظة عليها. وتضمن قانون إنشاء المتحف أن يتولى شئونه هيئة أوصياء وأن تتم تغطية كل التكاليف سواء شراء مقتنيات جديدة أو إدارة مكتبة المتحف أو المبانى من خلال أموال اليانصيب أى أن الحكومة البريطانية لم تدفع مليمًا واحدًا. وظل الأمر على هذا المنوال حتى عام ١٧٦٢ وحتى عندما بدأت الحكومة تمد يد المساعدة للمتحف فإنها كانت تقدم منحًا غير كافية وكان لابد أن يصوت عليها البرلمان.

ورويدًا رويدًا زادت مقتنيات المتحف وترافق ذلك مع التوسع الهائل فى الإمبراطورية البريطانية حيث تم جلب الآثار عنوة فى أحيان كثيرة من المستعمرات ولذلك فإن المتحف أصبح يضم واحدة من أكبر المجموعات الأثرية الفرعونية خارج مصر وهناك أيضًا آثار بابلية ويونانية وغيرها مما يفتخر به البريطانيون حاليًا والتى أصبحت بحكم التاريخ ومرور سنوات طوال مملوكة قانونيًا للمتحف لا يمكن إعادتها إلى دولها الأصلية.

ويركز المؤلف بشكل رئيسى على تكوينات المتحف والمبانى التى يتألف منها والأشخاص الذين عملوا فيه.

ويشير المؤلف إلى أن المتحف كان نتاج أفكار شخص طمح إلى العالمية ورغم جمال العديد من المقتنيات فى المتحف إلا أن القائمين عليه لم يركزوا فقط على الفن بل كان التاريخ ركنًا أساسيًا فى اهتمامات المتحف الذى أصبح بمثابة جامعة تجرى فيها الأبحاث وتصدر عنها الدراسات المعتمدة.

وعلاوة على ذلك، فقد أصبح المتحف ثروة لا غنى عنها للحركة السياحية فى بريطانيا حيث يتدفق الملايين سنوياً من خارج البلاد لزيارة المتحف والوقوف عند آثاره ومقتنياته وفى مقدمتها المجموعة المصرية.

وقد تعرضت مقتنيات المتحف كثيرًا للسرقة والضياع وإساءة الاستخدام وتهدمت مبانيه من جراء الحرب العالمية الثانية. إن التجربة المفيدة التى تختزل الأعوام المائتين والخمسين للمتحف البريطانى هى أن تمويله جاء من الشعب وليس من الحكومة، أى أنه أصبح هيئة شعبية وبالتالى تخلص من أعباء البيروقراطية ليتطلع إلى آفاق أرحب من البحث والإبداع، وإذا كانت الإمبراطورية البريطانية قد غربت عنها الشمس فإن التأثير الحقيقى لبريطانيا فى عالم اليوم يتمثل فى تلك المجموعة من المؤسسات التى نجحت فى الحفاظ على المبادئ التى قامت من أجلها ولم تخضع لمقتضيات العصر مثل هيئة الإذاعة البريطانية والمكتبة البريطانية وبالتأكيد المتحف البريطانى.

□ □ □

رسائل

●● ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها ●●

رأى

تناولت «وجهات نظر» فى مقالات عديدة تأثير أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على العالم العربى وفى هذا الصدد أود أن أبدى بعض الملاحظات:

يدخل العالم الألفية الثالثة وينظر إلى العالم العربى باستغراب واستهجان وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.. فإلى جانب اتهامه بالإرهاب يبدو العالم العربى كما لو كان متسمرًا عند الألفية الأولى فى طريقة تفكيره بمصالحه. وبرغم حصوله على كل الكماليات المادية للعالم الغربى مع التفاوت ما بين الأقطار العربية تبقى الظاهرة الأكثر وضوحًا ألا وهى الافتقار إلى البنية التحتية الملائمة للتطور، وهى الافتقار إلى الأساسيات التى يرتكز عليها العالم الغربى فى أنظمته وفى تطور ديمقراطيته التى ضمنت الحقوق الأساسية لكل إنسان من ضمان اجتماعى وصحى وتساوى فرص التعليم.. وسيادة القانون والعدالة والمساواة فيه القائمة على احترام الكرامة الإنسانية للجميع وتمثل بمجموعها أساسيات التطور الغربى بدلاً من المحسوبية والفساد والقفز على القانون وهى الظاهرة الغالبة فى العالم العربى.

كيف نستطيع إحداث نقلة نوعية فى التفكير العربى لإحداث التغيير المطلوب لتغيير الصورة القائمة التى رسمها لنا هذا الغرب، والتى ساهمنا فيها بدون أن نعى خطورة وعواقب ما ساهمنا فيه.

● عدم الانسياق وراء العواطف والشعارات الرنانة التى تؤدى إلى مزيد من الحواجز والكراهية بيننا وبين العالم الذى نعيش فيه.

● الإقرار باستحالة الثورة أو الانقلابات كما كان يحدث فى السابق.. نظرًا لاختلاف الظروف ومدى سيطرة وسلطة الأنظمة الموجودة التى تصل إلى كل مكان.. ومنعًا لأى بعثرة أو تخريب للممتلكات الوطنية والتى هى الثروة الوحيدة للإنسان العربى وهى أيضًا تتفاوت بين قطر وآخر.

● إحداث تغيير جذرى فى الثقافة العربية التى استنفدت طيلة سنوات طويلة وعقيمة على السمع والطاعة والصبر.. وتوقفت عند التاريخ الموروث الذى حمل الكثير من الفكر القمعى.. الذى رضيناه بدون مناقشته أو فتح حوار صادق فيما إذا كان هذا الفكر الموروث يتناسب مع الظروف الحالية والعصرية ويتناسب مع مصالحنا.

● أن نكون صادقين مع أنفسنا.. هل حقًا نريد هذا التغيير أم نريد البقاء فى نفس الصورة التاريخية التى تستهوينا والتى أطبقت على عقولنا؟ هل نريد حقًا عصرنة الفكر العربى؟ الإجابة عن هذا السؤال هى أول الطريق.. على أن يتلوها عدة خطوات تتكافل مع بعضها البعض تبعًا لمسئولية كل طرف ودوره ومدى المسئولية التى يتحملها فيما وصل إليه الحال العربى.. فمثلاً...

- دور رجال الدين فى المساعدة لإحداث نقلة نوعية فى تفكير الإنسان العربى.. لما يتحملونه من مسئولية بعد كل هذه السنين من الخطب النارية التى تشعل الأحاسيس وتلغى دور العقل.. تغيير الخطاب التقليدى الذى قادنا إلى الكثير من التعصب والانغلاق ورفض الحضارات الأخرى لاستنادها إلى العلمانية على اعتبار أن العالم كله مصيره أن يتحول إلى القيم الإسلامية.. وتأكيد روح الدين التى اعترفت ببقية الأديان الأخرى وحرية العقيدة والداعية إلى المساواة بيننا كبشر وحقنا جميعًا فى الحياة بأمن مع أنفسنا ومع من حولنا والمساواة ما بين مسئوليتنا عن أمننا وأمن المجتمع الدولى.. واستعمال اللغة الإنسانية التى تنادى بالتسامح والرحمة بدل لغة شحن العواطف للقتال والعدوانية. والتعاون مع أشقائنا المسيحيين ليكونوا جسر السلام بيننا وبين العالم الغربى مؤكدين مساواتنا مع الأقليات التى تعيش بيننا واحترامنا لهم ولحقوقهم ومساواتهم فى المواطنة بدون تقييد ولا تمييز.

- مسئولية الأنظمة فى إعادة حساباتها لخلق شىء من التوازن ما بين مصلحتها ومصلحة شعوبها وحقهم فى ثرواتهم القومية، فليس من أصول الديانات تميزهم الكبير فى الثروة فى ذات الوقت الذى يرزح فيه المواطن تحت أعباء الحياة الكثيرة مع محدودية فرصه فيها.. والتأكيد بأن مصالحهم الآن ترتبط بمدى تقدمهم فى خطوات سريعة نحو التعددية والديمقراطية والشفافية.. وأن الإنسان العربى عاجلاً أم آجلاً سينقلب على فكرة الوراثة وتزييف الانتخابات.

- تطوير التعليم والخروج به من التلقين إلى إعمال العقل بالحرية الفكرية.. وأن تركز المناهج التعليمية على القواسم الإنسانية المشتركة.. لتأكيد وتطوير العلاقة ما بين مصلحة الفرد التى تزداد وتستفيد من التطور الإنسانى لمجتمعه.. وأن نتوقف عن استخدام اللغة كوسيلة تحريض وتعميم فكرى وإرهاب عقلى..بل فتح حوار حضارى يستند إلى إنسانيتنا كبشر للخروج من دائرة الحسابات الفردية إلى حساب مصلحة الدولة ثم مصلحة القطر وبعدها المصالح المشتركة للمنطقة العربية ثم مصالحنا مع العالم من حولنا.

- دور المثقفين العرب فى الصدق مع الإنسان العربى بمدى إمكانياته وبمدى ترابط مصالحه مع الأقطار الأخرى ولكن أيضًا بالحدود التى يتوقف عندها هذا الترابط لأولوية المصالح ثم تكاملها.. والخروج الطوعى للبعض من جيل المثقفين القدامى من المعركة الإعلامية للتقليل من حدة الاختلافات ولتجاوز مرحلة المد والجزر ما بين آراء المثقفين الجدد الذين ينتمون إلى عصر العولمة والانترنت وانفتاح أقطار العالم على بعضها البعض مما يزيد من القدرة على الحوار العقلانى القائم على المنطق وليس على موروثات متجمدة، فاختلاف العصر يلزمنا الاعتراف بأن التاريخ سيضحى بعد فترة مجرد قصص تنتمى إلى الرومانسية وكثير من قصصه لا يمكن إثبات حقيقتها علميًا.

دور الإعلام العربى فى نشر ثقافة كونية جديدة للعالم العربى تنتمى إلى العصر تستعمل فيها لغة العقل لما يخدم مصلحة الإنسان العربى فى ظل النظام العالمى الجديد.. والابتعاد عن لغة الخطابة والشعارات وتأجيج الأحاسيس.. فتح حوارات عن العولمة تبتدئ من أسبابها وضرورتها نظرًا للارتباط العالمى وعدم وجود حواجز حدودية ونتائجها ومدى ما قد نستفيد منها وحدود هذه الاستفادة. بصدق سواء كانت هذه النتائج إيجابية أم سلبية وليس بمجرد الصريخ. كل يحاول إثبات أن فكرته هى الأصح.

كل ما سبق والكثير الآخر يجب أن يتم تحليله بصدق ولكن والأهم بشىء من التواضع والابتعاد عن الغرور الذى أصابنا منه الكثير إلى أن اعتقدنا بأن الله الذى حبانا بثروة معينة ميّزنا عن بقية خلقه.. وهو الخطأ الذى وقعنا فيه لأننا كلنا من خلق الله وكلنا أحبابه.

أحلام عميرة أكرم
ناشطة فى حقوق الإنسان - لندن

مقالات عن الدستور

أرجو من مجلتكم القيام بعمل سلسلة مقالات عن الدستور وأقترح التالى:

١- مفهوم الدستور وبدايته التاريخية.

٢- نبذة عن أشهر الدساتير.

٣- نماذج من الدساتير المعاصرة لدولة ملكية وأخرى جمهورية.

٤- التركيز حول مصر وتاريخ الدستور بها والدساتير المختلفة التى صدرت فى مصر.

٥- الإطالة بخصوص الدستور الدائم «١٩٧١» ومناقشة سلبياته وإيجابياته.

٦- ما ترون إضافته لإتمام دراسة الموضوع.

وإننى أطالب بهذه السلسلة من المقالات لإيمانى بأهمية هذا الموضوع واعتبارى إياه نقطة البداية الصحيحة لعمل إصلاح واسع المدى، لذا أعتقد بأهمية عمل مثل هذه السلسلة من المقالات لنشر حد أدنى من الوعى والفهم لهذا الموضوع.

أحمد زهران
مهندس

بعض الحقائق

قرأت «نون» الشعرية للأستاذ رئيس التحرير فى عدد نوفمبر ٢٠٠٢ «الصعود إلى الغابة السوداء» بعبارات حكيمة محفورة على صخرة أختار منها خاتمتها: «فليكن لكل حال ما يناسبها».. كحكمة خالدة تلخص جوهر الأسلوب الأمثل لاستمرار الحياة بالمرونة وبالتفاعل أخذًا وعطاءً واستمرارًا لمسلسل التغريب والاغتراب الذى أوضحه الأستاذ جلال أمين فى مقالته الموجعة عن تقرير التنمية الإنسانية العربية، يسعدنى أن أحاول تسجيل بعض الملاحظات (لعلها بعض الحقائق) من التاريخ ومن الحياة المحيطة بنا.. مستخدمًا أسلوبك الرمزى.. ليس خشية من التصريح ولكنها الرغبة فى حياد التوضيح دون شبهة العمالة أو التجريح.

أذكر منذ حوالى خمسين سنة وفى الصف الأول الثانوى بالمدرسة التوفيقية بشبرا، أننى سمعت لأول مرة من مدرس التاريخ هذه المقولة «إن الظلم لم يكن يومًا سببًا فى قيام الثورات.. ولكن الإحساس بالظلم كان السبب الدائم لقيامها».. وكان يشرح لنا أسباب قيام الثورة الفرنسية.. ولكى يقرب الصورة لأذهاننا حكى لنا نكتة الإمبراطورة الجميلة مارى إنطوانيت عندما تعجبت من طلب المظاهرات الشعبية للخبز متسائلة ولماذا لا يأكلون البسكويت؟! وفى ذلك توضيح للمعنى النسبى المقصود من الإحساس بالظلم عند المقارنة بين طرفى الحياة العليا وغيرها.. وبسبب هذه المقارنة اندلعت الثورة وزأرت الحناجر منادية بالحرية والإخاء والمساواة، ورغم أنها أصبحت قيمًا بدهية اليوم إلا أنها كانت انقلابًا كاملاً فى أسس الفكر الإقطاعى للسادة تجاه العبيد.

لقد كان التغير الأكبر فى تاريخ البشرية ناتجًا عن تغير البيئات بعدما انتهى العصر المطير، وتوقف هطول المطر فى بعض المناطق فجفت بعض المراعى

رسائل الكتاب - وجهات نظر

وتنوعت صور الحياة بين أخضر طرى ويابس جاف. وعرفت الإنسانية «الاقتناء» ووسائل «إكثار القطيع» كمصادر للغذاء باللحم ووسيلة لرعاية الحياة فى الصحراء ومؤشرًا للغنى، كما عرفت الاستقرار عند الماء ووسائل «استزراع الحبوب» كمصادر للغذاء بالخبز ووسيلة لرعاية الحياة فى الريف حيث أصبح امتلاك الأرض المنتجة هو مؤشر الغنى، وبدأ الصراع الأبدى من أجل الحصول على ما فى يد الآخر بين شعوب الرمل وشعوب الطين سواء عند الشح أو حين الطمع!

لقد عاش المصريون آمنين فى جنتهم حول الوادى آلاف السنين فأبدعوا للبشرية قيمها العليا فى الفكر والفن والحياة بفضل عقيدة التوحيد وجائزتها الكبرى الفوز بالحياة الأبدية فى جنة طاعة أوامر الله. ولكن حدث أن توحد رعاة الشرق الحاسدون الطامعون وابتكروا «العربة فوق العجل يجرها الحصان» وانكسر بها أمامهم حاجز زمن العطش ومسافة عبور الصحراء ودهست سنابك الخيل جنة الخير. وكان الانقلاب فى مفهوم معنى الخير والشر بين نسبية المصالح التى يطلبها العطشى الجائعون وبين مطلق المبادئ التى توصل إليها الشبعانون؟ وهكذا انكسرت القلوب الطيبة بشراسة الغزاة ونذالتهم، وانكسرت النفوس السوية بالتقوى بآلام فجور القتل بلا جريرة.

وعرفت البشرية أنه لابد أن يتطهر ثوب السلام الأبيض بدماء الثأر لتحرير الأرض ورد ظلم الغزو. ودخلت البشرية كلها سلسلة متوالية من الصراع الأبدى الدائم بين المثاليين من المؤمنين بالحفاظ على الحياة الدنيا طاهرة خالية من مخالفات العقيدة بأمل تحقيق الخلود فى الحياة الأبدية، ضد غيرهم من الكافرين بهذه العقيدة الذين يدعون إن هى إلا حياة واحدة! وأضاعت الحروب حلم الجنة الأبدية.. حتى يفوز الغاصبون بمتع الحياة الدنيا.

ويسجل تاريخ البشرية مع بداية القرن الحادى والعشرين تبلور انتكاسة كبرى فى مسيرة الحرية الإنسانية وذلك من خلال تجديد النظام الإقطاعى للسادة والعبيد وتعميمه على مستوى الكرة الأرضية كلها، ويستتر القائمون على ذلك بقناع الحرية ومسمى «العولمة».

ويتم ذلك بإنهاء عصر الهوية القومية، وبداية عصر الكيانات الكبرى، التى تتركز حاليًا فى ثلاثة لا غير: أمريكا الشمالية (وتضم الولايات المتحدة وكندا والمكسيك!)، وأوروبا المتحدة، وآسيا الشرقية (وتضم اليابان والصين وكوريا). ويتأكد ذلك من حرص هذه الكيانات على تكريس الوحدة والتكامل فى داخلها، وحرصها على تكريس التقسيم والتجزئة فى الدول الأخرى مثل تفتيت يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتى فى أوروبا، وتفتيت أثيوبيا والمغرب والكونغو وغينيا وجنوب أفريقيا والمحاولة فى السودان وساحل العاج وغيرهما فى أفريقيا. وهو أيضًا ما تم ويتم تكريسه فى آسيا الغربية والجنوبية بنشأة نموذج تيمور الشرقية وغيرها من الكيانات على أسس قبلية أو دينية أو ما فى أرضها من ثروات قيمة ونادرة!

لقد أصبح العالم - اليوم - تجسيدًا عصريًا لفكرة جمهورية أفلاطون حيث يتمتع السادة الأحرار بكل (حقوق المواطنة) التى تكفل لهم سريان إرادتهم التى تنشأ من مناقشة مصالحهم داخل (الفور إم أو مجلس الأمن؟!) على سواهم من العبيد. كما تكفل لهم هذه المواطنة الحق فى حياة الرفاهية القصوى بحيث لا يبقى للعبيد سوى فضلات الموائد، ويحصلون عليها فى مقابل قيامهم بوظائف إمتاع السادة (بالمصارعة الحديثة) أو الحروب الصغيرة الهادفة إلى اختبار كفاءة تطوير الأسلحة الذكية المدمرة، والهادفة أيضًا إلى تطبيق استراتيجية مروض القرود القديمة بذبح القطة وضرب المربوط حتى يخاف الباقى؟ كما يكتسب (العبيد) عادات إشباع رغباتهم فى حياتهم اليومية بتقليد نماذج قيم (السادة) الفردية المنطلقة بلا وازع، واعتبارها بديلاً عن قيم (بالية) كانت تعرف بالطهارة والوفاء والفداء بزعم تعارضها مع الحرية الفردية؟ وبهذه القيم العصرية لمفهوم الحرية تقوم تجارات بيع المتع لمن يرغب من السادة بعد بذل بعض من أوراق عملاته (الصعبة)، وربط رواج هذه التجارات بحسن السير والسلوك والطاعة لرغبات السادة. مع الاستمرار فى القيام بالعمل فى فروع الشركات العملاقة عابرة القارات مالكة حقول الزراعة وأسواقها أو البترول وعملياته أو المناجم وتكنولوجية استخلاص عناصرها أو الصناعات المدمرة للبيئة المنقولة من دول السادة بدعوى إنشاء صناعات وطنية فى بلاد العبيد؟!

لقد أصبحت كلمة الهوية المستقلة فى القاموس الجديد للعولمة تعنى التخلف فى حين أصبح التفريط والإفراط فى الاستهلاك يعنى الحرية ويقاس مدى الالتزام بها بميزان ذى كفة واحدة يتم قراءة لوحته حسب هوى عيون السيد «متولى الحسبة» فى العولمة الجديدة!

ورغم أن المسلسل مستمر.. لكن يبقى حلم المدينة الفاضلة أملاً يشيده الفلاسفة والمفكرون فى خيالهم وليس على الخيال فى الأحلام قيود.. لأن ذلك كله عارض.. والعرض لا يبقى زمانين.. كما قال الأشعرى.

د. حمزة إبراهيم عامر
أستاذ الجيولوجيا التطبيقية

”نـــون“

من أزمـة الصـواريـخ الكوبيـة

إلى أسلحـة الدمار العـراقيـة

■ التاريخ لا يُعيد نفسه بكل ملابساته وتفاصيله وأحداثه، ولكن الإنسان هو الذى لا يتعلم من أخطائه، فيعيد تكرارها على نحو أو آخر. وقبل أقل من نصف قرن، وبالتحديد فى عام ١٩٦١ شهد العالم أزمة مشابهة للأزمة الراهنة التى تدور مشاهدها حول العراق والتى توشك أن تندلع بسببها حرب فى الشرق الأوسط. ولكنها فى ذلك الحين كانت تدور حول كوبا. وكان مسرحها خليج الخنازير بدلاً من الخليج العربى.. كان العالم غير العالم، وتوازن القوى الذى يحكم العالم فى الستينيات فى ظل سباق الرعب النووى والحرب الباردة والتكتلات العسكرية، غير هيمنة القوة الكبرى الوحيدة التى تفرض استراتيجيتها على العالم الآن.. كان النظام الشيوعى الذى أقامه كاسترو فى كوبا يمثل شوكة فى جنب أمريكا التى اتهمته بإيواء قاعدة للصواريخ السوفيتية على الأراضى الكوبية. وكانت المشكلة التى واجهت أمريكا هى كيف ترغم كاسترو على تفكيك هذه الصواريخ ونزعها من قواعدها، دون أن تخاطر بمواجهة مع موسكو قد تؤدى إلى إشعال حرب نووية.

وفى كتاب صدر حديثًا فى أبريل من هذا العام «جهاز من الأسرار» Body of Secrets يكشف مؤلفه جيمس بامفورد عن أسرار هذه الحقبة، وبين يديه ملفات وكالة الأمن القومى الأمريكى السرية.. كانت تمور تحت السطح فى أمريكا حينذاك تيارات محملة بمشاعر الخطر، وكانت شكوك العسكريين تجاه القيادات المدنية التى تولت زمام الحكم فى واشنطن بعد فوز جون ف.كنيدى عميقة الجذور، إلى درجة تصورت معها بعض القيادات العسكرية أن القيادات المدنية تم اختراقها بواسطة الشيوعية الدولية.. خصوصًا أن كنيدى كان يمثل تيارًا ليبراليًا اجتماعيًا داخل الحزب الديمقراطى، وكان ايزنهاور قد عيَّن قبل انتهاء ولايته رئيسًا لهيئة الأركان يعد من أكثر العسكريين انغلاقًا وتعصبًا هو الجنرال ليمان ليمنتزر، الذى كان يؤمن بمبادئ جمعية جون بيرش العنصرية المعادية للسود.. وكان يتمنى فى جلساته الخاصة لو زحفت القوات الأمريكية على شوارع هافانا وأطاحت بكاسترو ومزقت النظام الشيوعى إربًا.

يفصل الكتاب أجواء العداء والتوتر التى سادت أمريكا فى ذلك الوقت، ويثبت نمط التفكير الأمريكى فى مواجهة الظروف العالمية التى ميزت الحرب الباردة، والحجج التى كانت تُساق لتشويه صورة كاسترو والشيوعية، وكأننا نسمع نفس الحجج ونقرأ نفس الادعاءات التى تُساق اليوم ضد صدام حسين وضد الإسلام والمسلمين.. «إن أنصار الشيوعية فى العالم قد عقدوا العزم على تدمير حضارتنا وكل قيمنا.. وبات تراثنا فى الحرية والآمال التى احتضنتها البشرية منذ آلاف السنين فى مهب الريح. ولابد أن نعثر على الرد المناسب لمواجهة هذه الأخطار المميتة.. ليس كحكومات فقط بل كأفراد ومواطنين...».

لم يختلف الرد المناسب الذى طرحته الإدارة الأمريكية بأجهزتها المختلفة قبل نحو خمسين عامًا عما يجرى هذه الأيام.. فقد نشب خلافٌ بين وكالة المخابرات المركزية التى وضعت خطة سرية تقوم على تهريب ما يقرب من ألفين من العملاء الكوبيين المعارضين لكاسترو إلى كوبا، بينما رأى الجنرال ليمنتزر رئيس هيئة الأركان أن الحل يقوم على شن هجوم عسكرى ساحق برًا وبحرًا وجوًا.. وكان التحفظ الوحيد هو أن خطة الهجوم العسكرى الشامل يمكن أن تثير ردود فعل عالمية وتعيد إلى الأذهان قصة الغزو السوفيتى للمجر.. ومن ثم تفتق ذهن هيئة الأركان المشتركة عن خطة سرية لخداع الرأى العام الأمريكى والعالمى، وإيهامه بأن كوبا هى التى شنت الهجوم على أمريكا.. طبقًا لنظرية «هز ذيل الكلب»!

وتحكى الوثائق السرية الأمريكية أن ليمنتزر وهيئة الأركان المشتركة اقترحوا على الرئيس كنيدى تدبير هجوم على القاعدة البحرية الأمريكية فى خليج جوانتنامو واتهام كاسترو بأنه هو الذى قام به. واقتناعًا من الرأى العام الأمريكى المخدوع بأن كاسترو هو المعتدى، فسوف يؤيد الشعب الأمريكى شن حرب ضد كوبا.. وفى النهاية فمن الذى سيصدق تكذيبات كاسترو ونفيه فى مواجهة بيانات البنتاجون ووثائقه وقياداته العسكرية؟

لا يغيب عن البال أن مثل هذه الحرب -لو تمت- كان مقدرًا أن يقع لها من الضحايا عدد لا بأس به من الجنود الأمريكيين، استنادًا إلى نسيج من الأكاذيب الملفقة، ومع تطور الأحداث فى تلك الأيام، أصبحت هذه الخطة هى القمة الظاهرة لجبل ثلج غاطس تحت الماء.. خاصة بعد أن تطورت الخطة واقترح ليمنتزر على كنيدى تشكيل حكومة فى المنفى ووافق كنيدى على تكليف البنتاجون والمخابرات (سى.آى.إيه) بمراجعة الخطط اللازمة لإرسال المعارضين لكاسترو إلى كوبا للاستيلاء على السلطة، بعد أن تنجح القوات الأمريكية فى عملياتها العسكرية.

ولكن وكالة المخابرات المركزية التى كانت تحت رئاسة آلن دالاس فى ذلك الوقت، كان لها رأى آخر. فلم يكن كاسترو مكروهًا من شعبه بل كان ينظر إليه كبطل حرر بلاده من ديكتاتورية «باتستا» الدموية. ومن ثم فقد كانت هناك شكوك قوية فى أن ينضم الشعب الكوبى إلى قوات الاحتلال الأمريكية، أو أن تنجح المخابرات الأمريكية فى تنظيم مقاومة داخلية لساندة الغزو الأمريكى!

بينما كانت الاستعدادات تتقدم على طريق تنفيذ الخطة، رغم الخلافات، ركَّزت وكالة الأمن القومى الأمريكية جهودها على التحركات السوفيتية. ورصدت أجهزة التجسس الأمريكية حركة نشطة لسفن شحن سوفيتية فى ميناء هافانا. ودون دخول فى تفاصيل كثيرة، فقد منيت المحاولة الأولى لإنزال قوات غزو أمريكية فى خليج الخنازير فى ١٧ أبريل ١٩٦١ بالفشل.

ولكن فشل عملية الغزو التى دبرتها المخابرات المركزية، لم يصرف نظر حكومة كنيدى عن كوبا. وقرر كنيدى أن يحول مسئولية حل المشكلة الكوبية من المخابرات إلى البنتاجون. وكانت تلك هى الفرصة الذهبية لكى يشد العسكريون عضلاتهم ويثبتوا كفاءتهم بعد الفشل الذريع للمخابرات المركزية.

ولأسباب تبدو كامنة فى صلب المجتمع الأمريكى، فإن اليمين الأمريكى المحافظ دائمًا ما يجد له حلفاء فى المؤسسات الأمريكية الأخرى.. ويشير الكتاب إلى تقرير قدمته لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ وحذرت فيه آنذاك من سيطرة جناح يمينى متطرف على قيادات الجيش، وألمحت إلى خطورة وقوع محاولة من العسكريين لتغيير سياسة الحكومة كما حدث فى الانقلاب الذى قاده بعض غلاة المتطرفين من الجيش الفرنسى فى الجزائر.

ويبدو أن هذه المخاوف كان لها ما يبررها. إذ تكشف الوثائق السرية التى أذيعت أن هيئة الأركان المشتركة وضعت وأقرت خطة من أغرب وأقذر ما يمكن أن يخطر على البال لخداع الرأى العام الأمريكى.. تقوم على شن «حرب ضد الإرهاب» فى داخل أمريكا نفسها.. وأطلق على هذه الخطة اسم «عملية نورثوود». يجرى خلالها إطلاق النار على بعض المواطنين الأبرياء فى الشوارع الأمريكية، وارتكاب أعمال عنف فى واشنطن وميامى وغيرها، وإغراق عدد من الزوارق التى تحمل لاجئين هاربين من كوبا، واختطاف طائرات، واستخدامها كأدلة لإدانة كاسترو باعتباره مسئولاً عن تدبير هذه العمليات الإرهابية.

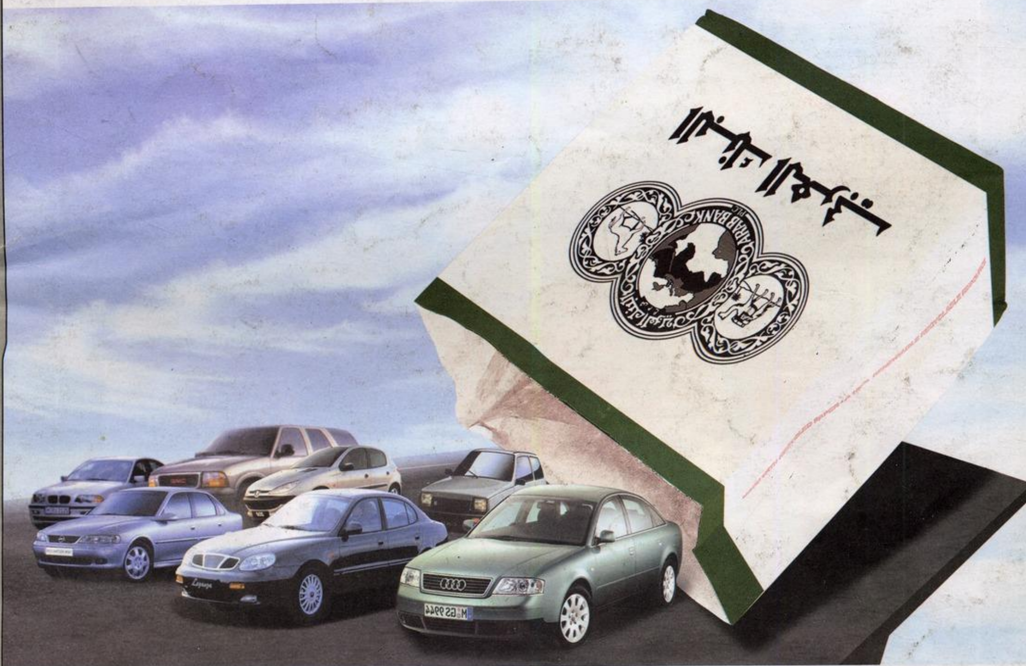
ولسبب أو لآخر لم يتحمس كنيدى لأى من هذه الخطط، التى ظلت وثائقها محفوظة وغير مسموح بالكشف عنها لمدة أربعين سنة.. ولم يتوقف ليمنتزر عن تفريخ خططه الشيطانية إلا بعد أن أُبعد من منصب رئيس الأركان إلى قيادة حلف الأطلنطى.

ومن الواضح أن أزمة كوبا مثلت فى تاريخ أمريكا نموذجًا بالغ الدلالة فى أسلوب مواجهة الصراعات الدولية. فقد استشهد بها الرئيس بوش أخيرًا، كدليل على أن الضربة الإجهاضية هى العلاج الوحيد لمواجهة عدو يصوب إليك بندقيته. وادعى أن هذا ما فعله الرئيس كنيدى حين اكتشفت طائرات التجسس الأمريكية قواعد للصواريخ السوفيتية يجرى تشييدها فى كوبا، ولكن السناتور ادوارد كنيدى شقيق الرئيس الراحل رأى فى الأزمة الكوبية ما يؤكد أن «القوة لا تعنى الحق»، وأن أمريكا لو تصرفت تصرفًا فرديًا مدفوعًا بمشاعر الغضب فى هذه الأزمة لفجرت حربًا عالمية. ولهذا السبب اختار الرئيس كنيدى من بين ثلاثة خيارات قدمها إليه مستشاروه حلاً وسطًا: إما قصف كوبا جوًا واحتلالها، أو فرض حصار بحرى عليها، أو اللجوء إلى الأمم المتحدة. وكان الحصار البحرى هو الذى أنهى الأزمة مع خروشوف.

ما نريد أن نخلص إليه من كشف أسرار هذه الحقبة الحافلة، وما ترويه وثائقها، هو أن مواقع المسئولية الرئيسية حتى فى أكبر دول العالم لا تخلو من أفاقين وأشرار يمكن أن يقودوا العالم إلى كارثة.. وأن أساليب التمويه والتغطية وخداع الرأى العام لحمله على دفع تكاليف الحروب والمغامرات العسكرية، ليست جديدة، بل ازدادت تعقيدًا وبراعة وغموضًا، حتى لتستعصى على أبرع أجهزة المخابرات العالمية المنافسة.

سـلامة أحمـد سـلامة

مفهوم جديد لتسوق سيارتك



الآن يمكنك الحصول على قرض سيارتك بمميزات عديدة...

- أقل سعر فائدة
- أعلى نسبة تمويل
- أعلى حد أقصى للقرض
- سهولة وسرعة الإجراءات
- بوليصة تأمين مجانية على الحياة
- أسعار متميزة على تأمين السيارات
- قروض للمصريين والأجانب المقيمين

لمزيد من المعلومات برجاء الاتصال بتليفون

٣٣١ ٩٩ ٢٢

٧ أيام فى الاسبوع من التاسعة صباحاً و حتى التاسعة مساءاً

البنك العربي

رؤية جديدة

أكبر شبكة مصرفية عربية

Checkmate Adv.